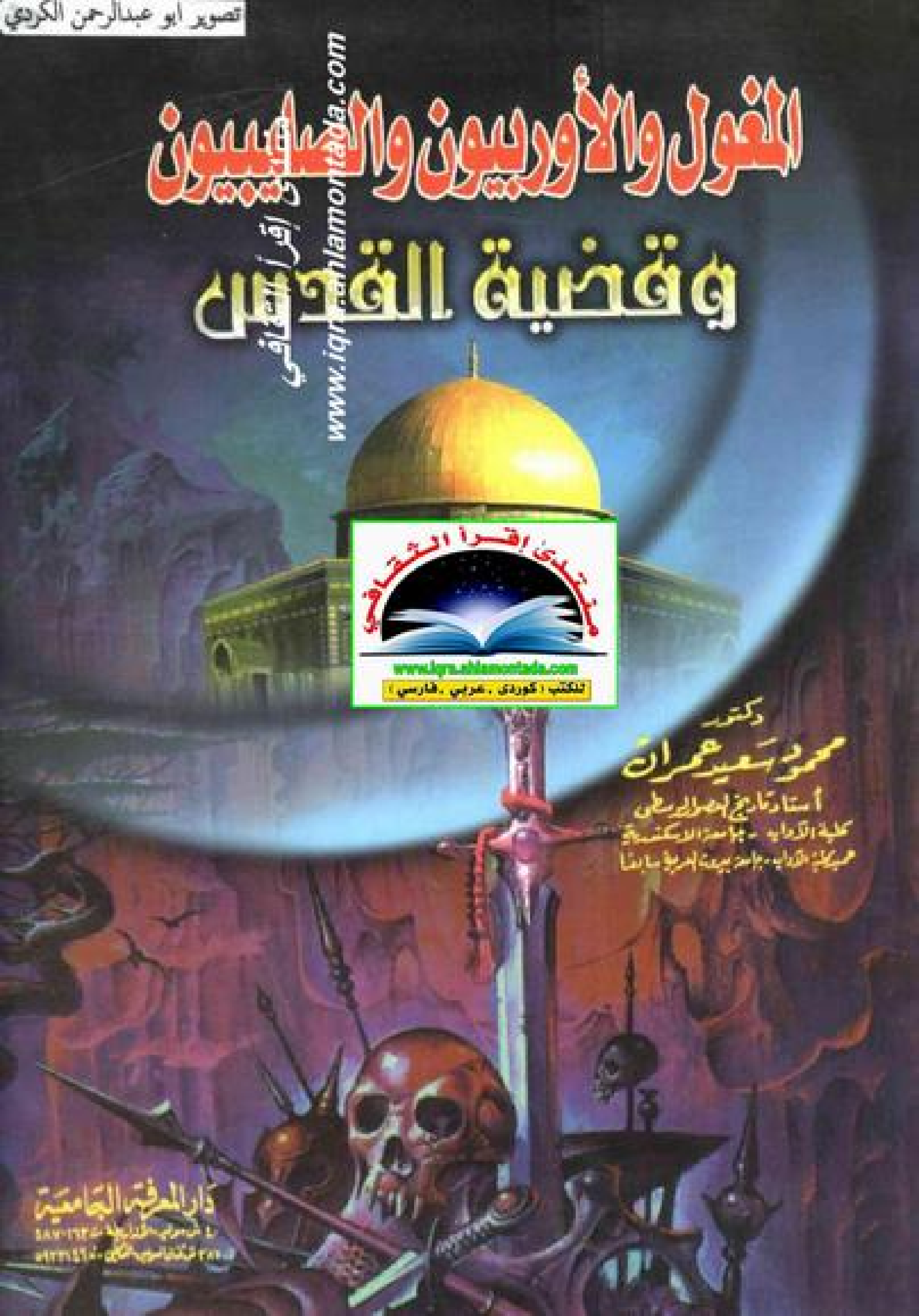

تصوير ابو عبدالرحمن الكردي
المغول والأوربيون والصليبيون
وقضية القدس
www.iqra.ahlamontada.com
منتدى اقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com
للكتب (كوردي ، عربي ، فارسي)
دكتور
محمود سعيد عمران
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية
عميد كلية الآداب - جامعة بيروت العربية سابقا
دار المعرفة الجامعية


منتدى إقراء الثقافي

المغول والأوربيون والصليبيون وقضية القدس

دكتور
محمود سعيد عمران
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية
عميد كلية الآداب - جامعة بيروت العربية سابقا
حائز علي جائزة التميز العلمى لجامعة الإسكندرية
فى العلوم الانسانية لعام ١٩٩٩م

٢٠٠٣

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٧٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبى - ت ٥٩٢٣١٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم



الإهــــداء

إلى شهداء وابطال معركة عين جالوت
والمدافعين عن قضية القدس
اهدى هذا الكتاب

دكتور محمود سعيد عمران



مقدمة

يعتبر تاريخ المغول فى بداية عهده حركة اجتياح لجانب كبير من العالم الإسلامى والاناضول وشرقها وروسيا ودول شرق أوربا حتى وصلت إلى الساحل الشرقى للبحر الادرياتيكى. ولكن هذه الحركة العسكرية توقفت بسبب موت أوكتياى فى عام ١٢٤١م خان المغول الأعظم (١٢٢٧ - ١٢٤١م). وفى الفترة التالية كانت عمليات المغول ضد الخلافة العباسية وبلاد الجزيرة وبلاد الشام حتى كانت معركة عين جالوت عام ١٢٦٠م.

وحتى هذا التاريخ كان فكر حكام المغول يدور حول أنهم سادة وعلى جميع الدول الخضوع لهم سواء سلما أم حربا. وكان لمعركة عين جالوت وهزيمة المغول فيها نتائج ضخمة على العالم أجمع، لعل أهمها تحول الفكر المغولى من أنهم سادة إلى أنهم دولة يمكن هزيمتها. ومن هنا كان التحول الكبير فى الفكر المغولى الإدارى والسياسى.

ومن الفكر الإدارى أن الامبراطورية المغولية قد انقسمت إلى أربع دول هى دولة المغول فى إقليم منغوليا، والثانية دولة تركستان، والثالثة دولة مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية فى جنوب روسيا، والرابعة دول مغول إيران وجنوب العراق وشماله بما فيها مدينة بغداد. وإلى جانب هذا الانقسام السياسى ساد العداء بين دول المغول الأمر الذى أضعف قوتهم.

وإلى جانب ذلك كان هناك تحول كبير فى الفكر المغولى، فقد كانتا دولتا مغوليا وتركستان بعيدتين عن منطقة الشرق الأدنى الإسلامى، كما أن مغول القبيلة الذهبية قد اعتنقول الإسلام ودخلوا فى حروب كثيرة مع مغول

إيران وناصبوهم العداء. وفى الوقت نفسه ساد التقارب والسلام بين دولة المماليك فى مصر والشام وبين مغول القبيلة الذهبية. وأنتهى الأمر بمناصبة مغول إيران حكام المماليك العداء وحاولوا غزو بلاد الشام أكثر من مرة ولكنهم فشلوا.

والتفت المغول حولهم بعد معركة عين جالوت فلم يجدوا غير الإمارات الصليبية فى بلاد الشام والدول الأوربية التى ترعاها وتمدها بالمال والرجال والسلاح من أجل السيطرة على مدينة بيت المقدس. وسبب ذلك أنه كان يسود العالم الغربى والصليبى إبتداء من منتصف القرن الثانى عشر الميلادى أسطورة عرفت بإسم أسطورة الكاهن يوحنا. وموجزها أنه سوف يظهر فى الشرق البعيد أمير غنى وقوى بإمكانه مساعدة الصليبيين ومهاجمة المسلمين من الشرق والسيطرة على مدينة بيت المقدس. وبحث وانتظر الغرب الأوروبى والصليبيون هذه المساعدة ولكنها لم تتحقق. ولكن بوادر هذه الأسطورة بدأت تظهر حوالى عام ١٢١٩م عندما بدأ المغول فى اجتياح أراضى الدولة الخوارزمية، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى الصليبيين وهم على حصار مدينة دمياط فى مصر فى العام نفسه اعتقد الصليبيون والغرب الأوربى أن جنكيز خان (ت١٢٢٧م) هو الكاهن يوحنا فبدأوا الاتصال بالمغول بغرض تنصيرهم والتحالف معهم لضرب القوات الاسلامية والسيطرة على القدس، فأرسلوا العديد من سفراء أوربا والصليبيين إلى المغول من أجل إقامة هذا التحالف، ولكن المغول لم يستجيبوا لهم وطلبوا منهم الخضوع.

وبعد معركة عين جالوت وانقسام الإمبراطورية المغولية، وجد حكام مغول إيران الذين ناصبوا الدولة المملوكية العداء أن هزيمة المسلمين فى بلاد الشام

لا يمكن أن تتم بدون مساعدة أعداء المسلمين وهم الصليبيين والغرب الاوربى، لذلك بادر حكام مغول إيران بإرسال السفارات إلى أوربا بغرض التحالف مع أوربا للقضاء على المسلمين مقابل تسليم بيت المقدس للصليبيين، وقد ورد ذلك صراحة على لسان حكام مغول إيران خاصة أرغون خان مغول إيران (١٢٨٤ - ١٢٩١م)، ولكن الغرب كان مشغولا بامورہ الداخلية فلم يتم التحالف، وانتهى الأمر بنجاح المسلمين فى القضاء على الإمارات الصليبية فى بلاد الشام فى عام ١٢٩١م. ولم يهدأ الصليبيون والغرب الأوربى بعد ذلك فبادروا باعتناق فكرة الحصار الإقتصادى لدولة المماليك فى مصر والشام للقضاء عليها. ولكن هذه الأفكار لم تدخل حيز التنفيذ إلا من بعض القرارات البابوية التى تندد بالتعامل مع المماليك وتنذر بقرارات الحرمان من رحمة الكنيسة ضد المتعاملين مع المسلمين.

والحقيقة الماثلة أمامنا أن الصليبيين والغرب الأوربى سعوا بكل ما فى وسعهم قبل معركة عين جالوت للتحالف مع المغول للقضاء على المسلمين فى مصر والشام للاستيلاء على مدينة بيت المقدس، ولكن ذلك كان مقابل خضوع الغرب الأوربى والصليبيين للمغول. أما بعد معركة عين جالوت فقد تخلى المغول عن فكرة السيادة العالمية وسعوا بكل إمكاناتهم للتحالف مع أوربا والصليبيين للقضاء على المسلمين وتسليم القدس لهم.

ومن هنا كان عنوان هذا الكتاب «المغول والأوربيون والصليبيون وقضية القدس» باعتبار هذه المدينة المقدسة كانت محور هذه القضية فى تلك المرحلة من التاريخ. وقد قسمت هذا الكتاب إلى سبعة فصول ثم ختمته بموضوع عن اعتناق المغول للاسلام، كما زودته بمجموعة من الملاحق والخرائط وقائمة بمصادر الكتاب ومراجعه لما فى ذلك فائدة كبيرة للباحث والقارئ.

وواقع الحال انّى حاولت قدر جهدى أن أضع فى هذا الكتاب جانبا كبيرا من الأحداث التاريخية التى تخدم أهدافه دون الدخول فى تفاصيل كثيرة حتى لا يتضخم حجم الكتاب، وأن أترك للباحثين الخوض فى الجوانب التى لم اتعمق فيها خدمة لقضية القدس فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

والله الموفق إلى ما فيه خدمة مدينة بيت المقدس.

دكتور محمود سعيد عمران

اسكندرية ٢٠٠٣/١/٢٢

الفصل الأول
أحوال الشرق الاسلامى زمن المغول

- الخلافة العباسية
- الدولة الخوارزمية
- سلاجقة الــروم
- الأيوبيـــــــون



الفصل الأول
أحوال الشرق الاسلامى زمن المغول

كان العالم الاسلامي في المرحلة التي بدأ فيها ظهور المغول مقسمًا إلى مجموعة من الممالك والدويلات الصغيرة بعضها قوى وبعضها ضعيف سواء من الناحية العسكرية أو الاقتصادية. كما تميزت هذه الممالك والدويلات بالتنازع مع بعضها البعض من أجل السيطرة أو التوسع على حساب الأخرى، يضاف إلى ذلك أن الطائفية الإسلامية قد لعبت جانبًا في هذا الصراع. وهكذا إنشغل الحكام المسلمون فيما بينهم ولم يقدروا خطورة المغول إلا بعد أن إتجهوا إلى الغرب حتى الدولة الخوارزمية، ثم إلى آسيا الصغرى. ثم إلى جنوب روسيا. وأوروبا الشرقية حتى هنغاريا وبولندا، وأخيراً إلى سواحل البحر الأدرياتيكي(١).

وما يعنينا من العالم الإسلامي في هذا الموضوع هو الجانب الشرقي منه، أما الغربي منه في المغرب والأندلس فقد كان هناك أيضًا الصراعات الداخلية بالاضافة إلى مقاومة حركة الاسترداد. والجانب الشرقي من العالم الإسلامي كانت تتقاسمه عدة دول، ففي بلاد فارس أو إيران كانت تقوم الدولة الخوارزمية التي إمتدت حدودها من جبال أورال في الشمال إلى الخليج العربي في الجنوب، ومن جبال السند شرقًا إلى حدود العراق غربا .

---

(١) Matthew Paris, English History, London 1852, I, pp. 341-7.

وفي العراق كان الخليفة العباسي في بغداد وله السيادة الروحية، أما القوة السياسية والعسكرية فقد زالت عن هذه الخلافة، ولم يعد لهذا الخليفة من القوة إلا أن يطلب الدعوة على المنابر في صلاة الجمعة أو المناسبات أو الأزمات بأن يوفق الله المسلمين ، أو الإستنفار للجهاد (٢).

أما الدولة الأيوبية في مصر والشام، فقد كان لها مشاكلها خاصة مع مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية على الساحل الشامي. ومما يزيد المشكلة تعقيداً أنه مع ظهور أخطار المغول كانت الحملة الصليبية الخامسة قد إستولت على برج مدينة دمياط عام ١٢١٨م مما أدى إلى وفاة الملك العادل، ثم انقسام البيت الأيوبي إلى عدة ممالك أهمها مصر وعلى رأسها الملك الكامل ٦١٥- ٦٣٦ هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٨ م، ودمشق وعلى رأسها الملك المعظم عيسى٦١٥ - ٦٢٤هـ/ ١٢١٨ - ١٢٢٧م (٣).

وكان هناك أيضًا دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وهي الدولة التي ظلت في مواجهة الإمبراطورية البيزنطية منذ نشأتها حتى نهايتها، يضاف إلى ذلك أخطار الصليبيين في بلاد الشام، ثم من الشمال الغربي بعد سقوط القسطنطينية في أيدى الصليبين من قوات الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤م (٤).

---

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ - بيروت ١٩٧٩ - جـ ١٢، ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق - جـ ١١ - ص ٣٧٠ - ٣٧١.

(٤) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية - ترجمة الدكتور حسن حبشى - القاهرة ١٩٦٤ - ص ١١٤ وما بعدها .

أ - الخلافة العباسية :

كانت علامات الضعف قد ظهرت على الخلافة العباسية في بغداد قبل ظهور خطر المغول، وهذا الضعف، كانت له جذوره العميقة التى بدأت منذ سيطرة العناصر الفارسية على الخلافة العباسية عندما إستأثرت الأسر الفارسية بمنصب الوزارة في الخلافة العباسية، الأمر الذي أظهر خلافا بين العرب والفرس، وما تلى ذلك من أحداث أدت إلى دخول العناصر التركية إلى السلطة في بغداد، وبذلك أصبح يتطلع إلى السلطة ثلاثة عناصر هي العرب والفرس والاتراك.

وقد نتج عن هذا كله طمع حكام بني بويه - الذين أقاموا دولتهم في جنوب غربي إيران في السلطة - وكان لهم ما أرادوا حيث نجحوا في السيطرة على الخليفة في بغداد، وقد استأثر حكامهم بالسلطة، واتخذوا لقب السلطان، وطغى نفوذهم على نفوذ الخلفاء العباسين، وكان بوسعهم إلغاء الخلافة العباسية تمامًا، ولكنهم لم يقدموا على هذه الخطوة خشية العالم الاسلامي السني، لأن دولة بني بويه كانت من طائفة الشيعية.

كان لهذا كله أثره الكبير على هيبة الخلفاء العباسين، وبدأ حكام الولايات في الاستقلال بولاياتهم، والاكتفاء بالولاء الإسمى للخلافة العباسية. ومن هنا تمزقت الروابط القوية التي تربط الخلافة بتلك الولايات، ومع هذه الحركات الاستقلالية أو الإنفصالية، بدأت ملامح فساد الإدارة داخل الخلافة، الأمر الذي أدى إلى محاولة البعض الانفراد بالسلطة.

وتعرضت الخلافة العباسية أيضًا لسيطرة الأتراك السلاجقة، وهم مسملون من طائفة السنه. وقد سيطر هؤلاء على الخلافة وإتخذ حكامهم لقب السلطان، وعرف حكامهم الأوائل بإسم السلاطين العظام، وبقى الخليفة في

بغداد أو بالأحرى في قصره لا حول له ولا قوة. وتصرف هؤلاء السلاطين في الأراضى والمدن ومنحوها إقطاعيات للأمراء وذوى الشأن. وقد حكمها هؤلاء تحت إسم الأتابكة، وعندما إنهار سلطان السلاجقة العظام كانت بلاد أعالى الفرات وشمال الشام ثم جنوبه عبارة عن دويلات لا تتعدى المدينة وما حولها، ثم كان الصراع بين الدولة الفاطمية وهؤلاء الاتابكة في بلاد الشام [٥].

وعلى هذه الصورة إنفصلت أقاليم الدولة عن الحكومة المركزية في بغداد وأصبحت عاجزة عسكريًا عن مواجهة أي غزو عسكري، ولم يكن الخطر المغولي كأي خطر عادي، ولم يكن بوسع الخليفة المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦هـ / ١٢٤٢ - ١٢٥٨م) آخر خلفاء بني العباس، وهو الرجل الضعيف الذي سيطر عليه رجال السوء أن يفعل شيئًا ضد هذا الخطر الجارف[٦].

ب - الدولة الخوارزمية :

وكان من نتائج إنقسام الدولة العباسية إلى دويلات، قيام دولة خوارزم وتعرف أيضًا باسم الدولة الخوارزمية، ومؤسس هذه الدولة هو نوشتكين أحد العبيد الذي كان مملوكًا لأحد الأمراء السلاجقة، وقد شغل عدة مناصب داخل القصر منها منصب الطشتدار، ويروى أيضًا أنه شغل منصب الساقي في بلاط السلطان ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢م)، وفي

---

(٥) ابن القلانسي : تاريخ دمشق - تحقيق الدكتور سهيل زكار - دمشق ١٩٨٣ - ص ١٦٦.

(٦) الداودار : زبدة الفكر - تحقيق دونالد س. ريتشارد - بيروت ١٩٩٨ - ص ٣٥ وما بعدها .

عام ٤٩هـ/ ١٠٩٦م عين نوشتكين حاكمًا على إقليم خوارزم [٧].

وكان نوشتكين هذا يعلم تمامًا بحال الدولة العباسية وضعفها، لذلك سعى منذ البداية إلى الانفصال عن الخلافة أو بالأحرى عن السلطنة السلجوقية، وحانت الفرصة لخلفائه من بعده عندما بدأ ضعف السلطنة يظهر بوضوح إلى جانب ضعف الخلافة نفسها، وذلك بعد الأحداث التي إنتهت بوفاة السلطان السلجوقي سنجر عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م[٨]. وعند هذه المرحلة إنضمت ممتلكات السلاجقة في خراسان وفارس إلى الدولة الخوارزمية. وبذلك إمتدت أملاكها من جبال الأورال إلى حدود الفرات ومن حدود الخليج حتى حدود نهر السند.

ومع إتساع هذه الدولة، تطلعت إلى القيام بالعمل الذي قام به بنو بويه والسلاجقة العظام من قبل، ولكنهم إكتفوا بإزالة دولة السلاجقة العظام في العراق بعد هزيمة السلاجقة ومقتل سلطانهم طغرل بن ألب أرسلان في عام ٥٩٠هـ/١١٩٤م ، وتقلدوا حكم هذه البلاد من الخلافة العباسية في عام ٥٩٥هـ /١١٩٩م، ويروى إبن الأثير في هذا الصدد ما معناه أن الخليفة العباسي سير الخلع إلى خوارزم شاه ولولده قطب الدين محمد وتقليده بما بيده من البلاد[٩].

وعلا شأن الدولة الخوارزمية وزاد نفوذها أيام حكم علاء الدين محمد خوارزم شاه (٥٩٦ - ٦١٧هـ /١١٩٩ - ١٢١٩ م) وكان علاء الدين هذا طموحًا لعب دوراً كبيراً في محاربة الحشيشية واستولى على قلعة ترشيش،

---

(٧) حافظ أحمد حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول - القاهرة ١٩٤٩ - ص ١٩ .

(٨) ابن القلانسي : المصدر السابق - ص ٥٢٨ .

(٩) ابن الأثير : المصدر السابق - جـ ١٢ - ص ١٥٢ - ١٥٣.

ولم يتركها إلا بعد أن دفعوا له مائة ألف دينار بعد ما علم بخبر مرض أبيه، يضاف إلى ذلك أن علاقاته كانت عاصفة مع جيرانه المسلمين لمحاولته الإستيلاء على أراضيهم [١٠].

ومن ذلك أن علاء الدين إستولى على أراضي السلاطين الغوريين التي كانت تمثل جزء من أفغانستان الحالية وبعض أراضي غرب الهند. كما إستولى الخوارزمية أيضًا على الأراضي الواقعة غرب تركستان والتي تعرف بأراضي القرخطائيين والتي يرجع أصلهم إلى شمال الصين. ومع توسع الدولة الخوارزمية على هذه الصورة أصبحت تتاخم حدود الصين دون دولة حاجزة بينهم وبين المغول بعد سقوط دولة القرخطائيين [١١]، وعندما هزم المغول الدولة الخوارزمية أصبح الطريق مفتوحًا أمامهم غربًا حتى بغداد.

ولم يكتف الخوارزمية بذلك بل أنهم طمعوا في الخلافة العباسية منذ البداية، لأن خوارزم شاه بن تكشن كان يهوى أن يخطب له ببغداد ويلقب بالسلطان، مثلما كان الحال مع بني بويه والسلاجقة العظام. وعلى الرغم أنه لم يكن بوسع الخليفة أن يعترض على هذا الطلب نظراً لقوة الخوارزمية، إلا أن هذا الطلب له مغزاه، وهو أن خوارزم شاه أصبح عدواً للخلافة العباسية. ويرجع ذلك الى أن علاء الدين إعتنق مبادئ الشيعة، وأعلن أن هدفه إعلان خلافه شيعيه ليستميل أهالى البلاد. ولكي يكتسب صفة شرعية إستصدر

---

(١٠) ابن الأثير : المصدر السابق - جـ ١٢ . - ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

(١١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي - نشر وتحقيق حافظ حمدي أحمد - القاهرة ١٩٥٣ - ص ١٨ - ٢٠ ، ص ١٣٤ وحاشية (٤) .

فتوى تفيد أن الخلفاء العباسيين قد إغتصبوا الخلافة من العلويين. وقد أدخل كل هذا الدولتين في صراع كان من نتائجه إضعاف القوتين معًا[١٢]. الأمر الذي سهل على القوات المغولية هزيمة واحدة بعد الأخرى.

سلاجقة الروم :

والمقصود بسلاجقة الروم هم الفرع السلجوقي الذي أقام ملكه في آسيا الصغرى وجاور الروم أي الامبراطورية البيزنطية ، ولذلك عرفوا باسم سلاجقة الروم تمييزاً لهم عن فروع السلاجقة الآخرين. وكان أول حكامهم سليمان بن قتلمش في عام ١٠٧٧م وآخرهم هو سعود الثالث ١٣٠٧ - ١٢٠٨م .

وتبدأ أحداث قيام هذه الدولة بمعركة منزكرت التي دارت رحاها عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م حيث لقى فيها الجيش البيزنطي هزيمة ساحقة وأسر فيها الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع Romanus IV (١٠٦٨ - ١٠٧١ م)، وأجبر على توقيع معاهدة مهينة . ولما عاد الإمبراطور المهزوم إلى القسطنطينية وجد أن الإمبراطور ميخائيل السابع Michael VII (١٠٧١ - ١٠٧٨م) قد إستولى على العرش ورفض الاعتراف بالمعاهدة[١٣]، وهنا قرر السلطان السلجوقي ألب أرسلان (٤٥٥ -

---

(١٢) حافظ أحمد حمدى - المرجع السابق - ص ٣٧ - ٣٨ .

(١٣) عن معركة مانزكرت انظر :

الراوندي : راحة الصدور وآية السرور - نقله من الفارسية إلى العربية الدكتور أمين الشواربي وآخرون - القاهرة - ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م، ص ١٨٨ - ١٩٠ ، وانظر أيضا :

Pesllos, The Chronographia, tran. from the Greek by E.R.A. Sewter, London, 1953, pp. 265 ff.

٤٦٥هـ/١٠٦٣ - ١٠٧٢م) الانتقام من الامبراطورية البيرنطية، ولكنه مات بعد قليل، فخلفه إبنه ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥هـ/١٠٦٣ - ١٠٩٢م) الذي عين سليمان بن قتلمش قائداً على القوات السلجوقة في آسيا الصغرى [١٤].

وقد نجح سليمان في توسع رقعة منطقته في آسياب الصغرى حتى إمتدت الأراضى السلجوقية من البحر الأسود شمالاً حتى شواطىء البحر المتوسط جنوبًا، وسيطر السلاجقة على مدينة نيقه التي إتخذوها عاصمة لهم. ولكن المشكلة التي واجهها سليمان عدم وجود رابطة بين سلاجقة الروم، فكانت هناك مجموعة من الإمارات المستقلة وهي إمارة قيزيقوس Cyzicus ، وإمارة أزمير وإمارة سينوب، وإمارة كبادوكيا التي حكمها آل دانشمند، وبعد وفاة سليمان حدثت إنقسامات بين الممتلكات السلجوقية، وجد فيها الامبراطور البيرنطي فرصة للتحالف مع أمير ضد آخر.

وكانت الحملة الصليبية الأولى سببًا في إتفاق السلاجقة لمواجهة هذا الخطر الجديد، فقد استطاع قلج أرسلان في إستعادة عرش والده (٤٨٥ - ٥٢١هـ/١٠٩٢ - ١١٠٧م)، وفي الوقت نفسه إستغل الإمبراطور البيرنطي ألكسيوس الأول Alexius I (١٠٨١ - ١١١٨م)، مرور الحملة من أراضيه واستعاد جانبًا كبيراً من الأراضي التي إستولى عليها السلاجقة بعد هزيمتهم في معركة نيقيه Nicaea ومعركة ضورليوم Dorylaeum مما دفع السلاجقة إلى التراجع وإتخاذ مدينة قونيه Iconium عاصمة لهم [١٥].

---

(١٤) محمود سعيد عمران : السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية - دار المعارف - ١٩٨٥ - ص ٤٤.

(١٥) Anna Comnena, The Alexiad, tran. E.R.A. Sewter, Great Brtain, 1969, pp. 330 ff.

وقد إستغل الامبراطور البيزنطي فترة الصراع الداخلي بين السلاجقة بعد موت قلج أرسلان وهي فترة حكم إبنه ملكشاه (٥٠١ - ٥١٠هـ / ١١٠٧-١١١٦م) وتحالف مع السلاجقة لمحاربة بوهمند الأول Bohemond I أمير أنطاكية (١٠٩٨ - ١١٠٤م/٤٩١ - ٤٩٨هـ) وكان النصر حليف الإمبراطور[١٦]. ويبدو أن النصر الذي حققه الامبراطور بالإضافة إلى الصراع الداخلي في دولة السلاجقة قد دفع الإمبراطور إلى نبذ التحالف الذي عقده مع السلاجقة وشجعه على إستعادة بعض المدن من إيدى السلاجقة. وقد أجبرت إنتصارات الامبراطور على السلاجقة، أن سعى السلطان السلجوقي إلى عقد الصلح مع الامبراطور كسبًا للوقت. ودارت معارك بين الطرفين بعد ذلك إنتهت بالتفاوض من أجل الصلح مرة أخرى[١٧]. ويتضح من النصوص التاريخية أن ملكشاه لم يتخل عن أي منطقة من المناطق الواقعة في أملاكه.

وظلت الحرب متقطعة بين السلاجقة والبيرنطيين، كان الصراع بينهما صراع وجود لا صراع حدود، بمعنى أن السلاجقة يودون الاستيلاء على كل آسيا الصغرى وتكون مياه البسفور والدردنيل هي الحد الفاصل بين الدولتين، في الوقت الذي تسعى فيه بيزنطه إلى دفع السلاجقة إلى أقصى الشرق من آسيا الصغرى ، وطبقًا لهذه السياسة كان كل طرف يستغل المشاكل الداخلية في الدولة الأخرى ويحاول ضرب خصمه ، وفي عهد السلطان السلجوقي مسعود (١١١٦ - ١١٥٦م) نجح الامبراطور يوحنا

(١٦) Anna Cmnena, op.cit., pp. 395.

(١٧) Ibid, pp. 471-491.

كومنين John Comnenus (١١١٨ - ١١٤٣م) في أن يوطد سلطانه في الأجزاء الغربية من آسيا الصغرى[١٨].

وتقرب السلطان قلج أرسلان الثاني (١١٥٦ - ١١٩٢م) من الإمبراطور البيزنطي مانويل Manuel (١١٤٣ - ١١٨٠م) وزاره في القسطنطينية عام ١١٦٢م. ودام السلام بين الطرفين حتى عام ١١٧٦م، وقد استغل قلج أرسلان هذا الهدوء وتدخل في منازعات بيت دانشمند، وإنتهى الأمر باعترافهم بسلطانه عليهم[١٩]، وقد يسر له هذا السيطرة على الموقف داخل آسيا الصغرى وعلى حدود دولته من جهتي الشام والفرات.

ثم ظهرت بعض العوامل التي أدت إلى قيام الامبراطور مانويل باعداد حملة كبيرة لمهاجمة السلاجقة في عام ٥٧٢ هـ /١١٧٦م، وقد إغتر مانويل بما تحت يديه من قوات وتقدم في عمق آسيا الصغرى للوصول إلى مدينة قونيه عاصمة السلاجقة، ولكن القوات السلجوقية تمكنت من إنزال هزيمة ساحقه بالجيش البيزنطي عند قلعة ميريوكيفالون Myriocephalon.ولم تفق بيزنطة من هذه الهزيمة بعد ذلك[٢٠].

وفي الوقت نفسه تعرضت دولة السلاجقة إلى بعض الاحداث الداخلية التي أدت إلى إضعاف أحوالها، يضاف إلى ذلك ما كان هناك من متاعب أثناء مرور بعض قوات الحملة الصليبية الثالثة وهي قوات الامبراطور فريدريك باربارورسا Frederick Barbarossa (١١٥٢ - ١١٩٠م)، وما تلى

---

(١٨) John Kinnamos, Deeds of John and Manuel Comnenus, tran. Charles M. Btrand, New York, 1979, pp. 20 - 22.

(١٩) محمود سعيد عمران، المرجع السابق - ص ٣٢٦ - ٣٢٧.

(٢٠) Oman, The Byzantine Empire, London 1922, p. 272.

ذلك من صراع على السلطة بعد وفاة السلطان قلج أرسلان في عام ١١٩٢م، إلى أن إستقر السلطان كيخسرو الأول (١١٩٢ - ١١٩٦م) بفضل مساعدة آل دانشمند والتركمان. وأن دل ذلك على شيء فإنما يدل على ضعف النظام داخل السلطنة السلجوقية . ويتضح ذلك إن من نتائج هذا الصراع وسوء النظام أن تولى السلطان سليمان الثاني عرش السلطنة السلجوقية (١١٩٦ - ١٢٠٤م) ثم تولى قلج أرسلان الثالث العرش بقية عام ١٢٠٤م، ثم عاد الى كيخسرو الأول مرة أخرى (١٢٠٤ - ١٢١٠م).

ومع بداية حكمه سقطت الامبراطورية البيزنطية في أيدى الصليبين ١٢٠٤ - ١٢٦١م، وخلال هذه المرحلة قامت حكومة الإمبراطورية البيزنطية في المنفى في مدينة نيقية. وقد نجح كيخسرو أن يضم إلى بلاده مدينة أضاليه البيزنطية التي تقع إلى الجنوب الشرقي لآسيا الصغرى على ساحل البحر المتوسط، كما نجح ابنه عز الدين كيكاوس الأول (١٢١٠ - ١٢٢٠م) في ضم مدينة سينوب الواقعة في جنوب البحر الاسود، وقد إستفاد السلاجقة من هذه المدينة عسكريًا وتجاريًا[٢١].

ويعتبر عهد كيقباذ الأول (١٢٢٠ - ١٢٣٧م) من أفضل العصور في عهد الدولة السلجوقية، فقد تمكنت الدولة في عهده من السيطرة على كل ساحل آسيا الصغرى الجنوبي حتى مداخل بلاد الشام، كما ضمت شبه جزيرة القرم، وبذلك تدفقت التجارة إلى آسيا الصغرى. كما إتخذ كيقباذ من

---

(٢١) Ostrogorsky. History of Dyzantine State. Oxford. 1956. p.

مدينة العلايا مقرا له . ورغم أن الحياة الاقتصادية والحضارية إزدهرت في عهد كيقباذ الأول، إلا أن هذه المظاهر كانت تخفي وراءها عوامل الضعف والإنهيار، فقد بدأت المشاكل تظهر داخل الدولة عندما بدأ الخطر المغولي يداهم منطقة الشرق الأدنى الاسلامي، وقد نجح المغول في دخول مدينة أرزن الروم عام ١٢٤٢م ثم هزموا السلاجقة هزيمة ساحقة في معركة كوس داغ في العام التالي (١٢٤٣م) وتحطم الجيش السلجوقي ولاذ السلطان كيخسرو الثاني (١٢٣٧ - ١٢٤٥م) من أرض المعركة. أما وزيره مهذب الدين فقد تقرب إلى المغول ، فعقدوا معه إتفاقًا يقضي ببقاء الدولة السلجوقية على شرط تأدية الجزية كل عام، وأن ترسل الدولة للمغول الامدادات عند الحاجة [٢٢]. ثم زادت سيطرة المغول الإدارية بالتدريج على السلاجقة الأمر الذي عجل بزوال دولتهم في عهد آخر حكامهم مسعود الثالث (١٣٠٧ - ١٣٠٨م).

الأيوبيون :

أسس الدولة الايوبية صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي ولد في تكريت عام ١١٣٨م من أبوين كرديين، وقد إنتقل صلاح الدين مع أسرته إلى بعلبك في العام التالي. وقد عين عماد الدين زنكي أتابك الموصل(١١٢٧ - ١١٤٦م) والده أيوب قائداً لحامية المدينة.

وقد رافق صلاح الدين عمه شيركوه في حملاته على مصر خلال الصراع النورى الصليبي على مصر في عهد نور الدين زنكي أتابك حلب (١١٤٦

---

(٢٢) Grigor of Akanc, History of Nation of The Archers, tran., Robert P. Blake and Richard N. Frye, Harvard University Press, Combridge, Massachusette, 1954, pp. 39 ff.

- ١١٧٤م) وأتابك حلب ودمشق (١١٥٤ - ١١٧٤م)، حتى انتهى الأمر بأن أصبح صلاح الدين وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد (١١٦١ - ١١٧١م)، ثم ما لبث الخليفة أن توفى بعد فترة قصيرة وإنتهت الدولة الفاطمية وبدأ التمهيد لقيام الدولة الأيوبية في مصر والشام والحجاز واليمن. ووقع على كاهل صلاح الدين مقاومة الصليبيين في بلاد الشام، فكانت معركة حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م وما تلى ذلك من سقوط القدس وبعض مدن الساحل الشامي في أيدى صلاح الدين[٢٣].

وترتب على ذلك قدوم الحملة الصليبية الثالثة من أجل استعادة القدس وغيرها، ولكن هذه الحملة لم توفق في تحقيق أهدافها، وانتهى الأمر بعقد صلح الرملة الذي عقد في عام ١١٩٢م، وما لبث صلاح الدين أن توفى في العام التالي ١١٩٣م، وتم تقسيم الدولة بين أمراء البيت الأيوبي، فضاعت وحدة الدولة وتماسكها، وظل الصراع مستمراً لعدة سنوات حتى تمكن العادل أخ صلاح الدين من السيطرة على الموقف في عام ٥٩٨هـ (١٢٠١ - ١٢٠٢م) وبدأ في اعادة تنظيم الدولة بعد التفكك الذي إنتابها[٢٤].

وبصرف النظر عن كل هذه الصراعات قد تميز حكم العادل بسياسة الدفاع عن مملكته ضد الصليبيين ولم يأخذ بسياسة الهجوم، لأنه كان يرى أن الهجوم على ممتلكات الصليبين ربما يؤدى إلى قدوم حملة صليبية جديدة.

---

(٢٣) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - الدار المصرية للتأليف والترجمة - الطبعة الأولى ١٩٦٤ - ص ٧٥ وما بعدها .

(٢٤) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب - مخطوط - دار الكتب المصرية قم ٥٤٩ معارف عامة (تصوير شمس) جـ ٢٧ - لوحة رقم ٥ .

ولذلك عقدت هدنه في ١١٩٨م ،ورغم ذلك وقعت بعض الاشتباكات بين الطرفين، ومن هذه الاشتباكات ما وقع في عام ١٢٠٤م عندما أتى إلى الشام كثير من الصليبين متشجعين بإمتلاك قوات الحملة الصليبية الرابعة لمدينة القسطنطينية، وهي الحملة التي كانت وجهتها مصر ثم انحرفت لمهاجمة الدولة البيرنطية، وعلى أيه حال لقد انتهت هذه الأحداث بهدنه مدتها ست سنوات، من عام١٢٠٤م حتى ١٢١٠م ثم عقدت معاهدة أخرى من عام ١٢١٢م إلى ١٢١٧م [٢٥].

ومع نهاية هذه الهدنة قدمت الحملة الصليبية الخامسة التي هاجمت مصر من عام ١٢١٨ حتى ١٢٢١م، تم خلالها الاستيلاء علي مدينة دمياط. وفي هذه المرحلة بدأ الخطر المغولي في الأفق، الأمر الذي دفع الملك الكامل حاكم مصر إلى عرض الصلح على الصليبين عدة مرات للجلاء عن دمياط مقابل التنازل عن كل الاراضي التي فتحها صلاح الدين عدا قلعتى الكرك والشويك ،ولكن الصليبين رفضوا هذا العرض المجزي حتى إنتهت إحداث الحملة وهزمت هزيمة نكراء وإضطرت للجلاء دون قيدٍ أو شرط، ثم عقدت هدنة لمدة ثمان سنوات[٢٦].

زال الخطر الصليبي مؤقتا وظهر خطر آخر وهو تجدد الصراع بين أفراد البيت الأيوبي خاصة بين الكامل حاكم مصر وأخيه المعظم حاكم دمشق ، فقد خرج المعظم على طاعة أخيه ودعا جلال الدين خوارزم شاه للاستيلاء

---

(٢٥) Vitry, Jacques, The History of Jerusalem, tran, form the Latin Original by Aubrey Stewart, London, 1896. p. 119.

(٢٦) Lane-Poole, A History of Egypt in The Midde Ages, 4th,. ed. London, 1925, p. 224.

على ديار بكر وحرض البعض على مهاجمة الموصل وحمص لانتزاعها من أيدى أخيه الاشرف، ولم يكن أمام الاخير سوى الخضوع لاخيه المعظم خاصة بعد ما تعرضت مدينة خلاط لهجمات الخوارزمية[٢٧].

وأمام ما فعله المعظم عيسى، قام الملك الكامل بدعوة الامبراطور الالماني فريدريك الثاني Fredrick II (١٢١٢ - ١٢٥٠م) للقدوم الى الشرق لتسليمه مدينة القدس نكاية في أخيه المعظم. وقبل ان يصل الامبراطور مات المعظم في عام ١٢٢٧م، وعندما وصل الامبراطور كان على الملك الكامل أن يحل المشكلة بشكل أو بآخر، وإنتهى الأمر بان سلم الكامل مدينة القدس للامبراطور فسخط عليه كافة المسلمين[٢٨].

ومهما كان الأمر فقد إستمرت الهدنة حتى عام ٦٣٧هـ/١٢٣٩م حين قدمت إلى الشام حملة صليبية أخرى على رأسها تيوبوت الرابع Thibaut IV أمير شامباني وملك نافارو، وبعض الأمراء الآخرين، وتذرع الملك الناصر داود صاحب الأردن بوصول هؤلاء الصليبيين وطرد الصليبيين المحليين من القدس، ورغم هذا كله فقد إنتهى الأمر باستلام الصليبيين للقدس مرة أخرى ومعها طبرية وعسقلان وبعض القلاع والمدن الأخرى[٢٩].

ولم تكد هذه الحملة تغادر بلاد الشام حتى وصلت حملة أخرى تعرف باسم الحملة الانجليزية في عام ١٢٤٠م وعلى رأسها ريتشارد أف

---

(٢٧) ابن العبري : تاريخ الزمان - بيروت - دار المشرق ١٩٨٦ - ص ٢٧٥ .

(٢٨) سعيد عبدالفتاح عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك - بيروت - د.ت-ص.١٠٠.

(٢٩) المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - نشر الدكتور محمد مصطفي زيادة - القاهرة - مطبعة دار الكتب ١٩٣٦ - جـ ١ ق ٢ - ص ٣١٤ - ٣١٥.

كورنــول Richard of Cornwall أخ هنرى الثـالث Henry III ملك إنجلترا (١٢١٦ - ١٢٧٢م) . وقــد نجـحت هذه الحـملة بدورها في تأكــيــد حق الصليـبين في ملكيـة بيت القدس، وبعد قليل من رحيل هذه الحملة، تمكن الصـالح أيوب بمسـاعـدة الخـوارزمـيــة من اسـتـعــادة القـدس في عــام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م [٣٠]، وبذلك فقد الصليبيـون إلى غير رجعة تلك المدينة المقدسة، كما استعان الصالح أيوب بالخوارزمية واستولى على مدينة دمشق ولكن هؤلاء الخوارزمـيـة عـاثوا في بلاد الشـام فـسـاداً حتى إنتـهى الأمـر بهـزيمتـهم عند حـمص عـام ١٢٤٦م [٣١]، فتبـدد شـملهم وزالت أهـميـتهم كقوات مقاتلة.

وكان ضياع القدس من أيدى الصليبيين سببًا في قدوم الحملة الصليبية السـابعـة وعلى رأسـهـا لـويس التـاسع Louis IV ملك فـرنسـا (١٢٢٦ - ١٢٧٠)، وما حدث من نجـاح رسو القـوات الصليـبيـة في دميـاط وتراجع القوات الاسلاميـة إلى المنصورة ،ثم وفاة الصالح أيوب في نهاية ١٢٤٩م. وقد أربك هذا كله القيادة الأيوبية ، ولكن شجر الدر نجحت في السيطرة على الموقف واستـدعت توران شـاه بن الصـالح أيوب من حـصن كـيـفـا في أعالى العراق لتولي حكم مصر ، وانتـهت الاحداث بهزيمة لويس وأسره ثم إطلاق سراحه ورحيله من مصر، ومقتل توران شاه على أيدى المماليك[٣٢].

---

(٣٠) المقريزي : المصدر السابق - جـ ١ ق ٢ - ص ٣١٦.

(٣١) أبو المحاسن بن تغري بردي : النجوم الزاهرة - طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب -١٩٦٣، جـ ٦ - ص ٣٥٧ .

(٣٢) المقريزي : المصدر السابق - جـ ١ ق ٢ - ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

هب الأيوبيون في الشام مطالبين بالثأر لما حدث في مصر، وتقرر تعيين المغيث عمر سلطانًا على شرق الاردن بينما تولى الناصر يوسف أمير حلب حكم دمشق ١٢٥٠ - ١٢٦٠م، وخلال هذه الاحداث تزوجت شجر الدر من عزالدين أيبك وأصبح أول سلطان للمماليك في مصر، وهنا كون الايوبيون بالشام حلفا لاستعادة مصر، ولكن هذا الحلف هزم في عام ١٢٥٠م .وتمت محاولة أخرى في العام التالى إنتهت بالمفاوضات بين الطرفين تنازل فيها الناصر يوسف عن مدينة القدس للسلطان عزالدين أيبك(٣٣).

ولكن العداء بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر ما لبث أن تجدد بعد ما قتل أيبك منافسه في الحكم وهو الأمير أقطاى ،وهروب مماليكه إلى دمشق حيث رحب بهم الناصر يوسف . ولكن السلام ما لبث أن عاد بين أيبك والايوبيين بإتفاق في عام ١٢٥٦م تنازل بموجبه الناصر يوسف عن جانب من بلاد الشام. وظل الناصر يوسف لمدة أربع سنوات زعيمًا للبيت الأيوبي في بلاد الشام . ولما إستولى هولاكو على بغداد عام ١٢٥٩م ارسل الى الناصر يطالبه بالحضور، ولكنه لم يذهب وأرسل بدلاً منه إبنه العزيز محمد، وعندما توجه هولاكو صوب بلاد الشام غادر الناصر حلب وأقام خارج دمشق، وهنا أحس الناصر بضعفه أمام القوات المغولية فأرسل إلى القاهرة ليستنجد بالسلطان المملوكي سيف الدين قطز (١٢٥٩ - ١٢٦٠م) (٣٤).

---

(٣٣) سعيد عبدالفتاح عاشور - المرجع السابق . ص ١٧٦ وما بعدها .

(٣٤) العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان - عصر سلاطين المماليك ٦٤٨ - ٦٦٥هـ/١٢٥٠ - ١٢٦٥م - حققه ووضع حواشيه دكتور محمد محمد أمين - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م - ص ٣٣٢ - ٣٣.

وفي يناير عام ١٢٦٠م تقدم المغول الى حلب واستولوا عليها ونهبوها فهرب حاكمها المنصور الثاني الأيوبي وانضم إلى جيش المماليك تحت قيادة قطز، وبعد حلب إستولى المغول على دمشق في العام نفسه، وبسقوط بغداد وحلب ودمشق وهي المدن الكبيرة بدا للجميع أن المسلمين قد حان أجلهم، ولكن المغول ما لبثوا أن هزموا في معركة عين جالوت ١٢٦٠م على يد القوات المملوكية بقيادة قطز فتغيرت الأوضاع تمامًا في منطقة الشرق الأدنى الاسلامي. وحاول المغول مرة أخرى الهجوم على بلاد الشام فاستولوا على حلب في عام ١٢٦١م، ولكن المنصور صاحب حماة والأشرف صاحب حمص تصدا للقوات المغولية وأنزلا بها هزيمة كبيرة ولم يكتفيا بذلك بل ظلا يطاردان القوات المغولية حتى عبرت نهر الفرات [٣٥].

وبعد هذه الأحداث بقى من البيت الأيوبي المغيث صاحب الكرك، والاشرف موسى صاحب حمص، والمنصور صاحب حماه، وفيما يتعلق بالمغيث فقد قتله السلطان بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٩م) في عام ١٢٦٣م وإستولى على الكرك - واما المنصور صاحب حماة ، فقد إحتفظ بحكم المدينة ولأسرته من بعده، من سلالة المظفر الأول تقى الدين عمر (١١٧٨ - ١١٩١م) حتى تولى أمرها الأفضل محمد بن إسماعيل (١٣٣٢ - ١٢٤١م) - ومن سلالة هذا الفرع المؤرخ أبو الفدا (١٣١٠ - ١١٣٢م) (ت ١٣٣١م) .

---

(٣٥) ابو المحاسن بن تغري بردي : المصدر السابق - جـ ٧ -ص ٨٢ - ٨٣ .

الفصل الثانى
قيام دولة المغول وفتوحاتها الأولى

جنكيزخان

تنظيم الامبراطورية

فتوحات المغول الأولي

١ - فى الدولة الخوارزمية.

٢ - فى دولة الكرج

٣ - فى بلاد الأرمن

٤ - فى سلطنة سلاجقة الروم



الفصل الثانى

قيام دولة المغول وفتوحاتها الأولى

جنكيز خان :

عاش في الأراضي الشاسعة التي تقع إلى شمال وغرب الصين مجموعة من القبائل. وكانت هذه الأراضي في مجموعها صحارى وسهوب تتصف بالمناخ القاري. وقد عاشت هذه القبائل منذ حوالي سنة ٢٠٠ ق.م ومن هذه القبائل المغول والتتار وبعض العناصر التركية مثل الكرايت keraits والأويغور Uigurs والنايمان Naimans والتايجيوت Tayichut وبعض القبائل الأخرى [١].

وقد ولد تيموجين Temujin في عام ١١٦٧م لزعيم مغولي يدعى يسوكاى Yesugai وأم تدعى هويلون Hoelun. وقد عرف هذا الطفل في التاريخ باسم جنكيزخان Jenghiz Khan ، وفي تلك المرحلة كان المغول عبارة عن قبائل تعيش في أعالى نهر آمور Amur، وكانت في حرب شبه دائمة مع قبائل التتار المقيمه إلى الشرق منهم. وقد نجح يسوكاى في إنزال الهزيمة ببعض قبائل التتار، الأمر الذي زاد من سلطانه وعلو مكانته [٢].

أما علاقة يسوكاى بالكرايث فقد كانت ودية تعاهدية وليست عسكرية. ويرجع ذلك إلى أن الكرايث شعب بدوى تركي عاشوا حول نهر أورخون

---

(١) Runciman, S., A History of Crusades, Cambridge, 1951, III, pp. 237-8.

(٢) Morgan, The Mongols, Oxford 1985. pp. 57- 60.

Orkhon، وقد إعتنقوا المسيحية على المذهب النسطوري مع مطلع القرن الحادى عشر الميلادّي وترتب على ذلك إتصالهم بقبائل الأويغور النساطرة أيضًا. وقد مات خان الكرايث كورياكوس Qurjakuz حوالي عام ١١٧٠م فبدأ الصراع على العرش بين إبنه طغرل والأخوات والأعمام. وعند هذه المرحلة طلب طغرل من يسوكاى مساعدته للاحتفاظ بعرش والده، وقد تعاهدا على ذلك، وبعد ما نجح طغرل في إعتلاء عرش الكرايث أصبح يسوكاى في منزله رفيعه بين زعماء المنطقة، ولكنه مات بعد قليل، ويقال أنه مات مسمومًا، ولم يكن تيموجين قد بلغ التاسعة من عُمره، ولكن والدته تمكنت من الاحتفاظ بالعرش له(٣).

وكان تيموجين على حد قول أحد المؤرخين طويل القامة، شديد النشاط والاحتمال والصبر، وله شخصية أثرت في كل من صادفهم، يضاف إلى ذلك موهبته الفائقة على التنظيم وكيفية إختيار مساعديه . كما أنه كان معروفا بحبه للعلم وإحترامه للعلماء، لذلك أبقى على حياة كل عالم وقع في أسره. وفي عام ١١٩٤م تم إختيار تيموجين زعيمًا للقبائل المغولية وأصبح يعرف باسم جنكيزخان (أي القوى)، واعترف به امبراطور الصين ليتحالف معه ضد التتار الذين هددوا أراضيه. وفي حروب سريعة وقصيرة خضع التتار لحكم جنكيزخان(٤).

أما خضوع الكرايث لحكم جنكيزخان، فيرجع ذلك إلى أن الصراع على العرش في دولة الكرايث إنتهى بطرد الخان طغرل عام ١١٩٧م، ولكن

---

(٣) Runciman, S., op. cit., III, p. 238.

(٤) Morgan, op. cit., p. 60.

جنكيزخان ساعده على العودة إلى عرشه ثم ما لبث أن أصبح طغرل من أعظم الأمراء وعرف باسم وانك خان Wang-Khan أو أونك خان Ong-Khn وهو إسم وصل الى هذه المناطق في صيغة يوحنا، ولذلك رشح طغرل للدور الذي كان على الكاهن يوحنا أن يقوم به وهو التحالف مع الغرب الأوروبي ضد المسلمين في حوض البحرالمتوسط(٥).

ويبدو أن شهرة طغرل قد أثارت جنكيزخان فدب الخلاف بينهما عام ١٢٠٣م، حيث قامت المعركة الأولى بين الطرفين ولكنها لم تحسم لصالح أي طرف منهما، وفي المعركة الثانية التي وقعت بعد قليل هزم جنكيزخان طغرل هزيمة نكراء وأبيد الجيش في معركة جيجر أوندورJejer Undur في قلب بلاد الكرايث، وقد لقى طغرل مصرعه أثناء فراره من أرض المعركة فخضعت دولة الكرايث لدولة جنكيزخان وضمها إلى دولته، وبذلك أضاف جنكيزخان أراضي التتار ثم أراضي الكرايث(٦).

وقد نجح جنكيزخان في العام التالى ١٢٠٤م فى إخضاع قبائل النايمان بعد هزيمتهم في معركة شقيرميوت Chakirmaut ، وحتى عام ١٢٠٥م كان جنكيزخان قد نجح في فرض سيادته على كل القبائل القاطنة بين حوضى نهر التاريمTarim الواقع إلى الغرب من مدينة سمرقند ونهر آمور، الذي يصب في بحر اليابان حاليًا، وسور الصين العظيم. وفي العام التالى ١٢٠٦م عقدت جميع القبائل مجلسًا (قوريلتاى)، وأعلنت سيادة جنكيز خان على هذه القبائل التي ينبغي أن يطلق عليها إسم المغول(٧). ولعل الأمر

---

(٥) Runciman, S., op. cit., III, p. 240.

(٦) Morgan, op. cit., p. 59.

(٧) Runciman, S., op. cit., III, pp. 240 - 1.

أصبح واضحاً في الفرق بين كلمة المغول والتتار ، وإن كان البعض ومنهم المؤرخون المعاصرون للأحداث يطلقون إسم التتار على المغول وبالعكس أيضًا.

ويلاحظ أن جميع هذه القبائل كانت تنقسم إلى فرعين كبيرين، وهما الأتراك والمغول ويختلفان في اللغة، فقد استخدم الأتراك اللغة التركية، أما المغول فقد إستخدموا أبجدية الأويغور، وكان الفرع التركي قد بدأ بالرحيل إلى المناطق التى سميت بإسم (تركستان). أما المغول فهو إسم أطلق على إحدى قبائلهم. وقد صنف الصينيون القبائل المغولية إلى ثلاثة أنواع هم المغول البيض الذين عاشوا شمال الصين، والمغول السود وهم الذين عاشوا شمال المغول البيض، والمغول المتوحشون وهم سكان الغابات وقامت حياتهم على الصيد(٨) .

تنظيم الامبراطورية :

بعد أن نجح جنكيزخان في توحيد القبائل، بدأ في وضع نظام للبلاد ، وقد حدد هذا النظام في مجموعة وظائف يتولى أمر كل وظيفة شخص أو أكثر، وإذا كانت إحدى هذه الوظائف من الوظائف الهامة أو الحساسة تولى أمرها أحد أقارب الخان الأعظم وكانت هذه الوظائف كما يلى (٩):

١ - أربعة أشخاص لحمل السهام والأقواس .

٢ - ثلاثة أفراد يتولون الاشراف على الطعام والشراب .

---

(٨) السيد الباز العريني: المغول - بيروت ١٩٨١ - ص٣٥-٣٦.

(٩) Lamb, Harold, Genghis khan, London, 1926, pp. 68-9.

٣ - فرد واحد يتولى إعداد المراعى للاغنام والماشية، وثلاثة للمحافظة على هذه المراعى.

٤ - شخص واحد لإعداد العربات العسكرية ووسائل النقل والحمل.

٥ - فرد واحد للاشراف على الموظفين والخدم في قصر الخان.

٦ - أربعة أفراد يتولون الحراسة بالتناوب وحمل السيوف.

٧ - إثنان يتوليان أمر المحافظة على الخيول.

٨ - أربعة اشخاص لتبليغ رسائل الخان.

٩ - إثنان من النبلاء للمحافظة على النظام في إجتماعات المغول.

وكان لحرس الخان الأعظم شأن كبير في دولة المغول، فقد كان الجندي الواحد منهم أعلى مرتبة من قائد الألف رجل في الجيش، ويتم إختيار هؤلاء بعناية، وكان يتولى أمر الحراسة منهم مجموعتان أحدهما للنهار وآخرى لليل، وقد بلغ عدد هؤلاء حوالى عشر آلاف ممن عرفوا بالقوة وشدة البأس. ومن هؤلاء يتم إختيار ألف رجل يسمى كل واحد منهم (بهادر) أي الشجاع المبارز.

وهؤلاء الألف يقومون بخدمة الخان ويلازمونه ولا يخرجون للقتال إلا مع الخان نفسه ولا يتلقون الأوامر إلا منه. وبالاضافة إلى الخان الأعظم وحراسه، كانت هناك طبقة الأمراء وهم معفون من الضرائب ولهم حق الاستيلاء على الغنائم أثناء الحروب، وكان هؤلاء الأمراء لا يستأذنون عند الدخول على الخان. وكان من عادة الخان إكرامهم وذلك بأن يقدم لهم الشراب بنفسه.

وإعتبر كافة المغول جنوداً في الجيش وعليهم حمل السلاح إذا ما دعت الحاجة، ولذلك إعتّبر المغولي راعيًا للاغنام والماشية في السلم جنديًا في أوقات الحرب. وكان على الجميع تدريب أنفسهم وإعداد الأسلحة اللازمة للقتال. وقد عرف المغول جميعاً بالطاعة العمياء لقوادهم، كما عرفوا بالخيانة وعدم الوفاء بالعهود في أعدائهم ، وكانوا يحاربون دون رحمة لا فرق بين الأطفال أو النساء أو الشيوخ أو الشباب أو المريض، ولذلك اتسمت حروبهم بالقسوة والتدمير والتخريب(١٠).

وعندما تدق طبول الحرب ويجتمع المغول تبدأ عملية تنظيمية دقيقة، ينقسم المغول بعدها إلى فرق كل منها عشرة آلاف - تعرف عند المغول باسم تومان أو طومان وتجمع توامين أو طوامين - وعليهم أمير، ثم ينقسم هؤلاء إلى عشرة أقسام على كل منها أمير ألف، ثم إلى عشرة أقسام أخرى على كل منها أمير مائه ثم إلى عشرة أقسام أخرى على رأس كل منها أمير عشرة، وبذلك أصبح هناك أربعة قواد، وعلى رأس هؤلاء القادة قائد الجيش الذي يجمع هؤلاء لتدارس المواقف وإعطاء الأوامر بعد إستشارتهم، ومن نظم الجيش المغولي وضع الخطط العسكرية قبل بداية العمليات العسكرية، ثم تبدأ عملية جمع المعلومات عن العدو بمعرفة الجواسيس لإعداد المعدات الكافية لمهاجمة المدن أو الحصون. وقد إستخدم المغول طريقة الكر والفر والالتفاف حول العدو والصياح أثناء المعركة لإرهاب الأعداء(١١).

وفي المعارك يقسم المغول قواتهم إلى القلب والمقدمة والمؤخرة والميمنه

---

(١٠) النسوي: المصدر السابق - ص١١٦.

(١١) Runciman, op. cit., III, pp. 241 - 2.

والميسرة، وتتسلح كل واحدة من هؤلاء بالسلاح المناسب، ومن ذلك أن قوات القلب كانت تتكون من فرقة أمامية وأخرى خلفية. وتتسلح الأمامية بالدروع الكاملة ويحمل أفرادها السيوف والحراب ويغطون خيولهم بالدروع المناسبة، أما الخلفية فكانت أسلحتها خفيفة مثل القوس والنشاب، وتكون سريعة الحركة حتى يمكنها تقديم المساعدة للقوات الأمامية.

وعامل المغول أعداءهم معاملة قاسية، فإذا إجتاحوا مدينة قتلوا أهلها دون رحمة، مع الإبقاء على أصحاب الحرف والصناعات، وبعض من الأهالى بالمدينة لاستخدامهم كدروع بشرية في حرب أخرى، ويرجع ذلك إلى أن الأسرى هم الذين يتعرضون للقتل والمغول خلفهم، وبذلك يستهلكون قوة أعدائهم في قتل الأسرى، وفي الوقت المناسب يتقدم المغول للقضاء على خصومهم.

أما عن دستور إمبراطورية المغول فقد كان هناك مجموعة من التقاليد والأعراف تحكم حياة المغول، ولكنها لم تكن مكتوبة لعدم معرفة المغول الكتابة في بداية الأمر، ولما أصبح جنكيزخان خانًا أعظم لهم، قام بمراجعة هذه الأعراف، فألغى منها ما لم يعد مناسبًا وأبقى ما وجده صالحًا، وأضاف إليها ما رآه ضروريًا. وأمر بتدوين ذلك بالخط الأويغوري حتى يتعلمه الصغار والكبار، وقد إحتفظ كل أمير مغولي بنسخة من هذه القواعد في خزانته الخاصة. وقد عرفت هذه القواعد باسم Yass [١٢]، وقد عربت هذه الكلمة إلى ياسا أو الياسا أو الياسة، أو اليسق أو اليساق، ومعنى هذه الكلمة حكم أو قاعدة أو قانون.

---

(١٢) Morgan, op. cit., p. 96- 9.

ومما لا شك فيه أن التجارب والشدائد التي عاشها جنكيزخان وما تعرض له من محن ومؤامرات، وما قام به من حروب، كان له أهمية كبرى عند وضع بنود الياساّ، لأنه كان حريصًا على جمع كلمة القبائل والسيطرة عليها، لذلك تضمنت الياسا نصوصًا بالغة الصرامة لضبط القبائل ونشر الأمن والاستقرار داخل القبائل المغولية. ويتطلب الأمر في هذا المجال أن نعرض بعض بنود الياسا للتعرف عليها، ومن ذلك :

أن من وجد عبداً أو أسيراً آبقًا عليه أن يرده لصاحبه، وإلا تعرض للقتل. ومن أطعم أسير قوم أو كساه دون إذن أسياده قتل - ومن وقع منه متاعه أو سلاحه اثناء القتال ، فعلى الشخص الذي وراءه أن ينزل عن فرسه ويناول زميله ما سقط منه، فإن لم ينزل ويناوله سلاحه قُتل، ولا يختص فرد بأكل شيء وغيره يراه، بل عليه أن يشرك من يراه في أكله، ولا يتميز مغولي بالأكل دون سواه، فإن مر مغولي بفرد أو جماعة وهم يأكلون، له ان يأكل معه أو معهم، وليس لأحد أن يمنعه.

وقد حذرت الياسا بعض الاعمال على المغول، ومن ذلك يمنع المغولي من غسل ثيابه حتى تبلى، يمنع المغولي من أن يخص شيئًا بالنجاسة فجميع الأشياء طاهرة، ويمنع المغولى من التعصب لمذهب ديني، كما يمنع المغولي من إستخدام الألقاب قبل الأسماء، فيخاطب الفرد مهما كانت منزلته باسمه.

وهناك أيضًا بعض الإلتزامات يجب القيام بها، ومَن ذلك إلزام القادة العسكريين بالتفتيش على أسلحة الجنود قبل الخروج للقتال، وكافة ما يلزم الجنود وإذا قصروا عوقبوا. وإلزام النساء بالقيام بأعمال الرجال طوال وجود العساكر في القتال. يضاف إلى ذلك الزام المغولي بإقامة حلقات الصيد بإعتبارها تدريبًا على أساليب القتال. وفوق هذه كله وغيره أقام الخان نظام

البـريد للاتصـال بأنحـاء الامـبـراطورية ،واصـدار الأوامـر في الوقت المناسب،والتعرف أيضًا على أحوال بلاده[١٣].

وقد ورد في الياسا أيضًا تجريم أعمال السرقة والفحشاء، وإنكار حقوق الوالدين، ووجوب إتباع الصغير لتعاليم الكبير، ومساعدة الغني للفقير، وإحترام صغار الموظفين لرؤسائهم. وقد بقيت الياسا موضع إحترام المغول طالما بقيت العناصر المغولية، وقد أخذت بعض العناصر الأخرى بعض بنودها مثل المماليك والعثمانيين[١٤].

فتوحات المغول الأولى :

١ - فى الدولة الخوارزمية :

قبل أن تبدأ سنة ١٢٢٥م كان جنكيزخان قد فرض نفوذه على إمبراطورية كين الصينيـة، ومملكة هسيا هسى Hsia Hsi ومملكة قرة خيتاى Kata Khitai . ولقد ترتب على توسعات المغول فى الصين ومملكة قرة خيتاى أن أصبحت الحدود المغولية متاخمة لحدود الدولة الخوارزمية . ولم يشأ جنكيزخان أن تكون علاقته بالخوارزمين مستندة إلى القوة وحدها، لذلك فكر فى عقد معاهدة تجارية يضع شروطها بنفسه، وكان ضمن هذه الشروط ما يفد تبعية الدولة الخوارزمية للمغول ، ففى عام ١٢١٨ م استقبل علاء الدين محمد خوارزم شاه فى مدينة بخارى ثلاثة من التجار المسلمين قادمين بغرض التجارة من قبل جنكيزخان، وقد حمَّلهم العديد من

---

(١٣) السيد الباز العريني: المرجع السابق - ص٦١- ٦٢.

(١٤) السيد الباز العريني: المرجع السابق - ص٦٢.

الهدايا ومعهم رسالة من جنكيزخان . وقد ورد بها «ليس بخفى عليّ شأنك وما بلغت من سلطانك وقد علمت بسطة ملكك وإنفاذ حكمك فى أكثر أقاليم الأرض . وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات وأنت عندى مثل أعز أولادى ، وغير خاف عليك أننى ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك، وقد أذعنت لى قبائلهم ، وأنت أخبر الناس بأن بلادى مثارات العساكر ومعادن الفضة، وأن فيها لغنيه عن طلب غيرها، فان رأيت أن تفتح للتجار من الجهتين سبيل التردد، عمت الفوائد وشملت الفوائد»[١٥] .

وعندما قرأ علاء الدين خوارزم شاه هذه الرسالة غضب غضبا شديدا لأنه وجد فى نصوصها معانى الخضوع والتهديد، خاصة عبارة وأنت عندى أعز أولادى - أى أن الابن يخضع للاب ، وعبارة أننى ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك خاصة أن علاء الدين كان تركى الاصل، ولم يكن أمام السلطان علاء الدين سوى قبول ما عرضه جنكيرخان ، وثم عقد المعاهدة التجارية بين الطرفين وأعاد علاء الدين الرسل الى بلاد جنكيزخان يحملون موافقته على قبول المعاهدة .

وبموجب هذه المعاهدة تشجع التجار الخوارزميون خاصة تجار مدينة بخارى، فقصد ثلاثة منهم ديار المغول ومعهم البضائع من الثياب المذهبة وغير ذلك مما يليق بالمغول لما سمعو أن للمتاع عندهم قيمة وافره، وأن الطرق آمنه بفضل النظم التى وضعها جنكيزخان لحماية التجار من أخطار الطرق. وقد طلب التجار أثمانا عاليه مقابل بضاعتهم، لذلك غضب

---

(١٥) النسوي: المصدر السابق - ص٨٣ - ٨٤.

جنكيزخان. ولكن الأمور سويت بطريقة ودية وعاد التجار الخوارزميون ومعهم مجموعة من تجار المغول منهم المسلم والمسيحي والتركي، وصحب هؤلاء التجار رسولا من قبل جنكيزخان إلى السلطان علاء الدين يقول له «إن التجار وصلوا الينا وقد أعدناهم إلى منأمنهم سالمين غانمين ، وقد سيرنا معهم جماعة من التجار ليحصلوا من طرائف تلك الاطراف فينبغي أن يعودوا الينا آمنين ليتأكد الوفاق بيننا» [١٦].

ولما وصل التجار المغول الى مدينة أوترار التى تقع على نهر سيحون وكانت تعد مفتاح التجارة من شرق آسيا وغربها، كان يتولى أمرها الأمير ينال خان ، طمع فى أموالهم وأخبر السلطان علاء الدين محمد بذلك ورأى قتلهم واستولى على ما معهم واتهمهم بالتجسس ، ولكن أحد التجار نجح فى الفرار واتجه الى جنكيرخان وأخبره بالكارثة، فغضب لذلك كثيرا . ورغم هذا كله فقد رأى جنكيزخان تسوية الأمر بطريقة سليمة فأرسل إلى علاء الدين رسولا مسلما يدعى ابن كفرج مع رسولين آخرين يحملون رسالة كلها تهديد ووعيد، ويطلب فيها تسليم حاكم مدينة أوترار لمجازاته على ما فعله وإلا فالحرب . ولما كان ينال خان ابن خال السلطان ، وكان لعشيرته نفوذا كبيراً داخل الدولة الخوارزمية، لم يكن من السهل تنفيذ طلب جنكيرخان، وانتهى الأمر بقيام علاء الدين بقتل رسول جنكيرخان [١٧]، وبذلك ضاع الأمل فى تجنب الصدام بين الدولتين . وأخذ كل منهما يستعد

---

(١٦) النسوي: المصدر السابق - ص٨٣ - ٨٤، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول - بيروت - دار المسيره- د.ت. ص٢٢٩- ٢٣٠.

(١٧) النسوي: المصدر السابق - ص٨٧- ٨٨.

لمواجهة الاخر[١٨] .

وبدأ جنكيزخان شيره الى الشرق لغزو بلاد الخوارزميين فوصلها فى عام ١٢١٩م معتمدا على نظامه العسكرى الدقيق ، وبدأ بوضع الخطط اللازمة للغزو. وسارع بالاستيلاء على جميع المدن الواقعة على نهرى سيحون وجيحون، ثم بدأ فى توزيع قواته على ابنائه . فتوجه أحد الجيوش الى إقليم خوارزم وآخر الى خراسان بينما توجه جنكيزخان بنفسه علي رأس بعض قواته ليتمكن من الاستيلاء على مدينة غزنه . وقد أحدثت هذه القوات الخراب بالمناطق التى مروا بها أو دخلوها ، وأمام هذا الدمار الذى لحق بالدولة الخوارزمية فر علاء الدين من أمام قوات المغول التى تطارده حتى وصل الى بحر قزوين [١٩].

اقتربت قوات جنكيزخان ومعه ولديه أجتاى وجحتاى من مدينة أوترار وأخذ يستعد لغزو بلاد ما وراء النهر ، وهاجم المنطقة بأربع فرق عسكرية، تولت كل منها جهة معينة، واتجه جنكيزخان بنفسه الى قلب إقليم ما وراد النهر وسيطر على أهم مدنه وهى بخارى وسمرقند. ولما كانت مدينة أوترار هى المدينة التى حدثت فيها مذبحة التجار لذلك كان الهجوم المغولى عليها عنيفا ، واستعد ينال خان للدفاع عن المدينة وأصلح حصونها وقلعتها وزودها بحامية كبيرة. وقد حاصر المغول المدينة خمسة أشهر حتى أن القوات الخوارزمية فكرت فى التسليم ، ولكن ينال خان لم يوافق على هذه الفكرة

---

(١٨) حافظ أحمد حمدي: المرجع السابق - ص٧٤.

(١٩) ابن العبري: المصدر السابق - ص٢٣٠- ٢٣١.

Lamb. Harold, op. cit., pp. 147- 8.

لأنه يعلم انه هالك لا محاله، وانتى الأمر باستيلاء المغول على المدينة بالقوة فى عام ١٢١٩م فنهبوها وطاردوا سكانها ، وحاول ينال خان الاحتماء بقلعة المدينة وظل بها شهرا يدافع عن القلعة دفاع المستميت، وعندما ضاق عليه الخناق حاول الهرب ولكنه وقع فى أيدى المغول فقادوه إلى معسكر جنكيزخان فعذبه حتى الموت ، وانتهى الحال بسقوط مدينة أوترار فى أيدى المغول [٢٠].

وكانت القوات المغولية قد توزعت على البلاد الخوارزمية لغزوها فى شكل جيوش رئيسية . وتوجه أحد الجيوش الذى كان تحت قيادة جوچى أكبر أبناء جنكيزخان إلى نهر سيحون حيث توجد مدينة «جند» وهى من المعاقل الخوارزمية الرئيسية، وفى طريقه إلى هذه المدينة استولى على العديد من المدن والقلاع ، وعندما اقتربت القوات المغولية من المدينة أصاب سكانها الفزع فهرب حاكم المدينة ، فتولى سكان المدينة أمر الدفاع عنها ، ولكنهم لم يصمدوا طويلا أمام ضربات المجانيق، حيث إنقسم السكان الى فريقين أحدهما رأى الاستلام ورأى الآخر القتال، ولكن جحافل المغول اقتحمت المدينة . وبعد أن رتب المغول أمور ادارتها استعدوا للتوجه إلى إقليم خوارزم [٢١].

وتوجه جيش مغولى الى مدينتى خجنده ، وبنكت الواقعتين على نهر سيحون أيضا ، وقد استسلمت الأخيرة ، ورغم ذلك أنزلوا القتل فى الجند الخوارزمية ، أما مدينة خجنده فكان يتولى أمرها «تيمورملك» فلجأ بقواته

---

(٢٠) النسوي: المصدر السابق - ص٩٢.

(٢١) ابن الأثير: المصدر السابق - جـ١٢ - ص٣٦٩ - ٢٧٠.

إلى جزيرة وسط النهر ليكون بعيدا عن مرمى سهام المغول، وقد حاول المغول إقامة جسر حجرى من الشاطىء إلى الجزيرة وذلك بإحضار الحجارة من الجبال المجاورة والقائها فى النهر، وظلت الحرب سجالا بين الطرفين. وعندما شعر حاكم المدينة أن المقاومة لا تفيد، ترك الجزيرة ومعه عدد من السفن، ونجح فى الوقت المناسب فى الإفلات من أيدى المغول وإتجه الى مدينة خوارزم[٢٢].

وفى الوقت نفسه توجه جنكيزخان (١٢١٩م) إلى مدينة بخارى، وهى كعبه الدين الاسلامى فى البلاد الواقعة بعد نهر جيحون، وقد نجح فى الاستيلاء على المدن التى كانت فى طريقه واستولى على نفائسها وكنوزها، وجمع منها الرجال ليضعهم فى مقدمه جيشه عند القتال على مدينة بخارى التى كان يتولى أمر الدفاع عنها حوالى عشرين ألف مقاتل. وبعد أن دام القتال عدة أيام انهارت القوات الخوارزمية أمام ضربات المغول فأرسلوا إلى جنكيزخان يطلبون الامان،. فأجابهم إلى طلبهم ودخل المدينة بقواته وعاثت فيها فسادا، ثم دخل جنكيرخان مسجد المدينة ومعه قواته والمغنون وأخذوا يشربون ويلهون. وأمر بجمع كنوز المدينة، ثم أمر بإشعال النار فيها فتفرق أهلها[٢٣].

كانت وجهة القوات المغولية بعد ذلك مدينة سمرقند، وقد توجه إليها جنكيزخان ومعه العديد من الاسرى ليستعين بهم فى فتح المدينة كعادة المغول، وانضم الى هذه القوات الجنود المغولية الأخرى التى فرغت من

---

(٢٢) Lamb. Harold, op. cit, pp. 134- 5.

(٢٣) ابن العبري: المصدر السابق - ص٢٣٣ - ٢٣٤.

مهامها. وواقع الحال أن مدينة سمرقند كانت مدينة تجارية عظيمة محاطة بالأسوار والأبراج يولى أمرها ما يزيد عن أربعين ألف جندى ، ولكن جحافل المغول ألقت الرعب فى قلوب قوات حامية المدينة ، فلم تصمد المدينة سوى أربعة أيام وسقطت فى عام ١٢٢٠م. ويروى ابن الأثير أن المغول نادوا فى المدينة بخروج أهلها ومن تأخر قتلوه ، فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان ففعلوا بأهل لمدينة ما فعلوه بمدينتى سمرقند وبخارى[٢٤]، وبذلك سقط جزء كبير وهام من أراضى الدولة الخوارزمية ، وانهارت الجيوش الخوارزمية الأمر الذى سهل على القوات المغولية السيطرة على بقية أراضى الدولة .

وبينما كان جنكيزخان فى مدينة سمرقند علم بفرار السلطان علاء الدين محمد فأمر القوات المغولية بملاحقته ، وقد تنقل السلطان من مكان إلى آخر حتى وصل الى مدينة نيسابور فى إقليم خراسان بعدما نجا من مؤامرة لقتله فى مدينة بلخ . واندفعت القوات المغولية تلاحق السلطان ولكنه ترك نيسابور واتجه الى اقليم ما زندان جنوبى بحر قزوين ولجأ الى احدى الجزر، ولكنه مرض ومات عام ١٢٢٠م بعد أن أوصى بملكه لابنه جلال الدين منكبرتى[٢٥].

كانت وجهة المغول بعد ذلك إلى إقليم مازندان ، ورغم مناعه هذا الاقليم الا أن المغول نجحوا فى السيطرة عليه وأنزلوا بالاقليم كل انواع الدمار والقتل والسلب والنهب ، ثم اتجهوا الى مدينة الرى. وفى الطريق اليها

---

(٢٤) ابن الاثير: المصدر السابق - جـ١٢ - ٢٦٥ - ٢٦٨.

(٢٥) النسوي: المصدر السابق ص. ١٢.

عثروا على والدة السلطان وهى فى طريقها الى العراق فأسروها واستولوا على ما معها من نفائس وبعثوا بها وما كان معها الى الخان الاعظم جنكيزخان . وفى مدينة الرى اختلف المسلمون حول الحرب والاستسلام مع بعضهم البعض، وانتهى الأمر بفتح أبواب المدينة للمغول . وانتهى الحال بها مثلما انتهى اليه الحال فى المدن السابقة . ثم اتجهت القوات المغولية إلى مدينة همذان فاستسلمت بالأمان، ثم إلى مدينة قزوين التى دافعت عن نفسها وأخيرا سقطت فى أيدى المغول بعد أن سقط من الجانبين عشرات الآلاف من القتلى [٢٦].

ومن الملاحظ أنه حتى هذه المرحلة فإن ما سهل على المغول اجتياح هذه المناطق هو حالة الذعر التى سيطرت على القوات الخوارزمية ، ويلاحظ أيضا أن هناك مناطق سادها الخراب أكثر من غيرها ، ولعل ذلك يرجع إلى سرعة انتقال القوات المغولية من مكان إلى آخر لأن ما كان يعنى المغول فى هذه المرحلة سرعة الاستيلاء على أهم المدن فى الأقاليم التى اجتاحوها، واعتمادهم على نظامهم الحربى، واستخدام الأسرى كدروع بشرية توضع فى مقدمة الجيوش المغولية .

بعد هذه المرحلة خطط المغول لغزو أتابكيه أذربيجان وعاصمتها تبريز، وكانت هذه الإمارة تقع الى الجنوب الغربى من بحر الخزر (بحر قزوين) ، وكانت تحت حكم الأتابك أوزبك بن البهلوان وكان تابعا للدولة الخوارزمية. وكان هذا الاتابك يحكم إلى جانب اذربيجان اقليم آران الذى يقع الى الشمال من أذربيجان . ولما شعر أوزبك بما يخطط له المغول وجد من

---

(٢٦) ابن الاثير: المصدر السابق - جـ١٢ - ص٣٨٠ - ٣٨٢.

الأفضل الاستسلام لهم ومصالحتهم والدخول في تبعيتهم ليتجنب دمار بلاده، وقد وافق المغول على ذلك بعد ما غمرهم بالهدايات فدخل المغول العاصمة تبريز(٢٧).

خلد المغول بعد هذه المرحلة إلى فترة من الراحة لتجنب فصل الشتاء فتحركوا إلى إقليم موقان الذى يقع على الساحل الغربى لبحر الخزر إلى الجنوب . وعند هذه المرحلة شعر المغول بأ هناك مؤامرة تحاك ضدهم من حكام دولة چورجيا (الكرج) ، والأشرف بن الملك العادل صاحب مدينة خلاط وبلاد الجزيرة وإقليم اذربيجان ، وهنا تحرك المغول لقتل المؤامرة فى مهدها ودخلوا مدينة تفليس عاصمة الكرج، وفى أوائل عام ١٢٢١م ، ثم تحرك المغول إلى اقليم اذربيجان وهاجموا مدينة مراغة وقتلوا الكثير من أهلها(٢٨) .

وفى تلك الأثناء كان هناك جيش مغولى آخر يتخذ وجهته الى مدينة خوارزم حاضرة الاقليم المسمى بهذا الاسم ، وهذا الاقليم يقع جنوب بحر خوارزم الذى يصب فيه نهرى سيحون وجيحون، وخوارزم تقع على النهر الأخير وقرب المصب، وسط إقليم صحراوى ليس به الا بعض القرى المتناثرة. وهنا نلاحظ أن القوات الخوارزمية كانت ممزقة ولا قيادة لها ، ورغم هذا كله فيبدوا أن المغول أرادوا الا ينزلوا الخراب بهذا الاقليم لذلك طلب المغول من أهله التسليم . وكالعادة انقسم أهل المدينة إلى معسكرين أحدهما يرى القتال باعتبار أنه لا أمان للمغول ، والآخر يرى الاستسلام

---

(٢٧) حافظ احمد حمدي: المرجع السابق - ص١٣٤.

(٢٨) ابن واصل: مفرج الكروب - جـ٤ - ص٣٢٠.

لانقاذ ما يمكن إنقاذه، وتغلب الرأى القائل بالقتال وانتصر الخوارزميون فى المرحلة الأولى ، ولكن المغول ظلوا محاصرين للمدينة حوالى ستة أشهر أرسل خلالها جنكيزخان بمدد وقيادة جديدة . وأخير نجح المغول فى الدخول الى المدينة، ودار القتال داخل المدينة حوالى سبعة أيام وأخيرا استسلمت المدينة ، وباستيلاء المغول على المدينة أخذوا الاطفال والفتيات وأسروهم وقسموا باقى الرجال على الجيش المغولى فقتل كل واحد من الجنود المقاتلين أربعة وعشرين من الرجال ، ولا شك أن فى ذلك مبالغة كبيرة ، والمهم أن المغول أخذوا من أهل المدينة ما يزيد عن مائة الف كانوا من الحرفيين والصناع ، ورغم هذا كله فان المغول فتحوا السدود التى تمنع ماء نهر جيحون عن المدينة فغمرتها المياه فغرقت جميعها وتهدمت أبنيتها (٢٩).

وفى تلك الاثناء كان جنكيزخان يقود قوات مغولية أخرى استولت على مدينة ترمذ، وسير قسما منها إلى كلانه ، وهى قلعة حصينة استولى عليها وأنزل بها القتل والأسر والتخريب . وكانت وجهة المغول بعد ذلك إلى إقليم خراسان فاستولوا على مدينة بلخ وهى مدينة شهيرة بالاضافة الى مكانتها التجارية ، وكانت مدنية عامره بالمساجد والحمامات يتردد عليها التجار الاجانب لوقوعها على احدى الممرات التجارية الرئيسية فى وسط آسيا. وقد طلب أهل بلخ الامان فأمنهم المغول وسلموا المدينة اليهم ، فوضع المغول بها حامية واتجهوا الى بعض المدن الأخرى ولم يتعرضوا لأهلها بسوء سوى أنهم كانوا يأخذون الرجال من المدن المفتوحة ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم حتى وصلوا الى مدينة الطالقان، وكان بها قلعة حصينة يقال لها منصور

---

(٢٩) Lamb, Harold, op. cit, pp. 139 ff.

كوه ، وقد صمدت المدينة أمامهم أربعة أشهر، وقتل من المغول خلق كثير نظرا لحصانة القلعة ووقوعها على مكان مرتفع . ولكن المغول صنعوا تلاً عاليا من الحطب حتى وازى القلعة، وبذلك نجحوا فى ضرب المدينة بالمجانيق حتى سقطت القلعة فسبوا النساء والاطفال ونهبوا الأموال والأمتعة [٣٠].

كانت وجهة المغول بعد ذلك مدينة نسا وهى من مدن خراسان كذلك ، وقد قاومت المدينة مقاومة شديدة وقتلت عددا كبير من المغول ، وقد أقامت القوات المغولية عليها المجانيق لمدة خمسة عشر يوما ، نجح المغول خلالها فى إحداث ثغرة فى سور المدينة فدخلوها ليلا ونكلوا بأهلها كعادتهم . وقد لجأ بعض سكان المدينة الى قلعة مرج سائغ ، وهى قلعة حصينة أعلى أحد الجبال الشاهقة ، وقد عجز المغول عن الاستيلاء عليها ، ولم يرفع المغول الحصار عنها الا بعد أن أرسل اليهم الاهالى بعض الملابس والهدايا الأخرى [٣١].

وتوجهت القوات المغولية بعد ذلك الى مدينة نيسابور فى عام ١٢٢٠م وكانت القوات المغولية بقيادة توجاشر، وقد حاصر المغول المدينة ثلاثة أيام قتل بعدها القائد المغولى فاضطرت القوات المغولية الى رفع الحصار مؤقتا عن المدينة حتى وصلت اليها قوات مغولية كبيرة فى مرحلة لاحقة بقيادة تولوى بن جنكيزخان، فقد كان تولوى مشغولا فى تلك المرحلة بحصار

---

(٣٠) ابن الاثير: المصدر السابق: جـ١٢ - ص٣٩٠ - ٣٩١، الجويني: المصدر السابق ٣٠٧- ٣٠٨.

(٣١) النسوي: المصدر السابق - ١٠٩ وما بعدها.

مدينة مرو حاضرة خراسان ، وقد حاصرتها القوات المغولية بعدد كبير بلغ حوالى سبعين ألف رجل فى مقدمتهم الأسرى الخوارزميون الذين جمعوهم من البلاد التى استولوا عليها، وقد شدد تولوى الحصار على المدينة وسد منافذها، فعرض أهلها المدينة للتسليم، فوافق تولوى ولكنه غدر بهم وقتل عدداً من أصحاب الحرف يقدر عددهم بحوالى أربعمائة ، ودمر المغول أسوار المدينة ومبانيها وقلعتها ومقصورة المسجد وغير ذلك ، ويقال أن عدد القتلى كان سبعمائة ألف قتيل[٣٢].

وبعد أن فرغ تولوى من أمر مدينة مرو اتجه إلى مدينة نيسابور ، وكان أهلها قد استعدوا تماما لقتال المغول بالمجانيق وآلات قذف الرماح ، ولما كانت معدات المغول كثيرة أيضا بالاضافة إلى أن القوات المغولية قد حاصرتها من كل جانب، لذلك رأى أهلها التسليم . ولكن تولوى رفض هذا العرض وأراد أن يدخل المدينة عنوة انتقاما من أهل المدينة الذين قتلوا أحد قواده، وأخيرا نجح المغول فى دخول المدينة (١٢٢١م) ونكلوا بأهلها، وبالغت المصادر فى عدد القتلى كما قدمت صورة مخيفة عما فعله المغول بأهل المدينة [٣٣].

توجه تولوى بعد ذلك إلى مدينة هراه وهى المدينة الأخيرة فى اقليم خراسان، وفى الطريق اليها أرسل بعض قواته الى مدينة طوس ، فقد تمردت هذه المدينة بعد أن خضعت للمغول وقتل سكانها الحاكم المغولى [٣٤].

---

(٣٢) الجويني: المصدر السابق - ٣٢٩، ابن الاثير: المصدر السابق - جـ١٢ - ص٣٩١ - ٣٩٣.

(٣٣) ابن الاثير: المصدر السابق - جـ١٢ - ٣٩٣، الجويني - المصدر السابق ٣٣٤ - ٣٤١.

(٣٤) حافظ احمد حمدي: المصدر السابق- ص١٤٥. راجع التفاصيل في ابن الاثير: المصدر السابق - جـ١٢- ص٣٩٣.

وقد قامت القوات المغولية بتدمير كل ما وجدوه في المدينة بما في ذلك مشهد على بن موسى الرضى ، ومشهد هارون الرشيد كذلك حتى جعلوا الجميع خرابا ، ثم واصل تولوى سيره على رأس قواته المغولية الى مدينة هراه وكانت من أحصن البلاد، وقبل أن يصل اليها ، أرسل إلى حاكمها يطالبه بالتسليم ، ولكن أهل المدينة قتلوا رسول تولوى، ولم يكن هناك من مخرج سوى مهاجمة المدينة ، واشتد القتال حوالى عشرة أيام ، ثم رغب حاكم المدينة فى الاستسلام بشرط تأمين الأهال على أرواحهم ، وقد قبل تولوى هذا العرض ولكنه لم يف بوعده فقتل من أهلها الكثير(٣٥) . وبهذه الاحداث انتهت مرحلة هامة من نجاح القوات المغولية في السيطرة على جانب كبير من الأراضى الخوارزمية وهى بلاد ما وراء النهر ، والاقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية ، وإقليم خوارزم ، وأقليم خراسان، أما مرحلة الغزو المغولى فى عهد جلال الدين منكبرتى بن علاء الدين محمد ١٢١٩ - ١٢٣١م فتبدأ بالمعارك التى قامت بين الجيوش الخوارزمية والجيوش المغولية فى اقليم غزنه .

وإذا كانت بداية عهد جلال الدين منكبرتى تبدأ من عام ١٢١٩م من الناحية الرسمية أى بعد وفاة والد، فان بداية عهده الفعلية تبدأ من عام ١٢٢١م وهو العام الذى بدأ فيه جلال الدين تجميع قواته لمنازلة القوات المغولية . وكان لقاء الجيشين الخوارزمى والمغولى فى السهول المحيطة بمدينة بيروان التى تقع فى الشمال الشرقى من مدينة غزنه . وقد استطاع جلال الدين منكبرتى أن ينتصر على طلائع القوات المغولية وأن يقتل منهم

---

(٣٥) ابن الاثير: المصدر السابق - جـ١٢ - ص٣٩٣.

حوالى ألف رجل. وبعد ثمانية أيام ظهر جيش مغولى آخر يتكون من حوالى ثلاثين ألف مقاتل. وكان جلال الدين قد استعد أحسن إستعداد لقتال المغول، كما أن المغول لجأوا الى الحيل حتى يظهر عددهم بصورة تبدوا مضاعفة ، ورغم هذا كله فقد كشف الخوارزميون حيل المغول، وتمكنوا من الانتصار عليهم نصرا كبيرا حتى قتل جانب كبير من القوات المغولية [٣٦].

وقد اعتقد سكان المدن الخوارزمية أن نصر جلال الدين على القوات المغولية يعتبر نصرا حاسما فانتفضت فى وجه الحاميات المغولية ، ولكن القوات المغولية نجحت فى السيطرة على الموقف إلى حد كبير .

والحقيقة أن انتصار جلال الدين منكبرتى كان نصرا مؤقتا خاصة أن النزاع قد دب بين القادة الخوارزميين عندما تنافسوا على الغنائم ، فاشتد الخلاف وانتهى بانسحاب بعض القادة الخوارزميين بقواتهم ، وبذلك شعر جلال الدين أن قواته لم تعد كافية لمواجهة القوات المغولية .

وأمام هذه الحالة فكر جلال الدين فى عبور نهر السند الى الجانب الآخر ليكون فى مأمن من هجمات المغول، ويبدو أنه أثناء عبور القوات الخوارزمية النهر قد اصابها الارتباك؛ فغرق الكثير من القوات الخوارمية، وكان ممن غرق بعض أفراد أسرة السلطان جلال الدين ، كما أن السلطان أمر بإلقاء الغنائم فى النهر حتى لا تقع فى أيدى القوات المغولية، كما كان هناك العديد من الأسرى كان من بينهم أحد أولاد السلطان فأمر جنكيرخان بقتله [٣٧].

---

(٣٦) النسوي: المصدر السابق - ص٣٦ - ٣٧.

(٣٧) ابن العبري: المصدر السابق - ٤١٢- ٤١٣.

وكانت القوات الخوارزمية التى نجحت فى عبور النهر تبلغ حوالى أربعة آلاف لا يملكون لباسا أو سلاحا ، وقد تنقلت القوات الخوارزمية من مدينة إلى أخرى بحثا على الملبس والمأكل . وقد أصابها اليأس وظهر جلال الدين بمظهر المهزوم الذليل من شدة ما أصاب قواته . وفى الوقت نفسه كانت القوات المغولية تحتفل بانتصارها وتجول فى البلاد تسلب وتنهب وتعيث فيها فسادا، ولم يكن فى خطة المغول الاستيلاء على بلاد الهند ، لذلك اكتفى المغول بما أحدثوه من تخريب خاصة فى ضواحى مولتان وبشاور ولاهور وغيرهما ثم عبرت القوات المغولية نهر السند [٣٨].

وفى ربيع عام ٦٢٠هـ/مايو - يونيه عام ١٢٢٠م بدأت المغولية بقيادة جنكيزخان تستعد للعودة الى بلادها.. وقبل تحركها أمر جنكيزخان بقتل جميع الأسرى حتى لا يتكلف ثمن إطعامهم، فقتل الكثير ، ثم اتخذت القوات المغولية طريقها للعودة عبر طريق التبت ، وبشاور ، وبلخ ، حتى وصلت الى سمرقند حيث قضت فيها شتاء عام ١٢٢٣ - ١٢٢٤ . وأخيرا عادت القوات المغولية الى بلادها فى عام ١٢٢٥م ، بعد ما ألحقت الخراب بالمدن الخوارزمية ، وشردت الاسرة الحاكمة الخوارمية ، وقضت إلى حد كبير جدا على القوات الخوارزمية ، وبعد عودة جنكيرخان انشغل لبعض الوقت فى تنظيم أمور دولته والقضاء على القبائل الثائرة، كما دخل فى صراع عسكرى مع بلاد الصين حتى وفاته فى عام ١٢٢٧م [٣٩].

وفى الوقت نفسه انشغل جلال الدين منكبرتى لبعض الوقت فى صراع عائلى من أجل العرش، وصراع آخر مع الدولة العباسية ، وبعض الحروب

---

(٣٨) النسوي: المصدر السابق ص٥٨ وما بعدها.

(٣٩) Lamb. Harold, op. cit., 194.

مع دولة الكرج . وصراع آخر مع الحكام الأيوبيين فى مدينة خلاط، وفكرة التحالف مع سلاجقة الروم ضد الخطر المغولى ، وتجنب عداوة طائفة الاسماعيلية للخوارزميين وهى أمور لا تهمنا كثيرا فى هذا الموضع .

والمهم هنا هى علاقة المغول بالدولة الخوارزمية ، الحقيقة الماثلة أمامنا هو أن جنكيرخان عندما رحل الى بلاده كان حال أقاليم الدولة الخوارزمية لا يشجع المغول على الاحتفاظ بها ، لذلك تركوها خاوية على عروشها، وكل ما كان بين المغول والدولة الخوارمية هو قيام بعض القوات المغولية بمهاجمة بعض الاقاليم الخوارزمية بغرض السلب والنهب . وبداية هذه الأعمال كانت فى سنه ١٢٢٧م وهى السنة التى مات فيها جنكيرخان عندما خرجت جماعات مغولية غير منتظمة ، ذكر عنها ابن الأثير أن هؤلاء المغول قد سخط عليهم جنكيزخان وأبعدهم عنه، وقد قصد هؤلاء المغول خراسان وكانت خرابا ، لذلك قصدوا مدينة الرى ودارت حروب معهم بقيادة جلال الدين انتهى الأمر بانسحابهم الى أصفهان وحصارها . ولكن جلال الدين نجح فى إلحاق الهزيمة بهم، وكانت هزيمة كبيرة ، وتبعهم الى الرى يقتل ويأسر، وطاردهم حتى أبعدهم عن المدينة . وقد أرسل ابن جنكيزخان الى جلال الدين يقول له «ان هؤلاء ليسوا من أصحابنا ، إنما نحن أبعدناهم عنا، فلما أمن جانب أولاد جنكيزخان أمن وعاد [جلال الدين] إلى اذربيجان»(٤٠) .

وكانت أول حرب منظمة قام بها المغول فى عام ١٢٣١ م ، عندما جهز أوكيتاى (١٢٢٧ - ١٢٤١م) خليفة جنكيرخان جيشا مغوليا مكونا من حوالى ثلاثين ألف مقاتل، وقد تقدم هذا الجيش إلى خراسان واستولى على

(٤٠) ابن الأثير: المصدر السابق - جـ١٢ - ص٤٧٦ - ٤٧٧.

مدينتى الـرى وهمذان والبـلاد التى تقـع بينهـما ، وتقدم حتى وصل إلى اذربيـجان. والواقع أن سـياسـة المغول فى هذه المرحلة لم تكن سوى متـابعة السلطان جلال الدين منكبرتى باعتباره رأى المقاومة فى هذه المرحلة، لذلك نجد تحركات المغول فى المرحلة التاليـة مرتبطة بتحركات السلطان واللحاق به أينما حل[٤١].

لما علمت القوات المغول بوصول السلطان إلى تبريز تابعته ففر منها إلى سهل موقان الواقع على الجانب الغربى لبحر قزوين ، وقد تبعه المغول إلى هناك فعاد مرة أخرى إلى تبريز فاتجه إلى مدينة آمد بأمل الاستنجاد بحكام ديار بكر والجزيرة . والخلافة العباسية، ولكن المغول عاجلوا اللحاق به . والتقت القوات المغولية بالقوات الخوارمية وأنزلت الأولى بالأخيرة شر هزيمة فر على أثرها السلطان جلال الدين منكبرتى إلى جبال كردستان ، ووقع فى أيدى أحد الاكراد الذى أراد أن يقتله ، ولكنه عرفه بنفسه وطلب منه إعادته إلى بلاده، فوافق الرجل على ذلك وخرج ليعد بعض الخيول لإعادة السلطان، وخلال ذلك أتى كردى آخر ، وعرف من زوجة الكردى أنه السلطان فقتله الكردى الضيف. وهكذا انتهت حياة آخر سلاطين الدولة الخوارزمية فى عام ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م [٤٢]. واذا أردنا أن نضع أسبابا لزوال الدولة الخوارزمية، فيمكن القول أن ذلك يرجع إلى قوة النظام الاجتماعى والعسكرى المغولى وإلى ضعف النظام العسكرى عند الخوارزميين ، وإلى اضطراب الأحوال الداخلية فى الدولة الخوارزمية بعد الضربات الشديدة المتلاحقة التى أنزلتها القوات المغولية بالقوات الخوارمية[٤٣] .

(٤١) حافظ احمد حمدي: المرجع السابق - ص١٩٣.

(٤٢) ابن الاثير: المصدر السابق - جـ١٢ - ص٣٨٣ - ٣٨٤.

(٤٣) حافظ احمد حمدي : المرجع السابق - ص ١٩٥.

٢ - فى دولة الكرج :

أما فيما يتعلق بغزو المغول لمملكة الكرج (جورجيا) التى تقع فى اقليم القوقاز الى الشرق من البحر الاسود، فيمكن القول أن عملية غرو المغول لهذه المملكة قد جاء اثناء قيامها باجتياح الدولة الخوارزمية ، ويروى ابن الأثير أنه لما فرغ المغول من غزو اذربيجان وأران سواء أكان عسكريا أم سلما، اتجه المغول الى بلاد الكرج فى عام ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م ولما علم ملكها جورج الرابع George IV (١٢١٢ - ١٢٢٣م) بذلك دفع بالقوات الكرجية الى أطراف البلاد ليصدوا المغول عن البلاد، ولكن القوات الكرجية ولت الأدبار أمام القوات المغولية وفرت منهزمة ، فأخذهم المغول بالسيف، ولم يسلم منهم إلا الشريد، ويقال أن عدد القتلى بلغ ثلاثين الفا، كما أن القوات المغولية عاثت فساداً فى الأراضى التى دخلوها. أما القوات الكرجية فقد عادت إلى العاصمة تفليس Tiflis ، ولكن الملك جورج الرابع نظم قواته مرة اخرى ودفع بها لمواجهة المغول حتى لا تتوغل داخل البلاد ، ولكن المغول بعدما قاموا بأعمال النهب والقتل والتخريب شعروا أنهم فى بلاد جبلية كثيرة المضايق، فلم يتجاسروا على الدخول اليها فعادوا أدراجهم(٤٤). ولعل انسحاب القوات المغولية ما دفع الكرج إلى تصورهم أنهم انتصروا عليهم وأن المغول طلبوا السلامة .

ويبدو أن انسحاب المغول جعل الكرج يعتقدون بانتصارهم على المغول، فهاجموا بعض المدن الاسلامية ، ومرجع ذلك ان صاحب قلعة سُرمارى وهى من أعمال أرمينيه سار إلى خلاط لانه كان فى طاعة حاكمها شهاب الدين

---

(٤٤) ابن الاثير: المصدر السابق - جـ١٢ - ص٤١٤ - ٤١٥.

غازى ابن العادل ابى بكر بن أيوب، وبعدها توجه صاحب قلعة سُرماری إلى بلاد الكرج فنهب عدة قرى وعاد . ولما علم ملك الكرج بذلك جمع عسكره وسار إلى سُرماری فحاصرها عدة أيام ورجع إلى بلاده بعدما نهب المدينة وسوادها. وقد لحق به صاحب سُرماری وانتصر على مؤخرة القوات الكرجية فقتل وغنم واستنفذ بعض ما أخذوه من غنائم . وتجددت الحرب مرة أخرى، ونجحت القوات الاسلامية فى انزال الهزيمة بقوات الكرج وأسرت بعض أكابر الدولة ومن سلم من الكرج عاد إلى بلاده . وقد أرسل ملك الكرج إلى الأشرف موسى بن العادل صاحب ديار الجزيرة ، وقال له كنا نظن أن الصلح قائم بيننا ، فإن كنا على الصلح فنريد إطلاق أصحابنا من الأسر، وان كان الصلح قد انفسخ بيننا فتعرفنا حتى ندبر أمرنا ، وقد انتهى الأمر باطلاق الأسرى وتجديد الصلح (٤٥).

وتجاوزت دولة الكرج حدودها باعتدائها على بلاد المسلمين مثل خلاط، واذربيجان، وأران ، وأرزن الروم ، ودربند شروان ، وهذه الامارات مجاورة لهم، وكثيرا ما سفكوا دماء المسلمين ونهبوا أموالهم ، والمسلمون فى هذه البلاد تحت الذل والخزى . وقد صور المؤرخ ابن الأثير ذلك فى صورة حزينة لعدم قيام الحكام المسلمين بواجبهم تجاه هذه الاعتداءات . ولما سمع جلال الدين منكبرتى الخوارزمى بذلك أراد أن يقصد بلاد الكرج ليقاتلهم ويملك بلادهم. وبعد ما نجح جلال الدين منكبرتى فى السيطرة على أذربيجان خلال صراعه مع المغول أرسل الى الكرج يعلنهم بالقتال ، فأجابوه بأننا قد قصدنا التتر الذين فعلوا بأبيك؛، وهو أعظم منك ملكا، وأكثر عسكرا ، وأقوى

---

(٤٥) ابن الاثير: المصدر السابق - جـ١٢- ص٤٣٤- ٤٣٥.

نفسا، ما تعلمه، وأخذوا بلادكم ، فلم نُبال بهم ، وكان قصاراهم السلامة منا » (٤٦).

وتجمعت العساكر الكرجية حتى بلغت ما يزيد عن سبعين الف مقاتل، وسارت اليهم القوات الخوارزمية بقيادة جلال الدين منكبرتى فى ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م واستولى على مدينة دوين وكانت للمسلمين واستولى عليها الكرج من قبل ، والتقى الجيشان وانهزمت القوات الكرجية وقُتل منهم عشرون ألف وقيل أكثر ، وأسر الكثير من أعيانهم وفر قائد الجيش إيوانى منهزما ، ولم تتمكن ملكة الكرج روسوداُن Rusudan (١٢٢٣- ١٢٤٥م) أن تفعل شيئا أمام هذه الضربات، ولم ينقذ مملكة الكرج إلا عودة جلال الدين منكبرتى إلى تبريز لاضطراب الأحوال هناك(٤٧).

واستعد السلطان جلال الدين منكبرتى فى العام التالى (١٢٢٦/٦٢٣م)وكانت وجهته دولة الكرج ومهاجمة عاصمتها مدينة تفليس، وهى مدينة من أحصن البلاد وأمنعها، وهى تقع على الجانب الغربى لنهر كور Kur(Cyrus) وقد ملكها الكرج عام ٥١٥هـ/ ١١٢١م. ولما علم الكرج بذلك احتشدوا وجمعوا بعض القوات من الأمم المجاورة لهم مثل اللآن، واللكز والقفجاق وغيرهم ، واجتمعوا فى عدد كبير أصابهم بالغرور . وقد نجح جلال الدين منكبرتى فى إعداد الكمائن للقوات الكرجية فى عدة أماكن فانتصر عليهم فولوا منهزمين لا يلوى الأخ على أخيه، ولا

---

(٤٦) ابن الاثير: المصدر السابق- جـ١٢- ص٤٣٤ - ٤٣٦.

(٤٧) ابن الاثير: المصدر السابق - جـ١٢- ص٤٥٠.

الوالد على ولدة، وتحصنوا فى مدينة تفليس ، لذلك تقدمت القوات الخوارزمية حتى وصلت بالقرب من المدينة ونزلت بالقرب منها (٤٨).

ولجأ جلال الدين إلى حيلة لاجبار القوات الكرجية على الخروج من المدينة، فتوجه ببعض قواته حتى اقترب من المدينة بحجة مشاهدتها وتفقد مواضع الضعف فيها، وفى الوقت نفسه نصب الكمائن حول المدينة، وكان من اقترب من القوات الخوارزمية حوالى ثلاثة آلاف فارس فقط ، فلما شاهدت القوات الكرجية هذه القلة من العساكر الخوارزمية طمعوا فيها لقلة عددها، فخرجوا لقتالهم فتقهقرت قليلا فتبعوها ظنا منهم أنهم انتصروا عليهم . وعندما أصبحت القوات الكرجية فى وسط الكمائن الخوارزمية خرجوا اليهم وقاتلوهم فسقط الكثير وانهزم الباقون ودخلوا المدينة فتبعتهم القوات الخوارزمية . وفى الوقت نفسه انتفض أهل المدينة المسلمون ونادوا بشعار الاسلام ، وهنا لم تجد القوات الكرجية مفرا غير الاستسلام ، فملك جلال الدين منكبرتى المدينة عنوه وقهرا بغيرأمان، فقتل الكثير ولم يبق على صغير أو كبير إلا من أذعن للاسلام، كما تم نهب المدينة، وسبى النساء ، واسترقاق الأولاد . ويلاحظ أن الأذى قد أصاب أيضا بعض مسلمى المدينة، وفر الكثير من أهل الكرج الى المدن الأخرى الكرجية مثل قرس وآنى وغيرهما من الحصون . ولم يستقر الحال على ذلك فقد ترك جلال الدين حامية قليلة بالمدينة، وفرق عساكره على المواضع الدافئة الكثيرة المرعى ليقضوا فيها الشتاء (٤٩).

---

(٤٨) ابن الاثير: المصدر السابق - جـ١٢- ص٤٥٠ وما بعدها.

(٤٩) ابن الاثير: المصدر السابق - جـ١٢- ص٤٦٩.

وخلال ذلك أساءت القوات الخوارزمية الموجودة بالمدينة السيرة فى رعية تفليس من المسلمين وعسفوهم ، فكاتبو الكرج يستدعونهم اليهم ليملكوهم المدينة ، وقد انتهز الكرج هذه الفرصة خاصة لقلة القوات الخوارزمية بها. وقد نجحت القوات الكرجية القادمة من قرس وآنى وغيرها من الحصون فى دخول المدينة وملكوها ووضعت السيف فيمن بقى من القوات الخوارزمية، ولكنهم شعروا بعدم قدرتهم على الاحتفاظ بالمدينة فأحرقوها ، وغادروها ، ولم علم السلطان جلال الدين بذلك سار بعساكره الى مدينة تفليس ، ولكنه وجد القوات الكرجية قد فارقتها بعد إحراقها. ويشير المؤرخ الأرمينى كيراكوس جانجاكتس Kirackos Ganjaketsis انه فى هذه المرحلة كانت مملكة الكرج تمر بحاله من الضعف الشديد لانها كانت تحت حكم أمراء تدعى روسودان، وانها كانت تعتمد على عدد من القادة غير الأكفاء فى مواجهة الغزوات الخارجية (٥٠).

واذا كانت مملكة الكرج قد أمنت شر القوات الخوارزمية فأنها لم تلبث أن واجهت قوات الغزو المغولى ، وقد اختلف المؤرخون فى بدايات الغزو المغولى لمملكة الكرج، الا انه يمكن القول أن الغزو المغولى كان قبل عام ١٢٢٣م واتخذ مراحل متعددة . وبداية هذه الاحداث كانت هجمات المغول على مدينة جاندزاك Gandzak ، وكانت هذه المدنية مليئة بالسكان المسلمين إلى جانب عدد قليل من المسيحين . لذلك فان الله عاقب المدينة مثلما عاقب مدينة القدس(٥١). وقد ارتعدت المدينة عندما شعرت باقتراب القوات المغولية اليها. وقد نجحت هذه القوات فى حصار المدينة من كل جانب

(٥٠) Kirackos, History of Armenians, tran. Robert Bedrosian, New York, 1986, p. 200.

(٥١) Ibid. p. 197.

ونصبت المجانيق وتخريب كل الحدائق التى كانت تحيط بالمدينة ثم بدأت فى ضرب أسوار المدينة بالمجانيق. وعندما شعر أهل المدينة بقرب سقوطها اتجه بعضهم إلى منازله وأحرق ما فيها حتى لا تقع غنيمة باردة فى يد المغول ، وقد إقتحم المغول المدينة ووضعوا السيف فى رقاب أهلها من الرجال والنساء والاطفال، وقد نجح البعض فى الهرب من المدينة ، كما أسرت القوات المغولية العديد، وقد ظلت المدينة على هذه الحالة عدة أيام ثم رحلت القوات المغولية. ويبدوا أن هذه الاحداث كانت نوعا من الغارات التى يقصد بها معرفة قدرات الدولة الكرجية (٥٢).

وفى عام ١٢٣٦م قامت القوات المغولية بعملية غزو منظمة على دولة الكرج ودولة أرمينية. وقد قسمت القيادة المغولية هذه الاراضى على القوات المغولية وعهدت لكل قائد بغزو المنطقة التى خصصت له، ووضعت هذه القوات كلها تحت قيادة القائد المغولى الشهير بياجو نويين . وقد انتشرت القوات المغولية خلال السهول والجبال والوديان مثل أسراب الجراد أو مثل المطر المنهمر الذى ينزل فى كل مكان ، ولم يعد أمام أهل الكرج مكانا يلجأون اليه. وكان صياح المغول وكثرة سهامهم قد ملأت الجميع بالرعب، وقد رأى كل فرد الموت يلاحقه من كل جانب ، كما لجأ الاطفال إلى آبائهم هربا من القتل بالسيف، فى الوقت الذى ارتعد فيه الآباء والأمهات خوفا من المغول . ويضيف المؤرخ الأرمينى كيراكوس وهو أحد شهود العيان أن الانسان قد يرى السيوف وهى تقتل الرجال والنساء والشباب والاطفال والكهول، ورجال الدين بالاضافة إلى ضرب الاطفال فى الصخور، كما سبوا الكثير، وقد استمتع المغول بكل هذه الأعمال واحتفلوا

---

(٥٢) Kirakos, op. cit., p. 197 - 200.

بعد ذلك بالشراب. وقد امتلأت الأماكن بجثث القتلى ، والعيون بالدموع . وكانت غنائم المغول كثيرة. ويصف نفس المؤرخ أن المغول كانوا يتحركون بسرعة مثل ماعز الجبال ويظهرون كالذئاب، وكانت خيول المغول لا تشعر بالتعب ، كما أن المغول انفسهم لم يتعبوا من جمع الغنائم. ويعزى المؤرخ هذه الاحداث الى انتقام الله من أهل الكرج لكثرة ما ارتكبوه من خطايا [٥٣].

ومن المدن التى تحدث عنها المؤرخ مدينة شامكور Shamkor ، فقد ذكر أن القائد المغولى بياجو نويين قد أرسل قوة مغولية تقدر بحوالى مائة جندى، وطلب منها سد منافذ المدينة. ثم بدأ القوات المغولية فى التدفق على المدينة يوما بعد يوم حتى وصل القائد المغولى نويين ، وأعطى أوامره بملأ الخندق الذى يحيط بالمدينة بالأخشاب والمواد الأخرى حتى يمكن الوصول الى سور المدينة، ولكن أهالى المدينة سارعوا باشعال النار فى المواد التى ملأت الخندق فأفسدوا خطة المغول فى الوصول الى أسوار المدينة، ولكن القائد المغولى أمر قواته بملأ الخندق بالتراب ، وعندما تم ذلك أصبحت الأرض الخارجية للمدينة فى مستوى سور المدينة. وقد نجح المغول بهذه الطريقة فى وصول قواتهم إلى المدينة فاستولوا عليها، وانزلوا القتل فى السكان واحرقوا المبانى بعدما استولوا على ما بها ، ثم حاصرت القوات المغولية قلعة المدينة وكانت تحت قيادة القائد فاهرام Vahram وآخرين الذين تولوا الدفاع عن المناطق المخصصة لكل منهم . ومن شدة ضربات القوات شعر فاهرام بعدم جدوى المقاومة فلاذ بالفرار [٥٤].

---

(٥٣) Kirakos, op. cit., p. 200 - 204.

(٥٤) Ibid., p. 204.

وقد حاصرت القوات المغولية الأماكن الحصينة فى المدينة بعد ما نجحوا فى الحصول على بعض الخيول . وفى النهاية سيطرت القوات المغولية على المدينة وفرضت عليها الضرائب . ثم تحركت القوات المغولية بأسلابها الى طاووش Tawush ، وكاتسارت Katsaret ، ونوربرد Norberd وجاج Gag ، والمناطق المحيطة بهذه الاماكن والقت الحصار عليها (٥٥).

وتحدث المؤرخ كيراكس عن سقوط مدينة لور Lorhe التى تقع على أحد الفروع الجنوبية لنهر كور . وذكر أن القائد المغولى الغام جغتاى سمع عن تحصينات هذه المدينة وعن ثرواتها الكبيرة التى تخص أميرها شاهنشاه، وقد توجه جغتاى الى المدينة بقواته ومعه معدات الحصار واستعد استعدادا جيد والقى الحصار على المدينة ، وعندما علم شاهنشاه بذلك أخذ زوجت وأولاده واتجه الى أحد الأودية حيث وجد كهفا واختبأ فيه ومعه أسرته بعد أن عهد بالمدينة إلى أصهاره، ولكن هؤلاء كانوا ضعفاء ويقضون أوقاتهم فى اللهو والشراب ولم يهتموا بأمر القتال معتمدين على حصانة المدينة ذاتها(٥٦).

وقد بدأت القوات المغولية فى حفر أنفاق تحت أسوار المدينة حتى انهارت، وفى الوقت نفسه شددت القوات المغولية الحصار على المدينة حتى لا يهرب أحد، ثم ما لبثت المدينة أن سقطت فى أيدى المغول ، وتجمع أهل المدينة يملأهم الخوف فأنزلت القوات المغولية فيهم القتل، وقد نجحت القوات المغولية فى الوصول الى كنوز الأمير شاهنشاه التى كان قد استولى عليها عنوه من أهل المدينة وكانت مخبأة فى خزانه قوية داخل

---

(٥٥) Kirakos, op. cit., p. 205.

(٥٦) Ibid. p. 215.

حفرة . كما تم أسر كبار القوم . كما تم القبض على أصهار الأمير شاهنشاه . كما نجح المغول فى إسقاط بعض المدن الأخرى، واستولوا على الكثير من الغنائم ، ولم يكن بمقدور القوات الكرجية أن تقف فى وجه القوات المغولية ، وعندما سقطت العاصمة تفليس هربت الملكة الكرجية روسودان وبعدها استسلم كل أمراء دولة الكرج للقوات المغولية (٥٧).

وفيما يختص بسقوط مدينة آنى Ani فى أيدى المغول يحدثنا المؤرخ نفسه ويقول أن مدينة آنى كانت عامره بالسكان بالاضافة إلى الثروة الحيوانية، ويحيط بالمدينة أسوار منيعة. كما كان فى المدينة العديد من الكنائس المزودة بالنفائس . ويقال أنه كان بها ما يزيد عن ألف كنيسة، كما أنها كانت مدينة تجارية ، ومن هنا كان اهتمام المغول بالسيطرة عليها. وقد بدأت الأحداث عندما أرسل القائد المغولى شورماجون Chormaghun إلى المدينة يطلب الاستسلام للقوات المغولية . ولم يكن بوسع المسئوليين عن المدينة الاجابة على طلب المغول قبل الرجوع الى شاهنشاه باعتبار المدينة تحت سلطانه . ولكن العامة فى المدينة قتلوا سفراء المغول . ولم يكن أمام القوات المغولية سوى القاء الحصار على المدينة وإقامة المجانيق عليها من كل جانب ، وقد حاربت بكل مهارة حتى استولت عليها . واستسلم بعض نبلاء المدينة للمغول . كما هرب البعض الآخر ومعهم العامة إلى خارج المدينة وظنوا أنهم أصبحوا آمنين (٥٨).

وقد قسم المغول من استسلم اليهم الى مجموعات ثم قتلوهم بكل وحشية، وقد اختارت القوات المغولية بعض النساء والاطفال والحرفيين

---

(٥٧) Kirakos, op. cit., p. 216-7.

(٥٨) Ibid. p. 220-1.

وأخذوهم أسرى. وعندما دخل المغول المدينة نهبوها كما استولوا على النفائس التى كانت بالكنائس وضاع بهاء المدينة بسبب ما أصابها من تدمير . وكانت مشاهد المدينة تدعو للشفقة، فقد وضعت اكوام الجثث فوق بعضها كالحجارة، كما تناثرت الجماجم هنا وهناك وامتلأت الأراضى بالدماء [٥٩].

وسجل المؤرخ كيراكوس استيلاء المغول على مدينة كارس Kars ، وقال أن سكان هذه المدينة لما علموا بسقوط مدينة آنى فى أيدى المغول أسرعوا بتسليم مفاتيح مدينتهم الى القيادة المغولية لعل المغول يبقون على حياتهم. ولكن المغول الذين لا يخشون أحد بالاضافة الى جشعهم أنزلوا بالمدينة ما أنزلوه بمدينة آنى من تخريب وتدمير وأسر ونهب ثم غادروا المدينة ، وبعدما غادرها المغول أتى كيخسرو الثانى Kaykhusraw سلطان سلاجقة الروم (١٢٣٦ - ١٢٤٥م) وأسر من بالمدينة ، وهذا يذكرنا بما ورد فى سفر اشعيا «عليك رعب وحفرة وفخ يا ساكن الأرض . ويكون أن الهارب من صوت الرعب يسقط فى الحفرة والصاعد عن وسط الحفرة يؤخذ بالفخ لأن ميازيب من العلاء انفتحت وأسس الأرض تزلزت» (٢٤ : ١٧-١٨)[٦٠] .

ويقدم لنا المؤرخ الأرمينى كيراكوس جانبا عن كيفية هروبه من الأسر، ويروى أنه وأحد رجال الذى يدعى فاردابت Vardapet أو فاناكان Vanakan قد وقعا فى أسر القوات المغولية ، ويقول أن المغول أخذوه ومعه بعض رفاقه لخدمتهم فى الأعمال الإدارية مثل كتابة وقراءة الرسائل ، وكانوا يصحبونه معهم فى تنقلاتهم ، وعندما يحل الظلام كان

---

(٥٩) Kirakos, op. cit., p. 220-3.

(٦٠) اشعيا: ٢٤: ١٧- ١٨.

يوضع رهن الاعتقال . وعندما كان يسير معهم فانه كان يسير حافى القدمين وعند الضّرورة كان يركب أحد دواب الحمل غير المسرجة، ويضيف أنه بعد انقضاء فصل الصيف وحلول الخريف استعد المغول للرحيل، وقد انتهز بعض الأسرى الآخرين الفرصة وخاطروا بحياتهم ولاذو بالفرار تحت جنح الظلام. وقد نجح جميع الاسرى فى الفرار عدا اثنين من رجال الدين لعدم قدرتهم على الفرار، وقد امسكت بهما القوات المغولية وقتلتهما حتى يكونا عبرة للآخرين(٦١).

وأمام الضربات المتلاحقة التى أنزلها المغول بدولة الكرج، بدأ حكام الدولة يستلمون ويخضعون لحكم المغول . وفى هذا الصدد يروى المؤرخ كيراكوس أن الأمير آواج Awag ابن الأمير إيوان Iwane قد فر من أمام القوات المغولية ولجأ إلى حصن كايين Kayean ، والتف حوله العديد من سكان الضواحى. وعندما علم المغول بذلك أرسلوا إليه أحد قادتهم يدعى إتولاطا Itulata ومعه بعض القوات المغولية ، وقام بحصار المنطقة المحيطة بالقلعة التى يحتمى بها أواج، وأرسلوا رسالة إلى أواج يطلبون منه الحضور لتقديم فروض الولاء والطاعة ، ولم يجب أواج على الرسالة فأرسلوا اليه مرة بعد أخرى، وأخيرا رأى الأمير أن يسالم المغول فأرسل اليهم ابنته وبعض الهدايا لعلهم يرفعون الحصار عن المدينة ، ولكنهم أخذوا الهدايا وأصروا على حضوره شخصيا اليهم . وخلال هذه الفترة كان من بداخل القلعة أو حولها يعانون من نقص المياه . وحتى يحصلون على المياه بدأوا فى تسليم الخيول والامتعة للمغول لعلهم بتركونهم يذهبون ويحضرون المياه لهم ولدوابهم . وقد سمح المغول لبعضهم بذلك فخرجوا ولكن المغول

---

(٦١) Kirakos, op. cit., p. 221-2.

حاصروهم وطلبوا منهم العيش معهم، ولم يكن أمامهم سوى إحضار عائلتهم والعيش مع المغول، وقد أخذ المغول بعض النساء ثم قاموا بقتل أزواجهن ، كما تركوا الاخرين ليعيشوا مع أسرهم [٦٢].

ولم يكن أمام الأمير أواج أمام هذه الاحداث سوى أن يسلم نفسه الى المغول لعله يخفف من معاناة المواطنين ، لذلك أرسل مبعوثا من قبله إلى المغول ليقدم لهم فروض الولاء والطاعة . وقد وصل هذا المبعوث الى القائد المغولى شورماجون الذى كان يقيم عند بحيرة سيفان Sevan ، وقد سعد هذا القائد كثيرا وأرسل ليرفع الحصار عن حصن كايين. وعند هذه المرحلة خرج الأمير أواج واتجه الى القائد المغولى الذى عاتبه لعدم الخروج لمقابلته والترحيب به عندما قدم الى المنطقة ، ثم اكرمه واجلسه إلى جواره وأمر بالطعام والشراب[٦٣].

وكان على أواج أن يذهب بعد ذلك لتقديم فروض الولاء والطاعة الى الخان الأعظم فى العاصمة قراقورم ، وقد ذهب اواج ومعه خطابات اعتماده من القائد المغولى شورماجون ، وذكر أنه قادم لتقديم فروض الولاء والطاعة وأن يكون فى خدمة المغول ، وقد استقبله الخان الاعظم بكل ترحاب وأنعم عليه وأعاده الى بلاده . وبعد عودته دخل العديد من الأمراء فى طاعة المغول وأصبح لهم السيادة على أراضيهم مرة أخرى، فانتظمت الأحوال وتقررت الضرائب ، وتم إحصاء الحيوانات ووضعت العلامات والاختام عليها. أما فيما يتعلق بالمملكة روسودان فقد نصحها البعض بالخضوع الى

---

(٦٢) Kirakos, op. cit., p. 216-9.

(٦٣) Ibid. p. 218 - 220.

الخان الاعظم. وقد وقعت على معاهدة صداقة وسلام تخضع بموجبها الملكة وابنتها داود للسيادة المغولية [٦٤].

٣ - فى بلاد الأرمن :

أما فيما يتعلق بمملكة أرمينية فقد كان يتولى أمرها الملك هيثوم الاول Hethum I (١٢٢٦ - ١٢٦٨م) . وقد آلت اليه المملكة عندما]jbm من وريثه العرش ايزابيلا Isable (Zabel) ابنه الملك ليو الثانى Leoi II (١١٩٨ - ١٢١٩م) . وكان العداء قائما بين مملكة أرمينية وإمارة أنطاكية الصليبية بسبب زواج ايزابيلا من الأمير فيليب الأنطاكى فى عام ١٢٢٢م، وبذلك صار فيليب هذا ملكا على أرمينية (١٢٢٢ - ١٢٢٥م) . وبعد انفصال ايزابيلا عن فيليب ساد العداء بين إمارة أنطاكية ومملكة أرمينية. وقد ظل هذا الوضع حتى عام ١٢٥٠ حين توسط لويس التاسع Louis IX ملك فرنسا (١٢٢٦ - ١٢٧٠م) أثناء وجوده فى بلاد الشام خلال حملته على الاراضى المقدسة . وانتهى الأمر بزواج سبيلا ابنه هيثوم ملك أرمينية من بوهمند السادس أمير انطاكية فى عام ١٢٥٤، فقام تحالف بين الاثنين [٦٥].

أما فيما يتعلق بعلاقة الأرمن بالمغول فيمكن القول أن دولة أرمينية لم تكن على طريق فتوحات القوات المغولية ، كما أن العمليات العسكرية التى قامت بها القوات المغولية قد انهكتها فلم تفكر فى غزو البلاد الأرمينية ، والنقطة الهامة جدا فى هذا الموضوع هو مبادرة الملك هيثوم

---

(٦٤) Kirakos, op. cit., p. 224 - 230.

(٦٥) Smbat, La Chronique, Traduction par Gerard Dedeyan, Paris, 1980, p. 98.

بالخضوع للقوات المغولية عندما شعر بالخطر . والحقيقة أن الأرمن قد يئسوا تماما من حكومات الغرب الأوروبى فى مساعدتهم والدفاع عنهم باعتبارهم دولة مسيحية على مذهب مخالف للإمبراطورية البيزنطية ، وفى وسط الأمم الاسلامية، لذلك وجدت فى الارتماء فى أحضان المغول عوضا عن المساندة الغربية والصليبية . وكان من نتائج خضوع الدولة الكرجية والأرمينية أن حاربت قوات هاتين الدولتين ضد دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى، وكذلك نرى المصادر العربية والاجنبية تشير الى وجود القوات الكرجية والارمينية داخل صفوف القوات المغولية عند الهجوم على بغداد عام ١٢٥٨، وكذلك فى الحروب التى تلت سقوط بغداد فى ميافارقين وبلاد الجزيرة وشمال الشام ضد المماليك [٦٦].

٤ - فى سلطنة سلاجقة الروم :

وفيما يتعلق بدولة سلاجقة الروم وسقوطها فى المغول ، فأن ذلك يرجع الى عدة أسباب متداخلة ومتشابكة، وليس لنا فى هذا المقام أن نناقش كل ذلك، وسأحاول قدر الامكان القاء الضوء على بعض هذه الاحداث لعلها تضع أمام القارىء صورة قريبة من الواقع عن العلاقات المتشابكة بين دولة سلاجقة الروم، وبين الدولة الخوارزمية ، وبين الكرج، وبين الأرمن وأخيرا الدولة الأيوبية .

ومن هذه الأحداث انه بسبب غزو المغول لأراضى الدولة الخوارمية اتجه جلال الدين منكبرتى فى عام ١٢٢٨م الى مدينة خلاط وكانت تحت حكم الملك الأشرف بن الملك العادل الأيوبى الذى كان بدمشق فى هذه المرحلة

---

(٦٦) Grigor of Akanc, op. cit, pp. 65 ff.

باعتباره صاحب دمشق وديار الجزيرة وخلاط ، وقد قاومت جنود الاشرف وكل أهل المدينة الهجوم الخوارزمى ، وظل الحصار طوال فصل الشتاء . ونظرا لشدة البرد فى هذه المدينة وكثرة ثلوجها فرق جلال الدين عساكره فى البلاد والقرى القريبة . وبعد فترة الشتاء عادت القوات الخوارزمية وأقامت عليها المجانيق وضربتها حتى خربت ، فأعاد أهل خلاط عمارتها ، وظل الحصار حوالى ثمانية أشهر أى حتى جمادى الاولى ٦٢٧هـ/مارس ١٢٢٩، حين زحف عليها السلطان جلال الدين متتابعا وملكها عنوة وقهرا . وقد نجحت القوات الخوارزمية فى دخول المدينة، وعند هذه المرحلة صعد أمراء المدينة إلى القلعة، وبدأت القوات الخوارزمية فى قتل أهل المدينة وكانوا قد أصبحوا قليلى العدد بعدما هجرها الكثير ، ومات البعض من الجوع . وانتهى الأمر بسقوط المدينة فى أيدى جلال الدين منكبرتى [٦٧].

وعند هذه المرحلة لجأ الملك الاشرف الى التحالف مع سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيقباذ الأول (١٢١٩ - ١٢٣٦م) ، أو بمعنى أدق طلب كيقباذ من الملك الكامل الأيوبى ملك مصر (١٢١٨ - ١٢٣٨م) أن يرسل اليه أخاه الأشرف من دمشق لمواجهة جلال الدين منكبرتى ، وسبب ذلك يرجع إلى أن صاحب مدينة أرزن الروم هو ابن عم سلطان سلاحقة الروم ، وكانت بينهما عداوة، لذلك عندما حاصر جلال الدين منكبرتى مدينة خلاط اتجه اليه صاحب أرزن الروم واعانه على حصارها ، وانتهى الحال بتجمع قوات سلاجقة الروم وقوات الملك الاشرف فى مدينة سيواس ، واتجه الجميع نحو خلاط ونجحوا فى هزيمة القوات الخوارزمية ، وعادت خلاط الى حكم الملك الاشرف [٦٨].

---

(٦٧) ابن الاثير: المصدر السابق - جـ١٢ - ص٤٨٧ - ٤٨٨.

(٦٨) ابن العبري: المصدر السابق - ص٢٤٥- ٢٤٦.

وبعد هذه المرحلة استولى السلطان كيقباذ على مدينة خلاط فبدأ الصراع بين البيت الأيوبى وسلاجقة الروم ، وقد اتجه الملك الكامل من مصر إلى دمشق واتفق مع أخيه الملك الأشرف على قتال كيقباذ ، وتقدمت القوات الأيوبية بقيادة الكامل، والاشرف، والملك المجاهد صاحب حمص ، الملك المظفر صاحب حماة ، ووصل اليهم الملك الناصر صاحب الكرك وغيره من ملوك البيت الايوبى ، وقد وصلت القوات الأيوبية فى أوائل عام ٦٣٢هـ/سبتمبر - أكتوبر عام ١٢٣٤م على النهر الأزرق وهو أحد نهيرات الفرات الاعلى ويجرى بين بهنسا وحصن منصور[٦٩] ، وتقع هذه الاماكن فى الاطراف الشرقية الجنوبية لسلطنة سلاجقة الروم ، ولما علم كيقباذ بذلك اتجه اليهم حتى نزل قبلى مكان يسمى زُلى، وقد صعد رجالة السلاجقة الى قمم الدربند بالقرب من قرية تسمى «نور» وبنوا سورا قويا وقاتلوا منه، ومنعوا من يصعد اليه، وانتهى الحال بأن قلت الأقوات عند القوات الأيوبية. واضطر الملك الكامل إلى التراجع حتى وصل الى مدينة خرتبرت (حصن زياد) بناء على طلب حاكمها وبذلك دخل فى طاعة الملك الكامل . وانتهى هذا القتال بانتصار القوات السلجوقية على القوات الأيوبية ، واستيلاء كيقباذ على مدينة خرتبرت[٧٠].

وبعد علاء الدين كيقباذ تولى السلطان غياث الدين السلطنة (١٢٣٦-١٢٤٥م) وقد تزوج هذا السلطان من ابنه ملكة الكرج ، وقد أحب

---

(٦٩) ابن العديم: زبده الحلب في تاريخ حلب - عني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه سامي الدهان - دمشق ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م - جـ٣- ص٩٦٢ - ٩٦٤، المقريزي: السلوك -جـ١ ق١ - ص٢٤٨.

(٧٠) ابن العديم - المصدر السابق - جـ٣ - ص٦٩٢ - ٦٩٤، ابن العبري: المصدر السابق - ص ٢٤٦.

هذا السلطان زوجته هذه حبا مفرطا وأصبح على مثال الصبيان منهمكا فى الشرب والأكل ومّداعبة الطيور والحيوانات ، وترك سياسة المملكة فى أيدى عبيده، فصار كل منهم يعمل ما شاء . وكانت هذه الزوجة التى وردت فى المصادر العربية باسم كرجى خاتون نصرانيه ، وقد حضر معها يوم عرسها الجاثليق والاساقفة والكهنة وأخوها داود الصغير صاحب الكرج الداخلية، ولكنها أسلمت بعد ذلك (٧١). وقد وقعت بعض المشاكل بين الامراء السلاجقة وبين داود هذا، وانتهى الأمر به إلى السجن قد أحد القلاع ومعه الجاثليق، وقد ظلا هناك حتى أقبل المغول وفتحوا القلعة وأطلقوا سراحهما ، ويرى آخرون أن داود هذا قد حارب الى جانب السلطان ضد المغول (٧٢).

أما فيما يتعلق بغزو المغول لسطنة سلاجقة الروم ، فتبدأ عندما أرسل الخان مونكو القائدين جرماغون وبياجو نوين على رأس القوات المغولية الى بلاد سلاجقة الروم ، وكانت أول مدينة نزلت عليها القوات المغولية مدينة أرزن الروم فى عام ١٢٣٩م ، وقد كانت مدينة كرجيه استولى عليها سلاجقة الروم عام ١٢٣٠م ، لذلك يعدها المؤرخون الكرجيون ضمن بلادهم. وكان يحكم هذه المدينة آنذاك سنان الدين ياقوت وهو أحد مماليك السلطان علاء الدين كيقباذ. وقد حاصرها المغول مدة شهرين ونصبوا المجانيق عليها فهدموا أسوارها. وكان يصاحب القوات المغولية القوات الكرجية باعتبارها

---

(٧١) الداودار: زبدة الفكر في تاريخ الهجرة - تحقيق دونالد س. ريتشاردز - بيروت ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م - ص٢٠، ابن العبري: تاريخ الزمان - بيروت - دار المشرق - ١٣٨٦هـ/ ١٩٨٦م - ص٢٨٤.

(٧٢) Grigor of Akanc, op. cit., p. 41.

دولة خضعت عسكريا للقوات المغولية (٧٣)، والقوات الأرمينية باعتبارها خاضعة طواعيه لحكم المغول. وفى نهاية الحصار سقطت المدينة فدخلتها القوات المغولية وقتلوا الجند واستبقوا أرباب الصنائع وذوى المهن وداسوا الأطفال بحوافر الخيل وغنموا وسبوا وقتلوا . وعند هذه المرحلة مات القائد جرماغون وهو فى مدينة سُرمارى، فلما مات أبلغ القائد بياجونوين الخان الاعظم بذلك ، فأرسل اليه قائدا آخر هو خجانوين واشترط عليهما ألا يفعلا شيئا إلا بالاتفاق (٧٤).

وبعدما انتظمت القوات المغولية مرة أخرى سارت ومعها القوات الكرجية والأرمينية وقصدت بلاد سلاجقة الروم فى عام ١٢٤٢م، وفوجىء السلطان غياث الدين بهذه الحالة فاضطرب حاله لأن بعض قواده كانوا يحثونه على القتال والبعض الآخر يأخرونه ، وكان المغول يتقدمون حتى وصلوا الى مدينة أقشهر زنجان ونزلوا بالصحراء التى هناك . وعند هذه المرحلة جمع السلطان غياث الدين جيشه وسار للقائهم وأخذ حريمه معه ليقاتل قتال الحريم ونزل على كوس داغ Kose Dagh ، كما حمل معه الكثير من الفضلة والذهب والاشياء الثمينة التى يمتلكها حتى يشغل بها القوات المغولية عن القتال، كما أحضر معه بعض الحيوانات المتوحشة مثل الاسود والنمور وبعض الحيوانات الأليفة مثل القطط حتى يظهر بمظهر القوى الذى لا يخشى القوات المغولية . ويقال أن القوات السلجوقية قد بلغ عددها مائة وستين ألف محارب(٧٥).

---

(٧٣) Grigor of Akanc, op. cit., pp. 39- 41.

(٧٤) الدودار: المصدر السابق - ص٢٠.

(٧٥) ابن العبري: المصدر السابق - ص٢٨٤، الدودار - المصدر السابق - ص٢٠ - ٢١.

ومنطقة كوس داغ هى الجبل الأمرد، وهى تشرف على المكان المنخفض الذى نزلت فيه القوات المغولية. وقد تشاور غياث الدين مع قادته فى كيفية محاربة المغول . فتكلم الجميع وأبدوا آراءهم ، ومنهم من هول أمرهم فغصب دواد أخو كرجى خاتون زوجة السلطان ، وطلب من السلطان أن يعطيه القوات الكرجية والفرنجية التى فى جيش السلطان وينزل لمحاربة المغول. وفى الوقت نفسه تقدم أحد قادة السلطان والزم نفسه بالايمان المغلظة أنه لابد أن يلاقى المغول بنفسه ومن ينضم اليه، فركب ومعه نحو من عشرين ألف فارس وركب السلطان على الأثر وركبت عساكره ونزل الجميع لمحاربة المغول فى الصحراء، ولكنه وجد أمامه واديا عميقا قد قطعه السيل فلم يستطع أن يقطعه ، فسار فى لحف الجبل يطلب طريقا يمكنه من التوجه نحو المغول، ولكن المغول تحركوا بسرعة لمواجهة القوات السلجوقية واقتربوا منه وأرسلوا اليه سهاما كالشهب المحرقة ، فأهلكوا أكثر خيله وخيل من معه ، وكان السهم لا يقع إلا فى الفارس أو الفرس . وعند هذه المرحلة أدرك جنود السلاجقة أن الهزيمة قد لحقت بهم فطلب كل منهم لنفسه النجاة وفر نحو ملجأ . أما السلطان غياث الدين فقد ثبت فى مكانه وقيد الفرس ووقف على أعلى الجبل ظنا منه أن عساكره التى تقدمت قد نزلت ونازلت المغول، ولم يكن يعلم بما أصابهم من الافتراق، وان كل جماعة منهم صارت إلى أفق من الآفاق، فأتاه الخبر بذلك وهو فى قلة ممن معه . وكان معه جماعة من الأمراء نقم عليهم وحبسهم فأطلقهم ، وسلم الحريم إلى احدهم وأمره أن يتوجه بهم الى العاصمة قونيه التى كانت على مسيرة شهر من كوس داغ ، وقد ترك الحريم القماش والفرش والأثاث ولم يحملوا إلا الجواهر النفيسة التى خف حملها وسهل نقلها ، كما رحل السلطان غياث الدين وترك خيامه والاثقال التى كانت له وكل خزائنه . ولما رأى المغول ما

حدث ظنوه خدعة من السلطان ، فلبثوا ثلاثة أيام لا يتجاسرون على العبور إلى مخيم السلطان ، فلما تحقق لهم الأمر دخلوا معسكر السلطان فوجدوه خاويا، فجمعوا ما به من الخيول والاثاث والاثقال وعادوا الى معسكرهم ومعهم دواب الحمل من خيول وحمير وجمال والعديد من الحيوانات الأخرى(٧٦).

ويضيف المؤرخ الكرجى كيراكوس أن القوات المغولية اتجهت بعد ذلك إلى مدينة قيصرية الواقعة فى إقليم كبادوكيا والقوا الحصار عليها، ولم يستسلم سكانها للقوات المغولية ، ولكن المغول استولوا عليها عنوة وقتلوا السكان ونهبوا كل ما كان بالمدينة وتركوها خرابا ، ثم تقدمت القوات المغولية إلى مدينة سبسطيه . ويبدو أن سكان هذه المدينة قد علموا بما حل بمدينة قيصرية فاستسلموا وخرجوا من المدينة يرحبون بالمغول ومعهم الهدايا، ولذلك لم ينزل المغول بسكان المدينة الاذى ولكنهم نهبوا ما بها . وتقدمت القوات المغولية وحاصرت مدينة إرزنجان Erzingan ، ولم تستسلم المدينة وقاومت كثيرا، لذلك دارات عليها عدة معارك ألقى خلالها أهل المدينة وقواتها العديد من السهام على القوات المغولية فى الوقت الذى لم تتلق فيه المدينة أى مساعدة عسكرية من أى جانب . وقد لجأ المغول الى حيله هى أنهم أمنوا أهل المدينة واعتبروهم أصدقاء ، فخرج أهل المدينة للقاء المغول ولكن القوات المغولية أنزلت فيهم القتل ، ولم يفرقوا بين الرجال أو النساء ولم يبقوا إلا على القليل من النساء والبنات واقتادوهم أسرى (٧٧).

---

(٧٦) Kirakos, op. cit., pp. 244 - 5., Grigor of Akance, op. cit., p 41.

(٧٧) الدودار: المصدر السابق – ص٢١ -٢٢ ، Kirakos, op. cit., p. 244

وبعدما عاثت القوات المغولية فسادا فى العديد من الضواحى والأراضى تقدموا حتى وصلوا إلى مدينة تفريق Tiwrike أو Tephrice ، وقد أدرك أهل المدينة أنه ليس بمقدرتهم مقاومة القوات المغولية عسكريا ، لذلك فضلوا الاستسلام ، وقد استولى المغول على الكثير من بضائعهم وتركوا المدينة دون أن يحلقوا بهم الأذى، وعادت القوات المغولية إلى معسكراتهم فى أرمينيه والكرج . وهكذا انتهى تقريبا غزو وسيطرة المغول على بلاد سلاجقة الروم فى عام ١٢٤٣م (٧٨).

وهناك نقطة هامة فى هذا الموضوع تتعلق بأم السلطان غياث الدين، وواقع الحال أن أم السلطان عندما سمعت بخبر الكارثة أخذت ابنتها أخت السلطان وعبيدها وجواريها وكنوزها وسارت الى بلاد الأمن فى قيليقية ولاذت بالبارون قسطنطين والد الملك هيثوم الذى وعد السلطان بالنجدة واستخف به منتظرا النتيجة ، ولما علم بأن المغول انتصروا على السلطان وقواته أرسل الى القادة المغول يخبرهم بوجود أم السلطان عنده ، فأرسلوا السفراء اليه وتسلموا الملكة . وقد استنكر الملوك والخاصة والعامة هذا العمل المنكر وأبدوا استياءهم من الأرمن (٧٩).

وكان من نتائج هذا كله أن سادت الفوضى بقية مدن السلطنة، ومن ذلك مدينة ابلستين ، ومدينة ملطية ، التي اتجه حاكمها عند سمع بهزيمة السلطان ليلا ومعه بعض أهل البلاط الى الخزانة الملكية واقتسموا ما وجدوه من ذهب وفضة واتخذوا طريقهم جنوبا الى حلب ،

---

(٧٨) Kirakos, op. cit., p. 245.

(٧٩) Ibid. pp. 246 - 7.

وعندما علم زعماء المدينة بذلك هربوا خلفهم ، ولكن جماعة من المغول أدركتهم وأخذت مالهم وأسرت البنين والبنات وفر القليل عائدا الى المدينة عراة حفاة[٨٠] .

أما فيما يتعلق بمصير السلطان غياث الدين فيروى البعض انه لما توالت غارات المغول على أراضى السلطنة ، وكان أمرها يتجه الى الفساد اتفقت وفاة السلطان غياث الدين وكان له من الاولاد ثلاثة هم عزالدين كيكاوس، وركن الدين قلج ارسلان ، وعلاء الدين كيقباذ[٨١] . بينما رأى آخرون أن السلطان غياث قد أرسل الى المغول الوفود وطلب الأمان فصالحوه على مال وخيل ومواشى وعبيد. ويمكن القول أن السلطان قد بدأ بالاتصال بالقادة المغول، ولكن المنية وافته فأكمل أولاده عملية الصلح والمهادنة مع القادة المغول [٨٢].

وواقع الحال انه عندما توفى السلطات غياث الدين استقر أولاده فى السلطنة ولم ينفرد بها أحد عن الآخر وضربت السكه بأسمائهم مشتركة، وخطب لهم جميعا على المنابر، رغم أن السلطان قد فوض ولاية عهده الى ابنه علاء الدين كيقاذ وهو ابن الأميرة الكرجية كرجى خاتون. وقد اتفق أولاد السلطان على أن يتوجه علاء الدين كيقباذ إلى الخان الاعظم منكو فى العاصمة قراقورم يطلب منه الصلح ويقرر الهدنة ويقرر معه الأتاوة ليكف عساكره المتوالية ويمنع جيوشه عن السلب والنهب . ولكن علاء

---

(٨٠) ابن العبري: المصدر السابق – ص٢٨٧. Kirakos, op. cit, p. 250.

(٨١) ابن العبري: المصدر السابق – ص٢٨٨.

(٨٢) الدوادار: المصدر السابق – ص٢٢.

الدين مات فى الطريق، ويقال أن رفاقه الذين ساروا معه قتلوه ليخلوا العرش لأخيه عز الدين. وفى الوقت نفسه وقع صراع بين الأخوين عزالدين كيكاؤس وركن الدين قلج أرسلان وانتهى الامر بنشوب الحرب بينهما فانكسر ركن الدين ووضع اخاه فى السجن وانفرد بالحكم واستقر فى العاصمة قونيه . ولكن الخان الأعظم رأى ان تكون البلاد مناصفة بينهما . وانتهى الأمر فى النهاية أن حكم علاء الدين كيقباذ مع اخوته من ١٢٤٦ - ١٢٥٧م[٨٣] ، وحكم عزالدين مع اخوته الثلاثة، ثم مع قلج ارسلان من ١٢٤٨ - ١٢٥٨م ، بعد ذلك انفرد قلج ارسلان المعروف بالرابع من (١٢٤٨ - ١٢٦٤م).

ويروى لنا المؤرخ بيبرس المنصورى الداودار رواية طريفة ربما يكون لها شيئا من الصحة ، وموجز هذه الرواية ان القائدين المغوليين بياجو وخجانوين ومعهما قواتهما قد تقدما خلال الفتنة التى وقعت بين أولاد السلطان غياث الدين الى صحراء قونيه فى المرحلة التى استقر فيها عزالدين بمفرده فى المملكة، لأن علاء الدين سافر الى قراقورم وأن قلج أرسلان كان فى السجن بعد هزيمته من أخيه، ولما بلغ عزالدين تقدم المغول الى بلاده عزم على الجهاد وعين أمير من أكبر أمرائه يدعى أرسلان دغمش قائدا لقواته . فخرج هذا الأمير للقاء القوات المغولية، وبعد ما خرج أرسلان بأيام شرب السلطان مسكرا واتجه إلى بيت أرسلان وهو سكران وكبس حريمه ، فأرسلوا إلى أرسلان يخبرونه بذلك ، فاغتاظ مما فعله السلطان ، ولم يقاتل المغول بل انضم اليهم ، ولما علم السلطان بذلك هرب الى مدينة

---

(٨٣) ابن العبري: المصدر السابق - ص٢٨٨.

العلايا ، ولم يعد امام سكان العاصمة قونيه سوى إغلاق أبواب المدينة .
وفى يوم الجمعة أخذ خطيب الجامع ما يملكه من مال وحلى نسائه وارتقى المنبر وخطب فى المصلين وطلب منهم أن يشتروا أنفسهم بما معهم فوافقوا .
وبعد ما جمع ما يمكن جمعه خرج إلى مخيم القائد المغولى بياجو فلم يجده لأنه كان فى الصيد، فقدم الخطيب ما معه الى الخاتون زوجة بياجو فقبلته.
وأكل مما قدم اليه، ولكنه رفض ما قدم له من مشروب باعتباره محرما فى الدين الاسلامى. فسألته الخاتون لماذا لم يشرب ، فأجابها قد حرمه الله علينا ، فسألته كيف يحرم عليكم ولم يحرم علينا، فأجابها بانه مسلم والمغول كفره ، فسألته أنتم خير عند الله أم نحن ، فقال نحن ، فقالت إن كنتم خير منا فكيف نصرنا الله عليكم، فقال لها هذا الثوب الذى عليك، وكان ثوبا نفيسا مرصعا، أنت تعطيه لمن هو يكون خاصا بك أو لمن يكون بعيدا عنك ؟ قالت أخص به من يختص بى . فقال لها الخطيب فاذا أضاعه وفرط فيه ودنسه ما كنت تصنعين به، فقالت كنت أنكل به وأقتله . فقال لها دين الاسلام بمثابة هذا الجوهر والله أكرمنا به فما رعيناه حق رعايته ، فغضب علينا وضربنا بسيوفكم ، واقتص منا بأيديكم ، فبكت زوجة بياجو وقالت للخطيب من الآن تكون أبى وانا اكون ابنتك ، فقال لها لا يمكن هذا حتى تسلمى فأسلمت على يده واجلسته الى جانبها حتى حضر زوجها القائد بياجو من الصيد، فهم الخطيب بالقيام ليلتقيه فمنعته المرأة وقالت، أنت قد صرت حماه وعليه أن يجيء اليك ويخدمك ، فلما دخل القائد بياجو أخبرته زوجته بأن هذا الرجل قد أصبح والدها فجلس بياجو دونه وأكرمه[٨٤].

---

(٨٤) الداودار: المصدر السابق - ص٢٧ - ٣٠.

وفى النهايــة قال بياجو لزوجته لقد عاهدت الله إن استوليت على مدينة قونيه وهبتها لك ، فقالت الزوجة وأنا قد وهبتها لأبى هذا ، ثم أمر بفتح المدينة وأمن أهلها ورتــب علــى أبوابها من يحميها من المغــول ، وأمـــر الا يدخلها المغول الا عند الحاجة ولا يدخلها أكثر من خمسين دفعة واحدة [٨٥].

(٨٥) الدودار: المصدر السابق - ص٣٢- ٣٣.

الفصل الثالث
فتوحات المغول الثانية

- باطو وغزو الروسيا.
- باطور وشرق أوربا.
- كيوك خان ١٢٤٦ - ١٢٤٨م
- مونكو ١٢٥١ - ١٢٦٠م
  أ - هجوم المغول على بغداد.
  ب - فتوحات المغول فى إقليم الجزيرة .
  جـ - فتوحات المغول فى شمال بلاد الشام .
- قوبيلاى ١٢٦٠ - ١٢٩٤م
- معركة عين جالوت ١٢٦٠م
- إبغا خان فارس ١٢٦٥ - ١٢٨٢م
- مغول القفجاق
- تيمور لنك ١٣٦٩ - ١٤٠٤م
- الطرق التجارية زمن المغول .



الفصل الثالث

فتوحات المغول الثانية

باطو وغزو الروسيا :

بدأ الغزو المغولي لروسيا في عام ١٢٢٣م، ويرجع ذلك إلى أن القوات المغولية ظلت تطارد فلول القوات الخوارزمية حتى شواطئ بحر قزوين، ويبدو أن بعض القبائل الروسية التي كانت تعيش في هذه المنطقة قد عاونت القوات الخوارزمية بشكل أو بآخر ضد القوات المغولية. والحقيقة أن الروس لم يكن يعلمون شيئاً عن المغول حتى تلك المرحلة، ويتضح ذلك من حوليه نوفجورد التي سجلت بعض الأحداث عن الغزو المغولي لروسيا في هذا العام، ومما ذكرته أنه في عام ١٢٢٤م تقدمت إلى روسيا قبائل غير معروفة للروس، ولا يعرف أصلهم ولا دينهم وقد اطلقت عليهم الحوليه إسم التتار. وذكرت الحولية أيضاً أن الروس قد سمعوا أنهم استولوا على الكثير من البلاد وأنزلوا بها الدمار. ويتضح من نصوص الحولية أن المغول هاجموا أول الأمر بعض القبائل التركمانية، وأن حاكم أقليم القفجاقِ (أوكرانيا حالياً) قد طلب النجدة من الحكام الروس الذين تجمعوا لمقاومة الغزو المغولي عند نهر كالكا Kallka، ولكن المغول هزموا هذا التحالف الروسي في شهر مايو من العام نفسه، والواقع أنها كانت معركة كبيرة قتل فيها الكثير من القوات الروسية، كما أسر العديد أيضاً، وما تبع ذلك من دمار المناطق التي مر بها المغول والأراضي التي دارت على رحاها المعارك. ثم ما لبث أن

عادت القوات المغولية إلى الجنوب ثم إلى قواعدها في آسيا[١]. ولم تمض سوى سنوات قليلة حتى مات جنكيزخان في عام ١٢٢٧م، وتلى ذلك انشغال المغول بأمورهم الداخلية لبعض الوقت.

وطبقاً للتنظيمات الذي وضعها جنكيزخان قبل وفاته فقد آلت المناطق الجديدة الواقعة شمالي بحر آرال إلى إبنه جوجي Juji الذي توفى في حياة أبيه فآلت إلى باطو بن جوچي. كما أن المجلس الأعلى للمغول كان قد أقر في اجتماعه عام ١٢٣٥م بتقسيم وتوجيه الجيوش المغولية إلى أربعة اتجاهات للقتال، ومن هذه الاتجاهات روسيا والغرب الأوربي التي تولى أمرها باطو. وتنفيذاً لذلك - أصدر الخان الجديد أوكيتاي الذي تولى أمر المغول جميعاً بعد وفاة والده جنكيزخان - أصدر أوامره إلى كافة القادة المغول لإلزامهم بإرسال جانباً من القوات المغولية التي تحت إمرتهم لمساندة باطو في حملاته المقبلة، كما عين سوبوتاي Sobotai، الذي لعب دوراً كبيراً في هزيمة القوات الخوارزمية، قائداً عسكرياً لهذه القوات، هذا بالإضافة إلى خبرته العسكرية في الحملة التي قامت بها القوات المغولية على جنوب روسيا في عام ١٢٢٤م[٢].

كان تقدم القوات المغولية في صورة مفاجئة إلى المنطقة الشمالية لبحر قزوين، وفي هذه المنطقة توجد ثلاث أنهار هي نهر إمبو Embo إلى الشرق

---

(١) The chronicle of Novgorod, tran. Robert Michell and Nevill Forbes, London 1914, pp 64- 6.

(٢) Halperin, Russia and the Colden Hord, Bloomington, 1987, p. 25.

ونهر أورال في الوسط ثم نهر الفولجا في الغرب، وعلى هذا النهر الأخير كان يعيش بلغار الفولجا. والواضح من الأعمال العسكرية أن المغول أرادوا أن يتخذوا من منطقة جنوب نهر الفولجا مركزاً لعملياتهم العسكرية في روسيا أو المناطق المتاخمة لها[٣].

كان تقدم المغول في عام ١٢٣٧م أى بعد ثلاثة عشر عام من حملتهم الأولى التي يمكن أن نعتبرها أنها كانت حملة استكشافية للغزو المغولي المقبل للروسيا. وقد نجح المغول في هذا العام في مباغتة إقليم الفولجا بما يزيد عن مائة ألف من القوات المغولية وماوالاها من جنود الأقاليم التي فتحها المغول من قبل. وقد أنزلت القوات المغولية الأعمال الوحشية ضد سكان هذا الاقليم مثل ذبح الرجال والنساء والأطفال، وتحولت المنطقة الواقعة في جنوب نهر الفولجا إلى السيطرة المغولية[٤]، وتمركزت القوات المغولية في هذه المنطقة لتنطلق منها في عملياتها العسكرية المقبلة.

ومن المعسكر المغولي خطط القادة المغول لغزو المنطقة الشرقية حيث يوجد نهر أورال وتعيش قبائل الباشكير والمنطقة الغربية الواقعة إلى شمال البحر الأسود حيث قبائل القفجاق. ولتنفيذ هذه الخطة قسمت القوات إلى قسمين إتجه القسم الأول إلى الشرق وهزم قبائل الباشكير، كما إتجه القسم الثاني إلى الغرب واجتاح اقليم القفجاق فهرب الآلاف من سكان البلاد إلى الغرب بما فيهم ملك القفجاق ووصلوا إلى مملكة المجر حيث أقاموا هناك[٥]. وكان بين المغول والمجر جولة أخرى بعد ذلك.

---

(٣) Martin , Medieval Russia. Cambridge 1996. p. 135.

(٤) The Chronicle of Novgord. op. cit., p. 81.

(٥) Matthew Paris, op. cit. I, p. 342.

وفي ديسمبر من عام ١٢٣٧م كانت وجهة المغول مدينة ريازان Rayzan، وعندما أصبحت القوات المغول على مقربة من المدينة أرسلوا إلى أميرها إنذاراً يطالبونه فيه بالتسليم، ولكن أمير المدينة رفض طلبات المغول وأعد قواته للقتال وأرسل في طلب النجدة من أمير مدينة فلاديمير التي تقع على أحد فروع نهر الفولجا وإلى الشمال من مدينة ريازان، وعندما علمت القوات المغولية بنوايا أمير مدينة ريازان عجلت بمهاجمة المدينة في الشهر ذاته فدمرتها وقتلت الكثير من سكانها. ثم تقدمت إلى الشمال واستولت على مدينة كولومنا Colomna التي تقع إلى الشمال منها(٦).

ولقد دار جدل طويل بين المؤرخين حول كيفية توغل القوات إلى هذا العمق في الأراضي الروسية في قلب فصل الشتاء. وقد قدم كل منهم أسباباً متعددة حول هذا الموضوع، ولكن الأمر الذي يجب التركيز عليه هو أن المغول الذين عاشوا في عاصمتهم قراقورم قد تعودوا مثل هذه الظروف الجوية، لأن العاصمة المغولية تقع عند نفس خط العرض تقريباً التي تقع عليه مدينة كييف الروسية، ولم يكن تقدم القوات المغولية أكثر من ذلك إلا قليلاً.

وبعد هذه الانتصارات استراحت القوات لبعض الوقت طوال شهر يناير من عام ١٢٣٨م ولعل ذلك بسبب الأحوال الجوية، وفي الثاني من فبراير من العام نفسه تقدمت القوات المغولية إلى مدينة فلاديمير Vladimir وحاصرتها لمدة ستة أيام، ثم ما لبثت المدينة أن سقطت في أيديها فدخلتها وأشعلت النار فيها(٧).

---

(٦) The Chronicle of Novgord, op. cit., 82.

(٧) Ibid., P. 83.

ويبدو أن هذا التصرف جاء إنتقاماً من المدينة التي ربما كانت تستعد لنجدة مدينة ريازان. وعلى أية حال لقد هرب أمير المدينة إلى الشمال لعله يستطيع تجميع قواته لمنازلة المغول مرة أخرى، ولكن القوات المغولية اسرعت بالتقدم خلال الشهر نفسه إلى المناطق المجاورة، ونجحت خلال أسابيع قليلة في السيطرة على عدة مدن منها سوزدال Zuzdal إلى الشمال وتفر Tevr وموسكو إلى الغرب [٨].

تطلعت القوات المغولية إلى التوجه إلى الشمال والاستيلاء على مدينة نوفجورد Novgorod التي تقع تحت خط عرض ٦٠ بقليل، وهي مدينة يحميها من الجنوب بحيرة إلمان Ilman. والواضح من النصوص التاريخية أن المدينة كانت قد استسلمت لمصيرها، ولم يعد لأهلها ورجال الدين فيها سوى الدعاء لله أن ينقذهم من خطر المغول. وواقع الحال أن المغول لم يكملوا مسيرتهم في هذه المرحلة إلى نوفجورد[٩]. وقد تناول العديد من المؤرخين تفسير تراجع المغول المفاجئ إلى الجنوب، ولعل أقرب الأسباب إلى الصواب يرجع إلى ذوبان الجليد في فترة الربيع وظهور المستنقعات الكثيرة في الأراضي التي كان سيمر بها المغول، فضلاً عن مياه بحيرة إلمان التي تزيد مساحتها في هذا الوقت من العام ، وهي البحيرة التي تحمي المدينة من الجنوب.

عادت القوات المغولية إلى قواعدها جنوب نهري الفولجا والدون عن طريق مدينة كالوجا Kaloga التي إجتاحتها[١٠]، واستراحت جنود المغول

---

(٨) The Chronicle of Novgord, op. cit., p. 83.

(٩) Ibid., pp. 83 - 4.

(١٠) Rambaud, Histoire de la Russie. Paris, 1918, p. 129.

لبعض الوقت وأعاد قادتهم تنظيم صفوفهم مرة أخرى، وجددوا معداتهم أو أصلحوها، وبدأ التخطيط لجولة عسكرية أخرى. وانقضى عام ١٢٣٩م قام خلاله المغول بعمليات عسكرية محدودة في المنطقة الواقعة شمال بحر قزوين حيث يوجد معسكرهم. ويبدو أن هذه العمليات كانت من أجل فرض نفوذ المغول على المنطقة أو لجمع الضرائب، كما قامت القوات المغولية ببعض العمليات العسكرية في المناطق الواقعة إلى شمال البحر الأسود حيث قبائل القفجاق، والواضح أنها كانت عمليات استكشافية أكثر من غزو عسكري.

ويؤكد ذلك أنه في العام الثاني ١٢٤٠م كانت العمليات العسكرية في ذات المناطق، ولكنها دارت على نطاق واسع. ويلاحظ هنا أن التوسع المغولي في هذه المرحلة سوف يكون لا إلى الشرق أو إلى الشمال وإنما إلى الغرب، وهو الطريق الذي سيؤدي إلى أوربا في مراحل مقبلة. والمهم هنا أن المغول نجحوا خلال شهور قليلة في الاستيلاء على مدينتين هامتين تقعان على نهر الدنيبر وهما تشرنيجوف Chernigov وبرياسلاف Pereyaslav . ويبدو أن القوات المغولية لم تبذل جهداً كبيراً في عملياتها العسكرية في تلك المرحلة الأمر الذي أغراها بالتقدم إلى الشمال حيث تقع مدينة كييف، وهي من المدن التي تقع على نهر الدنيبر أيضاً. وكعادة المغول فقد أرسلوا إلى حاكم المدينة يطالبونه بتسليم المدينة وإلا نزل بها الخراب والدمار، ولكن حاكم المدينة رفض طلب المغول وقتل سفراءهم فبدأت القوات المغولية في محاصرة المدينة، وبدأت آلات الحرب تدك أسوار المدينة حتى نجحت في تحطيم بعض أجزائها الأمر الذي سهل على القوات المغولية اقتحام المدينة في السادس من ديسمبر عام ١٢٤٠م، وقد استولى المغول على كنوز المدينة، ولقى معظم السكان مصرعهم. وقد أبقى باطو على حياة ديمتري

Dmitri قائد حامية المدينة لشجاعته في الدفاع عنها(١١). ومن نتائج سقوط مدينة كييف أن أسرع أمراء القفجاق إلى تقديم فروض الولاء والطاعة للقادة المغول وتعهدوا بتقديم ما تفرضه عليهم القيادة المغولية من غذاء للقوات المغولية وعلف لدوابهم. وبالإضافة إلى ذلك، لقد أصبح المغول على مشارف حدود أوربا الشرقية.

باطو وشرق أوربا :

كانت أول العمليات العسكرية التي بدأها المغول بعد أن استولوا على بعض مدن نهر الدنيبر هو التوجه إلى الغرب نحو نهر الفستولا حيث دولة بولندا. وقد دفع الخان باطو بقواته المغولية إلى تلك المنطقة تحت قيادة بايدار Baidar، وقد بالغ المؤرخون في عدد القوات المغولية التي غزت بولندا وقدروها بأكثر من مائة ألف مقاتل. وفي أواخر عام ١٢٤٠م أو أوائل عام ١٢٤١م تقدمت القوات المغولية إلى مدينة لوبين Lubin واجتاحتها، ثم تقدمت إلى الجنوب على طول نهر الفستولا لمسافة ستين ميلاً، ثم عبرت النهر وهاجمت مدينة ساندومير Sandomir فنهبتها، ثم تقدم بايدار بقواته حتى وصل إلى مدينة كراكاو Cracoire، وهي مدينة تقع عند منابع نهر الفستولا، وتبعد حوالي مائة ميل عن مدينة ساندومير وقد استولى المغول على المدينة ونهبوها(١٢).

لم يكن أمام الملك البولندي سوى طلب النجدة من جماعة الفرسان التيوتون المقيمين عند سواحل البحر البلطي، وهنري دوق سيليزيا. وقد تم

---

(١١) Rambaud,op. cit.. p. 130.

(١٢) السيد الباز العريني: المرجع السابق - ص١٨٢.

التحالف بين القوات البولندية وفرسان التيتون والقوات السيليزية. وتقدمت القوات المغولية إلىّ مدينة برسلاو Breslau، وهي مدينة تقع في شمال اقليم سيليزيا الذي يقع إلى الجنوب من بولندا، وتقع على الضفة الغربية لنهر الأودر Oder. وقد حاصرت القوات المغولية المدينة ثم أضرمت فيها النار، ولكنها إنسحبت من أمامها عندما علموا أن القوات البولندية وحلفاءها قد تجمعوا عند مدينة لينجنتز Liegntiz(١٣).

تقدمت القوات المغولية إلى الجنوب حيث القوات المتحالفة، وفي مدينة فاهلشتات Wahlstadt القريبة من مدينة ليجنتز دارت معركة عنيفة في التاسع من أبريل عام ١٢٤٠م إنتهت بهزيمة القوات المتحالفة هزيمة ساحقة. والواضح أنه كان هناك إتفاق مسبق بين القائد المغولي بايدار والخان باطو على غزو بلاد المجر، فبعد انتصار القوات المغولية في بولندا تقدمت جنوباً إلى اقليم مورافيا Moravia، ومنها إلى الجنوب أيضاً لتتقابل مع بقية القوات المغولية بقيادة باطو(١٤).

وفي الوقت الذي تحركت فيه بعض القوات المغولية بقياد بايدار لغزو بولندا ، كان الخان باطو يسانده القائد المغولي سوبوتاي قد غادرا روسيا بعد أن تركوا الحاميات العسكرية الكافية بها واتجها إلى بلاد المجر (هنغاريا - Hungary). وقد اتخذت القوات المغولية طريقها إلى اقليم جالسيا Galica في بداية الأمر بعد أن عبرت نهر الدينسر Dniester. وكانت دولة المجر تقع إلى الجنوب من مملكة بولندا ويتولى حكمها في تلك المرحلة

---

(١٣) Rambaud, op. cit., p. 131.

(١٤) السيد الباز العريني: المرجع السابق - ص١٨٢.

الملك بيلا الرابع Bela IV (١٢٣٥ - ١٢٧٠م)[١٥].

وكان ملك المجر يتوقع الغزو المغولي بسبب إيوائه العناصر التي فرت من المناطق الروسية خاصة بعض قواد القفجاق. ويلاحظ أن دولة المجر كانت دولة صغيرة محدودة الإمكانيات، ولكن ملكها على ما يبدو اعتمد علي قوة العناصر التي فرت من أمام الغزو المغولي، لذلك دعا إلى اجتماع كبير في مدينة بودا Buda وهي الجزء الغربي لمدينة بودابست الحالية الواقعة على نهر الدانوب، وقد حضر هذا الاجتماع كبار رجال الدين والنبلاء والقادة العسكريون. وفي هذا الاجتماع لم يتمكن الملك بيلا من السيطرة على الموقف. فقد كان للنبلاء بعض المطالب مثل الامتيازات التي كانت ممنوحة لهم من قبل، وطرد عناصر القفجان التي اعتبروها السبب الرئيسي لغزو المغول لبلادهم. ولم يتنازل الملك عن بعض الامتيازات للنبلاء، ولكنه أرضاهم وقبض على بعض قواد القفجاق. ولكن هذا التصرف جاء بنتيجة عكسية، إذ ثارت عناصر القفجاق وعاثت في الأرض فساداً، وبذلك أصبحوا مصدر ازعاج بدلاً من مساعدة الملك في محنته أمام الغزو المغولي.

دبت الفوضى في المملكة المجرية الأمر الذي سهل أمر القوات المغولية التي تقدمت عبر ممرات جبال الكربات، وعندما علم الملك بيلا بذلك أرسل أسرته وثروته إلى دوق النمسا Austria وطلب منه النجدة، كما أرسل أيضاً إلى بقية الممالك الأوربية يطلب العون منهم. وكانت معركة غير متكافئة

---

(١٥) La Monte, The World of Middle Ages, New York 1949, p. 535.

على الأطلاق خاصة أن القيادة المغولية نجحت في ضم جزءاً كبيراً من عناصر القفجاق إلى قواتها. وبالقرب من جسر مدينة موهي Mohi الواقعة على نهر سايو Saje – أحد فروع نهر الدانوب – دارت مذبحة مروعة في الحادي عشر من أبريل ١٢٤١م في صفوف القوات المجرية، ولما شعر الملك بيلا بعدم جدوى المقاومة هرب من أرض المعركة، فتقدم المغول إلى بلاد المجر دون مقاومة تذكر(١٦).

وتتبعت القوات المغولية الملك بيلا داخل اقليم كرواتيا حتى وصلت إلى سواحل إقليم دلماشيا على البحر الادرياتيكي حتى وصلت إلى مدينة كاتارو Cattaro الواقعة بين مدينتي راجوزه Ragues ودرازو Duazzo. ولعدم وجود قوات بحرية لدى القوات المغولية لم يكن بوسعها أن تتعامل مع هذه المنطقة. يضاف إلى ذلك أنه في أوائل عام ١٢٤٢م وصلت إلى الخان باطو الرسل تخبره بموت الخان أوكتياي في العاصمة الأم قراقورم في الحادي عشر من ديسمبر عام ١٢٤١م بعد مرض لازمه لبعض الوقت، وبعد أن حكم خاناً أعظم حوالي سبع سنوات، فعاد باطو بعد أن خلف وراءه الحاميات العسكرية في روسيا(١٧).

كيوك خان ١٢٤٦ - ١٢٤٨م

كان أوكيتاى قد جعل العرش من بعده لإبنه الثالث كوشو Kuchu ولكنه قتل في عام ١٢٣٦م في صراعه ضد أسره سونج بالصين، فجعل أوكيتاى ولاية العهد لحفيده شريمون بن كوشو، ولكنه كان صغيراً قليل الخبرة، فلما

---

(١٦) Matthew Paris, op. cit., I, p. 342, La Monte, op. cit., p. 535.

(١٧) الهمذاني: جامع التواريخ – تاريخ خلفاء جنكيز خان – بيروت – ١٩٨٣، ص٥٤ – ٥٧، السيد الباز العريني: المرجع السابق – ص١٨٢– ١٨٣.

توفى أوكيتاى تولت الوصاية على العرش أرملته توراكينه Toragina، وحرصت على أن يكون إبنها كيوك Guyuk خانًا أعظم للمغول، ولما كان كيوك يحارب في شرق أوروبا مع باطو، قامت الارملة بإدارة شئون البلاد وحرصت على إطالة مدة الوصاية حتى تمهد لتنصيب كيوك خانًا أعظم، وظلت وصايتها من ١٢٤٢ - ١٢٤٦م تخلصت خلالها من العديد من مستشارى أوكيتاى .

وفي صيف عام ١٢٤٦م إنعقد القوريلتاى، وحضر الاجتماع جميع الأمراء المغول عدا باطو الذي لم يحضر لمرضه، ، أو لعله علم بما تخطط له الأرملة توراكينه، كما حضر هذا الاجتماع عدد كبير من حكام الأقاليم والملوك التابعين للخان، ويمدنا رشيد الدين الهمذاني ببعض الشخصيات الأخرى التي حضرت الإجتماع ومنهم مسعود من التركستان وفي رفقته عظماء تلك الديار، ومن خراسان الأمير أرغون، في صحبته الأمراء والوجهاء في هذا الاقليم ،ومن العراق وازربيجان، ومن سلاجقة الروم السلطان ركن الدين، ومن جورجيا (مملكة الكرج) المطالبان بعرش المملكة وهما داود نارين، وداود لاجا، ومن حلب أخو أميرها ومن الموصل بدر الدين لؤلؤ، ومن دار الخلافة ببغداد قاضى القضاة، ومن أرمينيا حضر سمباد أخو الملك هيتوم، كما حضر رسل من فارس وكرمان وغيرهم ، وقد حضر كل هؤلاء بأحمال كثيرة وهدايا تليق بمثل تلك الحضرة، وقد أعد لهذا الاجتماع حوالى ألفي سرادق،ولكثرة الخلق لم يبق موضع للنزول في المنطقة المحيطة بالمعسكر(١٨).

---

(١٨) الهمذاني: المصدر السابق - ص١٨١.

وفي هذا الاجتماع تحدث الامراء في موضوع تعيين الخان الأعظم، ولما كانت الارملة توراكينه تميل إلى تنصيب إبنها كيوك، وأن شريمون لازال قاصراً، فالمصلحة تقضى بأن ينصب كيوك خانًا أعظم، ولكن كيوك رفض أن يتقلد هذا المصب وطلب من الامراء ترشيح أمير آخر. واعتذر بإعتلال صحته، ولكن الأمراء أصروا على أن يتولى كيوك منصب الخانية، فقال لهم «إني أقبل هذا المنصب، بشرط أن تبقى الخانية في ذريتي» فوافق الجميع[١٩].

ويهمنا عند هذه المرحلة أن نتوقف قليلاً لإلقاء الضوء على موقف حكام العالم الأوروبي من الغزو المغولي الذي وصل إلى بولندا وهنغاريا وشبه جزيرة البلقان حتى سواحل البحر الأدرياتيكي، ويهمنا أيضًا أن نذكر أن كل غزوات المغول كانت برية وليس فيها معركة بحرية واحدة. وأن المغول إجتاحوا أوربا الشرقية في فصل الشتاء، وهو من أصعب الفصول على الحياة حيث الثلوج. ويكفى على هذه الصفحات أن نذكر أنه كان على العالم الأوروبي أن يتدبر أمره بعد كل هذه الفتوحات ، لأن حكام الغرب الأوروبي كانوا على علم بكل هذه الاحداث ،كما أن طائفة الحشيشية التي اتخذت من قلعة ألموت في جبال فارس مقراً لها قد إنزعجت من تحركات المغول بعد تدمير الدولة الخوارزمية، وبادرت بإرسال الرسل إلى حكام أوربا تحذرهم من هذا الخطر الجارف[٢٠].

والواقع أن البابا جريجوري التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤٠م) قام من جانبه

---

(١٩) الهمذاني: المصدر السابق - ص١٨٢.

(٢٠) Matthew Paris. op. cit.. I. p. 131.

بالدعوة إلى عقد تحالف بين دول أوربا لمواجهة هذا الخطر، ولكن الدعوة شيء والتنفيذ شيء آخر. فقد كان الامبراطور الألماني فريدريك الثانى (١٢١٢ - ١٢٥٠ م) مشغولاً بصراعة مع البابا على ممتلكات المانيا في ايطاليا، واكتفى بأن طلب من إبنه كونراد وضع الجيش الألماني موضع الاستعداد للحرب، وطلب أيضًا من ملكى إنجلترا وفرنسا أن يستعدوا بقواتهم لهذا الغرض، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث[٢١]. وتوقف حشد القوات العسكرية بعدما علم هؤلاء الحكام بانسحاب المغول الى الشرق لوفاة الخان الأعظم أوكيتاى ، وبدأ الغرب الأوروبي يعود إلى أوهامه ويتذكر أسطورة الكاهن يوحنا وما سيأتي على يديه من خلاص والتحالف مع الغرب الاوروبي والقضاء على المسلمين. وفي الوقت نفسه إنشغل الغرب الأوروبي باعداد حملة صليبية تولى أمرها الملك الفرنسي لويس التاسع Louis ix ١٢٢٦ - ١٢٧٠ م لاستعادة بيت المقدس بعد ما إستردها المسلمون في عام ١٢٤٤م .

مونكو ١٢٥١ - ١٢٦٠م

لما توفى كيوك تطرق الخلل مرة أخرى إلى شئون المملكة، وقامت زوجته أوغول قاميش بتدبير مصالح البلاد مع كبار الأمراء حتى يتم تنصيب الخان الجديد. وكان الأمير باطو بن جورجي بن جنكيزخان يشغل منصب خان القبيلة الزرقاء في جنوب روسيا وغرب بلاد القفجاق مريضًا - مصابًا في قدمه - فأرسل الرسل الى كبار الأمراء للحضور إليه، وكان باطو يرى أن يتولى منصب الخانيه من يكون جديراً به وصالحًا له. وقد رفض ابناء

---

(٢١) Matthew Paris, op. cit., I, pp. 341 - 7.

أوكيتاي وكيوك الذهاب إلى مقر باطو وقالوا «إن أونان وكلوران هما الموطن الأصلي وحاضره جنكيزخان، ولسنا ملزمين بأن نخطو خطوة إلى دشت القفجاق» ولكنهم أرسلوا رسلاً عنهم وقالوا «إن باطو هو الأخ الاكبر لكافة الأمراء ، وأمره نافذ على الجميع، واننا لن نحيد بأى وجه عما يراه صوابًا»(٢٢) .

وفي هذا الاجتماع إتفق الجميع على أن مونكو هو الجدير واللائق للملك، وأن بإمكانه أن يضبط الممالك والجيوش بفكر ثابت ورأى صائب، وقد تم تنصيب مونكو طبقًا لتقاليد المغول، فقد حل جميع الأمراء والأنجال وأمراء الجيش أحزمتهم ورفعوا قلانسهم، وجثوا على ركبهم، ثم أخذ باطو الكأس ، ثم بايع جميع الحاضرين مونكو، وكان عليه أن يتجه إلى كلوران لتولى مهام منصبه. وقد صادف مونكو بعض العقبات من بعض الأمراء والوصية على العرش أرملة كيوك، ولكن الأمور استقامت بعد سنتين وتسلم مونكو مهام عمله، بعد أن هدد باطو بالاطاحة برأس كل من يخالف أحكام الياسا. وقد وجه مونكو عنايته إلى ضبط شئون المملكة وترتيبها ، ونعمت الدولة في عهده بالعدل والسلام. وقد وجه كل إهتمامه برعاية المطيعين وقهر المتمردين، والترفيه عن الرعايا وتوفير أنواع المؤن لهم، وإختار الجد على الهزل، وترك إدمان الشراب، وفي بداية حكمه بادر بإرسال الجنود إلى أقاصى الشرق والغرب لضبط أحوال البلاد(٢٣).

كما أصدر مونكو مرسومًا بشأن تخفيض الضرائب عن الرعايا، ويرجع ذلك إلى بعض الامراء والخواقين قد منحوا لبعض الناس إعفاءات ضريبية

---

(٢٢) الهمذاني: المصدر السابق - ص١٩٨.

(٢٣) الهمذاني: المصدر السابق - ص١٩٨ وما بعدها ٢١٦.

بغير حساب، فأمر بألا يكتب الأمراء بعد ذلك منشورات عن أمور تتعلق بالمصالح العليا للولايات دون إستطلاع رأى نواب الخان الاعظم، وألا يصدروا أوامر لأي شخص ، وألا يستعمل كبار الرسل أكثر من أربعة عشر جواداًعندما ينتقلوا من دار البريد إلى دار أخرى، وألا يغتصبوا دواب الناس في الطريق، ورتب مونكو أيضًا إنتقال التجار على الدواب، فقد كان من المتبع أن التجار كانوا يسافرون إلى ولاية منغوليا على الخيول التي تملكها الدولة، ورأى أن التجار ينتقلون لكسب الأموال، وليس هناك من معنى لركوبهم خيول الدولة، وأمر بأن ينتقل هؤلاء التجار على دوابهم الخاصة، وأمر أيضًا بألا يذهب الرسل إلى أية مدينة أو قرية ليست لهم مصلحة فيها، وألا يأخذوا من العلف أكثر من المقرر(٢٤).

ورفع مونكو الظلم عن الرعية، لأن الدهاقين (رؤساء القرى) قد ضاقوا ذرعًا بسبب كثرة المطالب، وأداء الضرائب لدرجة أن محصولهم لم يعد يفى بنصف ما يطلب منهم، وطالب مونكو بأن على التجار وأصحاب الأعمال أن يسلكوا مع أتباعهم طريق المسامحة والمساواة، وأن يؤدى كل شخص على قدر استطاعته وقدرته، كل ما عليه من ضرائب دون مماطلة أو اعتذار، وأعفى مونكو من الضرائب طائفة السادات والكرام والمشايخ الكباو والأئمة الاخيار من المسلمين، وكذلك كبار القساوسة والرهبان النصارى، واللامات البوذيين، كما أعفى كبار السن والعاجزين عن الكسب(٢٥).

والحقيقة أن الاحوال الداخلية للبلاد في عهد مونكو تضيق بها هذه

---

(٢٤) الهمذاني: المصدر السابق - ص٢١٦.

(٢٥) الهمذاني: المصدر السابق - ص٢١٦ - ٢١٧.

الصفحات، وقد نكتفى هنا بالقول أنه خص المسلمين بمزيد من الإكرام والإحترام، وميزهم على جميع الطوائف والمذاهب، وأمر لهم بالصلات والصدقات ، ومصداق ذلك أنه في عيد الفطر لعام ٦٥٠ هـ /١٢٥٢هـ حضر إلي معسكر المغول القاضي جلال الدين محمود وطائفة من المسلمين، فخطب في الناس وأمهم، ووشح الخطبة بذكر ألقاب الخليفة ودعا للخان الأعظم مونكو، فأمر لهم بالمنح على سبيل التشريف وأعطاهم عربات محملة بأكياس النقد من الذهب والفضة والملابس القيمة، وقد ذاع أمر مونكو في أطراف البلاد ،وصار الترك من قريب ومن بعيد يلجأون اليه برغبة صادقة، وكان الملوك الذين دخلوا في طاعته،يرسلون إليه التحف والهدايا [٢٦].

أما العمليات العسكرية في عهد مونكو فهي كثيرة ومتعددة، وسوف نركز في هذه الصفحات على الجوانب التي تهم العالم الإسلامي والمسيحي، ومن ذلك أن الخان الأعظم أرسل أخاه الأصغر هولاكو Hulagu إلى المنطقة الغربية في الامبراطورية، وقد قاد هولاكو جيشًا كبيراً إلى تلك النواحي. والمعروف أن هولاكو فاق كل أمراء المغول في العلم. وكان شاماني العقيدة مثل المغول، كما كان يميل إلى الشر وليس لديه نزعة إنسانية، وكانت زوجته طقز خاتون أميرة من قبيلة الكرايث مسيحية نسطورية، كرهت الاسلام والمسلمين وحرصت على مساعدة المسيحيين ، وكان الهدف الأول من هذه الحملة هو الاستيلاء على قلعة ألموت مقر طائفة الحشيشية في فارس، لأنهم تمردوا على المغول وإغتالوا جغتاي Jagitai ثاني أبناء جنكيزخان[٢٧]،

---

(٢٦) الهمذاني: المصدر السابق ص٢١٧ – ٢١٨.

(٢٧) الهمذاني: المصدر السابق ص٢٢٠ وما بعدها.

أما الهدف الثاني فكان بغداد عاصمة الخلافة العباسية، والثالث دمشق مركز البيت الأيوبي في بلاد الشام.

والحقيقة أن الإستعداد لهذه الحملة بدأ في عام ١٢٥٣م ،فقد تم إرسال جيش كبير لتمهيد الطريق وعلى رأسه القائد المغولى كتبغا النسطوري الذي كان ينتمى إلى قبيلة النايمان، وفي عام ١٢٥٦م كان تحرك هولاكو بقواته بعد أن إنضم إليه الكثير من الأمراء المغول من كل حد وصوب. واشترك في الحملة نحو ألف من الرماة الصينين البارعين في قذف السهام التي تحمل المشاعل .

ولما علم الحشيشية بتقدم المغول حاولوا بالطرق السلمية دفع هذا الخطر، ولكن كل هذا لم يجد نفعا، فقد إتجه هولاكو بجيشه حتى وصل إلى قلعة ألموت وشدد الحصار عليها، واضطر زعيم الحشيشية ركن الدين خورشاه إلى الذهاب لخيمة هولاكو واعلن الخضوع والاستسلام. فأرسله هولاكو إلى الخان الاعظم مونكو ليرى فيه ما يراه، ولكنه رفض مقابلته فعاد ركن الدين، حيث لقى مصرعه أثناء عودته. وتمكن هولاكو من الاستيلاء على قلعة ألموت وغيرها من القلاع، وقتل الألوف من الحشيشية،[٢٨] وقبل أن ينتهى عام ١٢٥٧م لم يكن هناك إلا عدداً قليلاً منهم في جبال فارس، وعندما علم الحشيشية في بلاد الشام بما حدث لإخوانهم في فارس أحسوا بدنو أجلهم.

ومن طريف ما يروى حول سقوط قلعة ألموت أنه كان بها مكتبة ضخمة

---

(٢٨) الهمذاني: جامع التواريخ - المجلد الثاني - الجزء الأول - تاريخ هولاكو - راجعه وقدم له يحي الخشاب - القاهرة - ١٩٦٠ - ص٢٤٨. وما بعدها.

تحتوى على العديد من الكتب النفيسة، وقد طلب هولاكو من حاجبه المسلم عطا الملك الجويني أن يفحص المكتبة، فأخرج المصاحف والكتب التاريخية والعلمية وأحرق الباقي، ولكن صاعقة نزلت على المكان فأحرقت ما تبقى من كتب، ولم ينقذ إلا القليل [(٢٩)].

١ - هجوم المغول على بغداد :

بعد أن إنتهى هولاكو من تدمير قلاع الحشيشية في بلاد فارس، تحركت القوات المغولية لتنفيذ الهدف الثاني من أهداف الحملة وهو مهاجمة بغداد، وكان على رأس الخلافة العباسية في تلك المرحلة الخليفة المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦هـ/١٢٤٢ - ١٢٥٨م) الذي أصبح آخر الخلفاء العباسيين في بغداد، وكان يأمل في أن يعيد مجد الخلافة مرة أخرى، ولكنه كان رجلاً ضعيف الشخصية، وجعل كل إهتمامه إشباع غرائزه، يضاف إلى ذلك الصراع المذهبي الذي دار داخل البلاط بين وزيره الشيعي مؤيد الدين بن العلقمي، وبين كاتب الخليفة السني أيبك[(٣٠)].

وواقع الحال أن الجيش العباسي أو جيش الخلافة أصبح ضعيفًا بعد أن خفض الخلفاء أعداده حتى وصلت إلى عشرين ألفًا بدلاً من مائة ألف فارس لعدم الوثوق في قادته، وظل الاعتماد على المقاومة محصوراً في حصانة مدينة بغداد، وعلى ما يمكن أن يأتي من مساعدة من البيت الأيوبي في مصر والشام، وهذا أمر مشكوك فيه لإنشغال القوات الأيوبية بالصراع مع الصليبيين، وعلى امكانية التفاوض مع المغول ودفع الأموال لتجنب مهاجمة بغداد.

---

(٢٩) Runciman. op. cit.. III. p. 301.

(٣٠) الداودار: المصدر السابق - ص٣٩.

أما القوات المغولية فرغم إستعداداتها وكثرة عددها، فقد وصلت إليها قوات إضافية من مقاتلى القبيلة الذهبية، وبعض القوات المغولية الأخرى من بلاد الأناضول بقيادة الأمير بياجو، وبعض العناصر الجورجية والأرمينية المسيحية الذين كانوا متلهفين على مهاجمة حاضرة الاسلام والمسلمين ومقر الخلافة العباسية وهي مدينة بغداد.

وقد ساعدت الفتن الداخلية في بغداد على تقدم الجيش المغولي، فقد كان يسكن المدينة عناصر مختلفة الأديان والطوائف، وحدث في تلك المرحلة الحرجة إندلاع الفتن بين السنة والشيعة في ضاحية الكرخ، وقد ساند ابن العلقمي وزير الخليفة طائفة الشيعة، فتدخل أبو بكر بن الخليفة وولى عهده وأمر بنهب ضاحية الكرخ، وزاد الأمر حتى أن العسكر إعتدت على النساء. ويقول المؤرخ أبو الفدا «ان ذلك عظم على الوزير ابن العلقمي وكاتب التتر وأطمعهم في ملك بغداد»، وهذا يدل على فساد الحكم وشدة الانقسام داخل الخلافة العباسية. وبدأت الأعمال العسكرية للقوات المغولية عندما تحركت في نهاية عام ١٢٥٧م من مدينة همذان التي تبعد عن بغداد إلى المشرق حوالى ستمائه كيلومتر. وإنقسم الجيش المغولي إلى ثلاثة أقسام سارت في ثلاثة محاور، الأول وتولى أمره الأمير بياجو وإتجه إلى الموصل وعبر نهر دجلة وسار إلى جانب الشاطىء الغربي للنهر في الطريق إلى بغداد التي تبعد عن الموصل حوالى ثلاثمائة وثمانين كيلومتر، والمحور الثاني وعلى رأسه كتبغا واتجه إلى سهل العراق الواقع شرق بغداد ،والثالث وهو الرئيسي بقيادة هولاكو وكانت وجهته بغداد مباشرة .

وحاول الكاتب أيبك أن يتصدى للقوات المغولية القادمة من الموصل، ولكن القوات المغولية أوقعته وقواته في كمين لاذ بعدها بالفرار في الطريق إلى بغداد، وحوالي ذلك الوقت خرج ابن العلقمي إلى هولاكو، فأخذ الأمان

لنفسه، ولكنه مالبث أن عاد ومعه شروط هولاكو بالاستسلام، وموجز هذه الشروط أن يبقى المستعصم خليفة على البلاد، وأن يتزوج أبو بكر ابن الخليفة من إبنه هولاكو، وقد طلب ابن العلقمي من الخليفة الخروج لمقابلة هولاكو وقد زين له هذا العمل، ويقول أبو الفدا «فخرج إليه المستعصم في جمع من إكابر أصحابه، فانزل في خيمة، ثم إستدعى ابن العلقمي الفقهاء فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وغيرهم، فلما تكاملوا قتلهم التتر عن أخرهم». وعند هذه المرحلة عبرت القوات المغولية إلى بغداد على جسر أقاموه على نهر دجلة وأنزلوا القتل في بغداد، وهجموا على دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الاشراف، ولم يسلم إلا صغار السن الذين أخذوا أسرى، ودام القتل والنهب في بغداد أربعين يومًا. وقد أسفر ذلك عن قتل حوالى ثمانين ألف من أهل المدينة. أما الجالية المسيحية فقد لجأت إلى الكنائس، وتدخلت طقز خاتون المسيحية زوجة هولاكو لحمايتهم فلم تتعرض القوات المغولية لهم بسوء. وكان هولاكو قد أبقى على حياة الخليفة حتى دخل بغداد، وبعد أن دله على الأماكن التي وضع فيها ثروته وكنوزه قتله. وقد إضطرت القوات المغولية إلى الانسحاب من المدينة بعد أن فاحت رائحة الجثث، وذلك في نهاية مارس ١٢٥٨م[٣١].

وصار بحوزه هولاكو عند إنسحابه من المدينة ثروات الخلفاء التي كدسوها منذ قيام الخلافة في بغداد، وقبل أن يغادر هولاكو المدينة عين عليها واليًا هو ابن العلقمي، كما أغدق الأموال على البطريك النسطوري ماكيكا Makika وخصص له أحد قصور الخلافة لتكون مقراً له وكنيسة[٣٢].

---

(٣١) ابو الفدا: المصدر السابق - جـ٣ - ص١٩٤.

(٣٢) Runciman, op. cit., III, p. 304.

كان لسقوط بغداد نتائج متعددة على الشرق والغرب على السواء، فقد إرتاع العالم الاسلامي وبات يخشى العاقبة، أما المسيحيون فقد إبتهجوا وإعتبروا سقوط بغداد هو سقوط بابل الثانية، وأن هولاكو وزوجته طقز خاتون هما الإمبراطورة قسطنطين وأمه هيلينا. وأن أسطورة الكاهن يوحنا أصبحت حقيقة ينقصها تحالف المغول مع المسيحيين للقضاء على المسلمين في بلاد الشام لإستعادة بيت المقدس.

وبعد سقوط بغداد أقام هولاكو معسكره في مراغه حيث إستقبل بعض سفراء الدول إما للتأييد أو الإعتذار، ثم استعد بعد ذلك لتحقيق الهدف الثالث و هو الهجوم على دمشق، ولم يبدأ هولاكو بمهاجمة دمشق مباشرة بل قام ببعض العمليات العسكرية في بلاد الجزيرة وبلاد الشام خاصة في الشمال إستمرت حوالى عام قبل أن يتوجه إلى هدفه الثالث والأخير دمشق.

٢ - فتوحات المغول في إقليم الجزيرة :

وبدأت العمليات العسكرية في إقليم الجزيرة ضد مدينة ميافارقين لأن حاكمها الكامل الثاني نصر الدين (١٢٤٤ - ١٢٦٠م) كان قد صلب مبعوث هولاكو ورفض قبول السيادة المغولية. وقد سقطت المدينة في أوائل عام ١٢٦٠م، بفضل المساعدات التي قدمها الأرمن والكرجيون، ودارت مذبحة في المدينة قتل فيها كل المسلمين، أما المسيحيون فقد تم الابقاء على حياتهم. وتم القبض على الكامل الثاني وعذب حتى الموت، وقد حملت رأسه على رمح وطيف بها في البلاد مثل حلب وحماه ودمشق[٣٣]،

---

(٣٣) الهمذاني: المصدر السابق - ٢٦٧ - ٢٩٧، ابو الفدا: المصدر السابق - جـ٣ - ص١٩٣ - ١٩٥، الداودار: المصدر السابق - ص٣٥-٤٠.

ولعل هذا التصرف أثار الرعب في نفوس أهل الشام ، مما كان له أبلغ الأثر على الحالة النفسيةّ للأهالي والقوات الاسلامية.

٣ - فتوحات المغول في شمال بلاد الشام :

وكانت المرحلة الثانية من العمليات العسكرية المغولية في بلاد الشام ضد مدن نصيبين وحران والرها والأراضي الواقعة في تلك النواحي مثل البيرة وسروج حتى وصلت القوات المغولية بقيادة هولاكو إلى مدينة حلب، حيث تم إلقاء الحصار عليها بعد أن رفضت الإستسلام، وقدْ قاومت المدينة لمدة ستة أيام حتى إنهارت أسوارها أمام ضربات المغول فدخلتها القوات المغولية وحل بها ما حل بالمدن الأخرى من ذبح المسلمين والإبقاء على المسيحيين ،ورغم هذا كله فقد ظلت قلعة المدينة تقاوم لمدة شهر حتى سقطت، وقد إحترم هولاكو الأمير الأيوبي تورانشاه بن صلاح الدين لكبر سنه وبسالته. وقد استولى هولاكو على ثروة المدينة وعين عليها الأمير الأيوبي الأشرف حاكم حمص (١٢٤٦ - ١٢٦٢م) الذي زار المعسكر المغولي قبل عدة أشهر من هذه الأحداث، واعتبر الأشرف من أتباع المغول بعد أن أعطاه هولاكو الدستور (الأمر) على حد قول أبو الفدا[٣٤].

وبعد مدينة حلب إتجه هولاكو إلى الممتلكات الاسلامية في ضواحى أنطاكية خاصة أن أميرها بوهمند السادس Bohemond VI (١٢٥١ - ١٢٦٨م) كان قد دخل في طاعة المغول، وكانت مدينة حارم وقلعتها في الطريق إلى أنطاكية، وقد رفضت الاستسلام فوقع بها ما وقع بحلب، وفي تلك المرحلة تقدم بوهمند وهيثوم الأول ملك أرمينية (١٢٢٦ - ١٢٦٩م)

---

(٣٤) أبو الفدا: المصدر السابق - جـ٣ - ص٢٠٢ - ٢٠٣.

إلى معسكر هولاكو بإعتبارهما حلفاء له لتقديم فروض الولاء والطاعة، وقد كافأهما هولاكو ببعض العطايا، كما طلب من سلطان سلاجقة الروم إعادة الأراضي التي كانت في حوزة الأرمن من قبل ، كما أعاد إلى بوهمند بعض المدن والحصون التي إستولى عليها المسلمون أيام صلاح الدين، وطلب هولاكو من بوهمند أن يعين البطريك الأرثوذركسي يوثيميوسEuthymius على الكنيسة الأرثوذوكسية في أنطاكية ، وكان في ذلك إرضاء للامبراطورية البيرنطية التي كانت على علاقة طيبة بالمغول(٣٥)، وقد ظل يوثيموس في منصبه حتى عام ١٢٧٤م، وليس معنى ذلك إلغاء منصب البطريك الكاثوليكي فقد كان المنصبان موجودان في أنطاكية، ولكن هناك فرق بين بطريك يعين وبطريك منتخب.

وكانت وجهة هولاكو بعد ذلك مدينة دمشق ، ولما علم الناصر صلاح الدين يوسف سلطان دمشق بما فعله المغول بحلب رحل عن المدينة بما بقى معه من العساكر إلى جهة الديار المصرية، ولم يحاول الدفاع عن المدينة، وأقام لبعض الوقت في مدينة نابلس، ثم إتجه إلى غزة، ويلغه أن المغول هاجموا نابلس، فرحل إلى العريش وأرسل إلى سيف الدين قطز (١٢٥٩ - ١٢٦٠م) يطلب منه المساعدة، أما دمشق فقد دخلها المغول بقيادة كتبغا بالأمان، ولم تتعرض الأهالي إلى القتل والنهب. ولكن قلعة المدينة رفضت التسليم وقاومت عدة أسابيع فأقام المغول عليها المجانيق ثم تسلموها بالأمان في جمادى الأولى عام ٦٥٨هـ/ أبريل ١٢٦٠م، ورغم ذلك نهب

---

(٣٥) Runciman, op. cit., III, pp. 306- 7.

المغـول جـمـيع مـا فـيـهـا وهدمـوا القـلعـة وأسـوارها ومـا بهـا من أدوات القتـال[٣٦].

وهكذا حققت حملة هولاكو أهدافها بنجاح، وهي تدمير قلاع الحشيسية وأسقـاط بغداد عـاصـمـة الخلافة الإسـلامـيـة العبـاسـيـة، ودمـشق عـاصـمـة الايوبيين في الشـام، يضـاف إلى ذلك أن هولاكو ضـمن ولاء سلطنه سـلاجقة الروم في آسـيـا الصـغـرى، ودولة الأرمن في قـيـليـقـيـة، والصـليـبـيين في أنطاكيـة، أما بقيـة الامارات الصليبية فلم يكن في نية لمغول مـهاجمتـها طالما أظهروا الطاعة لهم، وقد إلتزم الجميع بذلك عدا جوليان Julian حاكم مـدينة صـيدا والشـقـيف Beaufort وزوج يوفـيـمـا Euphemia إبنـة المـلـك الأرميني هيثوم. وقد قام جوليان بالإعتداء على أراضي البقاع الأمـر الـذي أقلـق المغـول، وأرسـلوا إليـه بعـض القـوات المغـولية بقيـادة إبن أخت كتبغا، ولكن جوليان كمن لهذه القوات ودارت معركة قتل فيـها القائد المغولي، وهنا أرسل كتبغا جانبًا كبيراً من جيشه خرب مدينة صيدا، عدا القلعة التي انقذتها بعض السفن الجنيوية التي أتت من صور، وترتب على ذلك عزل جوليان من حكم المدينة. وإلى جانب جوليان، تمرد يوحنا الثـاني إبلين John II of Ibelin حاكم بيروت وصيدا عندما إعتدى على إقليم الجليل بمساعدة الداوية، وقد أرسلت قوة مغولية لردعه[٣٧]. وكان لتصرف المغول هذا أثره السيء على تصرفات الصليبين ضد المغول في المرحلة المقبلة.

---

(٣٦) ابو الفدا: المصدر السابق - ص٢٠٢ - ٢٠٣.

(٣٧) Runciman, op. cit. III, p. 308.

أما النتائج العامة لغزوات المغول في فارس والعراق والشام فكانت سيئة جداً على العالم الاسلامي وتوقعوا نهاية أجل الدول الاسلامية بعدما أحسوا أنهم في بلاد الشام بخاصة أقلية مغلوبة على أمرها، على العكس من الدول المسيحية والصليبية التي استبشرت خيراً بقدوم المغول، ولكن هذا الإحساس والتفاؤل شيء والواقع شيء آخر. فقد كان هناك مصر التي حملت لواء الدفاع عن العالم الاسلامي ومقدساته.

قوبيلاي ١٢٦٠ - ١٢٩٤م

توقفت العمليات العسكرية المغولية في بلاد الشام عندما وصلت الأخبار بوفاة الخان الأعظم مونكو، وكان له ثلاثة أخوة هم قوبيلاي Kubilai وهولاكو، وأريق بوقا Arigboga ، وكان له أبناء صغار قليلوا الخبرة. وأشارت الدلائل إلى ترشيح قوبيلاى لمنصب الخان الأعظم، وكان قوبيلاي أثناء ذلك يقود حملة عسكرية ضد بلاد الصين فساندته القوات المغولية المرافقة له في حملته، فبدأ يستعد للعودة إلى العاصمة كلوران لتولى منصبه بحكم أنه الأخ الأكبر للخان الراحل. ولكن الأخ الاصغر وهو أريق بوقا كان في العاصمة وسيطر على أموال الإمبراطورية وطالب بالعرش [٣٨].

وإنقسمت الأسرة الحاكمة المغولية إلى قسمين أحدهما يساند قوبيلاي والاخر يساند أريق بوقا، واختار كل فريق من يسانده لتولى عرش الخانيه، وظلت المناورات حتى أواخر عام ١٢٦١م حتى إنتهى الأمر بإختيار قوبيلاي في منصب الخانية، ولكن أريق بوقا ظل يعارض أخاه لفترة ، وقع خلالها

---

(٣٨) السيد الباز العريني: المرجع السابق - ص٢٥١ - ٢٥٢.

بعض الاحتكاك بين الفصائل المغولية حتى إنتهى الأمر بوفاة أريق بوقا عام (٦٦٤هـ/ ١٢٦٥ - ١٢٦٦م) .وبعد أن إستراح خاطر قوبيلاي من فتنة أريق بوقا دخل جميع الأمراء في طاعته عدا قلة، وفي النهاية خضع الجميع واستكانوا[٣٩].

وكان على هولاكو خلال هذه الأحداث أن يسحب بعض قواته ويتراجع ليراقب الأحداث ، فترك كتبغا مع بعض القوات المغولية في بلاد الشام، ولم يكن في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي من قوة تستطيع أن تواجه المغول سوى مصر وبها دولة المماليك التي تولت السلطنة في مصر، وكان عليها أن تحمل راية الجهاد لإثبات وجودها وقوتها في المنطقة، وحتى تكون جديرة بحكم مصر، وما تتطلع إليه من ميراث البيت الأيوبي في بلاد الشام.

معركة عين جالوت ١٢٦٠م :

كان بداية الاحتكاك بين المغول والمماليك السفارة المغولية التي أرسلها هولاكو الى مصر في أوائل عام ١٢٦٠م/٦٥٨هـ ، تطلب من السلطان قطز الخضوع للسيادة المغولية، ولكن قطز أمر بقتل الرسل، ومعنى ذلك أن الحرب قائمة لا محالة بين الطرفين، وعلى ذلك إستعد قطز للقتال فحشد قواته وإنضم إليه ما تبقى من القوات الخوارزمية، وعساكر المغيث عمر الأمير الأيوبي حاكم إمارة الكرك حتى أصبحت القوات الاسلامية تفوق أعداد القوات المغولية، واجتاز قطز وقواته الحدود المصرية في نهاية يوليو ١٢٦٠م وتولى بيبرس قيادة المقدمة وتمكن من الانتصار على القوات

(٣٩) الداودار: المصدر السابق - ص٥٥- ٥٦.

القليلة للمغول التي كانت مرابطة في غزة، وعلى أثر هذه الهزيمة أرسل القائد المغولي في غزة وهو بايدار Baidar إلى بعلبك حيث كان كتبغا يخبره بالوقائع(٤٠).

إستعد كتبغا وما معه من قوات للتقدم من بعلبك إلى غزة، ولكنه إضطر لترك جانب من قواته لتتوجه إلى دمشق لقمع ثورة قام بها المسلمون داخل المدينة، وترجع أسباب هذه الثورة إلى أن المغول أخرجوا نقيب قلعة دمشق وواليها من الإعتقال وضربوا أعناقهما، ولما كان أهل دمشق قد علموا بخروج العساكر من مصر لقتال المغول فإعتدوا على المسيحيين الذين إستطالوا على المسلمين، بدق النواقيس وإدخال الخمر إلى الجامع، ونهبوهم، وخربوا كنيسة السيدة العذراء (٤١).

وخلال هذه الفترة تقدم قطز إلى الشمال بحذاء الساحل وأرسل سفارة إلى حكام مملكة بيت المقدس الإسمية في عكا تطلب من الصليبين إقامة تحالف إسلامي صليبي ضد المغول، والسماح للقوات الإسلامية بالمرور عبر الاراضي الصليبية، والحصول على المؤن اللازمة للجيش. وعقد بارونات المملكة مجلسًا للتشاور، وكان تقييم الموقف عند هؤلاء البارونات، أن سجل المغول حافل بالمذابح وإن المغول تعاطفوا مع المسيحين المحليين، ولم يتعاطفوا مع الصليبيين، وانهم إعتدوا على مدينة صيدا منذ قليل، وأن التعامل مع المسلمين رغم الحروب الدائمة أفضل بكثير من التعامل مع المغول، وإنتهى قرار البارونات إلى استبعاد فكرة التحالف العسكري مع المسلمين، والإكتفاء بالسماح بمرور القوات الاسلامية عبر الأراضى الصليبية، وتمويل

---

(٤٠) الهمذاني: المصدر السابق - ص٣١٣.

(٤١) المقريزي: المصدر السابق - جـ١ ق٢ - ص٤٢٥، ٤٣٣.

القـوات بما يلزم مـن المؤن ، و على إثرْ هذه الاتفاقية تقدم قطز وقواته إلى الشـمال حتى وصل إلى مدينة عكا وعسكر في البسـاتين الواقـعة خارج المدينة لعدة أيام(٤٢).

وفي الوقت نفسه كان كتبغا قد رتب ما لديه من قوات، وكان مع قوات المغول قوات كرجية وأرمينية، وكان أيضًا في معية كتبغا من البيت الأيوبي الملك السعيد، والملك الاشرف موسى ، ولكنها كانت أقل عدداً من القوات الاسلامية(٤٣).

وعلى أية حال تقدم كتبغا من بعلبك حتى وصل الناصرة، ثم إلى عين جالوت التي وصلها في يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان ٦٥٨هـ/ الثاني من سبتمبر ١٢٦٠م، وفي هذا المكان حيث كان كتبغا لا يدرى بما يدور حوله، ولم يكن هناك من السكان المحليين من يساعده، كان قطز قد خطط للمعركة، وكانت خطة قطز تقضى بأن تختبأ القوات الرئيسية في التلال، ولا يظهر أمام القوات المغولية إلا قلة بقيادة الأمير بيبرس، وهنا أسرعت القـوات المغـولية لملاحقـة القـوات الاسـلامـيـة التي تظاهرت بالانسحاب، فانقضت القوات الاسلامية على القوات المغولية وهزمتها هزيمة قاسية ،وأخذتها سيوف المسلمين، وهرب من سلم من المغول إلى الجبال ولكن المسلمون تبعوهم وأفنوهم، وقد نجح البعض في الهروب إلى الشرق، أما كتبغا فقد ظل يقاتل حتى هلك فرسه، فوقع في أسر المسلمين وحمل

---

(٤٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر - الرياض ١٩٧٦م - ص٦٣- ٦٤.

(٤٣) ابو الفدا: المصدر السابق - جـ٣ - ص٢٠٢، ٢٠٤.

Grigor of Akanc, op. cit., p. 75.

مقيداً بالأغلال إلى السلطان فأمر بقتله، كما وقع في الأسر الملك السعيد وقد أمر السلطان أيضًا بقتله، أما الملك الأشرف فقد فارق المعسكر المغولي وطلب الأمان من السلطان فأمنه وأقره على ما بيده وهو مدينة حمص ومضافاتها، وبعد هذه المعركة تقدم قطز حتى دمشق(٤٤).

والحقيقة فإن الأمر يتطلب وقفه قصيرة للنظر في الأسباب التي أدت إلى هزيمة المغول في معركة عين جالوت، وهم الدولة التي لم تهزم هزيمة واحدة في كل فتوحاتها من بلاد الصين غربًا حتى البحر الأدرياتيكي شرقًا، ومن جنوب الروسيا شمالاً حتى تركستان جنوبًا، ويمكن حصر هذه الأسباب في عدة نقاط هي : وفاة الخان مونكو وما له من تأثير على عودة هولاكو والجزء الأكبر من جيش المغول حتى أصبح ما تبقى من قوات أقل من القوات التي كانت تحت السلطان قطز، وسبب آخر يرجع إلى مساعدة الصليبيين للقوات الاسلامية والسماح لها بالمرور في أراضيهم والالتفاف حول القوات المغولية من الشمال، وهو أمر لم يتوقعه المغول، يضاف إلى ذلك الثورة التي قامت في دمشق بسبب تصرف المغول وقتل نقيب قلعة المدينة وواليها، الأمر الذي أجبر كتبغا على ترك جانبًا من قواته لإقرار الأمن والنظام داخل المدينة، كما أن عدم تعاون الأهالي مع المغول في الاراضي التي مروا بها جعلهم لا يدرون بما يدور من حولهم حتى فاجأتهم القوات الاسلامية، هذا بالاضافة إلى جهل المغول بطبوغرافية الأراضي التي مروا بها، وأن وقت المعركة قد حدد بمعرفة قطز وليس بمعرفة المغول، وهذا أمر هام لأن المغول

(٤٤) عن معركة عين جالوت راجع: الداودار: المصدر السابق - ص٥٠ - ٥٣، المقريزي: المصدر السابق - جـ١ ق٢ - ٤٣٠ - ٤٣٥ ابو الفدا: المصدر السابق - جـ٣ - ص٢٠٥ - ٢٠٧، ابن عبد الظاهر: المصدر السابق - ص٦٣- ٦٧، الهمذاني: المصدر السابق ٣١٠ - ٣١٨. Grigor of Akance. op. cit.. pp. 75 ff.

كما شاهدنا في المعارك السابقة كانت حروبهم تبدأ مع فصل الشتاء وتنتهي مع نهاية فصل الربيع. أما أحداث معركة عين جالوت فقد بدأت من شهر يوليو وامتدت حتى أوائل سبتمبر، وهذا وقت تشتد فيه الحرارة في بلاد الشام وتقل المياه في الأنهار والأفلاج. وأخيراً يمكن القول أن هذه المعركة كانت معركة حياة أو موت بالنسبة لدولة المماليك الناشئة التي أعلنت راية الجهاد على أعداء الاسلام.

أما النتائج التي ترتبت على هذه المعركة التي تعتبر من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ فهي كبيرة وعميقة الأثر على تاريخ العالم كله في تلك الحقبة التاريخية، فقد جعلت من دولة المماليك القوة الرئيسية في منطقة الشرق الأدني الاسلامي حتى الفتح العثماني، ولقد قوت هذه المعركة أيضًا من قوة المسلمين في آسيا كلها وأضعفت العناصر المسيحية، حتى أن المغول الذين بقوا في إيران والأقاليم الغربية للإمبراطورية المغولية قد إعتنقوا الاسلام، كما عجلت هذه المعركة بالقضاء على الإمارات الصليبية في بلاد الشام.

كان لجنكيز خان أربعة أولاد حسب كبر السن جورجي، وجغتاى، وأوكيتاي، وطولوي، وفي أيام جنكيزخان كانت الحكومة في إقليم منغوليا، أما بعد وفاة جنكيرخان فقد تم نوع من التقسيم الإداري، فأصبح أوكيتاي خانا أعظم بالاضافة إلى اقليم منغوليا، أما جغتاي فقد اختص بإقليم ما وراء النهر وتركستان الشرقية منذ عام ١٢٢٧م وفي سلالته التي إستمرت حتى عام ١٣٧٠م، وفيما يختص بإقليم فارس فقد آل إلى هولاكو بعد موت طولوى وذلك منذ عام ١٢٥٦م.

أما جورجي فقد حكم القبيلة الذهبية وعرفت بهذا الاسم نسبة إلى اللون

الذهبي الذي كان لون مخيماتها، وقد حكم بعده ولدان هما باطو وعرفت سلالته باسم القبيلة الزرقاء وحكمت في جنوب روسيا وغرب بلاد القفجاق منذ عام ١٢٢٧م حتي ١٣٨٠م، والثاني هو أوردا الذي عرفت سلالته باسم القبيلة البيضاء واستمرت سلالته منذ ١٢٢٦ حتى عام ١٤٨١م وحكمت في سيبريا وشرقى بلاد القفجاق.

وما يعنينا على هذه الصفحات في هذا الفصل خانات فارس، وهم فرع هولاكو وذلك لسببين، الأول هو قرب فارس إلى العالم الاسلامي العربي، وما كان لهذا الفرع من إتصالات سلمية وعسكرية مع دولة المماليك في مصر، والثاني هو محاولة أوربا التحالف مع هذا الفرع في بلاد فارس للقضاء على دولة المماليك وتمكين الصليبيين في بلاد الشام من السيطرة على منطقة الشرق الأدنى الاسلامي العربي.

مات هولاكو في مدينة أزربيجان في الثامن من فبراير عام ١٢٦٥م بعد أن كان قوبيلاي قد منح هولاكو لقب خان في حكم إقليم فارس وعاصمته تبريز، وجعل له وسلالته الحكم وراثيًا في هذا الإقليم، وما يهمنا في هذه الدراسة أن هولاكو توقف عن مهاجمة منطقة الشرق الأدنى الإسلامي بعد معركة عين جالوت، ويرجع ذلك إلى مشاكل هولاكو بسبب الوراثة في البيت المغولي، وبسبب مشاكله أيضًا مع مغول التركستان ومغول القبيلة الذهبية الذين إعتنقوا الإسلام، ولكنه رغم هذا كان يملك من القوة العسكرية التي أخافت المماليك من مهاجمة حلفائه من الأرمن، والصليبين في أنطاكية، وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى ودولة الكرج (جورجيا)، ثم الإمبراطورية البيزنطية بعدذلك، وكان هولاكو يرى أن التحالف مع الإمبراطورية البيزنطية في غاية الأهمية، وذلك لإيجاد توازن في آسيا

الصغرى بين الامبراطورية وسلطنه سلاجقة الروم، ولذلك أرسل هولاكو من عاصمته تبريز إلى الإمبراطورية يطالب بزوجة له، وقد وافق الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوجوس Michael VIII Palaologus (١٢٥٨ - ١٢٨٢م) وشرع فى ارسال إبنه غير شرعية له هي ماريا Maria . وتوفى هولاكو في الثامن من فبراير عام ١٢٦٥، وجاءت وفاته في لحظة حرجة من تاريخ المغول، وكان لها أثراً كبيراً في إضعافهم. وقد نجحت زوجته طقز خاتون في الاحتفاظ بالعرش في إقليم فارس لإبنها أبغا Abága ، وماتت بعد قليل طقزخاتون حامية المسيحية في كل الأراضي التي دخلها المغول فحزنوا عليها حزنًا شديداً[٤٥]، وثارت بعض القلاقل ضد أبغا من قبل بعض أمراء المغول، فلم يعد بوسعه أن يقوم بأى عمل عسكري في بلاد الشام في تلك المرحلة .

أبغا خان فارس (١٢٦٥ - ١٢٨٢م)

وإذا كان العالم المسيحي قد حزن على موت طقز خاتون، فانهم وجدوا في ماريا البيرنطية ما يعوضهم عن ذلك، فعندما وصلت ماريا إلى البلاط المغولي في فارس كان هولاكو قد مات، ولكنها تزوجت من إبنه أبغا[٤٦]، وبذلك حلت ماريا التى عرفت في البلاط المغولي بإسم ديسبينا خاتون Despina Khatun محل طقز خاتون، ووجدوا فيها حاميًا جديداً للمسيحية، وقد أجلها المسيحيون والمغول وإحترموها لما إشتهرت به

---

(٤٥) Runciman, op. cit., III, pp. 320, 331- 2.

(٤٦) ابن العبري: المصدر السابق - ص٢٨٥.

من حب الخير والحكمة[٤٧].

وقد شجع ذلك الغرب الأوربي وعلي رأسه البابارية ، فأرسل البابا كلمنت الرابع Clement IV (١٢٦٥ - ١٢٦٨م) إلى أبغا يعرض عليه عقد محالفة عسكرية لمحاربة المماليك، ولكن أبغا كان مشغولاً بحروبه مع القبيلة الذهبية، ولذلك لم يقدم سوى وعوداً غامضة، كما إنشغل بحرب أخرى بعد قليل مع ابناء عمومته آل جغتاى الذين أغاروا على أملاكه الشرقية في عام ١٢٧٠م. وفي العام نفسه وبعد أن إنتهى من مشاكله مع أبناء عمومته وهزيتهم، فكر أبغا في التحالف مع الملك لويس التاسع وتعهد بأن يقدم المساعدات العسكرية إذا وصل لويس بحملته إلى بلاد الشام، ولكنه لويس لم يتقدم إلى بلاد الشام بل وجه حملته إلى تونس حيث مات هناك ففشل هذا المشروع، وكان لويس قد إتفق مع الامير الأنجليزي إدوارد أن يتوجها بحمله صليبية معا ، فلما مات لويس كان إدوارد موجوداً في صقلية، فأبحر إلى جزيرة قبرص ومنها إلى عكا في التاسع من مايو ١٢٧٠م[٤٨].

وما يعنينا في هذه الدراسة هو محاولة تحالف إدوارد مع المغول لقتال المسلمين. وقد أرسل الأمير الانجليزي إلى أبغا سفارة مكونه من ريجنالد رسل Reginald Russel، وجودفرى ويليس Godfery Welles ، وحنا باركر

---

(٤٧) Runciman, op. cit., III, pp. 331- 2.

(٤٨) Matthew of Westminster, Flowers of History, tran. C. D. Yonge, London, 1853, II, p. 450.

John Parker إلى الخان أبغا يطلب منه المساعدة لقتال المماليك، ولما كانت قوات أبغا مشغولة بالقتال في تركستان، فقد أرسل إليه في منتصف اكتوبر عام ١٢٧١م عشرة آلاف فارس سحبها من بلاد الاناضول(٤٩).

تقدمت القوات المغولية إلى مدينة عين تاب، ثم إلى حلب ففرت الحامية المملوكية إلى حماة، فتقدمت القوات المغولية في إثرهم حتى معرة النعمان وأفاميه، ولما أحست بقدوم القوات المملوكية عادت من حيث أتت لأنها شعرت بقلة قواتها أمام القوات المملوكية (٥٠). ومن الملاحظ أن إدوارد لم يتقابل مع القوات المغولية، ولم يكن هناك أي تنسيق في العمليات العسكرية، وقد غادرت الحملة الانجليزية بلاد الشام بعدما قامت ببعض العمليات العسكرية البسيطة في ضواحي عكا، وبعد أن رتب إدوارد لعقد هدنة بين الصليبين في عكا والظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٩م) في القاهرة (٥١). ثم ما لبثت أن تساقطت الممتلكات الصليبية واحدة بعد الأخرى.

وفي نهاية القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر قام المغول ببعض الغارات على بلاد الشام أحيت بها الأمل عند الغرب الأوروبي في إمكانية الاعتماد على المغول في القضاء على الدولة المملوكية، ففي عام ١٢٩٩م أغار على بلاد الشام خان فارس غازان محمود (١٢٩٥ - ١٣٠٤م) الذي

---

(٤٩) Runciman, op. cit., III, p. 336.

(٥٣) ابو الفدا: المصدر السابق - جـ٤ - ص٥، المقريزي: المصدر السابق، جـ١ ق٢ - ص٦٠٠.

(٥٤) المقريزي: المصدر السابق - جـ١ ق٢ - ٦٠١.

اعتنق الاسلام وإستبدل لقبه بلقب السلطان بدلاً من لقب خان، وقد نجح غازان في هزيمة الحاميات المملوكية، عند حمص في نهاية عام ١٢٩٩م، ثم تقدم إلى مدينة دمشق في مطلع العام التالى ١٣٠٠م، فاعترفت المدينة بسيادته، ومن دمشق هدد غازان بفتح مصر ثم غادرها إلى عاصمته في فارس(٥٢).

وتقدم غازان مرة أخرى إلى بلاد الشام في عام ١٣٠٣م ولكنه هزم في مرج الصفر فعاد بعدها إلى بلاده، وهدأ تهديده لمصر لبعض الوقت، ورغم أن غازان كان قد إعتنق الاسلام إلا أنه كان يبحث عن حليف للقضاء على القوات المملوكية، ولم يكن هناك سوى دول أوربا التي سبق لها أن توسلت كثيراً إلى خانات المغول للتحالف ضد المماليك، ولكن الخانات كانوا يطلبون الخضوع لا التحالف، وبذلك ضاعت فرصة التحالف الاوربي لضرب العالم الاسلامي.

وانقلبت الأوضاع وبدأ المغول يبحثون عن حليف في أوربا يتعاونون معه لضرب القوة المملوكية، ولذلك أغار أولجايتو خدا بندة محمد الذي اطلق عليه أبو الفدا اسم خربندا على بلاد الشام في عام ١٣٠٨م(٥٣)، لجذب أنظار حكام أوربا، ويقال أنه توغل حتى وصل إلى مدينة بيت المقدس. وترددت الشائعات بأن أولجايتو ينوى تسليم المدينة إلى دولة مسيحية تتحالف معه، ولم يحدث أن تقدمت دولة أوروبية لعقد هذا

---

(٥٢) الهمذاني: جامع التواريخ - تاريخ غازان خان - دراسة وترجمة فؤاد عبد المعطي الصياد - القاهرة - ٢٠٠٠ - ص١٥٩ - ١٦٥.

(٥٣) ابو الفدا: المصدر السابق - جـ٤- ص٦٦، ٧٠.

التحالف، رغم وجود إرهاصات بقيام حملة صليبية دعا إليها البابا وملك فرنسا(٥٤). وبعد سنوات قليلة مات خان فارس، فتضاءلت فرص التحالف الأوربي المغولي، وعندما تولى أبو سعيد بهادر السلطة في فارس نزع الى الوفاق مع مصر، وقد ظل أبو سعيد في السلطنة حتى عام ١٣٣٥م تفككت بعده الخانية وانقسمت إلى أسرات عديدة، ولم يعد هناك ما يهدد مصر، أو من يفكر في التحالف مع أوربا.

مغول القفجاق

سبق إن ذكرنا أن جورجي بن جنكيز خان حكم القبيلة الذهبية في بلاد القفجاق، وفي عهد الخان بركه Berke بن جورجي (١٢٥٧ - ١٢٦٧م) انتشر الاسلام في بلاد القفجاق كأول قبيلة مغولية تعتنق الاسلام، وقد أدى هذا إلى ظهور العداء بين بقية القبائل المغولية وبين القفجاق، وقد ترتب على ذلك تقرب القفجاق إلى الدول الإسلامية المجاورة خاصة دولة المماليك، كما سعى أيضًا المماليك بدورهم للتقرب من خانات القفجاق خاصة أن الصراع ظل على أشده بين خانات فارس وبين المماليك في مصر. وتبودلت السفارات والرسائل بين الطرفين، ومن ذلك أن الخان بركه أرسل في عام ١٢٦٣م سفارة إلى مصر حملت معها رسالة للسلطان بيبرس، وقد إمتلأت هذه الرسالة بالعبارات التي تفيد أن بركه متحمس للإسلام والمسلمين وأنه لا سبيل له إلا إعلاء كلمة الله. وقد أرسل بيبرس رسالة عبر فيها على انحيازه الكامل لقبيلة القفجاق واحترامه الزائد للخان بركة (٥٥).

---

(٥٤) Runciman, op. cit., III, p. 437.

(٥٥) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق - ص١٣٥ - ١٤٠.

ولم يقف بيبرس عند هذا الحد من المجاملة، بل أنه أمر بالدعاء للخان بركة - بعد الدعاء للسلطان المملوكي - على منابر البلدان الإسلامية المقدسة وهي مكة والمدينة والقدس بالاضافة إلى منابر القاهرة[٥٦].
واستمرت العلاقة بين الظاهر بيبرس والخان مانكو تيمور ١٢٦٧ - ١٢٨٠م بقصد توحيد الجهود لمواجهة أخطار مغول فارس، ولم تنقطع هذه الصلات بعد بيبرس، فقد أرسل الناصر محمد بن قلاوون رسالة يساند فيها غياث الدين تقتو ١٢٩٠ - ١٣١٢م، ويعلن إستعداده لمحاربة غازان خان المغول في فارس. ويبدو أن مغول فارس قد تنبهوا لهذا الترابط الذي قام بين المماليك وخانات القفجاق، لأن أولجايتو خليفة غازان رضى بالصلح مع دولة المماليك[٥٧]، فخفت حدة التوتر بين مغول فارس وبين المماليك وبالتالى إلى حد ما مع مغول القفجاق.

ورغم هذا إستمر الترابط بين المماليك ومغول القفجاق، وفي عهد غياث الدين محمد أزبك (١٣١٢ - ١٣٤١م) أرسل الناصر محمد بن قلاوون في عام ١٣١٦م يطلب منه الزواج من إحدى أميرات القفجاق، وقد تأخر تنفيذ ذلك لبعض الوقت حتى كانت سنة ١٣٢٠م حتى وصلت العروس إلى ميناء الاسكندرية، وكانت تدعى طولونية، ويقال دلنبية[٥٨]. وفي السنوات التالية وخاصة في عهد جاني بك (١٣٤١ - ١٣٥٧م) كانت

---

(٥٦) المقريزي: المصدر السابق - جـ١ ق٢- ص٤٣٥.

(٥٧) المقريزي: المصدر السابق - جـ١ ق٣ - ص٩٥٤.

(٥٨) سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك - بيروت - د.ت - ص٣٥٥.

العلاقات مع سلاطين المماليك قائمة على التقدير والاحترام المتبادلين. ومع انحلال خانية فارس منذ عام ١٣٣٦م زال الخطر المشترك بين القفجاق والمماليك، ثم دخلت خانية القفجاق هي الأخرى في مرحلة من الانحلال بعد عام ١٣٥٧م ، كما إنشغل المماليك بقضايا أخرى، الأمر الذي أدى إلى إضعاف روابط الاتصال مع القفجاق .

تيمور لنك ١٣٦٩ - ١٤٠٤م

ولد في قرية خواجة إيلغار بالقرب من مدينة سمرقند في عام ١٣٣٦م، وعندما بلغ الثلاثة والثلاثين من عمره أصبح حاكما على إقليم تركستان الشرقية وإقليم ما وراء النهر[٥٩]، وهي المنطقة التي حكمها الخانات من فرع جغتاى بن جنكيزخان ، ومنذ تولى تيمورلنك السلطة شن حربًا واسعة على بلاد فارس ثم على بغداد، وعلى بلاد روسيا حيث توجد القبيلة الذهبية، وعلى شرق بلاد الأناضول حيث أملاك الدولة العثمانية، وفي نهاية القرن الرابع عشر ومطلع الخامس عشر الميلادي تقدم إلى بلاد الشام حيث حلب ودمشق وغيرها .

وترجع إنتصارات تيمورلنك في كل هذه الأقاليم إلى حروبه التي كانت شديدة الوطأة لا تعرف الرحمة، مما أدخل في الاذهان عصر خانات المغول الأوائل. ويلاحظ على فتوحات تيمور لنك في بدايتها أنها كانت بطيئة ومتأنية ولكنها كانت فتوحات مدروسة مكن فيها تيمور لنك لنفسه ولدولته في الاقليم الذي حكمه، وقد ظلت حروب تيمور لنك منذ عام

(٥٩) ابن عرب شاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور - القاهرة ١٢٨٥هـ - ص٦، ١٧.

١٣٨١م وحتى وفاته عام ١٤٠٤م. وكانت بداية عمليات تيمور لنك الرئيسية ضد خانات المغول في فارس ،لأن بلاد فارس قد تمزقت إلى عدة دول في عام ١٣٣٦م بعد الخان موسى، ولعل هذا ما أغرى أو شجع تيمور لنك على غزو هذه النواحي، وقد نجح في ١٣٨٦ من الاستيلاء على تبريز وسلطانيه وتفليس. وظل يترقب الأوضاع في بغداد حتى إستولى عليها عام ١٣٩٢م[٦٠].

وبعد هذه المرحلة تطلع تيمور لنك إلى قتال القبيلة الذهبية في روسيا، وتقدم بعدة حملات متلاحقة حتى وصل إلى مدينة موسكو. وفي سنة ١٣٩٥م إتجهت القوات المغولية إلى بلاد الأناضول فخضعت له مدينتي أرزنجان وسيواس وغيرهما[٦١]، وبعد ثلاث سنوات كانت حملات تيمورلنك على شمال بلاد الهند في عام ١٣٩٨م وتميزت حملاته على الهند بقسوة لم تعهدها البلاد التي فتحها من قبل. وكان لذلك أثره على سكان البلاد التي فتحها بعد ذلك .

وبدأت الحملات العسكرية المغولية على بلاد الشام بقيادة تيمولنك في عام ١٤٠٠م، وكانت وجهته مدينة حلب التي قاومت ببسالة، ولكنها سقطت في النهاية ،ودخلتها القوات المغولية وإستباحتها لمدة ثلاثة أيام، وبلغ عدد القتلى من أهالى المدينة حوالى عشرين ألفًا، وقد قطعت بعض رؤوسهم في كومة قطرها عشرين ذراعًا وارتفاعا عشر أذرع. كما دمر

---

(٦٠) ابن عرب شاه: المصدر السابق - ص٥٠.

(٦١) ابن عرب شاه: المصدر السابق - ص٦٩.

المغول مدارسها ومساجدها التي أسسها البيت الزنكي والبيت الأيوبي والمماليك[٦٢].

وحاول السلطان المملوكي فرج بن برقوق (١٣٩٩ - ١٤١٢م) أثناء حكمه في المرة الأولى أن يتصدى للجيش المغولي ولكن القوات المغولية أبادت الطلائع التي أرسلها لمقاومتها، فأصبح الطريق مفتوحًا أمام تيمور لنك إلى دمشق. وقد صمدت المدينة حوالى شهر، ثم استسلمت المدينة بعد ذلك، ويقول ابن تغرى بردي إن تيمور لنك لم يحترم شروط التسليم التي قرأت على منبر جامع دمشق، فقد جمع من سكان المدينة حوالى ثلاثين ألفًا من الرجال والنساء والأطفال - دون تفرقة بين الجنس أو العمر - في جامع المدينة ثم أمر باضرام النار في المسجد، فلم يبق منه شيئًا سوى بعض الجدران [٦٣].

كما نقل تيمور لنك جميع العلماء والحرفيين المهرة إلى عاصمته سمرقند، ورأى أهل دمشق أنواعًا من العذاب لم يسمع بمثلها استمرت تسعة عشر يومًا بعدها أشعلت النار في المنازل والمساجد، وكان يوم عاصف الريح، فعم الحريق جميع البلد حتى صار لهيب النار يكاد أن يرتفع إلى السحاب، وظلت النار مشتعلة ثلاثة أيام بلياليها، حتى صارت دمشق أطلالاً باليه[٦٤]، وما كاد يفرغ من دمشق حتى إتجه إلى بغداد في العام التالى (١٤٠١م) لينزل بها العقاب بسبب ثورة قامت فيه، وحل ببغداد ما حل بدمشق.

---

(٦٢) ابن تغري بردي: المصدر السابق - جـ١٢ - ص٢٢٢ - ٢٢٥.

(٦٣) ابن تغري بردي: المصدر السابق - جـ١٢ - ص٢٢٤ - ٢٢٥.

(٦٤) ابن تغري بردي: المصدر السابق - جـ١٢ - ص٢٦٦.

ودارت الدائرة بعد بلاد الشام على آسيا الصغرى حيث كانت الدولة العثمانية، وترجع بداية هذه الأحداث إلى أن السلطان با يزيد الأول ١٣٨٩ - ١٤٠٢م كان قد إستولى على أراضي بعض أمراء الأتراك السلاجقة، وقد لجأ هؤلاء إلى تيمور لنك لحمايتهم، وقد أرسل تيمور لنك في مطلع عام ١٤٠٢م إلى السلطان بايزيد يأمره بإعادة كل المدن والاراضي التى استولى عليها إلى أصحابها. وقد رفض السلطان بايزيد طلب تيمور لنك ورد عليه بإجابة قاسية، وكان ذلك يعني الحرب . وتقدم تيمور لنك إلى مدينة أنقره، فوجد بالقرب منها جيوش بايزيد وكانوا حوالي مائه وعشرين ألفًا ، وفي صباح الثامن والعشرين من يوليو دارت معركة بين الطرفين تصدى لها من جانب الدولة العثمانية الجنود الصرب بقيادة ستيفان لازاروفيتش Stephan Lazarovic، ولكن بايزيد أمرهم بالانسحاب حتى لا تحاصرهم القوات المغولية، فتقدم المغول حتى بلغوا الصفوف التركية، فألقى الاتراك السلاجقة سلاحهم ورفضوا القتال ضد أمرائهم المغول السابقين، وثبت بايزيد في المعركة حتى المساء، ثم حاول الفرار تحت ظلام الليل، ولكنه وقع في الأسر هو وإبنه موسى وبعض القادة[٦٥].

ولمزيد من السخرية والاهانة للسلطان بايزيد وضعه تيمورلنك في قفص من حديد وطاف به البلاد ، ثم ما لبث أن توفى بايزيد في الأسر في الثامن من مارس ١٤٠٢م فسمح تيمورلنك بدفنه في مدينة بروسه[٦٦]. وقد ترتب على غزو تيمورلنك للبلاد العثمانية ،عودة الأمراء السلاجقة إلى إماراتهم،

---

(٦٥) ابن عرب شاه: المصدر السابق - ص١٢٦ - ١٣٩.

Ostrogorsky, op. cit., p. 495.

(٦٦) ابن عرب شاه: المصدر السابق - ص١٤٠.

كما أبقى تيمورلنك إقليم تراقيه في أوروبا في يد ابن بايزيد تحت السيادة المغولية، وبعد أن نهب المغول جميع مدن آسيا الصغرى عادوا إلى بلادهم، ثم ما لبث أن مات تيمورلنك في التاسع عشر من فبراير عام ١٤٠٤م، وهو الشهر نفسه الذي مات فيه هولاكو عام ١٢٥٦م .

وبعد موته استرد المماليك سوريا ، وظهرت في أزربيجان أسرة الشاد السوداء التي أقامت دولة إمتدت من شرقي آسيا الصغرى حتى بغداد. كما ظهرت انتفاضات قومية في بلاد فارس ظهرت على إثرها الدولة الصفوية، وظلت سلالة تيمورلنك تحكم في إقليم ما وراء النهر طوال القرن الخامس عشر، كما استطاعت سلالته إقامة دولة في الهند عرفت باسم إمبراطورية المغل في دلهى إستمرت لفترة طويلة.

الطرق التجارية زمن المغول :

كانت التجارة قبل الفتوحات المغولية تمر عبر الطريق الذي كان يعرف باسم طريق الحرير، وكان هذا الطريق يبدأ من الصين ثم إلى التبت وإلى شمال بحر آرال، ثم إلى جنوب بحر قزوين فإلى طهران وبغداد ودمشق، ومنها إلى ثلاث شعب هي الطريق إلى بيروت، والطريق إلى صور، والثالثة إلى انطاكية، ومن هذه المدن إلى موانىء البحر المتوسط في أوربا وافريقيا.

ولكن هذا الطريق قد تأثر في بداية فتوحات المغول، وبعد أن هدأت الاحوال وأصبح للمغول امبراطورية واسعة، بدأ المغول في تشجيع التجار على أن يرتادوا الطريق البرى القديم القادم من الصين ويجتاز تركستان ثم إلى شمال بحر قزوين إلى موانى البحر الأسود، أما الطريق الآخر فقد بدأ

من الصين ثم الى بلاد فارس ثم إلى سواحل البحر الأسود الجنوبية مثل طرابيزون أو إلى مدينة إياس الواقعة في الجنوب الشرقي لآسيا الصغرى. وقد شجع التجار على إعادة إستخدام مثل هذه الطرق، ما فرضه المغول من الأمن والنظام حتى أصبح الطريق البرى أفضل من طريق البحر الطويل لمروره بالهند، وما به من أخطار وكوارث طبيعية . كما ترتب على سيطرة المغول على بلاد العراق أن جانبًا من تجارة الشرق الأقصى وصلت إلى بغداد عبر الخليج ومنها إلى دمشق أو حلب ثم المدن الساحلية الشامية التي كانت في أيدى الفرنج الصليبيين لبعض الوقت، ومنها إلى مدن البحر المتوسط مثل مدينة إياس .

وإشتد تنافس مدن البحر المتوسط مثل البندقية وجنوة ثم لحقت بهما بيزا. وقد سيطرت البندقية في أول الأمر على البحر الأسود بعدما ساعدت الصليبين في إقتحام القسطنطينية عام ١٢٠٤م، ولما إستعاد البيرنطيون عاصمتهم في عام ١٢٦١م بمساعدة الجنويين تراجع نفوذ البنادقة التجاري من البحر الأسود، واحتكرت جنوة تجارة الرقيق القادمة من سهوب روسيا إلى مصر والشام. أما البنادقة فقد تقربوا إلى الأرمن الذين تحالفوا مع المغول ، وبذلك سمح للبنادقة أن يشاركوا في تجارة المغول القادمة إلى مدينة إياس . وفي سواحل بلاد الشام حيث كان الصليبيون .فقد سيطر البنادقة على التجارة في عكا، كما سيطرت جنوة على التجارة في مدينة صور وإن كانت أقل من تجارة عكا. وعندما تطورت مدينة اياس بفضل التجارة المغولية ضعفت مواني الساحل الشامي الصليبية. ورغم ما قام بين المغول والمماليك من حروب بعد سقوط الإمارات الصليبية فإن ذلك لم يعرقل مسيرة التجارة كثيراً، فتقدمت القوافل من بلاد فارس إلى العراق ثم

إلى سواحل بلاد الشام، وطبقا للقاعدة الاقتصادية بأن رأس المال جبان ، فمما لا شك فيه أن الحروب تؤثر بشكل أو بآخر على سير الحركة التجارية، وكما هو معروف أيضًا أن التجارة سارت وراء الصليب في العصور الوسطى ، فإن الصليب سار وراء التجارة مع الكشوف الجغرافية.

ومن العوامل التي ساعدت على سهولة العمليات التجارية داخل الامبراطورية المغولية قيام الخان الاعظم بانشاء دار لسلك النقود بالعملة الورقيه ، والحقيقه أن النقود الورقية كانت مستخدمة في بلاد الصين ، وقد قام الخان الاعظم أوكيتاى فى عام ١٢٣٤ م بتقليد ما كان سائدا فى بلاد الصين ، وان مقر دار سلك النقود هذه كان فى مدينة كانبالا . ولصناعة هذه العملة الورقية كان الخان يأمر بنزع لحاء اشجار التوت ، ثم تأخذ منها القشرة الداخلية الرقيقه التي تقع بين اليابس وخشب الشجرة ، ثم تنقع هذه القشرة وتدق في هاون حتى تتحول الى عجينه يصنع منها الورق الذي يماثل في مادته الورق التى يصنع من القطن [٦٧].

وبعد ما يصبح الورق معدا للاستعمال يتم قطعه الى أحجام مختلفه شبه مربعه ، وكان لكل حجم قيمه ثابته لعملة أخري أجنبية . وتعطى هذه العمله الورقيه شرعيتها ببعض الاشكال والرسوم ، ويتولى بعض الموظفين المختصين وضع اسمائهم واختامهم على هذه العمله .فاذا صدرت هذه العمله علي الطريقه السابقة يتولى كبير الموظفين المفوض من الخان الاعظم بختمها بالخاتم الملكى الموجود في حيازته، وعلي هذه الصورة تكون العمله الورقية أصبحت معده للتداول[٦٨] .

---

(٦٧) William of Rubruck, the Journey, in the Mission ed Dawson, New York, 1955, pp. 171 - 2.

(٦٨) Morco Polo, The Travels, penguin 1974, p. 147.

وكان يعد تزوير هذه العملة جريمه عقوبتها الاعدام ، وعلى ذلك لا يجرؤ إنسان على القيام بمثل هذه العمل والا عرض حياته للموت ، وكان يسجل على كل عملة عبارة « كل من زور سوف تقطع رأسه » وكان يتم تداول هذه العمله داخل الامبراطورية وخارجها ويتقبلها الرعايا والاجانب دون تردد[٦٩].

وكان الخان الاعظم يضع ثمن لكل سلعة واردة من الخارج ، فعندما تصل القوافل الضخمة يقوم الخان باستدعاء جماعة من ذوى الخبرة فيأمرهم بفحص السلع بكل عناية ، ثم يضعون ثمنا لكل سلعة، ثم يسمح بهامش ربح معقول يضاف الى ثمن السلعة . ثم يدفع للتجار الثمن على الفور بالعملة الورقية دون أى إعتراض من التجار ، واذا كان هؤلاء التجار من اقليم لا يتعامل بهذه العملة الورقية ، فانهم يستثمرون المبلغ فى شراء سلع تجارية أخرى تناسب اسواقهم، وعندما يتصادف أن يمتلك شخصا نقودا ورقيه بليت من طوال الاستعمال ،فانه يحملها الى دار سلك النقود فيسلمها ويحصل على أوراق جديدة بدلا منها بعد خصم ٣ ٪ من القيمه[٧٠].

واذا أراد أى فرد الحصول على الذهب أو الفضه بقصد تصنيعها كؤوسا للشراب أو أحزمه أو غير ذلك وجب عليه التقدم بطلبه الى دار سلك

---

(٦٩) Marco Polo, op. cit., pp. 147-9.

(٧٠) Ibid., p. 148.

النقود ،حيث يحصل على ما يريد مقابل ما معه من عملة ورقيه، وكانت أعطيات الجند تصرف بهذه العمله الورقيه أيضا التى تعد عندهم على نفس قيمة الذهب أو الفضه [٧١].

(٧١) Morco Polo, op. cit., p. 148.

الفصل الرابع
أوربا زمن المغول

إنجلترا

فرنسا

ألمانيا

البابوية



الفصل الرابع

أوربا زمن المغول

أولا : إنجلترا :

وفي الوقت الذي ظهر فيه المغول على الساحة الآسيوية والأوربية كانت أوربا الغربية قد وصلت إلى مرحلة من الإستقرار النسبي مكنتها من أن تكون لها مكانتها العالمية خاصة بعدما لعبت دوراً كبيراً في الحروب الصليبية، ومن الدول التي كانت لها قوتها السياسية والعسكرية إنجلترا وفرنسا وألمانيا، والدول الاسبانية والبرتغالية التي لعبت دوراً كبيراً في حركة الاسترداد في الأندلس، هذا فضلاً عن البابا وية التي مكنتها سلطتها الروحية من فرض كلمتها لبعض الوقت على ملوك وحكام أوربا. وفيما يتعلق بإنجلترا، فيمكن البدء بعهد الملك ريتشارد الأول قلب الأسد . وهناك ملاحظة هامة يجب الإشارة إليها قبل الخوض في تاريخ إنجلترا - وهي أن الجزيرة البريطانية تتكون من ثلاثة أقسام كبار هي إنجلترا وويلز واسكتلندا وهو ما يعرف اليوم باسم المملكة المتحدة إذا أضفنا إليها الجزء الأيرلندي. ولذلك فإنه عندما نتحدث في العصور الوسطى عن إنجلترا فإننا نقصد به على هذه الصفحات الأجزاء الجنوبية والشرقية من الجزيرة البريطانية ولا يدخل فيها ويلز أو أسكتلندا، مع عدم الإلتزام بالحدود الإدارية المعروفة الآن.

ريتشارد الأول ١١٨٩ - ١١٩٩م

تولى ريتشارد الأول حكم إنجلترا بعد أبيه، ويعرف باسم ريتشارد

قلب الأسد Richard I The Lion-Heart ، وقد ولد في إكسفورد عام ١١٥٧م، وعاش أكثر عمره في مقاطعة اكويتين Aquituine ليصرف شئون المقاطعة بدلاً من أمه اليانور Eleanor . وكان لتواجده في إقليم إكوتين أثراً كبيراً على ثقافته، فلم يعد إنجليزيا، وتأثر بالثقافة الفرنسية الجنوبية خاصة الشعر والغناء وحب المغامرات، وعندما تولى حكم إنجلترا اضطر للعمل بالسياسة وهو عنها بعيد [١].

وإنشغل منذ توليه عرش إنلجترا بالإستعداد للقيام بحملة صليبية وهي الحملة المعروفة بالثالثة، وانضم فيها فيليب أوغسطس ملك فرنسا وفريدريك بارباروسا إمبراطور ألمانيا، ومن أجل هذه الحرب إضطر للمال ولم يكفيه ما تركه والده، ولكي يحصل على الأموال فصل عدداً كبيراً من موظفي الدولة ثم أعاد تعيينهم مقابل بعض الأموال، ومنح براءة قيام بعض المدن من أجل المال أيضًا، وحصل على مبلغ هزيل من أجل الاعتراف باستقلال إسكتلندا، وصادر بعض السفن التي كانت راسيه على شواطىء إنجلترا ليستخدمها في نقل قواته إلى سواحل الشام.

وفي طريقه إلى الأراضي المقدسة عبر البحر المتوسط مع فيليب أوغسطس إستولى على جزيرة قبرص عام ١١٩١م ثم باعها لفرسان الداوية Templers، ولما فشلت الصفقة مع الداوية باعها إلى جاى لوزيجيان Guy Lusignan المطالب بعرض مملكة بيت المقدس الصليبية، وحارب ريتشارد صلاح الدين، وفشل الملك الانجليزي في الاستيلاء على

---

(١) Lane Poole, A., From Domesday Book to Magna Carta 1087 - 1218, Oxford, 1975. pp. 346- 9.

مدينة بيت المقدس، وعقد مع صلاح الدين صلح الرملة عام ١١٩٢م[٢]، وعاد إلى بلاده مقتنعا بأن الطريق إلى بيت المقدس يمر عبر القاهرة وأن الاستيلاء على بيت المقدس لا يتم إلا بعد ضرب القوى الاسلامية في مصر.

وبعدما أبحر ريتشارد من الساحل الشامي في التاسع من أكتوبر ١١٩٢م فاجأته عاصفة دفعت بسفينته إلى جزيرة كورفو Corvu البيزنطية، وخاف أن يأسره الامبراطور البيزنطي إسحق إنجليوس Isaac Angelus (١١٨١ - ١١٩٥م)، فإستقل قاربًا إلى البحر الأدرياتيكي ومنه إلى مدينة أكويليا Aquileia ، ثم أسرع ليصل إلى ألمانيا حيث يوجد زوج أخته ما تيلدا ،هنرى الأسد ولكنه وقع في يد ليوبولد دوق النمسا Leopold of Austria فأسره، لأن ريتشارد مزق أعلام ليوبولد في عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة، كما إتهمه بقتل كونراد أف مونتفرات Conrad of Monferrat ثم سلمه ليوبولد بعد ثلاثة أشهر إلى هنرى السادس امبراطور ألمانيا[٣].

ظل ريتشارد سجينًا لدى هنرى رغم مخالفة ذلك لقوانين الحروب الصليبية ، وطالب هنرى بالفدية لإطلاق سراحه، وظل في الأسر حوالى سنه عجزت فيها إنجلترا عن جمع الفدية اللازمة لاطلاق سراح ريتشارد ،

---

(٢) عن دور ريتشارد قلب الأسد في الحملة الثالثة، راجع:

Runicman, op. cit., III, pp. 47 ff.

(٣) Roger of Hoveden, op. cit., II, pp. 279 ff.

وفي هذه الأثناء حاول أخوه يوحنا إغتصاب العرش، ولكن الأم اليانورساندت حقوق ريتشارد ففر يوحنا إلى فرنسا وإنضم إلى فيليب أوغسطس في الهجوم على إنجلترا، ولما فشل فيليب في النيل من إنجلترا غزا نورماندى وراسل هنرى السادس ليبقى على ريتشارد أسيراً[٤].

وفي مارس ١١٩٤م أطلق سراح ريتشارد فعاد إلى إنجلترا ليستعد لمحاربة فيليب ، ونجح ريتشارد في إستعادة أملاكه بعد حرب دامت خمس سنوات على أراضي القارة الأوروبية. وفي السادس والعشرين من مارس ١١٩٩م مات ريتشارد في مدينة ليموج Limoges بسهم إنطلق من قلعة أحد الإقطاعيين الذين تصارع معهم ريتشارد[٥].

يوحنا ١١٩٩ - ١٢١٦م

تولى يوحنا بعد أخيه ريتشارد، وعند تتويجه إضطره رئيس أساقفه كانتربوري هيوبرت والتر Huber Twalter أن يقسم بأنه تولى عرشه بالانتخاب من قبل النبلاء ورجال الدين وليس وراثه من أخيه، ويتضح من تاريخ يوحنا أنه لم يتلزم بهذا القسم، وكانت حياة يوحنا عاصفة مع نبلائه والباباوية وفيليب أوغسطس ملك فرنسا، ورغم ذلك فإن سياسته لم تكن خاطئة على الدوام . وفي العام الذي تولى فيه يوحنا عرش إنجلترا طلق زوجته إيزابيلا أف جلوستر Isable of Gloucester بحجة أنها تمت إليه

---

(٤) عن أحداث غزو نورماندي راجع:

Roger of Hoveden, op. cit., II, pp. 286 ff.

(٥) Ibid., pp. 452- 3.

بصلة القرابة وتزوج من إيزابيلا أف انجوليم Isabiele of Angouleme .
وقد جرت عليه هذه الزيجة متاعب متعددة، لأن زوجته الثانية كانت مخطوبة إلى لوزجنان Lusinan كونت لامارش La Marche . وقد غضب الأشراف في إنجلترا وفي بواتو Poitou بفرنسا لهذا العمل، كما إحتج البارونات النورمانديون في أنجومين - وإشتكى هؤلاء إلى فيليب أوغسطس بإعتبار أن نورماندي إقطاعية تابعة للتاج الفنسي - وأن يوحنا بإعتباره مالكًا لإقليم نورماندى يعتبر تابعًا لملك فرنسا[٦].

تجدد العداء القديم بين إنجلترا وفرنسا في هذه المرحلة ،ووجد فيليب في هذه القضية فرصة لإذلال يوحنا، وأرسل فيليب إلى يوحنا بإعتباره تابعًا له وأمره بالحضور إلى القصر الملكي في باريس ليدافع عن نفسه ، ومن الطبيعي ألا يحضر يوحنا وكان هذا متوقعًا، فانعقدت المحكمة الإقطاعية الفرنسية ومنحت آرثر Arther كونت بريتاني - وهو حفيد هنرى الثاني - نورماندي، وأنجو وبواتو ، وتشجع آرثر وطالب بعرش إنجلترا، وساعده فيليب بالمال والرجال لتحقيق ذلك[٧].

تقدم آرثر لمهاجمة نورماندي وحاصر اليانور والده يوحنا في قلعة ميرابو Mirabeau وقادت الملكة الأم القوات للدفاع عن حقوق إبنها، وأسرع يوحنا إليها وهزم آرثر وقبض عليه وسجنه في قلعة فاليس Falaise ولم يسمع عن آرثر بعد ذلك، ويبدو أن يوحنا أمر بقتله عام ١٢٠٣م [٨].

---

(٦) Stephenson, Mediaeval History, New York, 1951, p. 330.

(٧) La Monte, The World of Middle Ages, New York, 1949, p. 454- 5.

(٨) Roger of Hoveden, op. cit, II, p. 464, La Monte, op. cit., p. 456.

إنتهز فيليب هذه الفرصة وتقدم لغزو نورماندي وكان الموقف في صالحه، فقد كان يوحنا يفتقر إلى المال ووسائل الدفاع فهزمه فيليب وهرب يوحنا إلى إنجلترا، وضم فيليب إلى فرنسا جميع الممتلكات الإنجليزية في القارة الأوروبية وهي نورماندى، ومين، وأنجو، وتورين في عام ١٢٠٥م وأقسم إقطاعيوها يمين الولاء للملك فيليب [٩].

ولما كان البابا أنوسنت الثالث على خلاف مع فيليب أوغسطس فقد حاول مساعدة يوحنا قدر المستطاع، ولكن يوحنا لم يمنح البابا الفرصة لمساعدته، فقد إختلف الاثنان في العام نفسه بسبب الخلاف على تعيين رئيس أساقفة كانتربوري. ويرجع هذا الخلاف إلي موت هيوبرت والتر عام ١٢٠٥، وكان الملك يوحنا يرى تعيين الأسقف يوحنا دي جراى Jhon de Gray، ولكن بعض الرهبان الشبان في كاتدرائية كانتربوري إختاروا نائب رئيس ديرهم وهو ريجنالد Reginald[١٠].

إتجه المرشحان إلى روما يطلب كل منهما تأييد البابا أنوسنت الثالث ،ولكن البابا إعترض على المرشحين وعين ستيفن لانجتون Stephen Langton وهو كاردينال إنجليزى وأستاذ سابق للاهوت في جامعة باريس. اعترض يوحنا على هذا الاجراء، ولم يعبأ البابا ونصب ستيفن لانجتون كرئيس لأساقفه كانتر بوري عام ١٢٠٧م، وتمسك يوحنا بموقفه وهدد وتوعد وأنذر الرهبان، وأصدر أوامره بعدم دخول ستيفن لانجتون الاراضي الإنجليزية وأعلن تحديه للبابا. رد البابا على هذا الاجراء بانزال قرار

(٩) Stephenson, op. cit., pp. 330- 1.

(١٠) Roger of Wendover, Flowers of History, London, 1849, p. 215.

الحرمان على الملك وقرار القطع على إنجلترا في عام ١٢٠٨م [١١] وظل القراران حتى عام ١٢١٣م .

وخلال هذه المرحلة كان الملك يصادر أملاك الكنيسة، لذلك سانده النبلاء لأن إنشغال الملك بالصراع مع رجال الدين يشغله إلى حد ما عن الصراع مع النبلاء، ونجح يوحنا في هذه المرحلة في الانتصار عسكريًا في حروبه مع ايرلندا، واسكتلندا، وويلز. وقد شجع كل هذا يوحنا على التمادى في سياسته المتشددة، فعندما إحتاج إلى المال زج باليهود في السجن وصادر أموالهم ولم يرحم رجال الدين من السجن أيضًا، وتركهم حتى ماتوا في سجنهم، كما زاد من الضرائب التي أرهقت الأهالى [١٢].

ولما يئس البابا أنوسنت الثالث أصدر مرسومًا في عام ١٢١٢م بخلع الملك يوحنا من العرش الإنجليزي ،وحل رجاله من القسم الذي أدوه له ، وأعلن أن الأملاك الانجليزية حقًا لكل من يتمكن من الاستيلاء عليها. وحانت الفرصة للملك الفرنسي فيليب اوغسطس فإستعد لغزو إنجلترا. وعلم يوحنا بهذا الاستعداد فدعا رجاله للحرب، ولكن رجاله لم يمدوا له يد المساعدة خوفًا من عقوبات البابا. وأحس يوحنا بالخطر، وكان لابد من التراجع حتى يفوت الفرصة علي الجميع فعقد إتفاقًا مع المبعوث البابوي باندولف Pandulf، ويقضى هذا الإتفاق بأن يرد الملك يوحنا جميع أملاك

---

(١١) Roger of Wendover. op. cit. p.p 239 ff.

(١٢) Painter. A History of the Middle Ages. New York. 1954. p. 253.

الكنيسه وأن يضع إنجلترا بأكملها تحت السيادة البابابوية الاقطاعية إذا ألغى البابا قرار الحرمان وقرار القطع. وإتفق الطرفان على ذلك وسلم يوحنا إنجلترا إلى البابا عام ١٢١٣م - ويعتبر هذا الإستسلام الأول للملك يوحنا - ثم إستعادها بعد بضعة أيام بوصفها إقطاعًا، وعلى الملك أن يؤدي الجزية عن إنجلترا للبابارية[١٣].

وبعد أن سوى يوحنا مشكلته مع البابابوية إستعد لمحاربة فيليب أوغسطس ملك فرنسا، وتحالف مع أوتو الرابع Otto IV إمبراطور ألمانيا ١٢٠٨ - ١٢١٥م، ولكن بارونات إنجلترا تخلفوا عن المشاركة في هذه الحرب، ورغم ذلك عبر يوحنا القناة الإنجليزية بما لديه من رجال ووصل إلى أنجو في الوقت الذي سار فيه أوتو إلى باريس، وفي يوليو عام ١٢١٤م هزم أوتو في مرقعه بوفين Bouvines في إقليم فلاندرز [١٤]، وترتب على هذه الهزيمة نتائج هامة جداً في تاريخ أوربا خاصة في ألمانيا وانجلترا. ففي المانيا إهتز عرش أوتو وفتح المجال أمام فريدريك الثاني ليتولى عرش ألمانيا. أما في إنجلترا فقد إضطر يوحنا إلى عقد الهدنة بعد هزيمة ألمانيا وتخلي باروناته عنه. وبموجب هذا الصلح تنازل يوحنا عن إقليم بواتو. أما فرنسا فقد أصبحت القوة الوحيدة على القارة الأوربية.

ولم يكن يوحنا جاداً في طلب الهدنة إنما عقدها لكسب الوقت، فلما عاد إلى إنجلترا بعد عقد الهدنة بدأ يعد جيشًا لمحاربة فيليب، ولكن

---

(١٣) Roger of Wendover, op. cit., II, pp. 266 ff.

(١٤) Ibid. p. 299.

الأشراف والنبلاء رفضوا مرة أخرى الإنضمام إلى الجيش واعترضوا على الضرائب التي يجمعها الملك للدخول في حروب لا فائدة منها، وذكروا الملك أيضًا بسياسته الخاطئة التي أدت إلى تسليم إنجلترا للباباوية، ولم يكن لدى الملك وسيلة غير التفاوض.

عرض يوحنا على الأمراء أن يؤدوا مبلغًا من المال بدلاً من الخدمة العسكرية، ولكن الأمراء تجاهلوا هذا المطلب وطالبوا الملك الإلتزام بالقوانين التي وضعها الملك هنرى الأول والتي تحدد حقوق الأشراف وسلطات الملك. وماطل يوحنا في الرد، فظن الأمراء أنه يستعد لمحاربتهم فجمعوا قواتهم، وحتى يكسب الملك يوحنا تأييد البابا ورجال الدين أعلن بعض الامتيازات لرجال الدين، وأعلن أنه سيحمل الصليب ويقود حملة صليبية إلى الشرق لإستعادة بيت المقدس(١٥).

ولم يغير هذا مجرى الأحداث،فقد إجتمع في أبريل عام ١٢١٥م في مدينة براكلي Brackley خمسة من الإيرلات وأربعون من البارونات وقدموا قائمة بمطالبهم للملك، وأرسل الملك إلى المجتمعين وليم لامارش بالإضافة إلى ستيفن لانجتون بهدف إخضاعهم لسلطان الملك، ولكن المجتمعين رفضوا وأعلنوا في مايو من العام نفسه الحرب على الملك ونجحوا في غزو لندن بعدما إستمالوا مواطنيها، وطلب الملك من ستيفن لانجتون رئيس أساقفه كانتربورى إنزال قرار الحرمان على المتمردين ولكن ستيفن رفض إصدار مثل هذا القرار(١٦).

---

(١٥) Michaud, M., History of the Crusades . tran. W. Robson, London, 1852, II, p. 216.

(١٦) Roger of Wendover, op. cit, II, pp. 307 ff.

تحرك يوحنا بقواته من إكسفورد إلى ونْدسور Windsor وتحرك البارونات من لندن وعقدوا إجتماعًا في رونيميد Runnymede من الثامن حتى الرابع عشر من يونيه ١٢١٥م، وتولى أمر الوساطة بين الملك والبارونات ستيفن لانجتون ووليم لامارش، وظلت المباحثات بين الطرفين، حتى إنتهت بالوثيقة المعروفة بالعهد الأعظم Magna Carta ، وهي الوثيقة التي صيغت عباراتها خلال عدة أيام، ووقعها الملك يوحنا في الخامس عشر من يونية عام ١٢١٥م. ولعب ستيفن لانجتون ووليم لامارش دوراً كبيراً في صياغة بنودها. ويعتبر العهد الأعظم أشهر وثيقة في التاريخ الإنجليزي بأكمله وبه إستسلم يوحنا الاستسلام الثاني. والعهد الاعظم يتكون من إثنين وستين مادة بخلاف الديباجة وقد ورد بها[١٧].

تحية من يوحنا المتوج ملكًا على إنجلترا بعناية الله تعالى، وسيد إيرلندا، ودوق نورماندى واكويتين وكونت انجو، إلى رؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة والإيرلات والبارونات .. وجميع رعاياه المخلصين ... وبارادة الله ومن أجل خلاص جميع أرواحنا وأرواح خلفائنا ... وتلى ذلك البنود الخاصة بالعهد الأعظم، ونكتفى في هذا الموضع بإلقاء الضوء على بعض بنوده، فقد ورد في البند الأول أن تكون الكنيسة حرة لا يتعدى أحد على شيء من حقوقها وحرياتها، وفي البند الثاني «إننا نمنح جميع الأحرار في مملكتنا عنا وعن ورثتنا إلى أبد الدهر جميع الحريات المدونة فيما بعد » .

---

(١٧) عن العهد الاعظم ونصوصه راجع:

Roger of Wendover. op. cit. II, pp. 309 ff.

مادة ١٢ : لا يفرض بدل خدمة أو معونة ... إلا المجلس العام في المملكة.

مادة ١٤ : وهي مرحلة إنتقال حتى يتم تشكيل المجلس العام، وقد ورد بها، حتى يجتمع المجلس العام الذي يتولى تقدير المعونات وبدل الخدمات ... نأمر باستدعاء كبار الأساقفه، والأساقفه، ورؤساء الأديرة والإيرلات وكبار البارونات في البلاد وغيرهم ممن هم تحت رئاستنا بعقد إجتماع يحدد له موعداً ثابتًا دوريًا كل أربعين يومًا على الأقل، ويحدد مكانه أيضًا.

مادة ١٥ : لن نسمح من الآن فصاعداً لكائن من كان أن يأخذ معونة من رجالنا الأحرار إلا إذا كان ذلك بسبب الفداء، أو تنصيب الإبن الأكبر فارسًا، أو زواج إبنته الكبرى لأول مرة، ويشترط أن تكون المعونة في مثل هذه الحالات معونة مقبولة.

ولما كانت الشكاوى تعرض من قبل على محكمة الملك، ولما كانت محكمة الملك تتبعه أينما كان، فقد ورد في المادة السابعة عشر ما نصه: «لن تعرض الشكاوي العادية على محكمتنا، بل ينظر فيها في مكان محدد».

وفي المادة السادسة والثلاثين، ورد مبدأ في غاية الأهمية ويعتبر ثورة على النظم السائدة، وهو يجب ألا يطول حبس إنسان من غير محاكمة.

وفي التاسعة والثلاثين، تقرر الا يقبض على أي رجل حر أو يسجن أو تنزع ملكيته أو يخرج عن حماية القانون أو ينفى، أو يؤذى بأى نوع من

الايذاء، إلا بناء على محاكمة قانونية أمام أقرانه المساوين له في المدينة، أو بمقتضى قانون البلاد.

وتعرضت المادة الحادية والأربعون لحرية التجارة، فقد نصت على تمتع جميع التجار بحق الدخول إلى انجلترا والإقامة فيها والمرور بها براً وبحراً سالمين مؤمنين للشراء والبيع، دون أن تفرض عليهم ضرائب غير عادلة.

وورد في المادة الستين، أن كل الحريات السالفة الذكر يجب أن يراعيها أهل إنجلترا كلهم سواء رجال الدين أم غيرهم.

وإذا إكتفينا في هذا الموضوع ببعض البنود الواردة في العهد الأعظم، إلا أنه يمكن القول أن هذا العهد كان أساس الحريات التي تمتعت بها انجلترا ولا زال كذلك، وواقع الأمر أن العهد الاعظم جدير بهذه الشهرة. والحقيقة أن هناك بعض القصور في نصوص العهد الأعظم، ولكن علينا أن ننظر إليه في عصره وما كان هناك من أنظمة ولا نقارنه بما نحن فيه الآن، وإذا كان العهد الاعظم بدا وكأنه إنتصاراً للاقطاع لا للديمقراطية، إلا أنه نص على الحقوق الأساسية وحماها وزاد عليها بعد ذلك ، وهو الذي بدل الملكية المستبدة، إلى ملكية دستورية مقيدة.

لقد وقع يوحنا العهد الأعظم وهو مرغم، دون أن يدرى إنه خلد إسمه في التاريخ بالنزول عن سلطاته الاستبدادية، وأنه الذي جعل من إنجلترا دولة تفخر بأنها أمًا للديمقراطية. وعز على يوحنا هذا التنازل وأنه يعتبر بالنسبة لعصره ضعيفًا لا قويًا، لذلك حاول إلغاء العهد الأعظم وسانده البابا في هذه المرحلة، فأعلن الملك والبابا ان العهد باطل، ورفض الامراء إطاعه أوامر الملك والبابا، فأصدر الاخير قرار الحرمان عليهم، ولكن

ستيفن لانجتون رئيس أساقفة كانتربوري صانع هذا العهد رفض نشر قرار الحرمان.

تأزم الموقف بين البابا وستيفن لانجتون، وقام مبعوثو البابا في إنجلترا، بإذاعة قرار البابا ووقف ستيفن عن العمل، فاستنجد نبلاء انجلترا بالملك فيليب أوغسطس الذي كان على خلاف مع البابا في هذه المرحلة، وهب فيليب لمساعدة النبلاء خاصة أنه كان يرى أن ملك انجلترا ليس إلا تابعًا له.

أرسل فيليب إبنه لويس لمساعدة النبلاء وليتولى في حالة نجاحه عرش إنجلترا، ولما كان البابا لا يوافق على مثل هذا العمل فقد حذر على لسان مبعوثيه الأمير لويس من الإبحار إلى انجلترا، وفي الوقت نفسه قام يوحنا بضرب النبلاء في كل مكان واشتد في معاقبتهم، ولكنه مرض فجأة على أثر تناول كمية كبيرة من الدراق (الخوخ) ومات على أثر هذا المرض في التاسع عشر من اكتوبر عام ١٢١٦م[١٨].

هنرى الثالث ١٢١٦ - ١٢٧٢م

تغير الموقف تماماً بعد وفاة الملك يوحنا، فقد مال الأشراف إلى الملك المرتقب وإنفضوا من حول لويس وطالبوه بالعودة إلى فرنسا، وتوج هنرى الثالث ابن الملك المتوفى ملكًا على إنجلترا (١٢١٦ - ١٢٧٢م) ،ولما كان هنرى الثالث في السادسة من عمره فقد وضع تحت وصاية وليم لامارش

(١٨) Roger of Wendover, op. cit, II, pp. 307 ff.

إيرل بمبروك Pembroke ، وقد قام هذا الوصى بإعادة إصدار العهد الأعظم باسم الملك الجديد فهدأت النفوس كلها وإلتف الشعب الإنجليزي حول مليكه الجديد وسانده أيضًا مبعوثو البابا وغالبية رجال الدين، وكما يقال لقد فضل الإنجليز ملكًا إنجليزيًا طفلاً عن ملك فرنسى غريب (١٩).

مات وليم لامارش في عام ١٢١٩م بعد أن حكم إنجلترا حكمًا فعليًا منذ تولية هنرى الثالث وساعده في هذه الفترة المبعوث البابوي، وتولى الوصاية علي هنرى المبعوث البابوي حتى عام ١٢٢١م حيث عاد إلى روما، وتولى بعد ذلك أسقف ونشستر Winchester بطرس دي روشيه Peter De Roches أمر الوصاية، وساعده في أمر القضاء هيوبرت دي بورج Hubert de Burgh(٢٠).

وفي عام ١٢٢٣م أعلن البابا هونوريس الثالث أن الملك هنرى بلغ سن الرشد وعليه أن يحكم بمفرده، ولكن هنرى لم يتخل عن مساعدة بطرس حتى عام ١٢٢٧م عندما ذهب بطرس في الحملة الصليبية السادسة مع فريدريك الثاني.

وعلى أية حال فقد كان هنرى الثالث على شاكله أسلافه، ففرض الضرائب التي أرهقت النبلاء وكادوا يثورون عليه، وسمح لرجال الدين بجمع العشور لمساعدة البابا في حروبه ضد الامبراطور فريدريك الثاني.

---

(١٩) Roger of Wendover, op. cit. II, pp. 379-81.

(٢٠) Ibid. pp. 413.

ورغم هذا كله فإن أهم شيء حدث في عصر هنرى الثالث هو أن فترة قصور هنرى الثالث ، أشعرت الوزراء بالمسئولية الملقاة على عاتقهم، فتعاون الوزراء مع النبلاء ونجحوا في دفع الدولة إلى الأمام بطريقة أفضل بكثير من الأجيال السابقة عندما كانت السلطة في يد الملك، ومن تجاربهم في السلطة بدون تعرض الملك، وضعوا أساس الحكم الديمقراطي في انجلترا وقد ظهرت نتائج هذه الممارسة على مر الزمن .

إدوارد الأول ١٢٧٢ - ١٣٠٧م

ولى حكم إنجلترا وهو في السابعة والثلاثين من العمر، وكان ملكًا طموحًا قوى الإدارة، على درجة وافرة من العلم، خبيراً في الفنون العسكرية، راغبًا في العدالة والاصلاح، وكان لهذا كله أثراً بالغًا في تاريخ انجلترا، وقاد إدوارد حملة صليبية في عام ١٢٧١م وهو أمير ولكنه لم يوفق في حروبه ضد المسلمين في بلاد الشام، فحاول التحالف مع المغول لمحاربة الدولة المملوكية ولكنه لم يوفق أيضًا، فعاد إلى انجلترا ليتولى عرشها على أمل العودة مرة اخرى إلى بلاد الشام للتحالف مع المغول ومساعدة مملكة بيت المقدس الصليبية الاسمية وإمارتي أنطاكية وطرابلس الصليبيتين، ولكن ظروف انجلترا الداخلية والخارجية لم تمكنه من ذلك.

وكان من سياسة إدوارد العمل على تحقيق الوحدة بين إنجلترا وويلز واسكتلندا ليقيم دولة قوية مترابطة، والواقع أن الصراع بين انجلترا وويلز يرجع إلى عهد الملك الإنجليزي وليم الفاتح (١٠٦٦ - ١٠٨٧م)، فقد طالب وليم بخضوع ويلز لسلطانه بعد أن غزا إنجلترا بإعتبارها

جـزء مـن مملكـة هارولد Harold المهـزوم، ولكـن مـشـاكـل وليم الداخليـة والخارجيـة لم تمكنه من تنفيـذ ذلك سيـاسيًـا أو عـسكريًا، واستـعـاض عن ذلك بأن أقام على حدود ويلز الشرقيـة ثلاث مقاطعات، تولى كل منهـا حاكم بلقب إيرل Earl ،وطالب هولاء الحكام بالتـوسع في أراضي ويلز. وإلى جانب هذه المشـاكل الشرقـية واجه أهل ويلز أيضًـا غـارات القراصنه النورمان البحرية.

ورغم هذا كله فقد نجح أهل ويلز في هزيمة الانجليز عند كورون Corwen عـام ١١٦٥م ولما كـان هنرى الثـاني ملك انجلتـرا مـشـغـولاً بالصـراع مع تومـاس بكت، فـقـد اعـتـرف باسـتـقـلال الجزء الجنوبي من ويلز تحت حكم رويس آب جروفيد Rhys ap Gruffydd البطل الثـائر في جنوب ويلز ، وتمكن ليـولن الأكبر LLyeuelyn The Great في بسـط نفـوذه على ويلز بفضل مقدرته العظيمة في الحرب والسياسة، ولكن أولاده تنازعوا فيما بينهم فعمت الفوضى أنحاء ويلز، ولكن حفيده ليولن آب جروفيد تمكن من السيطرة على الموقف داخل ويلز ورد إلى البلاد وحدتها وعقد الصلح مع هنرى الثالث ملك إنجلترا واتخذ لنفسه لقب أمير ويلز(٢١).

ولما كـان ادوارد هنرى قد عـقد العزم علي غزو ويلز فلم يكن مـا حدث من صلح إلا كسبًا للوقت، فإستعد بقواته البرية في عام ١٢٨٢م وتقدم إلى ويلز حيث إلتـقى ليولن الذي لم يكن لديه إلا قـوات محدودة فقتله كما تم القبض على أخيه داود، وثم فصل رأسيهما عن جسدهما وعلقت الرأسان في برج لندن، وفي عام ١٢٨٤م أصبحت ويلز جزء من إنجلترا،

(٢١) La Monte, op. cit., p. 483.

وفي عام ١٣٠١م خلع إدوارد لقب أمير ويلز على ولي عهد إنجلترا.

وأخذت تشريعات الملك الإنجليزي إدوارد الأول مكانة عظيمة في تاريخ إنلجترا والقارة الأوروبية كلها، فقد وجد الملك أن الكنيسة تمتلك حوالي ثلث الأراضي في البلاد. وهي أراضي معفاة من الضرائب، وبدأ بإصدار مرسومًا في ١٢٧٩م يمنع بموجبه التنازل للكنيسة عن الأراضي سواء أكانت منحًا أم هدايا حتى لا تتضخم ثروات الكنيسة اكثر من ذلك. وإلى جانب ذلك فقد أجاز الملك إنتقال الأرض من مالك لآخر عن طريق البيع والشراء بعد أن كان الاقطاع هو السبيل الوحيد لحيازة الارض، هذا بالاضافة إلى تشريعات تتعلق بالأوقاف ومعاملة اليهود، كما أنه درب جميع الانجليز على حمل السلاح، واعاد تنظيم قواته العسكرية.

والحقيقة أن ذلك كله لم يكن سببًا في تمجيد عهد إدوارد، فإن نمو البرلمان الذي بدأ في عام ١٢٩٠م باجتماع رجال الدين والبارونات ثم تطور هذا البرلمان إلى البرلمان النموذجي الذي عقد في عام ١٢٩٥م بحضور البارونات والايرلات والفرسان ونواب عن رؤساء الاساقفة والاساقفه والعامة،[٢٢] وهو الذي خلد عهد الملك إدوارد.

فقد قرر هذا البرلمان عدم فرض ضرائب إلا بموافقته، ووضع مبدأ في غاية الأهمية وهو أن ما يمس الناس جميعًا يجب أن يوافقوا عليه جميعًا، كما قرر البرلمان أيضًا أن الاخطار التي تواجه الدولة يجب أن تعالج بطرق يتفق عليها الناس جميعًا، وبالاضافة إلى ذلك تحسنت طرق الاجراءات

---

(٢٢) Stephenson, op. cit., pp. 379- 81.

القانونية والتحقيق القضائي، وحدد إختصاص مجالس القضاء الكنسي بقانون صدر في عام ١٢٨٥م، وفي نهاية عهده كان هناك ثلاث محاكم أخرى، الأولى تختص بالشئون المالية، والثانية للدعاوى المدنية العامة، والثالثة وهي التي تفصل في جميع القضايا المدنية و الجنائية التي تخص الملك الانجليزي. هذا بالاضافة إلى بعض التشريعات التجارية وصدور قانون التجار في عام ١٢٨٣م، وعهد التجار في عام ١٣٠٢م، وعندما مات ادوارد في عام ١٣٠٧م كانت إنجلترا تتمتع بحكم برلماني سليم وقانون تجاري عادل [٢٣].

إدوارد الثاني (١٣٠٧ - ١٣٢٧م)

خلف والده في حكم إنجلترا ولم يكن على مستوى أبيه في الحكم والإدارة، فقد كان ضعيفًا محبًا لرفقة رجال السوء حتى أصبح ألعوبة في يد ندمائه، وضاق أعضاء البرلمان بتصرفاته فقبضوا على صديقه ونديمه جاڤستون Gaveston إيرل كورنول Cornwall وقتلوه في عام ١٣١٠م، وفي الوقت نفسه بدأ التعاون بين ايرلندا واسكتلندا في حوالي عام ١٣١٥م لطرد انجلترا من ايرلندا[٢٤].

ويرجع هذا التعاون إلى أن روبرت بروس Robert Bruce الأسكتلندي وقد هزم الانجليز عام ١٣١٤م عند بانوكبرن Bannockburn، كما نجح أخوه

---

(٢٣) Matthew of Westminster. op. cit., II. pp. 470 ff.. Tenen. A History of England from the Earlist times to 1932. London 1935. p. 99.

(٢٤) La Monte, op. cit., p. 656.

إدوارد بروس في الرسوعلى أرض ايرلندا ومعه حوالي ستة آلاف مَقاتل، ولم تنزعج إنجلترا وحدها لهذا الحدث بل انزعج البابا يوحنا الثاني والعشرين وأصدر قراراً يقضي بحرمان كل من يساعد إسكتلندا من رحمة الكنيسة، ولكن أهل ايرلندا لم يعبأوا بمثل هذا القرار وساندوا القوات الاسكتلندية وتوجوا إدوارد بروس ملكًا على ايرلندا في عام ١٣١٦م، ولكنه هزم وقتل في عام ١٣١٨م، وفشلت محاولة انفصال ايرلندا عن التاج الانجليزي(٢٥)، وهكذا فقدت ايرلندا حريتها ولكنها ظلت ايرلندية الطابع .

إدوارد الثالث ١٣٢٧ - ١٣٧٧م

إختلف كثيراً عن والده وربما شابه جده إدوارد الأول، ولعل طول مدة حكمه قد ساعدته على إنجاز العديد من المشروعات سواء على المستوى الداخلي أم الخارجي، وعلى المستوى الداخلي فقد تم تحويل كثير من الأراضي الانجليزية إلى أراضي زراعية وذلك بفضل جماعة السسترشيان. هذا بالاضافة إلى الاهتمام بصناعة غزل الصوف التي إشتهرت بها إنجلترا وأصبحت من أهم مصادر الثروة في البلاد ، ورغم هذا فقد كان للوباء الأسود الذي إجتاح أوربا عام ١٣٤٩م أثره السيء على انجلترا حيث إرتفعت الأسعار إرتفاعًا كبيراً (٢٦).

وعلى المستوى الخارجي فقد شهد عهد إدوارد الثالث بداية الحرب التي عرفت بإسم حرب المائه عام ١٣٣٧ - ١٤٥٣م وهي الحرب التي دارت بين

---

(٢٥) Stephenson, op. cit.. p. 382.

(٢٦) Painter. op. cit.. p. 242.

انجلترا وفرنسا بسبب أملاك إنجلترا في القارة الأوربية، والمهم في هذا المقام أنه لم يتبق لإنجلترا عند نهاية حكم إدوارد سوى بعض المواني مثل كاليه Calais وبرست Brest وبايون Bayonne وبوردو Bordeaux ، ومما لا شك فيه أن هذه الحروب قد أثرت كثيراً على الأحوال الداخلية للبلاد الانجليزية، فقد أدى طول الحرب إلى عدم إنتظام التجارة بين إنجلترا وأوربا خاصة مع إقليم فلاندرز الذي كان يستورد معظم الصوف الانجليزي لتصنيعه، وقد أدى ذلك إلي هجرة الكثير من الصناع من فلاندرز إلى إنجلترا واقامة مراكز لصناعة الصوف بالقرب من مراكز انتاج المواد الخام[٢٧].

وعلى المستوى الخارجي أيضًا ساءت العلاقة بين إنجلترا والباباوية في روما بسبب إقامة الباباوية في أفينون وهو ما يعرف باسم الأسر البابا وى، وترتب على ذلك أن البرلمان الانجليزي أنكر في عام ١٣٥١م شرعية تعيين البابا لكبار رجال الكنيسة في إنجلترا. كما أصدر البرلمان أيضًا في عام ١٣٥٣م تشريعًا يقضي بعدم إستئناف القضايا أمام المحاكم الأجنبية، ومنها المحاكم البابوية، وبذلك حرمت البابوية من الموارد المالية التي تؤول إليها من هذا الجانب. كما رفض البرلمان دفع الجزية التي تعهد بدفعها الملك يوحنا بعدما إستسلم للبابوية في عام ١٢١٣م، وعلى المستوى الخارجي والداخلي، فقد ظهرت في إنجلترا حركة الإصلاح الديني التي نادى بها جون ويكلف John Wycliffe (١٣٢٤ - ١٣٨٤م)، وقد نادى ويكلف بحق الدولة في مصادرة أملاك الفاسدين من رجال الدين، وعدم

---

(٢٧) Stephenson, op. cit., pp. 399 - 400.

التقيد بالأوامر البابوية، واعتبار الانجيل هو المرجع الوحيد للمسحيين[٢٨]، ولما كانت مثل هذه الآراء تعتبر هرطقة في نظر معظم المعاصرين له، فقد أدت إلى الكثير من المشاكل في داخل انجلترا وخارجها.

وليس لنا في هذا المجال أن نتتبع تاريخ إنجلترا حتي نهاية العصور الوسطى أو حتى قيام أسرة ثيودور في عام ١٤٨٥م، ولكن نكتفى على الصفحات بالقول أنه رغم المشاكل الداخلية والخارجية التي عاشتها إنجلترا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر إلا أنها حازت الكثير من التقدم في المجال الحضاري، ومن ذلك التقدم في صناعة الصوف، وظهور الطباعة في عام ١٤٧٤م هذا بالاضافة إلى إنشاء المدارس وقيام الجامعات مثل جامعة كمبردج، والحركة الناشطة في بناء الكاتدرائيات وغيرها من المباني الدينية كالكنائس والاديرة وفقاً للنظام القرطي الذي حل محل النظام الرومانسكي. كما ظهرت اللغة الإنجليزية وحلت محل اللغة اللاتينية، وقد إستخدم جوفرى تشوسرGeoffrey Chaucer (١٣٤٠ - ١٤٠٠م) اللغة الانجليزية في كتابه قصص كانتربوري [٢٩]، ومهد لنهضة أدبية في القرن السادس عشر حيث ظهر وليم شكسبير ١٥٦٤ - ١٦١٦م الشاعر الانجليزي الذي يعتبر من أعظم شعراء انجلترا الذى وضع العديد من المسرحيات الشعرية الخالدة.

---

(٢٨) La Monte, op. cit., pp. 647- 50.

(٢٩) Stephenson, op. cit., pp. 458- 9.

ثانيا : فرنسا :

وحيث أن محور هذا الكتاب هو أوربا والمغول، وقد بدأنا الكتابة عن إنجلترا بعهد الملك ريتشارد قلب الأسد لأن بداية حكمه تتزامن تقريبًا مع ظهور المغول في الشرق، وهنا في فرنسا يتزامن مع حكم الملك فيليب مع هذه المرحلة.

فيليب الثاني أوغسطس : (١١٨٠-١٢٢٣م)

كان ملكًا ذكيًا عمل على تشجيع العلوم، كما إتصف ايضا بالحزم والشجاعة والحذر والدهاء، ولم يتردد عن سلوك أي سبيل يوصله إلى غايته. ومن حذره أنه كان كريمًا مع الكنيسة ولكنه لم يسمح لرجال الدين أو البابوية بأن تتدخل في شئون دولته السياسية، ولعل في هذه الصفات ما جعله يحصل على ما يريد دون استعمال القوة العسكرية. وواقع الأمر، كانت فرنسا في أشد الحاجة إلى مثل هذه الشخصية لتقف أمام إنجلترا وفيها هنرى الثاني ، وريتشارد قلب الأسد، ويوحنا، وأمام ألمانيا حيث حكم فريدريك باربروسا وهنرى السادس.

نجح فيليب في عام ١٢٠٤م في فتح اقليم نورمانديا واسترده من التاج الانجليزي ،وتقوى فيليب بهذا النصر واستطاع أن يضم بريتاني، وأنجو، ومين، وتورين، وبواتو إلى أملاك التاج الفرنسي(٣٠)، ومع قوة الملكية بالحصول على هذه الأراضي استطاعت السيطرة على الحكومة المحلية وتقلصت سلطة الأدواق والكونتات، وأشرفت الدولة على جميع الاقاليم.

---

(٣٠) Painter, op. cit., pp. 253 - 4.

لم تُسلم انجلترا بضياع نورماندیا، فتحالف يوحنا ملك انجلترا (١١٩٩ - ١٢١٦م) مع أوتو الرابع أمبراطور المانيا ومع كونت فلاندرز للوقف في وجه التوسع الفرنسي، ووضعت الخطط العسكرية للقضاء على فيليب في ضربة واحدة، ووقف فيليب وحدة في الميدان ليواجه كل هذه القوى مجتمعه، ولم يوزع قواته على جبهات القتال بل نازل بها مجتمعه القوات الانجليزية في معركة بوفين Bouvines عام ١٢١٤م، وهَزم فيليب يوحنا وترتب على هذه الهزيمة نتائج بالغة الأهمية كان لها أثرها السياسي على قارة أوروبا بأكملها، ومن هذه النتائج خلع أوتو من عرش الامبراطورية الألمانية وتولية فريدريك الثاني، وانهاء زعامة ألمانيا على القارة الأوروبية، كما خضع كونت فلاندرز للملك فرنسا، أما في انجلترا فقد كان من نتيجة هذه الهزيمة تمرد النبلاء الانجليز على الملك ومحاربته وهزيمته وإجباره على توقيع العهد الأعظم بعد عام من الهزيمة ١٢١٥م[٣١]، ولا شك أن موقف الملكية في فرنسا قد زاد قوة على ما تبقى من نفوذ الاقطاعين.

وفي مجال السياسة الداخلية فقد حكم فيليب بلاده بمنتهى الاخلاص رغم صراعه لبعض الوقت مع الكنيسة بسبب زواجه من أجنس أف ميران Agens of Meran وطلاقه لزوجته الثانية انجبورج Ingeborg ،وتعرض فيليب لقرار الحرمان من الكنيسة ولكنه لم يعبأ بهذا القرار . وأعاد فيليب تنظيم دولته فاستبعد رجال الدين من البلاط وحل محلهم رجال القانون ، وشجع التجارة بمنح الامتيازات وحماية التجار ومنح عدداً

---

(٣١) لمزيد من التفاصيل عن العهد الاعظم والظروف التي احاطت به راجع:

Roger of Wendover, op. cit., II, pp 308-22.

من المدن عهداً بالحكم الذاتي، واستبدل بالخدمات الاقطاعية التي أصبح في غنى عنها البدلات العسكرية، وإهتم بالعمارة فتم في عهده بناء حصن اللوفر ليحمي نهر السين. وأتم واجهة كنيسة نوتردام Notre Dame في عام ١٢٠٠[٣٢].

ولإرضاء البابوية والرأى العام الأوربي ولكي لا يظهر بمظهر المتخلف عن حماية الأراضي المقدسة خرج مع الحملة الصليبية الثالثة مع ريتشارد قلب الأسد وفريدريك باربروسا لمحاربة صلاح الدين، وعاد فيليب من الشام فاشلاً قبل أن تستكمل الحملة أعمالها - وعلى أية حال فقد مات فيليب عام ١٢٢٣م بعد أن أقام دولة فرنسا القوية[٣٣].

لويس الثامن ١٢٢٣ - ١٢٢٦م :

تولى الحكم بعد أبيه، وقد شارك لويس في كثير من الاعمال في حياة أبيه، ومن ذلك انه قاد الجيش الفرنسي ضد إنجلترا عندما إستنجد بارونات إنجلترا بالملك فيليب أوغسطس بعد محاولة تنصل الملك الإنجليزي يوحنا من بنود العهد الاعظم، كما تولى لويس أيضًا قيادة القوات الفرنسية في الحملة الالبيجنسية ضد الهراطقة في جنوب فرنسا، وهي المشكلة التي ورثها من أبيه، وأكد لويس سياسة أبيه في تقوية السلطة المركزية والقضاء على الهراطقة الذين سيطروا على جانب من

---

(٣٢) Magi, G., Paris, 1981, p. 4.

(٣٣) Hallam, E., Capetian France, 987 - 1328,. London 1983, pp. 196 -9.

جنوب فرنسا. وفي السنة الأخيرة من حكمه ١٢٢٦م توجهت القوات الفرنسية إلى جنوب فرنسا لضرب الهراطقة وسانده في عمله هذا البابا هونوريوس الثالث، ولم يستطع عموري دي مونتفورت Amoury De Montfort ابن سيمون دى مونتفورت قائد الحركة الالبيجنسية مواجهة القوات الفرنسية فأقر سيادة لويس الثامن على أراضي الجنوب، وكان لويس قد تزوج من بلانش القشتالية Blanche of Castile وأنجب منها إبنا هو لويس المعروف بإسم القديس لويس أو لويس التاسع [٣٤].

لويس التاسع ١٢٢٦ - ١٢٧٠م:

حكم لويس فترة طويلة، ويرجع ذلك إلى توليه الحكم قاصراً في الثانية عشر من عمره فتولت أمه الأرملة الشابه بلانش الوصاية عليه ورغم جمالها وفتنتها لم تفكر في الزواج وصانت ما يجرى في عروقها من دم ملكي. فهى ابنه الملك الفونسو التاسع Alfonso . IX ملك قشتاله ١١٥٨ - ١٢١٤م، وزوجة ملك هو لويس الثامن وأم ملك هو لويس التاسع. وحفيده ملك هو هنرى الثاني ملك انجلترا، ويبدو أن هذا الرصيد الهائل من الملكية دفعها إلى سلوك طيب حيال فرنسا وعوضت ما شاب جدتها اليانور زوجة هنرى من سلوك معيب [٣٥].

وعلى أية حال تفرغت بلانش لتربية إبنها لويس تربية فاضلة حتى حكم

---

(٣٤) La Monte, op. cit., p. 460.

(٣٥) Stephenson, op. cit., p.p. 279- 80.

لويس بنفسه منذ عام ١٢٣٥م، وخلال فترة حكمها نجحت في السياسة الداخلية والخارجية، ففي المجال الداخلي قامت بأعمال إجتماعية عظيمة، فقد أعتقت الكثير من أرقاء الأرض، وجهزت العديد من البنات الفقيرات للزواج، وتغلبت على البارونات الذين حاولوا إعادة حقوقهم القديمة. أما في المجال الخارجي فقد عملت على حقن الدماء عندما إشتد الصراع بين فرنسا وإنجلترا وفضلت الصلح بشروط مشرفه[٣٦].

وعندما تسلم لويس التاسع مقاليد الحكم لم يبتعد عن السياسة التي رسمتها والدته، ففي مجال السياسة الداخلية عامل النبلاء معاملة طيبة مقابل وفائهم بما عليهم من الإلتزامات لرجالهم وللدولة، وشدد العقاب على المخالفين ، وأدخل العديد من القوانين التي تحرم الثأر وقتل العبيد والاتباع دون محاكمة، وأوجب المحاكمة بالأدلة والشهود محل المبارزة، وزاد من عدد المحاكم الملكية وتقلصت محاكم البارونات، ولكي يتأكد لويس من حسن سير القضاء قرر حق إستئناف أحكام محاكم البارونات أمام محكمة الملك المركزية، وبالاضافة إلى ذلك فقد كان لكل شاك الحق في مقابلة الملك ليعرض عليه مظلمته في القصر الملكي أو في أي مكان، وسجل المؤرخ الفرنسي جوانفيل Joinville المعاصر للملك لويس، أن الملك كثيراً ما كان يخرج بعد الصلاة ويجلس تحت أحد الاشجار في غابة فنسن Vincenne وحوله رجاله، فيتقدم اليه أى مظلوم ويشرح له قضيته دون مراسم رسمية، وقد يفصل الملك في القضية

(٣٦) Painter, op. cit., pp. 251 - 2.

في حينه، أو يحيلها إلى أحد رجاله الجالسين حوله إذا كان الأمر يحتاج إلى دراسة[٣٧].

وخلاصة القول إن فرنسا نعمت برخاء لم تعرفه منذ قرون، وبأمن طالما إشتاقت الناس إليه فأنتجوا وزادت ثروة فرنسا بدرجة كبيرة، وفيما يتعلق بالملك لويس وعلاقته برجال الدين، فقد عاملهم على أنهم بشر وعيوب البشر كثيرة، ولم يجد لويس من علاج سوى القدرة الحسنة، فكان لهم مثالاً، ولم يتورع عن معاقبة المخالفين، وحاكمهم أمام المحاكم الملكية بعد أن قيد سلطة المحاكم الكنيسة، وظل القانون بظله جميع المواطنين، ورغم علاقة لويس الطيبة مع البابوية إلا أنه أصدر قانونًا قيد به حق البابا في تعيين رجال الدين في فرنسا[٣٨].

وفيما يتعلق بالسياسة الخارجية فقد سار لويس على المفهوم نفسه الذي سار عليه في علاقته بباروناته ورعيته، فقد كان يرى أنه بوسع الحكومة أن تسلك سلوكًا طيبًا مع جيرانها مع الحفاظ على كرامتها، فعمل على تجنب الحرب بقدر الإمكان رغم ما كان له من جيش منظم مدرب. ومن ذلك أن لويس رد إلى إنجلترا وإسبانيا أراضي إستولى عليها أسلافه دون وجه حق، حتى أن لويس لم يدخل في حرب منذ عام ١٢٤٣م حتى وفاته ١٢٧٠م بإستثناء الحروب الصليبية، وهي الحروب التي كانت عملاً مقدسًا من وجهة نظر الغرب الأوربي.

---

(٣٧) Joinvolle and Villehardouin, chronicles of The Crusades. penguin, 1963, p 177.

(٣٨) Tout, the Empire and the Papacy, London 1954, pp. 402-3.

وكثيراً ما تدخل لويس بين دولتين للتوفيق بينهما، وهي سياسة مخالفة تمامًا للعصر الذي عاش فيه، فقد كان المألوف إثارة النزاع بين الأطراف، وأن تشتعل الحرب بينهم والمنتصر في الحرب ضعيف، واذا كان لويس قد نجح داخل فرنسا فى الساحة الأوربية التي عرف فيها بإسم القديس لويس، وأصبح المحارب والسياسي البارع والتقي الورع الذي حكَّمه الملوك بينهم، فإنه قد فشل في حملاته الصليبية، فقد قام لويس بحملته الأولى المعروفه بالحملة السابعة عام ١٢٤٨م، واتجه إلى مصر ورسا عند مدينة دمياط وإستولى عليها، وحقق نجاحًا في أول الحملة حتى وصل إلى مدينة المنصورة، ولكن الدائرة دارت على قواته وهزم وأسر عام ١٢٥٠م. وعندما إفتدى نفسه بالمال أبحر إلى الشام ليقوم بحملة أخرى ليعوض فشله في مصر ولكنه فشل في الشام مثلما فشل في مصر، فعاد إلى بلاده مهزومًا ذليلاً، وحاول لويس أن يعوض فشله في الحملتين السابقتين، فإستعد في عام ١٢٧٠م بحملة أخرى كانت وجهتها تونس هذه المرة، ولما كان لويس مريضًا فقد مات بعد ما وصل إلى تونس، ولم يعد هذه المرة مهزومًا بل عاد جثمانًا ليكرمه الفرنسيون لما قدمه من أعمال عظيمه وأدخلوه في عداد القديسين، وظلت ذكراه عالقه بالأذهان بإعتبار أن عصره كان من العصور الذهبية التي عشاتها فرنسا (٣٩). وكان للملك لويس جولات مع المغول فقد استقبل وأرسل السفارات اليهم وسوف نتناول هذا الموضوع بالتفصيل فى موضع آخر من هذا الكتاب .

---

(٣٩) Hallam, op. cit., pp. 207ff.

فيليب الثالث ١٢٧٠ - ١٢٨٥م :

ورث فيليب الثالث دولة فرنسا القوية بفضل أعمال أسلافه، ولم يكن فيليب حاكمًا قويًا مثلهم ولكن الأنظمة التي ورثها ساعدته كثيراً، فلم تظهر عدم كفايته بقدر كبير. وقد لعب القدر دوراً كبيراً في حياة فيليب، فقد نجح في ضم بعض الأقاليم إلى فرنسا دون إراقة دماء، وترتب على ذلك القضاء على جانب كبير من نظام الملكية الإقطاعية في فرنسا وظهور الملكية المركزية(٤٠).

ومن ذلك أن الفرنسو أمير بواتيه أبحر وزوجته مع لويس التاسع إلى تونس في الحملة الصليبية، ولكنه مات هناك، وباعتبار فيليب ملكًا على فرنسا فقد آلت إليه أملاكهما الواسعة في إقليم تولوز وبروفانس وبواتيه (٤١).

فيليب الرابع ١٢٨٥ - ١٣١٤م :

عرف باسم «الجميل» لجمال وجهه، وقد سار على النهج نفسه الذي سار عليه أسلافه من تقويه السلطة المركيزة وإخضاع كافة الطبقات من رجال الدين والأشراف والعامة لحكم القانون. وفي المجال الاقتصادي شجع الصناعة والتجارة حتى لا يعتمد إقتصاد فرنسا على الزراعة فقط، ولتنفيذ هذه الأفكار إعتمد على رجال القانون الشبان فكانوا أعوانه ومستشاريه، ولعل ما دفع فيليب إلى ذلك، ما ورثه في فرنسا القوية

---

(٤٠) Stephenson, op. cit., p. 464.

(٤١) Hallam, op. cit., pp. 273-7.

بجهد أسلافه بفضل الحروب الصليبية التي لعبت فيها فرنسا دوراً كبيراً عاد عليها برفعة أدبية وروحية، هذا بالاضافة إلى عدم الاستقرار في إنجلترا بسبب الصراع بين الملوك والبارونات، وفي ألمانيا المفككه نتيجة الصراع بين الأباطرة والباباوات.

وسوف نتناول في هذا العهد - وهو عهد فيليب الرابع - أربع نقاط رئيسية الأولى وهي السياسة الخارجية للدولة مع دول أوربا خاصة إنجلترا، والثانية وهي علاقة فيليب بالباباوية والثالثة وهي الأحوال الداخلية لفرنسا في عهده، والرابعة والأخيرة وهي الجوانب الإدارية والتشريعية. وفيما يختص بالسياسة الخارجية فقد كانت سياسته ترمى إلى توحيد فرنسا الجغرافية لتكون فرنسا بحدودها السياسية، ومعنى ذلك طرد الانجليز من الأراضي التي يسيطرون عليها، ويلى هذه الخطوة تحقيق زعامة فرنسا على كل أنحاء أوربا، وقد ساعده في ذلك مجموعة من المستشارين الذين هيأوا له هذه الأفكار خاصة أن عهده عاصر نهاية الحروب الصليبية العسكرية في بلاد الشام، وبدأت أوربا تفكر في طريقة أو أخرى لاستعادة الممتلكات الصليبية سواء بالطرق العسكرية أو غيرها[٤٢].

ومن أجل تنفيذ ذلك أعلن فيليب عند توليه عرش فرنسا أن حدود بلاده السياسية هي نهر الراين في الشرق أي الحدود الألمانية، وأن حدودها في الجنوب هي جبال الألب، والبحر المتوسط وجبال البرانس ، ومعنى ذلك أنه أغفل ذكر أي ممتلكات لإنجلترا في فرنسا، وهذا يعنى أن هناك

---

(٤٢) Hallam, op. cit., pp. 308-9.

صداماً عسكرياً سوف يقع بين إنجلترا وفرنسا.

وبدأ فيليب تنفيذ خطته بزواج سياسي، فقد تزوج من حاكمة إقليم شامباني، وأخذ يخطط للسيطرة على جوين Guienne وجاسكوني Gac-sony وكلاهما يقع في أقصى الجنوب الغربي لفرنسا بالقرب من الحدود الأسبانية، وكانتا تابعتين لإنجلترا مع الاعتراف بالتبعية إلى الملك الفرنسي . كما تطلع فيليب أيضاً لإقليم الفلاندرز الذي يقع في أقصى شمال فرنسا وتفصل القناة الانجليزية بينه وبين إنجلترا . وترجع أهمية هذا الاقليم الى مراكز الصوف الصناعية وما يتبع ذلك من أعمال تجارية مع أوربا خاصة مع إنجلترا التي تصدر إليه الصوف الخام،حيث يتم صنعه وبيعه ولا يخضع للضريبة المقررة على الصادرات من الصوف، ومن هنا كان التنافس بين انجلترا وفرنسا على هذا الاقليم(٤٣).

يضاف إلى ذلك التنافس بين إنجلترا وفرنسا على الثروة السمكية في بحر المانش وهو أمر أدى إلى الصدام بين الصيادين من الانجليز والفرنسيين، ثم إلى الصدام بين ملكي إنجلترا وفرنسا، وكانت الشرارة التي بدأ بها الصدام قيام بعض صيادى السمك بمقاطعة جاكسرني الانجليزية بالاعتداء على بعض صيادى السمك الفرنسيين، فأصدرت المحاكم الفرنسية أحكاماً ضد صيادي جاسكوني الذين لم ينصاعوا لهذه الاحكام (٤٤).

---

(٤٣) Stephenson, op. cit, pp 282 - 3.

(٤٤) La Monte, op. cit., pp. 466- 7.

وكان على فيليب الرابع أن يتدخل حفاظًا على كرامة أحكام محاكمة، وأستغل المتاعب التي تمر بها إنجلترا داخليًا. واستدعى ملك انجلترا لاستجوابه، باعتباره فصلاً من أفصاله[٤٥]، أي إقطاعيًا تابعًا له، وعليه الالتزام بالواجبات الاقطاعية، والواقع ان هذا الواجب الإقطاعي يعود إلى أن وليم الفاتح أول حاكم نورماني لإنجلترا كان أصلاً حاكمًا لمقاطعة نورماندیا الفرنسية، وبالتالى فهو تابع لملك فرنسا وتمسكت فرنسا بهذا الحق لفترات طويلة.

وعلى أية حال ورغم ما في الاستدعاء من شبه إهانة لملك إنجلترا إدوارد الأول ،إلا أنه وعد بالحضور في وقت لاحق نظراً لمشاكله مع أسكتلندا وايرلندا، وحتى يظهر حسن النوايا سلم بعض القلاع الانجليزية الموجودة في فرنسا إلى الملك الفرنسي كرهينة وكوعد بالحضور، وحتى يهدأ الموقف، ولا يدفع ملك فرنسا للحصول على مساندة أسكتلندا أو إيرلندا، أرسل إدوارد أخاه الأكبر أدموند إيرل لانكستر Edmund Earl of Lancaster إلى باريس. ولما كان الملك فيليب يرغب في غيرذلك وهو العمل على ضم الاراضي الانجليزية التي تقع في الاراضي الفرنسية، فقد رفض هذا التصرف وتمسك بالقلاع التي وضعتها انجلترا كرهينة لملك فرنسا، ومن هنا تصاعد الموقف وأعلن الملك الانجليزي إدوارد تحلله من التبعية الاقطاعية لملك فرنسا، وبدأ يعمل على التحالف مع بعض الأمراء في ألمانيا إستعداداً للحرب مع فرنسا[٤٦].

---

(٤٥) Hallam, op. cit., p. 280.

(٤٦) Stephenson, op. cit., p. 384.

لم يقف فيليب مكتوف الأيدى وبدأ العمل للتحالف مع إسكتلندا ومساندتها ضد ملك إنجلترا الذى يعمل على ضمها للتاج الانجليزي، وتصاعد الموقف وهاجم فيليب منطقة جوين، كما هاجم إقليم فلاندرز لتعاطف حاكمه مع ملك إنلجترا، وهنا تأثرت المصالح التجارية كثيراً من جراء هذه الأحداث، كما تأثرت فرنسا كذلك. وعند هذه المرحلة إتفق الملكان في عام ١٢٩٨ على الصلح، وفضا كلاً منهما ما عقداه من تحالف من أجل الحرب، بعد تدخل البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII (١٢٩٤ - ١٣٠٣م)[٤٧].

وثارت المتاعب ضد فيليب الرابع ملك فرنسا عندما رفض أهالي فلاندرز الخضوع للملك الفرنسي لأن في ذلك ضرر كبير على صناعة الصوف وعلى أقتصاد البلاد، وتصدى أهل الفلاندرز للقوات الفرنسية التي تقدمت لغزو بلادهم في عام ١٣٠٢م في معركة كورتراى Courtrai وهي أول معركة يتم فيها إنتصار لقوات المشاه على الفرسان منذ عرف الاقطاع في أوربا[٤٨].

وعند هذه المرحلة إضطر الملك الفرنسي فيليب إلى عقد صلح نهائي في العام التالي (١٣٠٣م)، ومن شروط هذا الصلح بقاء جوين وجاسكوني في حوزة إنجلترا، وعودة كونت فلاندرز إلى بلاده حاكمًا عليها، ولم يكن ما فعله فيليب مع فلاندرز إلا هدنة مؤقته، فعندما مات البابا بونيفاس في نهاية العام وتحديداً في الحادي عشر من اكتوبر عام ١٣٠٣م عاد مرة

---

(٤٧) لمزيد من التفاصيل عن هذه القضية راجع:

Matthew of Westminster, op. cit., II, pp. 527-9.

(٤٨) Ibid, pp. 560- 1, La Monte, op. cit., p. 441.

أخرى لمحاولة إخضاع اقليم فلاندرز، وقد انتصرت القوات الفرنسية في بداية الأمر، ولكن قوات الفلاندرز نجحت في الصمود أمام القوات الفرنسية الأمر الذي دفع فيليب إلى مصالحة كونت فلاندرز في عام ١٣٠٥م [٤٩].

وكانت علاقة فيليب الرابع عاصفة مع البابوية كذلك، وقد عاصر فيليب مجموعة من الباباوات هم البابا هونوريوس الرابع (١٢٨٥ - ١٢٨٧)، والبابا نيقولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٢م)، والبابا كلستين الخامس (١٢٩٢ - ١٢٩٤م) والبابا بونيفاس الثامن، والبابا بندكت الحادى عشر (١٣٠٣ - ١٣٠٤م)، وأخيراً البابا كلمنت الخامس (١٣٠٥ - ١٣١٤م)، وكان البابا بونيفاس من أهم وأقوى الشخصيات التي عاصرها فيليب الرابع. وفلسفة هذه العلاقة تدور حول السياسة التي كان يتبعها الملك الفرنسي ، وهي العمل على تقوية السلطة المركزية للملك وعدم تدخل رجال الدين في الشئون الدنيوية للبلاد. ومن جانب آخر كان البابا بونيفاس يعمل على تقوية السلطة البابوية داخل البلاد الأوربية، لذلك بدأ الصراع بين فيليب وبونيفاس عندما فرض الملك على رجال الدين في عام ١٢٩٤م دفع الضرائب [٥٠].

ولكن رجال الدين رفضوا أوامر الملك ورفعوا شكواهم إلى البابا، والواقع أن مشكلة المال وحاجة ملوك أوربا إليه إما للحرب أو للاصلاح سادت جميع الممالك الاوربية في تلك المرحلة ، وخاف بونيفاس على

---

(٤٩) Hallam, op. cit., p. 281.

(٥٠) Stephenson, op. cit., p. 386.

السلطة البابوية داخل هذه الممالك وتصدى للملك الفرنسي ولغيره من الملوك وأصدر في عام ١٢٩٤م قراراً بعدم أحقية الملوك في فرض الضرائب على ممتلكات الكنيسة دون الرجوع إلى البابا، ومن الطبيعي أن يهدد البابا بقرار الحرمان من رحمه الكنيسة لكل من يخالف ذلك [٥١].

وإستاء ملك إنلجترا كذلك من قرار البابا، وبدأ الصراع بين إدوارد الأول وبين رئيس أساقفه كانتربوري ، وهو ما يذكرنا بالصراع الذي دار بين هنرى الثاني وتوماس بكت، وفي فرنسا كان الصدام بين فيليب الرابع وبين البابا نفسه، وبدأ فيليب بإتخاذ بعض الاجراءات التي تضر بمصالح البابا المادية والأدبية، وعن الجانب المادي حرّم فيليب تصدير الذهب والفضة إلى خارج فرنسا [٥٢]، وفي هذا التحريم عدم إرسال الأموال إلى البابا التي كانت ترسل اليه من فرنسا.

وعن الجانب الأوربي أصدر فيليب قراراً بتحريم دخول الأجانب إلى فرنسا أيًا كانوا هؤلاء الأجانب، وفي هذا القرار تحريم بدخول المبعوثين البابويين إلى فرنسا. إستعد فيليب ولأول مرة في التاريخ لدعوة مجلس الطبقات لإتخاذ موقف محدد تجاه هذه المشكلة، وصعّد فيليب الرابع المشكلة عندما قبض على المبعوث البابوي وسجنه، كما تم إحراق الرسالة التي أرسلها البابا إلى فيليب على مرأى من الجميع في باريس في الحادى عشر من فبراير عام ١٣٠٢م. وتبدل الموقف لصالح الملك عندما

---

(٥١) Painter, op. cit., p. 403.

(٥٢) Hallam, op. cit., p. 286.

ساند رجال الدين الفرنسيون ملكهم وكتبوا إلى البابا يفندون إدعاءه وانهم يساندون ملكهم مهما كانت الظروف (٥٣).

وفي تلك المرحلة كان يعيش في فرنسا أحد رجال القانون البارزين وهو وليم إف نوجارت William of Nogaret، الذي أتهم أجداده بالهرطقة في جنوب فرنسا في عهد البابا أنوسنت الثالث، وكان وليم هذا شديد العداء للباباوية، وفي جلسة مجلس الطبقات التي عقدت بقصر اللوفر في باريس عام ١٣٠٣م هاجم وليم البابا وطالب بمحاكمته وذكر أن البابا عديم الأهلية، وإتهمه بالهرطقة، كما إتهمه أيضًا بالرشوة وأنه عديم الشرف وبعض الجرائم الأخرى. ورغم أن كل هذه الإدعاءات كانت غير حقيقية إلا أن النبلاء ورجال الدين الفرنسيين، وكذلك بعض النبلاء الايطاليين قد أيدوها (٥٤).

وترك البابا مدينة روما واتجه جنوبًا إلى مدينة أنياني Anagni هروبًا من حرارة الصيف، وفي مدينة انياني بلغه ما دار في فرنسا، فاستدعى الكرادلة لعقد مجلس يعلن فيه قرار الحرمان من رحمة الكنيسة ضد الملك الفرنسي، ويعلن أن الشعب الفرنسي في حل من الولاء الذي قدمه للملك، وتحدد الثامن من سبتمبر عام ١٣٠٣م لإعلان ذلك . وصمم فيليب على منع البابا من أصدار هذا القرار ، فتقابل مع وليم أف نوجارت وسكيارا كولونا Sciarra Colonna وطلب منهما التوجه إلى مدينة انياني لإثارة المواطنين هناك ضد البابا، وقد وصلا إلى المدنية

---

(٥٣) Stephenson, op. cit., p. 387.

(٥٤) La Monte, op. cit., pp. 442- 3.

ومعهما جماعة مسلحة وهم يصيحون «الموت للبابا» وطول الحياة لملك فرنسا[٥٥].

واتجه كولونا ومعه حوالى ثلاثمائة من الفرسان إلى مقر البابا وطالبوه بالاستسلام، وعند هذه المرحلة طالب البابا بمهلة لمدة تسع ساعات وقد وافق كولونا على طلبه. ولم يكن بوسع البابا خلال هذه المدة أن يطلب من أهالي المدينة الدفاع عنه أو نجدته. فقد هرب خَدمة، وحتى ما كان حوله من أقارب ، وفي النهاية إقتحم الفرنسيون القصر وأشعلوا فيه النار وتم القبض على البابا ونقله إلى روما ثم ما لبث أن مات بعد أسابيع قليلة في الحادى عشر من أكتوبر ١٣٠٣م حزينًا[٥٦].

وهكذا جاهد البابا بونيفاس قدر إستطاعته ولكنه فشل، بعدما أضناه الكفاح، واذا كان فيليب قد تدخل من قبل في شئون الكنيسة وأرضها التي بلغت حوالي ربع الأراضي الفرنسية، فإنه تدخل هذه المرة في تعيين البابا نفسه، وعين البابا كلمنت الخامس ونقل مقر البابوية من روما إلى أفنيون في عام ١٣٠٩م ،وظلت هذه المدينة مقراً باباويًا حتى عام ١٣٧٧م، وهي الفترة التي تعرف في التاريخ باسم الأسر البابوي، حكم خلالها ثمانية باباوات[٥٧]. وهكذا إنتصرت فرنسا على البابوية بصورة لم ينتصر بها ملكًا أو امبراطوراً من قبل، وانقلب الوضع في هذه المرحلة وأصبح رجال القانون هم الحاكمون بعد أن استعان بهم فيليب في إدارة

---

(٥٥) Mckilliam, op. cit., pp. 339- 40.

(٥٦) Ibid, p. 340.

(٥٧) Painter, op. cit., pp. 405 ff.

شئون الدولة، على العكس من العهود السابقة في أوربا حيث كان يستعان برجال الدين لضرب الاقطاع وإضعافه.

والجانب الثالث في هذا الموضوع هو الاحوال الداخلية لفرنسا في عهد فيليب الجميل، ومن الاحوال الداخلية الجوانب الإقتصادية، وقد كان الملك محتاجًا بصفة دائمة للمال لتنفيذ مشروعاته الداخلية والخارجية، ومن هنا إتخذ الملك بعض الإجراءات الصارمة في بعض الأوقات، وابتدع أنواعًا جديدة من الضرائب، ومما فعله الملك محاولته في عدم سيطرة الاجانب أو اليهود على الاحوال الاقتصادية في فرنسا، لذلك قام بطرد رجال المال الأجانب وكان معظمهم من اللمبارديين الايطاليين وذلك في عام ١٢٩١م، وفرض على اليهود تقديم نصف أرباحهم إلى التاج الفرنسي في بداية الأمر، ثم عاد وصادر أملاكهم وأموالهم وطردهم من فرنسا في عام ١٣٠٦م، ولكن فيليب أدرك خطأ تصرفه هذا فأدهم ثم عاد وطردهم، وتكرر ذلك أكثر من مرة[٥٨]، والواضح أن ذلك يرجع إلى حاجة فيليب للأموال التي يصادرها منهم عند طردهم .

كما وقف فيليب موقفًا متشدداً من جماعة فرسان الداوية Templars وهي جماعة عسكرية تأسست في بيت المقدس عام ١١١٨م ولعبت دوراً بارزاً في الحركة الصليبية داخل وخارج بلاد الشام مثلها مثل جماعة الاسبتارية وجماعة التيوتون. والحقيقة أن جماعة الداوية قد لعبت إلى جانب نشاطها العسكري دوراً كبيراً في الانشطة المالية مما عاد عليها بالثراء الوفير حتى بعد سقوط الممتلكات الصليبية في بلاد الشام في

---

(٥٨) La Monte, op. cit., p. 470.

أيدى المماليك. وتمتع أفرداها بثراء فاحش بعد إنصرافهم عن الجوانب العسكرية، وفي سبتمبر عام ١٣٠٧م أصدر فيليب أوامره سراً بالقبض على جميع أفراد جماعة الداوية داخل فرنسا، ومصادرة أموالهم وأراضيهم . ومن أجل مصادرة أموالهم شرعًا دعا البابا كلمنت وفيليب الرابع إلى مجلس عام عقد في مدينة فين Vienne التى تقع إلى الجنوب من مدينة ليون في اكتوبر عام ١٣١١م - ١٣١٢م، وقد حضر هذا المجلس عدد كبير من رجال الدين، وكان الهدف من عقد هذا المجلس هو الدعوة لإرسال حملة صليبية الى بلاد الشام للتحالف مع المغول، ومن أجل أيضًا إعادة تنظيم الكنيسة والنظر في شئون أملاك جماعة الداوية وتأييد تصرفات الملك فيليب الرابع ضد البابا الراحل بونيفاس الثامن [٥٩].

وما يعنينا من هذا الأمر قضيتان هما : الحملة الصليبية التي ترسل إلى بلاد الشام والتحالف مع المغول لمحاربة المماليك، وهذا أمر لم ينفذ،وسوف نناقش هذا الموضوع فى موضع آخر من هذا الكتاب . والقضية الثانية هي أن المجلس قرر إدماج جماعة فرسان الداوية مع جماعة الاسبتارية وهو ما لم توافق عليه جماعة الداوية، لذلك إتخذ البابا بعض الاجراءات للتحقيق معهم [٦٠].

وبذلك تشجع الملك فيليب وأصدر قراراً في عام ١٣١٢م بحل تنظيم جماعة الداوية ومصادرة أملاكهم وعين موظفين بدلاً منهم للعمل تحت

---

(٥٩) Hallam, op. cit., p. 310.

(٦٠) Stephenson, op. cit., p. 388

إشراف هيئة ديوان النفقات، ولم يكتف الملك الفرنسي بذلك بل قبض على جميع فرسان الداوية في فرنسا بما فيهم مقدم الجماعةجيمس أف مولاى James of Molay الذي أعدم حرقًا، واتهم فيليب أفراد الجماعة بالعمل ضد المسيحية وحاكمهم وانتزع منهم إعترافًا بإدانتهم(٦١).

أما ما قام به فيليب في الجانب الإداري والتشريعي، فقد قام فيليب باستبعاد جميع الاقطاعيين من الهيئة القضائية ، وهي برلمان باريس ،وحل محلهم مجموعة من رجال القانون يدينون بالولاء للملكية الفرنسية. كما أنشأ الملك محكمة مالية للنظر في جميع المشاكل والقضايا المالية. ولعل أفضل ما قدمه فيليب إلى بلاده دعوة مجلس طبقات الامة للانعقاد في عام ١٣٠٢م، وكان هذا المجلس الذي دعى لأول مرة يضم ممثلين عن رجال الدين والنبلاء ورجال الأعمال، وسيلعب هذا المجلس دوراً كبيراً في تاريخ فرنسا في المراحل المقبلة(٦٢).

ورغم هذه الاصلاحات إلا أن أثرها كان سيئًا للغاية بعد وفاته، فرغم حب الشعب الفرنسي للملك فيليب وإعجابه بشجاعته إلا أنه صب اللعنات على ذكراه ، فقد رأوا فيه ملكًا مستبداً حطم كيان فرنسا، وأن اصلاحاته المالية عادت بالضرر على الدولة، فمن المعروف إقتصاديًا أن رأس المال جبان وأنه يهرب من الحكم المطلق، لذلك فر رجال المال من اليهود واللمبارديين أمام تعسفاته في جمع المال ، فتعطلت التجارة وشلت حركتها . وخلاصة القول أن الرخاء الذي ورثه فيليب عن أجداده كان

---

(٦١) La Monte, op. cit., p. 466.

(٦٢) Stephenson, op. cit., pp. 383- 4.

يسير بالقصور الذاتي في عهد فيليب ثم إضمحل بعد وفاته. وإذا ما إستثنينا هذا الجانب نجد أن فرنسا تقدمت تقدمًا رائعًا في بعض النواحي الإقتصادية والتشريعية والأدبية والفنية، فقد جذبت الصناعات رقيق الأرض، وظهرت طبقتا رجال الأعمال ورجال القانون وطغتا على طبقة رجال الدين، وأصبح للطبقتين الجديدتين صوتاً في مجلس الطبقات وهو المجلس الذي ناصر الملك ضد البابوية(٦٣).

وظهر في عهد فيليب شعراء الفروسية الذين كتبوا للحب العذرى في اقليم بروفانس جنوب فرنسا، وظهرت أيضًا قصص الملاحم في شمال فرنسا، وفي عصر فيليب أيضا ظهر إثنان من المؤرخين هما جوانفيل الذي أرخ للملك لويس التاسع وفلهاروديـن Villehardouin مؤرخ الحملة الصليبية الرابعة التي هاجمت القسطنطينية عام ١٢٠٤ وأقصت الحكم البيرنطي حتى عام ١٢٦١م(٦٤).

وفي عهد فيليب أيضًا ارتقت جامعتا باريس وأورليان وأعيد تنظيمهما(٦٥)، وظهرت الكنائس الكبيرة في سانت دنيس ونوتردام في تحفه معمارية رائعة في فنها القوطي(٦٦). والأهم من ذلك كله أن الوحدة الوطنية سادت هذه المرحلة لتعمل على وحدة البلاد بدلاً من النزعة الإقليمية الإقطاعية.

---

(٦٣) Hallam, op. cit., p. 286.

(٦٤) La Monte, op. cit., pp. 460, 495.

(٦٥) Schachner, The Mediaeval Universities, New York 1962, pp. 143, 265.

(٦٦) Magi, op. cit., pp. 4, Hallam, op. cit., p. 261.

وفي ختام الحديث عن عهد فيليب نقول أن الفضل في هذا كله يرجع إلى طبقة رجال القانون - الذين سيطروا على مقاليد الإدارة - بعقولهم المفتوحة بدلا من رجال الدين ذوى العقول الجامدة التي مثلت تلك العصور.

وفي الرسائل التي تركها بطرس دوبوا Pierre Dubois وهو من رجال القانون تتضح الفجوة الواسعة بين العقليتين. ومما قاله أن أموال الكنيسة يجب أن تكون في خدمة الدولة، ويجب فصل كنيسة فرنسا عن روما والا يكون للباباوية سلطة زمنية على الاطلاق ، وشطح بطرس عندما قال : يجب أن يكون فيليب إمبراطوراً على أوربا بأسرها ويتخذ من القسطنطينية مقراً له، ولكنه تجاوز فكر عصره بقرون عندما طالب بتكوين محكمة دولية للفصل في النزاع القائم بين الدول، وأن تعلن المقاطعة الاقتصادية على أي دولة مسيحية ترفع سلاحها ضد دولة مسيحية أخرى، وإن يمنح النساء جميع الحقوق السياسية كالرجال، وطالب بإنشاء معهد للدراسات الشرقية في روما[٦٧]. ولا شك أن مثل هذه الأفكار لم نسمع عنها إلا في القرن العشرين، وهذا يدل على عبقرية بطرس وسعة أفق وطموح تجاوز الحد .

وتعاقب على عرش فرنسا بعد فيليب ثلاثة من أولاده كان آخرهم شارل الرابع ١٣٢٢ - ١٣٢٨م، ومات الأخير دون ولد يرث العرش، وكان أقرب وريث من الذكور هو فيليب دي فالوا Philppe de Falois ابن أخي فيليب، فاعتلى عرش فرنسا ١٣٢٨ - ١٣٥٠، ومع تولى آل فالوا العرش بدأت أسرة جديدة على عرش فرنسا وانتهى حكم آل كابيه.

---

(٦٧) Pierre Dubois, The Recovery of the Holy land, New York, 1956, pp. 3ff.

ثالثا : ألمانيا :

ويعاصر الحروب الصليبية في الشرق وظهور المغول في آسيا كقوة عسكرية أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen في ألمانيا، وواقع الحال أن الأسرةالسالية إنتهت بوفاة آخر حكامها لوثير الثانى Lothaire II (١١٢٥ - ١١٣٨م) ولم يكن لوثير بالرجل القدير ليرفع ألمانيا من عثرتها بعد الصراع الطويل مع البابوية، كما أن لوثير نفسه لم يكن مقبولاً من أمراء سوابيا Swabia وهم آل الهوهنشتاوفن .

لقد برز في ألمانيا رجلان قويان بعد موت لوثير، الأول هو هنرى المتكبر (ت ١١٣٩م) دوق سكسونيا ثم بافاريا أيضًا. وهنرى هذا هو حفيد ولف الرابع Welf IV (ت ١١٠١م) ،ولذلك كان هنرى عميد البيت الولفي وعرف أتباعه بالولفيين، والثاني يدعى كوزاد هوهنشتاوفن دوق سوابيا، وكونراد هذا حفيف هنرى الرابع من الأم. ويطلق على الهوهنشتاوفن أيضا الجبليون Ghibelline نسبة إلى قريةWaiblingen في اقليم سوابيا . وعلى ذلك أصبح أمامنا هنرى المتكبر زعيم الولفيين، وكونراد رغيم الجبليين، ولما كان هنرى رجلاً قوياً فقد خشى النبلاء قوته وسيطرته عليهم، وهو ما كانت تراه الكنيسة أيضا، لذلك إختار النبلاء كونراد ملكًا عليهم. ومن هنا ظهر التنافس بين الحزبين الولفيين والجبليين، وإنتقل صدى هذا التنافس إلى إيطاليا حتى أصبح مفهومًا لديها مع مطلع القرن الثالث عشر أن كلمة الجولف تعنى المعارضة للجبليين أو الهوهنشتاوفن. أما في إنجلترا فقد أصبح مفهوم هذا التنافس يعنى إن الجبليين أو الهوهنشتاوفن هم أنصار الإمبراطورية، أما الجولفيون هم أنصار البابوية في صراعها مع الامبراطورية، ولعل الأحداث التي وقعت

في عـهـد أسرة الهـوهنشـتـاوفن في صـراعـهـا مع البـابـاوية تفـسـر هذا المفهوم(٦٨).

كونراد الثالث ١١٣٨ - ١١٥٢م:

قام الصراع بين الجبليين والولفيين مع إعـتلاء كونراد عرش ألمانيا، وإذا كـان كونراد قـد ملك السـلطة وكـان بـوسـعـه القـضـاء على هنرى، فـإن ولاء الولفـيين لزعـيـمهـم هنرى كان أشد من بطش كونراد . وعلى أية حال فـقد إتبع كـونراد كافـة السـبل للقـضـاء على خـصـمه هـنرى ، وسـادت البـلاد حربا أهليـة مع بدايات عـهـد كـونراد .، وكـان لهـذه الحـرب أثرها الكبيـر على ألمانيا فى الداخل والخارج . ونجح كونراد فى أول الأمر فانتـزع بافاريا من هنرى ، وخطط لضم سكسـونيـا . ومـات هنرى المتـكبـر فـجـأة فـى عـام ١١٣٩م أى بعد عـام واحد من تولية الملك كـونراد ، وإرتـاح كونراد لموته، ولكنه إصطدم بعناد أهل سكسونياالذين ناصروا أسرة هنري وساندوا أبنه هنرى الاسد الذى كان فى العاشرة من عمره ونصبوه دوقاً على سكسـونيا ، وظل العـداء مـشـتـعـلاً حتى عـام ١١٤٢م حين لجـأ كـونراد إلى الصلح وأعـاد الى الولفــيين بـافــاريا وسكســونيــا لينقـذ بــلاده من الحــرب الأهلية(٦٩) .

وإذا كـان كـونراد إصـطدم بالحـرب الأهليــه مع بداية حكمــه فى عــام ١١٣٨م فـإنه إصطدم فى العـام الثـانى ١١٣٩ بقـرارات البـابا أنوسنت

(٦٨) Runciman, The Sicilian Vespers, Cambridge 1958, pp. 18-9.

(٦٩) Painter, op. cit., pp. 276- 7.

الثانى Innocent II(١١٣٠ - ١١٤٣م) التى تعطى البابارية السلطة العليا على رجال الدين فى كل أنحاء اوربا ، فإهتز عرش كونراد فى الداخل والخارج ،ولعل هذا مادفعه الى عقد الصلح مع الولفبين ليتفرغ للباباويه . ولكن كونراد كان أضعف من مواجهة البابا . وحاول كونراد أن يعوض فشله مع الأمراء والبابوية، فخرج فى عام ١١٤٨م ومعه سبعون ألف محارب وإنضم إلى الحملة الصليبية المعروفة بالثانية ومعه لويس السابع ملك فرنسا (١١٣٧ - ١١٨٠م)،ولكن الحملة فشلت فشلاً زريعًا وعاد كونراد إلى ألمانيا دون نصر يقوى به على الأمراء والبابابويه . ويبدو أن هذا الفشل قد شجع بعض الامراء داخل ألمانيا على تعزيز مركزهم وتقوية نفوذهم، ورغم خضوع كونراد للباباوية بهدف الحصول على اللقب الإمبراطوري، فإنه لم يحصل عليه، فقد مات عام ١١٥٢م وهو في طريقـــه إلى روما للحصول على اللقب [٧٠].

فريدريك الأول بارباروساBarbarosa (١١٥٢ - ١١٩٠م)

توفي كونراد والتنافس على أشده بين الجبليين والولفبين ، ولم يكن من وريث للملك كونراد سوى فريدريك المعروف بالاول فهدأت النفوس، ولأن فريديك هذا كان ابن فريدريك دوق سوابيا أخ كونراد ، وأمه هى جودث Judith أخت هنري المتكبر وعمة هنرى الاسد، أصبح تعيين فريدريك ملكاًعلى المانيا مرضياً للطرفين المتصارعين[٧١] .

---

(٧٠) Mckiliam, op. cit., pp. 279- 80.

(٧١) La Monte, op. cit., pp. 263- 7.

عـرف فـريدريـك باسم بارباروسـا نسـبـه الى لحيـتـة الحـمراء ، وكـان ذا عقليه ناضجه وعزيمه ماضيه ، ومن حسناته أنه عمل لخير المانيا وآخى بين الجبليين والجلوفيين وجنب البلاد فوضى الحرب الأهليه ، وأعاد إلى أسرة هنرى الاسـد دوقـتـى بافـاريـاوسكـسـونيـا .وتطلع فـريدريك إلى اللقب الامبـراطورى منذ إعتـلائه العـرش ، ولكنـه كـان مـضطراً لانهـاء الحرب الأهليه التى ورثها من أبيه ، وما أن إنتهى من تسوية أحوال المانيا حتى وافته الفرصة بدعـوة الـبـابا يوجـين الـثـالث Eugeius III (١١٤٥ - ١١٥٣ م) لمساعدته ضد أهل روما والنورمان نظير حصـول فـريدريك على التاج الامبراطورى. واتجه فريدريك الى روما عام ١١٥٤م حيث كان يوجين قد مات وتولى عرش البابوية هادريان الرابع Hadrian IV (١١٥٤ - ١١٥٩ م) . وعند إجراء مـراسـيم التـتـويج تغـاضى فـريدريك من إمسـاك زمام جواد البابا ومساعدته على النزول إلى الارض [٧٢].

تعـقـد الموقف ونزل البـابا عن على فـرسـه بمفـرده ،ورفـض منح اللقب الامبـراطورى للملك فريدريك . وظل الحـال يومين دار خلالهـا نقـاش بين رجال الملك والبابا وفى نهاية الامر رضخ الملك لطلبات البابا ، وأعـيدت مـراسيم التـتـويج من جديد وأمـسك فـريدريك بزمـام جواد البـابا طبـقـا للتقـاليد المتبعـه في مثل هذه الحالات وتمت مراسيم التتويج فى يونيـه عام ١١٥٥م [٧٣].

بعـد تتويـج فـريدريك إمبراطوراً أصبح أقليم لمبارديا تابعـاً له ، لذلك

---

(٧٢) Mckilliam, op. cit., p. 282.

(٧٣) La Monte, op. cit., p. 269.

أرسل الامبراطور حكاما من قبله ليصرفوا شؤون البلاد اللمباردية . ورضخت بعض المدن للأمر واعترض بعضها وعلى رأسها مدينة ميلانو ، ولم يكن أمام فريدريك إلا أن يفرض سيادته بحد السيف ، فخرج فى عام ١١٥٨م ليخضع البلاد الرافضه لسيادته (٧٤) ، ويرى البعض أن فريدريك كان يقصد من وراء ذلك أيضاً السيطرة على المدن البحرية الإيطالية لتكون فى خدمة التجارة الالمانيه فى حوض البحر المتوسط .

وجاءت المشكله عندما فرض فريدريك سيطرته على الاراضى البابوية فاعترض البابا على هذا الأجراء الذى أعتبره مقدمة لفرض نفوذ فريدريك على حقوق البابا، ولم يعبأ الامبراطور باعتراض البابا ، فرد الاخير بإنزال قرار الحرمان على الإمبراطور . وجلت القلوب لهذه الاحداث ولكن فريدريك لم يتراجع وبدأ بالزحف الى ميلانو باعتبارها زعيمة للقوى المعارضه ، وحاصرت القوات الالمانيه مدينة ميلانو وظل الحصار حوالى ثلاث سنوات ، واخيراً إستولى عليها فريدريك بعدما أهلكتها المجاعه ، ولم يكتف الامبراطور بسقوط المدينة بل أضرم فيها النار (٧٥).

خشيت وغضبت بقية المدن الايطاليه من هذا التصرف الذى ربما لحق بها فى القريب العاجل ، فكونت هذه المدن حلفاً فى أواخر عام ١١٦٨م وعرف هذا الحلف بأسم العصبة اللمبارديه Lombard League.وتصدت هذه العصبه لقوات الامبراطورية وإنتصرت عليها فى عده مواقع منها معركة ليناتو Legnano عام ١١٧٦ م ، وفى العام التالي عقد صلحاً بين

---

(٧٤) Painter, op. cit., pp. 277- 9.

(٧٥) Stephenson, op. cit., p. 331.

البابا وفريدريك عرف باسم صلح البندقية ١١٧٧ م . وعلى أثر ذلك أصبح للمدن الايطالية الحكم الذاتي وتفككت العصبة اللمباردية ، واحتفظ الامبراطور فريدريك بالسيادة الأسميه على هذه المدن (٧٦).

ومن ذلك يتضح أن فريدريك لم يوفق تماماً فى ايطاليا ، ولكنه عوض ذلك فى بعض الجوانب الاخري فى أوربا ، فقد نجح فى تدعيم سلطانه فى هنغاريا وبوهيميا وبولندا ، وكما أنه نجح فى أن يكون له الحق فى تعيين بعض رجال الدين ، وتطلعت أمال فريدريك الى أبعد من أوربا لعله كان يرغب فى بعث للامبراطورية الرومانيه بمساحتها القديمه ، فخرج فى عام ١١٨٩م على رأس القوات الالمانية التى قدرها البعض بحوالي مائه ألف ،واتجه ليصل الي الاراضي المقدسه براً عبر أسيا الصغري لينضم الى هذه الحمله الصليبيه المعروفة بالثالثة وعلى رأسها ريتشاد الاول قلب الاسد ملك انجلترا وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ،ولكن أحلام فريدريك لم تتحق ،فلم يكون الامبراطوريه التى حلم بها ، ولم ينضم لقوات الحمله الثالثه ، فقد مات غريقا فى نهر سالف Seleph فى إقليم قيليقيه بأسيا الصغرى عام ١١٩٠م (٧٧).

هنري السادس ١١٩٠ - ١١٩٧م

خلف هنري والده فريدريك على العرش وفكرة الامبراطورية

---

(٧٦) Mckilliam, op. cit, pp. 290-1.

(٧٧) عن تحركات الامبراطور فريدريك وموته في آسيا الصغري انظر:

Historia de Expeditione Friderici Imperatoris, cf. Brundage, the Crusades, A Documentary Survey, the Maquette University press, Wisconsin 1962, pp. 164 - 6.

الرومانية العالمية لا تبرح عقله ، ونجح فى ذلك نجاحاً ملموساً. فقد تمكن من اخضاع ايطاليا عدا الممتلكات البابارية حتى لا يجر على نفسه المتاعب، وليجد فى البابارية سندا له. ثم وسع ممتلكاته جنوباً وضم جنوب ايطاليا وصقليه وانهى الحكم النورمانى بهما . وبقضائه على الحكم النورمانى يكون هنرى قد قضى على أقوى حلفاء البابارية.

واذا كان ما نجح فيه هنرى السادس بالحرب، فإنه نجح فى مجالات أخري دون حرب ، فقد طلبت إمارة انطاكية الصليبية الخضوع للامبراطورية باعتبار أن الامارة نورمانية الاصل، وأن زوجته كونتسانس هى الوريثه لعرش النورمان فى صقليه وايطاليا. كما طلبت مملكة قبرص الشئ نفسه وكذلك أمارة قليقيه الأرمينيه. وعندما وقع ريتشاد أسيراً فى أيدى ليوبولد Leopold دوق النمسا أثناء عودته من الحمله سلمه الى هنرى السادس الذى إحتفظ به مده عامين، وجال بخاطر هنرى السيطره عسكريا على الامبراطوريه البيزنطية ، كما تطلع الى فرنسا وأسبانيا ، وتصور نفسة حاكما على الامبراطورية الرومانيه بعد بعثها . وأعد قواته للخروج بحمله صليبيه الى الاراضى المقدسه ، وقد وصلت الحمله الي الشام ولكن هنرى لم يلحق بها فقد مرض ومات فى صقليه عام ١١٩٧م، بعد أن حكم الامبراطوريه الرومانيه المصغره لمدة سبع سنوات ، وعن عمر بلغ الثلاثه والثلاثين فقط (٧٨).

---

(٧٨) Runciman, op. cit., p. 10- 12.

فريدريك الثانى ١٢١٢ - ١٢٥٠م

كان فريدريك الوارث الوحيد للامبراطور هنرى السادس ، وكان فريدريك فى الثالثه من عمرة آنذاك ، لذلك دبت الفوضى فى أنحاء المانيا قرابة خمسة عشر عاماً تنازع السلطه خلالها الحزبان القديمان الولف والهوهنشتاوفن ، ورشح الولفيون أوتو أف برونزويك Otto of Brunswick(١١٩٧ - ١٢١٢م) ويعرف أيضا بأوتو الرابع . كما رشح الهوهنشتاوفن فيليب دوق سوابيا (١١٩٧ - ١٢٠٨م) ويعرف ايضا باسم فيليب الرابع . وادعى كل منهما الحق لنفسه فى حكم الامبراطورية.وقامت الحرب الاهليه بين الحزبين ، ولعبت السياسه البابا وية والفرنسيه والانجليزيه دوراً كبيراً فى هذا الصراع حتى عام ١٢٠٨م حيث مات فيليب الرابع .وهدأت الاحوال نسبياً حتى عام ١٢١٢م ، عندما حكم أوتو الرابع بدعم من البابا أنوسنت الثالث. ولما بلغ فريدريك سن الرشد إشتعلت الحرب مره اخرى وأنتهت بانتصار فريدريك بعد ما تخلى البابا عن أوتو، وساعد فريدريك الذى ظل تحت وصايته منذ موت أبيه [٧٩].

واذا جاز لنا ان نصف الامبراطور فريدريك فى أسطر قليله ، وفى ذلك ظلم له ، فيمكن القول أن فريدريك كان محارباً وسياسياً مثقفاً لدرجة عاليه ، مشجعاً للعلوم بدرجة تفوق ثقافته وجنديته . فقد تحدث فريدريك بلغات متعدده ، ونظم الشعر ، وشجع العلوم والفنون ، وله أفكاره فى الفلسفه والطب والهندسه وعامل رعاياه معاملة بعيدة عن التعصب فكان

---

(٧٩) Stephenson, op. cit., p. 333 - 6.

منهم المسلم والمسيحى واليهودى وتكلم اللغه العربيه وبدا وكأنه شرقى العادات ، هذا بالاضافه الى حماسه للتجديد والثوره على القديم ، ولا عجب أن وصفه المؤرخ متى الباريسى Matthew Paris بأنه العجيب الذى بدل الدنيا وأثار إعجابها Mundi et immutater mirabilis أو اعجوبة العالم [٨٠]. ومن العجيب أن نجد مثل هذا الامبراطور قد فشل فى مجال السياسه فى نظر معاصريه، ويرجع ذلك الى آرائه المتقدمة لعصره التى أدت إلى اصطدامه بالكنيسه وعلى رأسها البابا أنوسنت الثالث وهونوريوس الثالث HonoriusIII (١٢١٦ - ١٢٢٧م) وجريجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١م) .

والاسباب المباشرة لهذا الصدام ترجع الى عدة عوامل منها ، أن الامبراطور فريدريك عمل على ضم ايطاليا وصقليه للتاج الامبراطورى، ولكن البابوية وبعض المدن الايطاليه وجدت غير ذلك ، ونجحت البابوية ومن يؤيدها فى النهاية .

ومن أسباب الصدام أيضاً موقف الامبراطور من الحملات الصليبية فهو الرجل الذي حكم العقل قبل السيف ، وكان لا يرى استخدام العنف طالما وجد سبيلا" لغير ذلك . والمهم أن فريدريك تخلف عن قيادة الحملة الصليبية الخامسة كما سبق أن وعد بذلك ، ثم خرج على رأس قواته بالحمله الصليبية السادسة بطريقة لم ترض عنها البابوية، وكان لذلك كله عواقب وخيمه على الامبراطور [٨١].

---

(٨٠) Matthew Paris, op. cit., II, p. 404.

(٨١) Painter, op. cit., p. 217.

وموجز هذه الاحداث أن الحمله الخامسه (١٢١٨ - ١٢٢١ م) استعدت للرحيل بعد أن اقسم فريدريك فى حماسة الشباب - لارضاء البابابوية - بقيادتها ، ولكن إعتذر ووعد باللحاق بها. ووعد أكثر من مرة بالسفر ولكن إعتذر كذلك وطلب التأجيل ، وظل هكذا ثلاث سنوات واكثر حتى منيت الحمله بالفشل فى خريف عام ١٢٢١م، وحّمل البابا والغرب الاروبى مسئولية هذا الفشل للامبراطور ، وصدر ضده قرار الحرمان [٨٢].

ووعد فريدريك بحملة أخرى ثم أجلها ، وأخيراً خرج بالحملة ولكن البابابوية إعتبرته محروماً من الكنيسة ولا يصح له قيادة حملة صليبية. ورغم ذلك خرج فريدريك بالحملة المعروفة بالسادسة ونجح فى ضم بعض الأراضى المقدسة ومنها القدس بالوسائل السليمة الى الاراضى الصليبية[٨٣] ، وصادفت حملته هذه نجاحا لم تحصل أية حملة صليبية أخرى عدا الحملة الاولى ، ورغم ذلك عاد الى أوربا ليواجه غضب الكنيسة .

وإصطدم فريدريك مرة اخري بالبابابوية عندما أعاد تنظيم دولته وأقام المجالس العامة التى جمعت نواباً من النبلاء ورجال الدين وأهل المدن ، لان هذه النظم البرلمانية المتطورة فى حقل هذه العصور لم تجد هوى في نفس البابابوية ، وظنت الكنيسة أن فريدريك يسعى الى هدمها .

---

(٨٢) La Monte, op. cit., p. 503.

(٨٣) Roger of Wendover, op. cit., II, pp. 511 ff.

ولم يجد فريدريك فى الرد على الكنيسة غير مهاجماتها بالحجه والبرهان، وكتب فى عام ١٢٢٧م أن المسيحية الاولى قامت على الفقر والبساطة وليس لاحد أن يشرع للناس قواعد غير التى شرعها السيد المسيح ، ولكن مثل هذه الكلمات لم يفهمها سوى طائفة الفرنشسكان التى أسسها القديس فرانسيس أف اسيس ST . Francis Of Assisi، وهى الطائفة التى نادت بمثل هذه المبادى فى هذه المرحلة . وظل الصدام بين البابوية والامبراطور حتى مات عام ١٢٥٠م ، بعد أن خلف وراءة إسماً لازال الناس يختلفون فى تقديره بين العظمة والعبقرية والإلحاد(٨٤) .

رودلف الاول ١٢٧٢ - ١٢٩١ م (هابسبورج)

واذا كان قد سبق عهد فريدريك الثانى أعواما من الفوضى ، فقد لحقه ايضاً اكثر من عشرين عاماً من الاضطراب ، وهى الفتره الممتدة من ١٢٥٠م وحتى ١٢٧٢م ، فبعد وفاة فريدريك تولى عرش المانيا ابنه كوانراد الرابع Conrad IV ١٢٥٠ - ١٢٥٤ م ، ولكنه وجد معارضة من وليم كونت هولندا William count of Holland، وقد ساد هذه المرحله فتره من الحروب الاهلية داخل الامبراطورية الرومانية . وبعد وفاة كوانراد تم انتخاب ابنه كونرادين Conradin ولكنه مات فى عام ١٢٥٦ م، ثم مات ايضا وليم كونت هولندا . وانقسم الألمان إلى قسمين ، فقد رشح القسم الاول الايرل الانجليزى ريتشارد أف كورنول Richard of Corn-wall، ورشح الجانب الثاني الفونسو العاشر Alfonso X ملك قشتاله

(٨٤) Matthew Paris, op. cit., II, p. 404.

(١٢٥٢ - ١٢٨٤م) . وهنا سادت الفوضى ألمانيا وأصبح من الصعب السيطرة على الموقف . وعرفت الفتره هذه وحتى عام ١٢٧٢ م باسم عصر الفوضى الكبرى . وإستغل الاقطاع هذه الاوضاع وقوى من نفوذه ، وكان لذلك أثراً كبيراً على المرحله التاليه فى ألمانيا[٨٥] .

وفى عام ١٢٧٢م تم إنتخاب رودولف أف هابسبورج Rudolph of Habsburg ليبدأ عصر أسرة الهابسبورج التى ظلت سلالتها تحكم ألمانيا حتى الحرب العالميه الاولى .ويرجع أصل هذا الاسره الى مدينة هابس Habsالتى تقع فى دوقية سوابيا Swabia، وقد أصبح لهذه الاسرة شأنا كبيراً منذ عهد الامبراطور فريدريك بارباروسا .وكان للباباوية دخلا كبيراً فى تولى رودلف عرش الامبراطورية لانه كان يخشى من تفكك ألمانيا مما يؤدى الى توسع فرنسا فى ألمانيا وكذلك توسع شارل الاول أف أنجو Charles of Anjou حاكم صقليه (١٢٦٦ - ١٢٨٥م)[٨٦] .

تولى رودولف عرش المانيا وهو فى الخامسه والخمسين من عمره وحكم من (١٢٧٢ - ١٢٩١ م) ، والواقع أن رودولف حكم ألمانيا فى فترة صعبه فى تاريخ البلاد . وكان عليه أن يعيد النظام داخل المانيا بعد فترة الاضطراب والحروب الاهلية الى سادتها لاكثر من عشرين عاماً . ويمكن التعرف على هذه الصفحات على بعض المشاكل الداخلية والخارجة التى عالجها رودولف . والمشكلة الأولى كانت تحديد موقفه من الباباوية

---

(٨٥) Mckilliam, op. cit., pp. 312 ff.

(٨٦) Stephenson, op. cit., pp. 373 ff.

حتى يمكن معالجة بقية المشاكل ، ومنها الفونسو العاشر الذي رفض ان يتنازل عن لقب إمبراطور الامبراطورية الرومانية، ومواجهة التمرد الذى أعلنه أوتوكارOttokar ملك بوهيميا . وفي البداية سعى رودولف إلى كسب رضاء البابوية باعتبارها قد ساندته فى تعينه أمبراطوراً على ألمانيا ، وثانياً أن مساندة البابا الروحية سيكون لها أثرها على المشاكل الاخري . وقد تم ترتيب مقابله بين البابا جريجورى العاشر Gregory X (١٢٧١ - ١٢٧٦م) خاصة أن هذا البابا قد رفض استقبال رسل الفونسو العاشر المطالب بعرش المانيا ، وعقد اللقاء فى مدينة لوزان Lausanne عام ١٢٧٥م ، وفى هذا اللقاء تم الاتفاق على ذهاب رودولف إلى روما لتقبل التاج الامبراطورى . كما قبل رودولف أن يتولى قيادة حملة صليبية للتوجه الى الشام ، كما تنازل رودولف عن حق الامبراطورية فى ايطاليا وإعترف بشارل أف أنجو ملكاً على نابلي وصقلية [٨٧].

وبعد أن إطمأن رودولف وحصل على رضاء البابوية أستدار إلى التمرد الذى يقوم به أوتوكار ملك بوهميا . و ترجع مشلكة أوتوكار إلى أنه طلب أن يكون له دوراً فى إنتخاب حاكم المانيا الذى تم فى عام ١٢٧٢م ، وفيه تم إنتخاب رودولف ولكن الجميع تجاهلو طلبه، وعلى ذلك رفض الاعتراف بنتائج الانتخابات التى أسفرت عن تولى رودولف عرش المانيا . ومن مركز القوه الذي تمتع به رودولف بعد مساندة البابوية

---

(٨٧) Mckilliam, op. cit., p. 322.

أقدم رودولف على خطوة عملية ودعا أوتوكار إلى اجتماع فى عام ١٢٧٤م ولكن الأخير لم يحضره فحدد إجتماعاً آخر فى العام التالى ، ولم يحضرة أوتوكار أيضاً . وعند هذه المرحله لم يقف رودولف مكتوف الايدى خاصة أن ملك بوهميا إحتل إقليم النمساوستيريا Styria وبعض اقاليم اخرى .لم يعد هناك أمام رودولف إلا إستخدام القوه العسكريه لحسم هذه المشكلة ،ولعبت العرقية دوراً فى هذه الحرب، فقد التف حول رودولف جميع العناصر الألمانية لمقاومة تمرد أوتوكار ملك بوهميا السلافى العرق . وخرج رودولف يقود الجيش الامبراطوري فى عام ١٢٧٦ م .وعند هذه المرحلة أدرك أوتوكار أنه سيخسر الحرب خاصة بعد ما إستسلمت مدينة فيينا ، فبدأ بعرض الصلح على الملك الألمانى ، وقد وافق الأخير على صلح عقده فى نهاية العام .وبموجب هذا الصلح إحتفظ أوتوكار ببوهمياومورافيا وتنازل عن بقية الارأضي التي استولى عليها. وكلل هذا الصلح بأن زوج أوتوكار أبنته إلى ابن رودولف ، كما تزوج أبن أوتوكارمن إحدى بنات رودولف (٨٨).

لم يستمر هذا الصلح سوى عامين فقط ، فقد تجددت الحرب بين الطرفين مرة أخرى ، ولم تكن الحرب فى بداية الامر فى صالح رودولف ولكنه نجح فى كسب هنغاريا إلى جانبه وبعض العناصر الاخرى ، وتمكن فى النهاية من كسب المعركه لصالحة ، وفى موقعة مارخفيلد Marchfild التى وقعت فى أغسطس عام ١٢٧٨م إضطر أتوكار للاستسلام وأجبر على تسليم كل الأراضى التى إستولى عليها ، على أن يحتفظ بإقليم

---

(٨٨) Painter, op. cit., p. 397.

بوهميا كاقطاع من رودولف .وبعد أشهر قليله نقض أوتوكار الصلح وتقدم بقواته وغزا اراضى النمسا وتقدم رودولف اليه وقتله فى ساحة القتال . وهنا بدأت الاوضاع تأخذ طريقها إلى حد ما فى الاستقرار داخل المانيا [٨٩].

ومن أجل أستقرار حكم الامبراطورية الرومانيه فى النمسا قام رودولف بتوزيع أراضيها بين ولديه ، ثم زوج أبنه البرت إلى وريثة دوقية النمسا ، ويعتبر ضم النمسا إلى أراضى الامبراطوريه من أهم الأعمال التى قام بها رودولف . ومن أعماله أيضا أنه قام ببعض المحاولات من أجل تقوية السلطه المركزيه ونشر السلام داخل ألمانيا ، ومات رودولف فى عام ١٢٩١م بعدما أقام حكماً لاسرة ها بسبورج على رأس الامبراطورية الالمانية[٩٠].

أدولف أف ناسو (١٢٩١ - ١٢٩٨م)

والحقيقه أن بيت هابسبورج كان قوياً للغايه عند وفاة رودولف . وعندما رشح البرت بن رودولف لعرش الامبراطوريه ، خاف النبلاء من سطوة البرت وإختاروا أدولف أف ناسو Adolph of Nassau باعتباره رجلاً طعيفاً لا يخشى منه . ويلاحظ هنا أن ولاية العرش فى الامبراطورية كانت انتخابية وليست وراثيه ، ورغم هذا لم يقف البرت

---

(٨٩) La Monte, op. cit., pp. 690-1.

(٩٠) Stephenson, op. cit., p. 374.

مكتوف الايدى ،ولم يستسلم لنتائج الإنتخاب وأعلن الثوره علي ادولف، وظل الصراع متقطعاً لمدة سبع سنوات ظل خلالها أدولف متمسكاً بحقه فى تاج الامبراطورية الرومانية(٩١) .

والمهم هنا أن أدولف ، وبعد أن توج في مدينة أكس لاشابل (آخن) ،حتى ظهرت تطلعاته وتنكر للوعود التى قدمها لكبار الامراء ورجال الدين . وبدأ عهده بقيادة حملة ضد البرت وأجبرة على تقديم الولاء وتسليم شعار الإمبراطورية . كما بدأ فى جمع صغار الملاك حولة لمساندته أمام كبارالاقطاعيين . وتطلع أدولف لأبعد من ذلك وأراد أن يجعل من نفسه نصيراً للوحدة الالمانية وإعادة أراضيها السليبة خاصة مقاطعة برجانديا التى تعرضت لاطماع فرنسا وإصبحت تابعة فقط لالمانيا من الناحية الاسمية (٩٢).

وعلى ذلك استغل أدولف الحرب التى كانت دائرة بين انجلترا وفرنسا وتقرب إلى الملك الانجليزي إدوارد الأول وعقد معه معاهدة في عام ١٢٩٤م تعهد الطرفان بموجبها مواصلة الحرب ضد فرنسا . والواضح أن هذا التصرف كان تصرفاً ذكياً من أدولف لأن فرنسا كانت تسعى جاهده للسيطرة على الممتلكات الانجليزية فى الاراضى الفرنسية ، ولذلك تقابلت المصالح الالمانية الانجليزية ضد فرنسا (٩٣).

---

(٩١) La Monte, op. cit., p. 691.

(٩٢) Hallam, op. cit., p. 280.

(٩٣) C.M.H.= Cambrdige Medieval History, Combridge, 1968, II, p. 85-6.

والواقع أن الامراء الالمان لم يكن يعنيهم فى هذه المرحلة سوى تأكيد نفوذهم الاقطاعية وعدم مساس الحكم الالماني بحقوقهم داخل اقطاعياتهم ، ولذلك لم يساندو أدولف في أطماعه . وكان فيليب الرابع ملك فرنسا يدرك ذلك دائماً . كما أنه أدرك الصراع الدائر بين أدولف ومعه صغار الاقطاعيين ضد كبار الامراء ، وبدأ فيليب فى إثارة الخلاف وعوامل !الانشقاق داخل المانيا ، ولكن البابا بونيفاس الثامن الذى كان يعنيه واحده أوربا لاستغلالها فى حروب صليبية والتحالف مع المغول لإستعادة الأراضي المقدسة في بلاد الشام، تدخل بين أدولف وفيليب ونجح في عقد الصلح بينهما دون أن تحصل ألمانيا على برجانديا[٩٤] .

أحس كبار الأمراء أن ما يقوم به أدولف ليس في صالحهم، وهنا ثارت مخاوفهم وإلتفوا حول ألبرت بن رودولف حاكم دوقية النمسا وساندوه ضد أدولف ، وتشجع ألبرت بموقف كبار الأمراء وإتصل بملك فرنسا عدو أدولف، كما تحالف ألبرت مع ونسلاس Wenceslas ملك بوهميا، وتطورت الأمور حتى دعا رئيس أساقفه مدينة مينز إلى اجتماع في مدينة فرانكفورت حضره كبار الأمراء، وفي هذا المؤتمر تم عزل أدولف عام ١٢٩٨م وإنتخب مكانه إلبرت بن رودلف. لم يستلم أدولف لهذه النهاية وتقدم بقواته لمقاتله ألبرت، ودارت معركة قتل فيها أدولف وأصبح ألبرت ملكا دون منازع [٩٥].

---

(٩٤) La Monte, op. cit., p. 690, Hallam, op. cit., p. 280.

(٩٥) La Monte, op. cit., p. 691.

ألبرت الأول (١٢٩٨ - ١٣٠٨م)

كان رجلاً عسكريًا قديراً وحاكمًا ممتازاً، وعرف في التاريخ بقسوته وصرامته، ولعبت تصرفات البابا بونيفاس دوراً كبيراً في توجيه سياسة ألمانيا في تلك المرحلة ، فقد رفض البابا الاعتراف بألبرت حاكمًا على ألمانيا ، لذلك لجأ إلى التحالف مع فيليب الرابع ملك فرنسا عدو البابا، وبهذا التحالف يكون ألبرت قد تنازل عن حقه في إقليم برجانديا. وأيد هذا التنازل قوة التقارب بين ألبرت وفيليب عندما إلتقيا في أواخر عام ١٢٩٩م، حيث تم الاتفاق على زواج رودولف بن البرت إلى الاميرة الفرنسية بلانش Balnche (٩٦).

وفي السياسة الداخلية سار ألبرت على مناصرة المدن لضرب الاقطاع الذي يمثله كبار الأمراء. ولما كان مصدر قوة هؤلاء الأمراء يكمن فيما فرضوه من ضرائب جديدة في عصر الفوضى الذي أعقب وفاة الامبراطور فريدريك ، لذلك أصدر ألبرت مرسومًا ألغي به جميع الضرائب التي صدرت بعد عام ١٢٥٠م، وعند هذه المرحلة شعر الامراء بالخطر الذي يحيط بهم فتكتلوا ضد البرت وساندهم في ذلك بعض كبار الأساقفة، ولكن ألبرت وجه ضربات متلاحقه لهؤلاء وأجبرهم على إلغاء الضرائب التي فرضوها على الأهالي والاعتراف بحق حكام المدن في منح إمتيازاتها وولايتها على المواطنين الذين يسكنون حول المدينة، ومن المشاكل التي تصدى لها ألبرت مشكلة وراثة العرش في كل من بوهميا

---

(٩٦) C. M.H., II, p. 88.

وهنغاريا، وهي المشكلة التي كانت سببًا في مقتله في عام ١٣٠٨م على يد ابن أخيه يوحنا[٩٧].

آل لكسمبورج : هنري السابع (١٣٠٨ - ١٣١٤)

بعد أن لقي ألبرت مصرعه إستبعد الامراء آل هابسبورج وتم إختيار هنرى السابع أمير مقاطعه لكسمبورج ملكاً على ألمانيا ،وبذلك دخل تاريخ المانيا حاكم جديد من لكسمبورج . ولم يكن فى وسع آل هابسبورج أن يفعلوا شيئاً بعد الصدمة التى تلقوها بموت ألبرت المفاجئ سوى الاعتراف بالملك الجديد مقابل الاعتراف بما تحت سلطانهم من أراضى وممتلكات .

والمهم هنا أن ألمانيا سوف تشهد مرحلة جديدة من الصراع الداخلى بين آل هابسبورج وآل لكسمبورج وما سيكون لذلك من نتائج على السياسه الألمانيه الداخلية والخارجية .

وفى السياسه الداخلية فقد تقرب هنرى إلى كبار الامراء ،وذلك بالغاء الامتيازات التي كان ألبرت قد منحها للمدن ، ومعنى ذلك أن صغار الملاك وحكام المدن قد أصبحوا فى جانب ، وأن هنرى وكبار الملاك قد أصبحو فى جانب أخر. كما أراد هنرى أن يقوي من مركز أسرته فى الحكم ، فاستغل فرصة الثورة التى قامت فى بوهميا ، وانتهت بطرد ملكها هنرى أف كارنثيا Henry Of Carinthia فى عام ١٣١٠م ، وزوج إبنه يوحنا من اليزابيث إبنة حاكم بوهميا الاسبق ونسسلاس[٩٨].

---

(٩٧) La Monte, op. cit, p. 691.

(٩٨) Painter, op. cit., pp. 397-8.

أما فى السياسة الخارجية فقد ارتبط بإيطاليا كثيراً ، وكانت البداية عندما أراد أن يحصل على التاج الإمبراطوري ، ولذلك أنشغل ثلاثة أعوام ١٣١٠ - ١٣١٣م حتى حصل على أملاك التاج فى مدينة بافيا، وأقام نائباً له فى مقاطعة لمباردى ، ثم تحالف مع حاكم مدينة ميلانو، اتجه بعد ذلك إلى روما حيث توج فى كنيسة القديس بطرس فى التاسع والعشرين من يونية عام ١٣١٢م . وبعد ذلك إتجه إلى الشمال وحاصر مدينة فلورنسا دورج نجاح ، والنتيجة العامة لذلك كله فى ايطاليا كانت ضياع أمل الجبليين في إيطاليا . ومن فلورنسا إستعد هنرى لشن الحرب على مدينة نابلى ولكنه مات قبل أن يكمل حملته . والمهم هنا أن حملات هنرى على ايطاليا كانت فاشله ولم تعد بالنفع على ألمانيا[٩٩]،وبوفاته عاد الصراع داخل المانيا على عرش البلاد وأنتهز فيليب الرابع ملك فرنسا هذه الاوضاع وأمن وجوده داخل مدينة ليون التى أستولى عليها من ألمانيا فى عام ١٣١٠م .

لويس الرابع ١٣١٤ - ١٣٤٧م

ظل الصراع على العرش داخل المانيا أكثر من سبع سنوات ، ويرجع هذا الصراع إلى عاملين رئسيين ، أولهما : عدم وجود ملكيه مركزيه قويه تسيطر على طموح كبار الامراء ، والثانيه عدم وجود قواعد ثابته يتم بموجبها إنتخاب أو إختيار الملك . وقد ترتب على العامل الثانى أنه عند وفاة هنرى السابع إجتمع الأمراء لإنتخاب الحاكم الجديد ، وكان هناك مرشحان رئيسيان . الاول هو الابن الأصغر للملك الراحل هنري وهو

---

(٩٩) La Monte, op. cit., p.p. 691-3.

يوحنا ملك بوهميا (١٣١٣- ١٣٤٦م) من آل لوكسمبورج ، والثانى فريدريك حاكم النمسا ،وهو إبن ألبرت الاول من آل هابسبورج .ثم ظهر على الساحه مرشح ثالث وهو لويس دوق بافاريا الذى هزم فريدريك فى نوفمبر من عام ١٣١٢م . وبدأ آل لكسمبورج فى مساندة لويس باعتبارة رجلاً قوياً يستطيع أن يقف أمام مرشح آل لكسمبورج .وقد أسفر الانتخاب عن حصول لويس على خمسة أصوات ، بينما حصل فريدريك على اربعة أصوات وأصبح الصدام العسكري ضروريا لحل هذه المشكله.وظل الصراع حتى سبتمبر من عام ١٣٣٢ م، وانتهى بأنتصار لويس فى معركة مولدورف Muhldorf الذى عرف فى تاريخ المانيا باسم لويس الرابع (١٠٠). وكان من أهم مظاهر حكم لويس الرابع هو الصراع بينه وبين البابوية، فقد استغل البابا فترة الصراع فى المانيا وتدخل فى الشئون الاداريه الألمانيه فى ممتلكاتها فى أيطاليا ، وعين روبرت الاول ملك نابلى (١٣٠٩ - ١٣٤٣م) نائباً للامبراطور الالماني فى ايطاليا . وظل الحال كذلك حتى عهد البابا حنا الثاني والعشرين ، وعند هذه المرحلة التي انتهت بأنتصار لويس على فريدريك رأي البابا أن يقوم لويس بعرض قضية الممتلكات الالمانية فى ايطاليا على المحكمة البابوية فى روما ، فرفض لويس وتطور الامر وأصدر البابا قرار الحرمان ضد لويس (١٠١).

وقد ظهرت بعض العوامل التي أدت إلى إضعاف البابوية وتقوية

---

(١٠٠) La Monte, op. cit., p. 693-4.

(١٠١) Mckilliam, op. cit., p. 346.

موقف لويس ملك ألمانيا ، ومن العوامل التي أدت إلى إضعاف البابوية كثرة الخلافات الدينية وحركات الهرطقه داخل الكنيسة الغربية ، وأنتهاء الحروب الصليبية التى أستغلها البابويه لتقوية مركزها ، وأنتهاء بعض الجماعات العسكرية مثل جماعة الداوية ، والأسر البابوى فى أفينون ، ومواقف ملوك وحكام أوربا من البابوية .

أما العوامل التي أدت إلى تقوية مركز لويس ، فهو الشعور القومي الالماني ، ومن هذه المدخل إجتمع الناخبون الالمان فى مدينة رينز Rense فى عام ١٣٣٨م ، وقرروا مبدأ فى غاية الاهمية فى تاريخ المانيا بخاصة وما سيكون له من نتائج على تاريخ أوربا العصــور الوسطى بعامة، فقد قرروا أن السلطة الزمنية مستمدة من الله مباشرة وأن الحاكم الذى يتم أختياره في المانيا ملكاً أو إمبراطوراً يصبح الحاكم الشرعى للبلاد، بدون موافقة البابا أو أى سلطة دينية أخرى. وقد عقد إجتماع أخر فى مدينة فرانكفورت ، وقد أيد المؤتمر الاخير قرارات المؤتمر الاول ، وأصدر عدة قرارات أخرى من شأنها تهدئة الاحوال داخل المانيا وتقوية السلطه المركزية ، ثم تحالف لويس مع إدوارد الثالث ملك انجلترا حتى يتمكن من الوقوف فى وجه البابوية [١٠٢].

ورغم هذا كله فإن لويس تراجع فجأة عن موقفه المتشدد مع البابويه وألغى تحالفه مع ملك إنجلترا ، وتصالح مع فيليب السادس ملك فرنسا (١٣٢٨ - ١٣٥٠م).لعله يستطيع أن يصلح أحواله مع البابويه، ولكن هذا التصرف قد أضعف من مركز لويس داخل المانيا ، وظل الحال كذلك

---

(١٠٢) C.M.H., VII, pp. 130-1.

في الوقت الذي ظهر فيه التنافس من جديد بين آل لكسمبورج وآل ها بسبورج ، وفى عام ١٣٤٦م أصدر البابا كلمنت الرابع (١٣٤٢ - ١٣٥٢م) قراراً جديداً يقضى بحرمان لويس من رحمة الكنيسة . وفى الوقت نفسه نصح البابا بإجراء إنتخابات جديدة فى المانيا لاختيار حاكم جديد ، وتم إنتخاب شارل حاكم مورافيا Moravia حفيد هنرى السابع وهو من آل لكسمبورج ليتولي الحكم فى المانيا . وعلي أثر هذه التطورات وقعت معركة كرسى Crecy فى أغسطس عام ١٣٤٦م، هزم فيها شارل حاكم مورافيا ، وفر من أرض المعركه . وقد أضعف هذا التصرف من مركز شارل وقوي من مركز لويس ولكن الاخير مات في اكتوبر عام ١٣٤٧م [١٠٣].

شارل الرابع ١٣٤٧ - ١٣٧٨م :

عند موت لويس أصبح عرش المانيا مهيأ لان يتولاه شارل الرابع، والحقيقه أن ذلك يرجع إلى موقف البابوية بالاضافه الي مساندة بعض الامراء . ويرى البعض أن شارل الرابع يعتبر من أعظم الحكام الذين تولوا حكم بوهميا ، ولكنه لم يحكم الامبراطورية بالنجاح الذى حكم به بوهميا. ولعل ذلك مرجعه إلى مرض الوباء الاسود الذي هدد العالم فى الفتره من ١٣٤٨ - ١٣٤٩م وما كان لهذا المرض من تأثير على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية بعد أن مات بسببه أكثر من ثلث السكان في أوربا[١٠٤] .

---

(١٠٣) La Monte, op. cit., p. 694.

(١٠٤) Stephenson, op. cit., p. 401.

والواقع أن عهد شارل تميز بحدث هام وقع فى عهده ، وهذا الحدث هو صدور المرسوم الذهبى Golden Bull فى عام ١٣٥٦م . وقد وضع هذا المرسوم القواعد المنظمه لانتخاب أباطره المانيا دون تدخل البابابوية أو الرجوع اليها ، وقد حدد المرسوم سبع شخصيات فقط فى انتخاب الامبراطور وهم روساء أساقفة مدينة كولونيا ، ومينز ،وتريف ، وملك برهميا ، ودوق بافاريا ، ودوق سكسونيا وأمير براندنبرج Branden-burg، وقضى المرسوم أن يتم الانتخاب فى اجتماع يعقد فى مدينة فرانكفورت ، وأن يتم التتويج فى مدينة أكس لاشابل . وقضي المرسوم أيضاً على أنه في حالة إختيار أى ملك أو أمير من الولايات أو المدن السبع فإن أرضه تؤول إلى أبنه الاكبر فقط دون منازع حتى تظل وحده الملكيه ثابته ولا تتعرض للانقسام [١٠٥].

ومن الطبيعى أن يعلن البابا أنوسنت السادس (١٣٥٢ - ١٣٦٢م) عدم رضاه عن هذا المرسوم ، ولكن شارل الرابع لم يبال بموقف البابابوية ، وبذلك أنقطعت الصلة بين الامبراطورية الرومانية والبابابوية التى كانت من قبل هى صاحبت الحق الوحيد فى منح اللقب الامبراطورى لحاكم ألمانيا ، وهى الدولة الوحيدة في أوربا التى تمسك حكامها بهذا اللقب بعد شارلمان [١٠٦].

وتغلبت عاطفه الابوه على شارل الرابع ، فرغم أن المرسوم الذهبى ينص على وراثة الابن الاكبر لابيه خشية تفتيت الملكية ، إلا أن شارل

---

(١٠٥) Painter, op. cit., p. 398.

(١٠٦) Mckilliam, op. cit., p. 354.

قام بتقسيم أملاكة بين أولاده . وقد أدى هذا فى النهاية إلى إضعاف آل لكسمبورج وسيكون لذلك أسوء الأثر على الأسرة بعد ذلك .

ونسسلاس (١٣٧٨ - ١٤٠٠م) ونهاية آل لكسمبورج : -

لقد عهد شارل لابنه ونسسلاس قبل وفاته ، ففى عام ١٣٧٦م قامت هيئة الانتخاب بانتخابه ثم توج في العام نفسه إلى جانب والدة ، ولكن ونسسلاس كان لاهياً مستهتراً فعزل فى عام ١٤٠٠م ، وأعقبت ذلك فترة من الاضطرابات دامت حوالى عشر أعوام إنتهت بتولى أخيه سيجيسموند Sigismund حاكم هنغاريا حكم الامبراطورية منذ ١٤٠١م ثم مع بوهميا منذ عام ١٤١٩م وحتي عام ١٤٣٧م . وقد مات دون وريث ذكر فخلفه البرت الثانى من بيت هابسبورج الذى حكم لمدة قصيرة ١٤٣٨ - ١٤٣٩م ، وتولى بعد أبنه فريدريك الثالث (١٤٣٩ - ١٤٩٣م) . وقد ساعدت الفتره الطوليه التى حكمها فريدريك الثالث فى التمكين لآل هابسبورج بالسيطرة على البلاد وظل اللقب الامبراطوري مقصوراً على آل ها بسبورج حتى عام ١٨٠٥م عندما وضع نابليون نهاية الامبراطورية الرومانية (١٠٧).

رابعاً : البابا ويه فى القرن الثالث عشر

البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦م)

فى الوقت الذى ظهر فيه المغول فى اسيا ، كان البابا إنوسنت الثالث يجلس على عرش البابا وية فى روما . وكان هذا البابا على درجة واسعة

---

(١٠٧) La Monte, op. cit, pp. 696- 9.

من العلم والمعرفة . إذ درس اللاهوت فى باريس كما درس القانون فى بولونيا ، ولم يكن لملوك أوربا وأباطرتها المعاصرين له قوته وبصيرته ، فقد برهن على أنه سياسى ماهر سريع البديهه متطور لمقتضيات الظروف والاحوال ، وكانت آمال أنوسنت الثالث تنحصر فى العمل على تسوية كافة مشاكل الممالك ليسودها السلام حتى يتمكن من تسخير كافة القوى الأوربية فى غزو مدينة بيت المقدس التى استردها صلاح الدين فى السابع والعشرين من رجب ٥٨٣ هـ(٢ اكتوبر ١١٧٨م)، خاصة بعد أن نجح أخوه العادل فى جمع شمل البيت الايوبى ، وأن يتبوأ مكان الصدارة على عرش مصر التى كانت قوة المسلمين ومعقلهم المنيع ومركز تموينهم بالمال والمؤن والسلاح . وغير خاف أن البابا أنوسنت الثالث كان يرمى من وراء ذلك إلى رفع شأن البابابوية وأن يكون له السلطة الدينية والدنيوية .وكان فى الدعوة إلى الحملة الجديدة فرصة طيبة لتحقيق تلك الامال ، فضلاً عن الهدف البعيد المدى الذى ينحصر فى فرض سيطرة الغرب الأوربى على العالم الاسلامى .

لذلك بدأ البابا إنوسنت عهده بالكتابة إلى البنادقة يطلب منهم الا يبيعوا أو يتبادلوا مع المسلمين المواد الاستراتيجية كالسفن والسلاح والحديد وغير ذلك من المواد ذات التأثير الفعال فى الحرب ، وإلا تعرضوا لغضب الكنيسة وتوقيع أشد العقاب عليهم . كذلك سارع بالكتابه في عام ١١٩٩م إلى بطريق بيت المقدس الاسمى إمرى الراهب Aiemry The Monk(١١٩٧ - ١٢٠٢م) يطلب منه تقريراً مفصلاً عن الحاله فى بلاد الشام مع تدعيم هذا التقرير بكافة البيانات التى تتعلق بالحكام المسلمين وطبيعة العلاقات بين بعضهم البعض ، كما طلب الشئ نفسه فى عام ١٢١٣م من الداوية والاسبتارية ، ويبدو أن هذة التقارير كانت ترسل اليه

من أن لآخر . فقد أرسل اليه بطريق بيت المقدس الاسمى أيضاً تقريراً فى عام ١٢١٤م ، وقد إشتمل هذا التقرير على معلومات على جانب كبير من الاهمية تضمنت بعض النواحي السياسية والاجتماعية والعسكرية الخاصه بالمسلمين .فمن الناحية السياسية تضمن الحديث عن البلاد التى يحكمها كل من العادل وأولاده الكامل والمعظم ، وإشتمل الجانب الاقتصادى الحديث عن النيل وموعد فيضانه وبعض المنتجات الزراعية في مصر ، وعن الناحية الاجتماعية تناول الحديث أحوال المسحيين والمسلمين واليهرد وعلاقتهم الطيبية بالمسلمين ، والجانب الخطير فى هذا التقرير هو الجانب العسكري ، فتحدث عن بعض البلدان المصرية والمسافة بين بعضها البعض ، وكان ما تناوله بالتفصيل من المدن المصرية هى مدينة دمياط وعدد أبراجها وأسوارها وبرج السلسله وكيفية دخول السفن من دمياط التى كانت مفتاح مصر آن ذاك . والواضح من هذا أن البابا أنوسنت الثالث كان يضع مسألة الشرق اللاتينى وغزو بيت المقدس نصب عينيه لتحقيق الامال الكبير التى رسمها لنفسه والكنيسة . واذا كان البابا قد استهل عهده بالعمل على دعم الحركه الصليبية التى بدأ يشوبها الفتور ، فان الحوادث التي جرت فى أوربا اثناء توليه كرسى البابوية ، مكنته من أن يبسط نفوذة على معظم ربوع أوربا تقريبا . واستطاع أن يعلى شأن البابوية لما قام به من جهد طوال فتره بابويته حتى اصبح السيد الأوحد الذى لا منازع له مما هيأ الجو للدعوة للحملة الصليبية الخامسة بعد أن انحرفت الحملة الصليبية الرابعة عن وجهتها وفشلت فى تحقيق أغراضها [١٠٨].

---

(١٠٨) محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨ - ص١١٨ - ١١٩.

وكان ظهور حركة الهرطقة من الامور التى شغلت بال البابا وية خاصة بعد أن استفحل أمرها . وحاول أنوسنت فى أول الامر اقناع الهراطقة بالعوده إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية فى روما واتباع تعاليمها ، ولكن مبعوثيه فشلوا فى هذه المهمة .وتعاطف ريموند Raymond كونت تولوز مع الهراطقه وتقبل أراءهم ورفض أمداد البابا وية بالقوة الكافية للقضاء عليهم . وأخيراً اتجه البابا إلى فيليب ملك فرنسا فى عام ١٢٠٤، الا أن فيليب كان مشغولاً بصراعه ضد حنا ملك انجلترا. وكرر البابا نداءه لملك فرنسا ١٢٠٥م وأيضا فى عام ١٢٠٧م دون جدوي [١٠٩].

وتطورت الحوادث وأصدر البابا قرار الحرمان ضد ريموند كونت تولوز لرفضه إعاده الكنائس التى أستولى عليها ، فضلاً عن قيام أحد فرسانه باغتيال مندوب البابا . ولم يطق البابا صبراً على هذا التمرد الذى من شأنه القضاء على النفوذ البابوى فى الممالك الاوربية ، فدعى إلى حمله صليبيه ضد هؤلاء الهرطقة وهى المعروفه بالحمله الالبيجنسيه، وكان على رأس الداعين لها جاك دى فتري James of Vitryالذى عين فيما بعد اسقفاً لعكا (١٢١٦- ١٢١٨) ، وجاء مع الحملة الصليبية الخامسة إلى دمياط عام ١٢١٨م (٦١٥هـ) وأرخ لها ايضاً [١١٠].

وقد لبى بعض الامراء دعوة البابا وعلى رأسهم سيمون أف مونتفرات Simon of Montfortالذى تولى قيادة الحمله،واستطاع هزيمة ريموند عام

---

(١٠٩) Hallam, op. cit, p. 54- 6.

(١١٠) لمزيد من التفاصيل راجع: محمود سعيد عمران - المرجع السابق، ص٨-١١.

١٢١٣م ،لذلك كافأة البابا بأن ولاه بعض الامارات الاقطاعية المجاورة له، وهذا يدل على مدى النفوذ البابوى وسيطرته على السلطة الزمنية . ولم يستطيع فيليب أن يقف مكتوف الايدى ويصم أذانه عما حدث حتى لا تضيع هيبته أمام البابوية وأوربا فارسل أبنه لويس للمشاركة فى هذه الحمله عام ١٢١٣م وقد اعترف سيمون بالتبعية لفيليب ، إلا أن سلوك سيمون بعد ذلك تجاهه جعل فيليب يساند ريموند كونت تولوز فى إسترداد أملاكه،ثم قتل سيمون فى عام ١٢١٨م (١١١).

ورغم هذا نجد أن الغرب الأوربى فى أواخر القرن الثاني عشر وبدايات القرن الثالث عشر للميلادمسرحاً للقلاقل والاضطرابات والمشاكل الداخلية والحروب المستمرة التي حالت بينه وبين القيام بحملة صليبية فعالة ضد المسلمين. وكان على رأس البابوية فى ذلك الحين شخص من أقوى شخصيات العصور الوسطي هو البابا أنوسنت الثالث الذى كان يعتبر نفسه خليفة الله على الارض وأن الحكام والملوك أتباعه وعماله ، وليس أدل على ذلك من مواقفه من ملوك الغرب وحكامه . وقد بلغت البابوية أوج عظمتها وقوتها في عهده بعد أن أصبحت أوربا تحت رحمته وبعد أن دانت له كافة دول الغرب بالولاء (١١٢).

البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧م)

لعل أهم ألاحداث التي وقعت فى عهده جانباً من الصراع الذي دار بين الامبراطورية والبابويه التى تضيق هذه الصفحات بذكرها . ومرجع

(١١١) Stephenson, op. cit., p. 347.

(١١٢) Mckilliam, op. cit., pp. 300-4.

هذا الامر أن الامبراطور فريدريك الثانى قد وعد منذ توليه بعدم ضم جزيرة صقلية إلى الامبراطورية الرومانية ، كما وعد بعد مجلس اللتيران الكنسى الذى عقد فى عام ١٢١٥ م بالتوجه إلى الاراضى على رأس حمله لتحرير مدينة القدس وإستعادتها من أيدى المسلمين بعد أن سقطت فى أيدى صلاح الدين ١١٨٧م ، ولكنه ماطل ثم توج إبنه هنرى فى ١٢٢٠م ليكون خليفته فى حكم الامبراطورية وصقلية معاً . ولم يكن فريدريك جاداً فى وعده ولم يلحق بالحملة الصليبية الخامسة التي قدمت إلى مصر وأستولت على مدينة دمياط فى عام ١٢١٩م . ورغم زواج الامبراطور فريدريك من وريثه عرش مملكة بيت المقدس الصليبية الاسمية، الا انه لم يتقدم بخطوة عملية لتنفيذ وعده بالذهاب إلى بلاد الشام واستعادة القدس (١١٣).

وقد ازعجت هذه التصرفات البابا إلى حد كبير يضاف إلى ذلك أن فريدريك إتخذ بعض القرارات التى ترمي للحد من نفوز رجال الدين فى المانيا ، وهو الأمر الذى أزعج البباباويه باعتبار أن رجال الدين يقعون تحت سلطان البابا ، كما أن فريدريك تمسك بكل حقوقه فى اقليم لمبارديا الامر الذى اثار مدن اقليم لمبارديا ، وبدأت تتحالف من جديد ضد الامبراطور ، وعلى أثر ذلك ضاق البابا ذراعاً بتصرفات فريدريك مما مهد لنزاع جديد بين البابوية والامبراطورية . وما لبث أن توفي البابا فى مارس ١٢٢٧ م (١١٤).

---

(١١٣) Painter, op. cit., p. 217.

(١١٤) Mckilliam. op. cit.. p.p. 305-7.

البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١م) :-

كان قد بلغ الثمانين من عمره عند إختياره ليجلس على عرش الباباويه ، ورغم كبر سنه الا انه كان قوى الارادة حازماً ، وأصر على قيام الامبراطور فريدريك بحمله صليبيه إلى الشرق ، وقد أستعد الامبراطور فريدريك بحملة صليبية ضد بلاد الشام ، وسافر من المانيا واتجه إلى مدينة برنديزى الايطالية بنية الابحار إلى عكا ، ولكنه مرض ولم يكمل رحلته .وهنا أعتبر البابا أن الامبراطور يتمارض وغير راغب فى محاربة المسلمين فأصدرقراراً فى التاسع والعشرين من سبتمبر عام ١٢٢٧م بحرمان الامبراطور من رحمة الكنيسة. وكان رد الامبراطور على ذلك أن كتب إلى حكام أوربا يوضح موقفه وحقوقه . ورد البابا على ذلك بانه أعاد إصدار قرار بالحرمان ضد الامبراطور فى عيد القيامه للعام التالى (١٢٢٨م) . ولم يبال فريدريك بذلك وأبحر بحملته الصليبية بعد دعوة الملك الكامل له لاستلام بيت المقدس ، ورغم أن الامبراطور قد حقق نصراً كبيراً فى حملته هذه ،الا أن البابا أرسل إلى الصليبين في بلاد الشام يحذرهم من التعامل مع فريدريك باعتبارة محروماً من رحمة الكنيسة ، ورد فريدريك على ذلك بأن توج نفسه ملكاً على بيت المقدس [١١٥]، ومعنى ذلك أن فريدريك تلقى التاج من الله مباشرة دون وساطه رجال الدين وعلى رأسهم البابا .

---

(١١٥) Sedgwick, op. cit., I, p. 127.

وعاد فريدريك بسرعه إلى برنديزى فانزعج البابا وإعتقد أنه سوف يهاجم مدينة روما ، فاستعد للدفاع عن نفسه ، وأخيراً بدأت المفاوضات بين البابا والامبراطور ، التى أنتهت بما يعرف بصلح سان جرمانو St - Germano الذى وقع فى يوليو عام ١٢٣٠، وبموجب هذا الصلح تم رفع قرار الحرمان الذى وقع علي الامبراطور واعترف البابا بالمكاسب التي عادت على المسيحيه بعودة بيت المقدس ، وذلك مقابل اعتراف الامبراطور بحق البابوية فى السياده على صقلية ، وتعهده بحماية أملاك البابوية [١١٦].

لم يكن ما يحدث سوى هدنه موقته ، لان البابوية تختلف تماماً فى سياستها عن سياسة الامبراطور فريدريك التى ترمي إلى تقويه نفوذ الامبراطورية فى ايطاليا ،الأمر الذى أزعج المدن اللمباردية وجعلها تتحالف ضد الامبراطورية ، ولكنها هزمت قرب مدينة ميلان فى نوفمبر عام ١٢٣٧م عند مدينة كورتنوفا Cortenuova. وتدخل البابا للوساطه بين الطرفين ، ولكن فريدريك لم يقبل ذلك فوقف البابا إلى جانب المدن اللمباردية والبنادقه . وتطورت الاحداث وأصدر البابا قرار الحرمان ضد الامبراطور فى يوم عيد السعف عام ١٢٣٩ ، ورد الامبراطور بغزو الاراضى البابوية فى فبراير عام ١٢٤٠م ،وأحس البابا بضعف مركزه بعدما إبتعد عنه من ساندوه ، ولم يجد امامه سوى أن يعلن حملة صليبية ضد الامبراطور [١١٧].

---

(١١٦) Tout, op. cit., p. 369.

(١١٧) Mckilliam, op. cit., P. 310- 11.

وفى عام ١٢٤١ م دعا البابا رجال الدين فى كافة الممالك المسيحية إلى مجلس ديني عام فى قصر الاتيران فى روما ، وظن فريدريك أن الغرض من إنعقاد هذا المجلس هو أصدار قرار بحرمانه من رحمة الكنيسة كما هو مألوف ،فعمل على منع هذا الاجتماع . ولما كان الترتيب يقضى باجتماع رجال الدين فى مدينة جنوة ، فقد عمل فريدريك بمعاونة حلفائه على ضرب السفن الجنوبيه حتى لا يتم الاجتماع ، وقد نجح الامبراطور فى ذلك حتى أنه تم القبض على بعض رجال الدين ، ولكن فريدريك أفرج عنهم أمام تهديد لويس التاسع ملك فرنسا بشن الحرب على الامبراطور ، وما لبث أن مات البابا فى الحادي والعشرين من أغسطس . وتقلد كلستين الرابع منصب البابابوية حتي نوفمبر من العام نفسه [(١١٨)].

أنوسنت الرابع (١٢٤٣ - ١٢٥٤م)

ظل الكرسى البابوي خاليا لمدة تسعه عشرة شهراً .وقد ترك الكرادلة مدينة روما وإتجهو الى مدينة أنياني ، وكان الامبراطور فريدريك وراء هذا التأخير ، وعلى أثر ذلك تكونت عصبة للوقوف فى وجة الامبراطور. وتعهدوا بالدفاع عن الكنيسة وراعيها ، وفى نهاية الامر تم انتخاب أحد الكرادله الجنيويين ليصبح البابا أنوسنت الرابع . وقد أرسل الامبراطور من جانبه وفداً لتهنئة البابا ولعقد اتفاقيه سلام بين البابا والامبراطور ورفع قرار الحرمان . وقد تم عقد المعاهده بين الطرفين ، ونظراً لمماطلة البابا فى رفع قرار الحرمان لم تنفذالمعاهده. وفى يونيو عام ١٢٤٥م دعا

---

(١١٨) La Monte, op. cit., p. 426

البابا لمجلس عام فى مدينة ليون حضره أساقفه من فرنسا وإسبانيا ، وإيطاليا ، وإنجلترا ، وإستكلندا وإيرلندا وقليل من المانيا ، وفى هذا المؤتمر جدد البابا قرار الحرمان على الامبراطور فريدريك وعزلة من منصب الامبراطور . وعند هذه المرحله أرسل الامبراطور الى كل أمراء أوربا يطلب مساعدتهم . وهنا تدخل الملك الفرنسى لويس التاسع بين الامبراطور والبابا حيث تقابلا فى احد أديرة مدينة كلونى Cluny ولكن البابا رفض بدعوى أن الامبراطور قد أخل بوعده[119] .

وتصاعد الموقف عندما كتب البابا رسالة فى الحادى والعشرين من ابريل ١٢٤٦م يطلب منهم اختيار ملكاً أخر لالمانيا وحدد لهم شخصية هنرى حاكم ثورنجيا ، ولكن الامراء الالمان ظلوا أوفياء للامبراطور ، إلا أن بعض رجال الدين وعلى رأسهم أساقفة مدن كلوني ، وتريف وبرمن ومنيز وسبير وغيرهم وقفوا الى جانب هنرى فاشتعلت الحرب التى قتل فيها هنرى فى العام التالي (١٢٤٧م) ، وبناء على توجيه من البابا تم إختيار وليم ايرل هولندا ملكا على ألمانيا . وظل الصراع بين البابا والامبراطور حتى موت الاخير فى ديسمبر ١٢٥٠م[120].

وعندما علم البابا بموت الامبراطور غادر مدينة ليون بعد أن قضى بها ست سنوات ، وعاد الى ايطاليا وظل لبعض الوقت فى مدينة بروجيا ،وفى المانيا تولى العرش كونراد الرابع ابن فريدريك ، ولكن البابا رفض الاقرار بأى حقوق له فى صقليه وأبوليا وأعلن أن هذه الاراضى هى اقطاع

---

(١١٩) Painter, op. cit., p. 286.

(١٢٠) Sedgwick, op. cit,. I, p. 391.

من البابويه . ولكن كونرادلم يعبأ بذلك وتقدم الى إيطاليا وسيطر على الموقف فى المدن المتمردة ووضع أخاه على الممتلكات الايطالية وعلى جزيرة صقلية .وقد رفض البابا الاعتراف بأنه يحكم صقلية أى فرد من عائلة فريدريك ،ورشح لها ريتشاد أف كورنويل أخ ملك انجلترا ،وشارل أف انجو أخ ملك فرنسا ،ولكن كلاهما رفض هذا العرض [١٢١].

وفى مايو ١٢٥٤ م مات كونراد وخلف وراءة ابنه كونرادين وكان عمره سنتان وتولى الوصاية عليه مانفرد الذى ارسل الي البابا يطلب منه وضع كونرادين تحت حمايته ،وأنه سوف يسلم مملكة صقلية للبابارية. وبذلك عقد السلام بين البابارية والمانياولكنه كان سلاماً قصيراً فسرعان ما تمرد مانفرد على البابوية وكسب معركة عسكريه ضد حلفاء البابا. وعندما علم البابا بأنباء هذه الكارثة سقط صريع المرض ثم مات فى مدينة نابلى في ديسمبر ١٢٥٤م .[١٢٢] ومما يذكر للبابا إنوسنت الرابع السفارات التي ارسلها الى المغول ، وسيرد ذكرها بالتفصيل فى الفصل الرابع .

الكسندر الرابع (١٢٥٤ - ١٢٦١م)

وفى مسلسل الصراع بين البابوية والامبراطور أصدر البابا الكسندر فى شهر مارس فى عام ١٢٥٥ قرار الحرمان ضد مانفرد ، ثم اعقب ذلك بمعاهدة عقدها مع هنرى الثالث ملك انجلترا منح بموجبها جزيرة صقلية إلى

---

(١٢١) Mckilliam, op. cit., pp. 314- 5.

(١٢٢) Rinciman, op. cit., p. 282.

إدموند Edmund ابن هنرى .ولم ينته الامر عند هذا الحد فقد قامت ثورة فى مدينة روما يقودها بعض النبلاء ضد السناتور برانكاليون Brancal-eone وطالبوا بعزله من وظيفته وسجنه، وقد تم عزله ثم أعيد الى وظيفته بعد سنتين .ولكن البابا أصدر ضده قرار الحرمان لتحالفه مع مانفرد ضد البابا ، وقد هدد برانكاليون بالانتقام من مدينة أنياني مسقط رأس البابا بازالتها من الوجود، فاضطر البابا للرضوخ إنقاذاً للمدينه . وتشجع مانفرد بذلك وأعلن سيادته على صقلية وأبوليا وكلابريا واجبر حلفاء البابا على الفرار من أمامه . وهدد البابا بإنزال قرار الحرمان على مانفرد إذا لم يحضر اليه أويخضع لشروط البابا.ولكن الاخير توفى بعد قليل ، والمنافسه على عرش المانيا وصقليه مشتعلة [١٢٣].

أوربان الرابع (١٢٦١ - ١٢٦٤م)

وبعد ثلاثة اشهر من موت البابا الكسندر تم إختيار أوربان الرابع، ومع اختياره كانت الحرب دائره بين المتنافسين على عرش ألمانيا وهما ريتشادرد أف كونويل والفونسو ملك قشتالة . وقد حاول البابا التوسط فى الصراع ،ولكن ريتشارد رفض عرض البابا. وهنا تدخل الامراء الالمان وأختاروا كونرادين الابن الاصغر للامبراطور كوانراد . ولكن البابا عارض هذا الاختيار بكل قوة وهدد بقرار الحرمان لكل من يحاول انتخاب أى عضو من سلالة فريدريك باعتبارها أسرة معادية للكنيسة[١٢٤] .

وكانت سياسة البابا ترمى لإبعاد مانفرد عن عرش صقليه وأخضاعها

---

(١٢٣) Mckilliam, op. cit, p. 317.

(١٢٤) Loc. cit.

للسيادة البابوية . ولذلك طلب البابا من هنرى الثالث ملك انجلترا اعلان الحرب على مانفرد لأن إرموند ابن هنري قد رشح لعرش الجزيرة ، واعتبارهذه الحرب حربا صليبية . ولكن حرب الامراء الانجليز ضد ملكهم هنرى جعلوه يرفض طلب البابا . وعند هذه المرحله عرض البابا عرش صقليه على شارل كونت أنجو مره أخرى ، وقد قبل شارل عرض البابا . وخلال هذه المرحله زوج مانفرد ابنته الى جيمس الثاني ملك أرغون ، وكان ذلك سبباً دفع البابا الى إنزال عقوبه الحرمان على مانفرد .وقد اندفع الاخير وسمح للفرق العربية التى كانت تدافع عنه كما كانت تدافعت عن فريدريك من قبل بأن تتوغل فى اراضى البابوية ، ولكن الجلفيين دافعوا عن البابوية وعن مدينة روما .ولما أحس البابا أنه غير آمن فى المدينه غادرها الى مدينه بروجيا لكنه مات فى اكتوبر ١٢٦٤م، فى الوقت الذى كان مندوبه جيدو Guido قد اتجة انجلترا ليصدر قرار الحرمان ضد النبلاء الانجليز الثائرين ،ولكن الملك الانجليزي منعه من دخول انجلترا فاضطر إلى إصدار قرار الحرمان من مدينة بولونيا أمام جمع كبير من رجال الدين الانجليز . وما لبث أن وصل اليه خبر وفاة البابا وتعينه خلفاً له[١٢٥].

كلمنت الرابع (١٢٦٥ - ١٢٦٨)

وكان أول ما فعله كلمنت هو الكتابه الى شارل كونت أنجو يطلب منه الحضور لتولى عرش صقليه الذى اسنده اليه البابا الراحل . وتم استقبال شارل فى روما بكل ترحاب بعدما وصل من مارسيليا التى غادرها فى

---

(١٢٥) Abulafia, the Western Mediterranean kingdoms 1200-1500, Longman 1997, p. 60.

ابريل عام ١٢٦٥ م .وقد تعهد شارل فى البدايه بأنه سوف لا يتطلع ولا يتطلع خلفاؤه من بعده لضم عرش صقليه لعرش المانيا أو لمبارديا أو تسكانيا ، كما وافق على دفع ألفين أوقيه من الذهب الى البابا وحصاناً أبيض أصيلاً كل عام . وهكذا أصبح شارل سيداً على صقليه بمساندة من البابويه ، ولكنه عامل أهالى الجزيره معامله سيئه ،وسيكون لذلك اسوأ الأثر فى نفوس المواطنين حتى كتبوا فى النهايه رساله الى كونرادين فى بافاريا الذى لم يبلغ السادسة عشر من عمره للقدوم لتولى عرش صقليه، وقد قبل كونرادين العرش ،وتوجه الى ايطاليا حيث سانده الجبليون فى مدن الشمال [١٢٦].

وانزعج البابا لمثل هذه الاحداث وأصدر قرار الحرمان ضد كونرادين ولكن الاخير لم يعبأ بذلك ، وتقدم حتى وصل مدينه روما حيث تم الترحيب به ،وقد نجح كوانرادين بما معه من قوات فى هزيمة قوات شارل من الفرنسين في بداية الامر ، ولكنه هزم فى التاسع والعشرون من أكتوبر ١٢٦٨م وأسر وأعد م ومعه صديقه دوق النمسا . وما لبث أن مات البابا كلمنت الرابع فى نوفمبر من العام نفسه [١٢٧].

جريجوري العاشر (١٢٧١ - ١٢٧٦)

ظل العرش البابورى خاليا بعد موت كلمنت حوالى ثلاث سنوات، وفى

---

(١٢٦) لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث راجع الحولية الفلورنسية.

Villani, G, Croniche Florentine, Westminster 1896, pp. 231-242.

(١٢٧) Mckilliam, op. cit., p. 320.

النهاية تم اختيار ثيوبالد الذى عرف باسم جريجورى العاشر . وفى السنه التالية لحكمه مات ريتشارد أف كورنويل المطالب بعرش ألمانيا ، كما أغتيل أبنه هنرى من قبل .وأثناء عودة الامير الانجليزى إدوارد من حملته على بلاد الشام زار البابا فى روما وطلب منه إصدار قرار الحرمان على المتورطين فى اغتيال هنرى . والمهم هنا أن العرش الالماني أصبح خاليا أمام الفونسو ملك قشتالة ، ولكن البابا رفض مساندته وأيد تعيين رودولف أف هابسبورج الذى إختاره الامراء الألمان ليكون ملك عليهم ، وقد توج فى سبتمبر عام ١٢٧٣م فى مدينة أكس لاشابل (١٢٨).

والحقيقة أن الهدف الرئيسى للبابا جريجورى العاشر كان توحيد كافة الممالك المسيحية بهدف إرسال حملة صليبية الى بلاد الشام تتحالف مع المغول بعد أن تدهورت أحوال الصليبين فى عكا وطرابلس وأنطاكية ، ولذلك دعا البابا الى مجلس عام عقده فى مدينة ليون فى عام ١٢٧٤م. ومن أجل توحيد الممالك المسيحية اتجه البابا الى شمال إيطاليا لانهاء الخلاف بين الجولفيين أنصار البابوية والجبليين أنصار الامبراطور ، وقد فشل البابا فى مهمته وأنتهى الامر باصدار البابا قرار القطع من رحمة الكنيسه على مدينتى فلورنسا وميلان (١٢٩).

وفى أول مايو عقد المجلس فى مدينة ليون وإستمر حتي السابع عشر من يوليو عام ١٢٧٤م ، وقد حضر هذا المجلس خمسمائه من الاساقفه

---

(١٢٨) Mckilliam, op. cit., p. 321- 3.

(١٢٩) عن قرارات مجلس ليون الثاني عام ١٢٧٤م راجع:

Matthew of Westinster, op. cit., II, pp. 458ff.

وسبعون من رؤساء الاديرة وألف من الرتب الدينيه الصغيرة، كما حضر جيمس الاول ملك أراغون (١٢١٣ - ١٢٧٦م) رغم كبر سنه ، بالاضافه الى البطريك الاتينى فى القسطنطينيه وبطريك أنطاكيه وسفراء عن ملوك المانيا وفرنسا وانجلترا وصقليه وقبرص . وقد وافق الحاضرون على الاعداد لحمله صليبيه تتحالف مع المغول وأن يتم جمع عشر الدخل من أجل استعادة بيت المقدس . وخلال انعقاد المجلس وصل رسول الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوج ليعلن عن رغبة الامبراطور فى خضوع كنسية القسطنطينيه الأرثوذكيه لتعاليم كنسيــتروما الكاثوليكيه وسيطرتها عليـــها ، وكان ذلك يعتبر خطوة ايجابية فى سبيل توحيد الكنستين الشرقية والغربية،ولكن ذلك لم ينفذ. وقد وافق المجمع على اختيار رودولف ملكاً على ألمانيا ، ونبذ فكرة تعيين الفونسو ملك قشتالة ، وهناك نقطه هامه اقرها المجلس ووضع فيها قواعد إنتخاب البابوات دون تأخير كما حدث من قبل ، وقد تم الاتفاق علي أن يتم اجتماع الكرادلة لانتخاب البابا بعد عشرة أيام فى المدينه التى مات فيها البابا ، وذلك فى مكان منعزل ولا يسمح لأحد بالدخول عليهم واذ لم يتوصل الكرادله الى اختيار البابا بعد ثلاثة أيام ، فيقدم اليهم الطعام المسموح به من خلال فتحه صغيرة تزداد فى النقصان حتى يتم اختيار البابا . ومالبث البابا أن مات فى يناير عام ١٢٧٦م [١٣٠].

إنوسنت الخامس (١٢٧٦ م)

تولى عرش البابوريه لعدة شهور بدأت من يناير حتى يونيو ، شغل

---

(١٣٠) Mckilliam, op. cit., p. 322.

البابا فيها نفسه ، باتباع سياسة سلفة وهى مواصلة السعى للاصلاح بين الولف والجبليين ، فأرسل سفراء لهذا الغرض ، كما حاول التوفيق بين الملك الالمانى رودلف وبين شارل أف انجو ، وسعى أيضا لتأكيد السياده البابوية على أراضيها فى ايطاليا(١٣١) . ومات البابا وخلفه هادريان الرابع الذى توفى فى أغسطس من العام نفسه ، ثم أعقبه البابا يوحنا الحادى والعشرين الذى تولى عرش البابويه من سبتمبر ١٢٧٦ حتى مايو ١٢٧٧م . وخلال هذه المرحلة لم تتغير السياسه البابوريه داخل أوربا أو موقفها من الحروب الصليبيه والتحالف مع المغول .

نيقولا الثالث ١٢٧٧ - ١٢٨٠م :

ومع تولى البابا نيقولا عرش البابوية، كان رودلف ملك المانيا لا يستطيع الحضور الى روما لتقلده التاج الامبراطورى بسبب بعض الأوضاع فى بلاده . وفى يونيه عام ١٢٧٨ م قدم رودلف تأكيداً بحقوق البابويه على الامبراطوريه ،ووعد باعادة الاراضى التى تخص البابويه الى البابا ، ولذلك كافأة البابا بأن عينه نائباً فى مقاطعة تسكانيا ،وهو المنصب الذي تولاه من قبل شارل أف أنجو . كما كان على البابا أن يواجه شارل أف أنجو ملك صقليه الذى عارض انتخابة كبابا للعالم الغربى ، ولكن الموقف عولج بعد قليل عندما تزوج أحد أقارب البابا من إحدى قريبات شارل (١٣٢).

وما يذكر للبابا نيقولا أنه زاد من مساحة منطقة مبنى الفاتيكان

---

(١٣١) Mckilliam, op. cit., p. 326.

(١٣٢) C.M.H. op. cit, VII, p. 583, Mckilliam, op. cit., p. 326.

وأضاف اليها نافورة وحديقه ، وانه أصر على وحده الكنيسه الشرقيه والغربيه وهو الامر الذي عرضه مندوب الامبراطور البيزنطى فى مجلس ليون ، ولكن هذا الاصرار كان نظرياً ولم يوضع موضع التنفيذ. ومات البابا فجأة فى أغسطس عام ١٢٨٠م فى منزلة الريفى الذى يقع بالقرب من مدينة فيتربو Viterbo ثم دفن فى روما[١٣٣] .

مارتين الرابع ١٢٨١ - ١٢٨٥م

اجتمع الكرادله فى مدينة فيتربو بعد وفاة البابا نيقولا الثالث ولكنهم عجزوا عن اختيار البابا الجديد ، وفى هذه المرحلة إستخدم شارل أف أنجو نفوذة لتأمين عملية إنتخاب بابا تتفق اهواؤه مع أهداف ومصالح شارل ، وتم القبض على أثنين من الكرادله كانوا من اقرباء البابا الراحل وأودعا فى السجن بتهمة تعطيل الانتخاب ، وفى فبراير عام ١٢٨١م تم اختيار البابا الذى عرف باسم مارتين الرابع وكان أول ما فعله البابا هو وضع مدينة فيتربو تحت قرار القطع من رحمة الكنيسة بسبب الاحداث التى وقعت بعد وفاة البابا سلفه [١٣٤].

وإنشغل البابا بقضية توحيد الكنيسة الشرقية والغربية ، وأنزل قرار الحرمان على الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوج بسبب عدم التزامة بمعاهدة وحده الكنيسة التى اقرها مجلس ليون . وجدير بالذكر هنا أن الامبراطور البيزنطى لا يعنيه من قريب أو بعيد قرار الحرمان لانه تابع للكنيسة الشرقية ويدين بالمذهب الارثوذكى وليس الكاثوليكى . وانما

---

(١٣٣) Mckilliam, op. cit, p. 327.

(١٣٤) Loc. Cit.

تأثير هذا القرار ترجع قوته الى أنه يحرم على حكام وشعب أوربا التعامل مع الامبراطور . ويرى البعض أن شارل أف أنجو كان له مصلحة كبيرة فى صدورمثل هذا القرار ، لأنه كان يخطط لحمله عسكرية ضد الامبراطورية البيزنطية، وأن البابا لبى طلب شارل كرد للجميل أوالدور الذى لعبه فى عميله إنتخابه فى مدينة فيتربو[١٣٥] .

وفي عهد البابا مارتين وقعت أحداث كبيرة كان لها أكبر الاثر على البابوية وعلى كافة حكام أوربا بما فيها مملكة أراغون فى الاندلس والامبراطورية البيزنطية وعلى الحروب الصليبيه فى الشرق وخانية فارس المغوليه . وتعرف هذه الحادثة باسم المذبحة الصقلية The Sicilian Vespers ، رغم أن كلمة vesper تعنى صلاة الغروب[١٣٦] .وموجز أحداث هذه المذبحة أن البابوية كان لها دوراً كبيراً فى تعيين شارل أف أنجو ملكا على جزيرة صقلية حتى تفصلها عن الامبراطورية الرومانية فى ألمانيا . وأن شارل عامل أهل الجزيرة معاملة سيئة حتى ضاقوا به ذرعاً ، حتى انهم كتبوا إلى كونرادين للقدوم اليهم وتولى أمر الجزيرة ولكنه فشل وقتل.ومع تطور الاحداث زوج مانفرد الذى كان مرشحاً لعرش صقلية ابنته كونستانس الى بطرس بن جيمس الثانى ملك أراغون ، وبذلك يكون بطرس صاحب الحق فى عرش صقليه بعد وفاة مانفرد . وعلى هذا النحو أصبح شارل والبابا فى جانب ، وشعب صقليه وملك أراغون والامبراطور البيزنطى المحروم من رحمة الكنيسة فى جانب ، وعلى ذلك يقال أن هذه

---

(١٣٥) Villani, op. cit.. pp. 267ff.

(١٣٦) Loc.cit.

الحادثه هى مؤامرة نسجت خيوطها فى اراغون والقسطنطنية ثم نفذت على أرض مدينة بالرمو فى صقلية . وقد تولى أمر هذه الثورة يوحنا حاكم بروسيدا Procida وهو طبيب ، وقد أبعده شارل من أراضيه ، وقد خطط يوحنا لعزل شارل وتعيين بطرس الاراغونى على عرش صقلية .وقد تم تحديد يوم عيد القيامة الذى وقع فى أخر مارس عام ١٢٨٢م موعداً لتنفيذ المؤامرة [١٣٧].

وعندما دقعت اجراس الكنائس لتعلن وقت صلاة الغروب نهض أهل صقليه جميعاً وذبحوا كل الفرنسيين الذى كانوا على أرض الجزيرة ، وقد رتبت هذه العملية بتخطيط جيد ، ولم تفرق بين السن أو الجنس ، وعند هذه المرحلة تقدم بطرس ملك أراغون الى الجزيرة بإسطوله وتوج ملكاً على الجزيرة ، وتشير هذه الاحداث الى أن بطرس يعتبر ضالعاً فى المؤامره والتخطيط لهذه المذبحة [١٣٨] .

وفوجىء البابا بهذه الاحداث فانزل قرار الحرمان على الملك بطرس ووضع الجزيرة باكملها تحت قرار القطع من رحمة الكنيسه ، ولكن أهل الجزيره ساندو بطرس وأصروا على عدم عودة شارل البغيض ، كما تحرك شارل وحصل على مساعدة بعض الفرق الفرنسية وأبحر الى نابلى ومنها الى صقليه والقى الحصار على مضيق مسينا ، وهنا تدخلت الوساطة

---

(١٣٧) لمزيد من التفاصيل عن المذبحة الصقلية راجع الدراسة القيمة التي قام بها المؤرخ الانجليزي رانسمان في كتاب قائم بذاته يقع في ٣٥٥ صفحة.

Runciman, op. cit., p. 241.

(١٣٨) Mckilliam, op. cit. p. 329.

للصلح بين الطرفين (١٣٩).

واقترح شارل أقامة مبارزة فرديه بينه وبين بطرس لحسم القضيه ، واقترح أن تكون مدينة بوردو مكاناً لهذه المبارزه . ولما كانت هذه المدينه تقع ضمن الاملاك الانجليزيه فى الاراضى الفرنسيه فقد رفض الملك الانجليزى إدوارد إقامة المبارزة ، كما أن البابا حرم إقامة مثل هذه المبارزات ، لذلك لم تتم المبارزة وتصاعد الموقف وأصدر البابا فى مارس عام ١٢٨٣م قراراً بحرمان بطرس من رحمة الكنسيه ، وأحل اتباعه من قسم الولاء الذى قدموه إليه . ورغم هذا القرار فقد ظل اتباع بطرس فى أراغون وصقليه مخلصين له . وأمام هذه الاحداث منح البابا مملكة أراغون الى شارل أف فالوا valois أصغر أبناء الملك الفرنسى فيليب الثالث (١٤٠).

وتحرك شارل أف أنجو وذهب الى مقاطعة بروفانس لجمع بعض القوات الفرنسيه ، وأثناء هذه المرحلة نجح الأسطول الأراغونى فى الانقضاض على أسطول شارل وحطمه فى ميناء نابلى ، وقد تم أسر إبنه ويدعى أيضاً شارل أمير سالرنو . وقد حزن شارل أف أنجو لذلك حزنا شديداً وبدأ الياس يتسرب الى نفسه ، ورغم هذا فقد اسرع لنجده إبنه ولكنه ما لبث أن مرض ومات فى مدينة فوجيا foggia فى السابع من يناير عام ١٢٨٥م ثم ما لبس أن مات البابا مارتين فى التاسع والعشرين من مارس فى العام نفسه (١٤١).

---

(١٣٩) Runciman, op. cit, p. 242-3.

(١٤٠) Mckilliam, op. cit., p. 329.

(١٤١) Abulafia, op. cit., pp. 87-8, Sedgwick, op. cit., II, P. II, p. 139- 40.

هونوريوس الرابع ١٢٨٥ - ١٢٨٧م

تولى السدة البابرية والمشكلة الصقلية على أشدها ، وفى نوفمبر من عام ١٢٨٥ مات بطرس الثالث ملك أراغون وصقلية ، فتولى حكم أراغون ابنه الاكبر الفونسو الثالث، كما تولى حكم صقليه ابنه الثاني جيمس الذي توج فى مدينة صقلية . ومن أجل حل هذه المشكله اتفق شارل الثاني أمير سالرنو وملك نابلى الأسير فى تلك المرحله مع جيمس المطالب بملك صقلية، وتم توقيع معاهده بين الطرفين ،تم التسليم بموجبها بحق جيمس فى عرش صقلية مقابل تحرير شارل الثانى من الاسر. وإعترض البابا علي هذه المعاهدة وأصدر قرار الحرمان على الملك جيمس ، ورد عليه الملك بأنه ينكر حق البابا وية فى التدخل فى شئون صقليه ،وعوض البابا فشله فى قضية صقلية بأن تقرب الى رودولف ملك ألمانيا وتم الاتفاق على قيام البابا بمنح الملك لقب الامبراطور،ولكن وفاة البابا فى ابريل عام١٢٨٧م ، منعت الملك من الحضور الى روما ولم يتم التتويج [١٤٢].

نيقولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٢م)

تولى عرش البابا وية ولازالت مشكلة صقلية باقية ، وبدأعهده بمساندة شارل الثانى ملك نابلى ضد حكام أراغون وتدخل إدواردالاول ملك إنجلترا وتمكن من فك أسر شارل الثانى ، وعلى ذلك تمت معاهده ثانيه بين جمس وشارل الذى تنازل عن دعواه فى عرش صقليه . واعترض البابا نيقولا كما أعترض سلفه على المعاهده بدعوى أن مملكة صقليه تعتبر إقطاعية باباوية، وليس من حق شارل أن يسلمها لأحد [١٤٣].

---

(١٤٢) McMilliam, op. cit., p. 331.

(١٤٣) Runciman, op. cit., p. 266.

وبقى البابا طول العام الاول من عهده مقيما فى روما ، وفى ربيع عام ١٢٨٩ م حدث اضطراب فى المدينه فاضطر الى الانسحاب الى مدينة ريتى Rietiحيث قام بتتويج شارل الثاني في التاسع والعشرين من مايو ، ملكاً على صقليه وأبوليا ، وأعلن شارل نفسه تابعاً للبابا رغم أن صقليه كانت تحت حكم جيمس الاراغونى (١٤٤).

وحاول الفونسو ملك أراغون أن يحل بلاده من قرار القطع الذى أصدرة البابا مارتين فى عام ١٢٨٣م ، فدخل مع البابا نيقولا فى مفاوضات تعهد بموجبها الفونسو ألا يساند دعوى أخيه جيمس فى الأحقيه بعرش صقلية ، ولكن الفونسو ما لبث أن مات بعد قليل ١٢٩١م دون أن يترك وريثاً يخلفه علي العرش ، فتولى عرش اراغون جيمس ملك صقلية وترك صقلية لاخيه الاصغر فريدريك . وطالب البابا جيمس بأن يقر الاتفاق الذى عقده الراحل الفونسو مع البابوية وهو التخلى عن عرش صقلية ، وهنا رفض جيمس عرض البابا ، فاشتعلت الحرب من جديد بين جيمس وبين شارل الثاني أمير نابلى (١٤٥).

واهتم البابا هونوريوس الرابع بقضية الحروب الصليبية ، وإستعد أن يمول على نفقته الخاصة جيشاً من ألفين من المشاه وخمسمائة من الفرسان، وأن يستأجر السفن من البنادقة لنقل هذه القوات الى الاراضى المقدسه والتحالف مع المغول ، ولكن الاخبار وصلت اليه بتداعى بقية الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام ، وقد ملأت هذه الأخبارقلب البابا بالاسى وأحس

---

(١٤٤) Abulafia, op. cit., pp. 111- 2.

(١٤٥) Villani, op. cit., p. 294-9.

بالعار الذي لحق به ، وكان لهذه الأحداث أكبر الاثر على أوربا جميعاً ثم ما لبث أن مات البابا فى ابريل عام ١٢٩٢م (١٤٦).

كلستين الخامس ١٢٩٤م

ظل كرسى البابابوية شاغراً لمدة أكثر من عام وذلك لاختلاف وجهات النظر حول انتخاب البابا الجديد الذي عرف باسم كلستين الخامس وهو من مدينة أبوليا ابن فلاح فقير له أحدى عشرطفلاً . وقد أصبح كلستين راهبا منذ حياته المبكره على الطريقة البندكتية ، وأحب حياة العزلة وعاش فى كهف بالقرب من مدينة سولمونا Sulmona. وعندما علم شارل الثانى ملك نابلى بأن البابا الذى يتم اختياره يرجع إلى مدينة أبوليا ، اعتبره من أتباعه أو من رجاله ، فأسرع إليه ومعه ابنه شارل مارتل ملك هنغاريا إلى كلستين واصطحباه إلى مدينة أبوليا ، وقد دخل كلستين المدينه راكباً حماراً دليلاً على تواضعه، وقد أمسكا بلجام الحمار شارل الثانى وابنه شارل مارتل وسارا أحدهما على يساره والآخر على يمينه ، وقد إصطف الآلآف من المواطنين لمشاهدة الموكب ، وتم تتويجه فى مدينة أبوليا فى اغسطس عام ١٢٩٤م، ثم تقدم كلستين بعد ذلك الى مدينه نابلى واتخذ من القصر الملكى مقراً له حيث أصبح أداه ضعيفه فى أيدى الملك شارل الثانى ، وقد رفض كلستين الذهاب الى بروجيا أو الى روما. وعند هذه المرحله شعر الكرادله بالخطأ لاختيار هذه الشخصية لتصبح على رأس الكنيسة الكاثوليكية ، وبدأوا فى التخطيط للتخلص منه. ويقال أن بونيفاس الثامن الذى خلف البابا كلستين لعب دوراً كبيراً ليجعله يتخلى

---

(١٤٦) Mckilliam, op. cit., p.p. 332- 5.

عن منصبه ، ويقال أيضاً أن البابا نفسه كان مريضاً وأنه لا يريد شيئاً سوى أن يعود لعزلته كراهب [(١٤٧)].

وفى ديسمبر عام ١٢٩٤م جمع البابا الكرادله وأعلن إعتزاله ، وقد إصطحب بونيفاس كلستين فى الطريق إلى روما حيث نجح الاخير فى الهروب وعاد إلى مدينة سولمونا حيث يوجد بالقرب منها الكهف الذى عاش فيه . وقد إستقبله الرهبان بكل ترحاب ، ولكن بونيفاس الذى خلفه على عرش البابوية أرسل رجاله للقبض عليه. وعندما علم كلستين بذلك إستقل سفينه بهدف الهرب إلى ساحل دلماشيا ، ولكن عاصفة قوية أجبرته على العودة حيث تم القبض عليه حيث أودع فى قلعة فومون Fumon بالقرب من مدينة أنياني حيث مات بها[(١٤٨)].

بونيفاس الثامن (١٢٩٤ - ١٣٠٣م)

تم إختياره بابا فى ديسمبر عام ١٢٩٤م ،ولم يعترض شارل ملك نابلى على هذا الاختيار .ورغب جيمس الثاني ملك أراغون فى العام التالى فى عقد سلام مع البابوية ، وتنازل عن دعواه فى حكم صقليه ، ولكن شقيقه فريديك الثالث رفض هذه الفكرة وتمسك بحقه فى حكم الجزيرة ، وقد سانده أهل صقليه فى دعواه وتوجوه ملكاً على صقليه فى مدينة بالرمو فى مارس ١٢٩٦م .ورد البابا بونيفاس على ذلك بإصدار قرار الحرمان ضد الملك فريديك .ولما كان أخوة جيمس قد وعد بمساندة البابوية فى

---

(١٤٧) Mckilliam. op. cit.. p.p. 334- 5.

(١٤٨) Ibid., p 335.

حقوقها ،لذلك أصبح مضطراً لحمل السلاح فى وجه أخيه فريدريك [١٤٩].

وفى عام ١٣٠٢م قام شارل أف فالوا الذى سبق أن منحه البابا مملكة أراغون كاقطاعية باباوية له ، قام بحملة على صقلية ، ولكن فريدريك هزمه ، ورغم هذا تحول عن موقفه وتصالح هو وأخوه جيمس مع البابا . وقد منح البابا جيمس جزيرتى سردينيا وكورسيكا كمكافأة له على مساندته[١٥٠] .

وقد أقحم البابا نفسه فى العداء السائد بين عائلتى أورسينى orsini وكولونا ، وقد لعب كل منهما دوراً كبيراً فى التاريخ السياسى والبابوى، وانحاز البابا الى عائلة أورسينى ، وكان هناك أثنان من الكرادله من عائلة كولونا وكانا قد عارضا انتخاب البابا بونيفاس ولكنهما أيدا الانتخاب بعد ذلك [١٥١].

وكانا لهما نفوذ كبير كمستشارين فى عهد البابا نيقولاس الرابع ، وقد خافا على نفوذهما من البابا بونيفاس لانهما يساندان أهل صقلية أعداء الباباوية . وتطورت الاحداث وإستعان البابا بقوات عائلة أورسينى لتدمير القلاع الخاصة بعائلة كولونا والاستيلاء على أراضيها. وأمام هذه الاحداث فرت عائلة كولونا إلى صقلية وفرنسا وساندت الملك فليب الرابع فى صراعه مع البابا بونيفاس الذي طلب بدوره حماية ألمانيا . وخلال عهد

---

(١٤٩) Mckilliam. op. cit. p. 336.

(١٥٠) La Monte. op. cit.. p. 439.. Mckilliam. op. cit.. p. 336.

(١٥١) Ibid.. pp. 336- 7.

البابا بونيفاس دار صراع فى مدينة فلورنسا وانقسم الاهالى إلى حزبين أحدهما يساند الجبليين والاخر يساند الجلفيين ،وقد أرسل البابا مندوباً إلى المدينه لاصلاح أوضاعها ولكنه فشل فى مهمته لذلك وضع البابا المدينة تحت قرار القطع [١٥٢].

كما طالب أهالى أهل اسكتلندا من البابا حمايتهم من إدعاء ملك إنجلترا إدوارد الاول فى حكم أراضيهم وممارسة النظم الاقطاعيه عليهم ، وفى بدايه الامر ساند البابا إسكتلندا ، وكتب فى يونيه من عام ١٢٩٩م يبلغ الملك إدوارد أن اسكتلندا تحت حماية البابابوية ويطالب الملك بالافراج عن رجال الدين الذين سجنهم . ولكن البابا غير موقفه بعد ذلك عندما احتاج الى مساندة إدوارد ضد ملك فرنسا .أما الصراع بين فيليب الرابع والبابوية فقد ذكرنا جانباً طيباً عنه فى الحديث عن فرنسا فى عصر فيليب الرابع .أما موقف البابا من قضية التحالف مع المغول فسوف نتناولة فى صفحات تالية من هذا الكتاب .

---

(١٥٢) Bruni, Leonardo, History of the Florentine People, tran. James Hankis, London 2001, Vol. I. Books 1- IV, pp. 395- 7.



الفصل الخامس
روسيا والغزو المغولى

مقدمة

الأمة الروسية قبل الغزو المغول

١ - روسيا الكيفية

٢- نمو القوة فى كييف

٣ - تحول روسيا الى المسيحية

٤ - الحرب الأهلية

٥ - السنوات المجيدة ١٠٣٦ - ١٠٥٤م

٦ - السنوات المظلمة ١٠٥٤ - ١٢٢٣م

٧- نشأة مدينة موسكوفى ١١٤٧م

الغزوالمغولىوأمراءروسيا

١ - طبيعة الحكم المغولى

٢ - ايفان الأول وخلفاؤه

استقلال روسيا عن الحكم المغولي

١- المرحلة الأولي

٢- اقامة الحكومة المملكة المستبدة

٣ - نشأة رقيق الأرض

٤ - الأزمة القيصرية

٥- زمن القلاقل

المغول والاقتصاد الروسي



مقدمة :

مع بداية عصر المسيحية كان السلاف أجداد الروس يعيشون فى المنطقة التى تعرف الآن باسم شرق بولندا وغرب أوكرانيا ، وغرب روسيا البيضاء، وكانوا شعباً بدائياً قبلياً يتحدث اللغة السلافية ، وهى من لغه من مجموعة اللغات الهندوأوربيه . وخلال الخمسة قرون الأولى للميلاد ، وهى الفترة التى تميزت بالهجرات الى أوربا وآسيا ، فإن السلاف أخذ وا طريقهم فى الهجرة وكانت هجرتهم بطيئة ولكنها مستمرة ،وبذلك أصبح من الصعب تحديد تحركاتهم بتاريخ دقيق [١].

وعلى أيه حال فمن المعروف انه فى القرن السادس الميلادى إنقسم السلاف الى ثلاث مجموعات تحركت فى ثلاثة إتجاهات مختلفة ، الى الغرب ، والى الجنوب ، والى الشرق ، وهاجر السلاف الغربيون وهم أجداد اليولنديين poleS والتشيك Czichs والسلوفاك Slovake الى نهر الألب Elbe والأودر Oder ونهر الفستولا الأدنى Lower vistola ، وهؤلاء وقعوا تحت تأثير الثقافة الغربية واعتنقوا الديانه المسيحية على المذهب الكاثوليكى وتعاملوا مع الأبجدية اللاتينية [٢].

---

(١) Harcave. Russia a History. London. 1953. p. 3.

(٢) Ibid. p. 4.

أما السلاف الجنوبيون وهم أجداد الصرب والبلغار فقد هاجروا إلى جبال الكربات وإلى البلقان ، وقد تأثر هؤلاء بالثقافة البيزنطية وإعتنقوا الديانه المسيحية على المذهب الأرثوذوكسى وتعاملوا مع الأبجدية السيريلية Cyrillic . وهى أبجدية سلافية قديمة يقال أن مخترعها القديس سيريل Cyril الذى توفى فى روما عام ٨٦٩ م . وترجم الإنجيل الى هذه اللغة ولاتزال أشكالها الحديثة تستعمل فى صربيا وبلغاريا وروسيا[٣].

أما السلاف الشرقيون وهم أجداد الروس فقد إتخذوا طريقهم إلى بحيرة ريبوس Reupus وبحيرة إلمن Elmen ، إلى نهر الدنيبر ونهر أوكا Oka وأعالى نهر الفولجا ، وقد تأثر هؤلاء بالثقافة البيزنطية ، وبالتدريج إتخذت ثقافتهم نحواً يحاكى ثقافة السلاف الجنوبيين ، ولكنهم كانو مختلفين عن السلاف الغربيين . وفى القرن السادس الميلادى كان السلاف الشرقيون بعيدون عن جيرانهم الذين يعيشون فى منطقة الأستبس خاصة من هم تحت النفوذ البيزنطي والغربى ، وكانت حياتهم الإجتماعية والاقتصادية هى القبيله ، وكانوا يعيشون جماعات فى منازل بسيطة لاتعدو أن تكون أكشاك خشبية أو فى تجويف جذوع الشجر. وقامت حياتهم على الزراعة بمحاريث خشبية تجرها الخيول أو الثيران ، وعلى الصيد فى الأنهار وعلى صيد الحيوانات . وكانت القبيلة تتحرك كلها للبحث عن أرض جديدة ، حيث تكون الطبيعة رحيمة بهم ، لذلك كانوا دائماً عرضة لهجوم القبائل الأخرى [٤].

---

(٣) Attwater, Dictionary of Saints, Penguin 1975, pp. 98- 90.

(٤) Harcave, op. cit, pp. 6-7.

لقد عكست الديانة التى إعتنقها هؤلاء السلاف المستوى الثقافى لهم، وكان العالم بالنسبة لهم غامض ملآن بالشر ، وأن الأرواح الطيبة يمكن أن توجد فى بعض الأماكن أو ربما فى الصخر أو الجداول المائية أو الأشجار أو حتى فى الحيوانات أو الإنسان ، وفوق كل هذه الأرواح، تسيطر الآلهة على القوى الطبيعية مثل الاله برون Perun إله الرعد والبرق واستريبوج Stribog إله الرياح والإله سفاروج savarog إله السماء. ومن أجل الحصول على رضاء هذه الآله كان على الأنسان أن يقدم الأضحيات والصلوات أمام الآله المصنوعة من الذهب أوالفضة ، ولم يكن هناك قساوسة للقيام بالخدمات الدينية ، بل كان هناك السحرة ، وهم الذين يقومون بمثل هذا العمل ، كما انهم كانوا أيضاً يتنبئون بالمستقبل (٥).

وانعكس المستوى الثقافى على تنظيمهم السياسى ، وهو مايشبه التنظيم الاجتماعى والاقتصادى الذى يعتمد على القبيلة التى كانت تحت قيادة كبيرهم وهو الحارس على القيم القانونية ، وهو مصدر التشريع ، وفوق ذلك فإن القبيلة لم يكن لها تنظيم آخر ، وأن الغرض من كل ذلك هو وحدة القبيلة عندما كان الأمر يحتاج الى الدفاع أو الهجوم (٦).

وكان ثقافة وسياسة السلاف الشرقيين تتقدم منذ ظهورهم فى سهول روسيا فى القرن السادس الميلادى حتى الوقت الذى بدأت فيه دويلاتهم

---

(٥) Harcave,op. cit., p. 8., Mirsky, Russia, London 1942, p. 26.

(٦) Harcave, op. cit., p. 8.

فى الظهور فى القرن التاسع الميلادى ، وقد تأثر ذلك كله بالطبيعة والبيئة المحيطة وهى الطبيعة التى تميزت الحياة فيها بالمخاطر والمكافأة ، لقد هددتهم قوة الأعداء بالانقراض ، بينما بشرتهم الطرق التجارية الغنية والأرض الخصبة والرصيد الهائل من الغابات وخيراتها والأنهار ، بمستقبل أفضل ، خاصة إذا ماعاشوا فى جماعات . وحتى يصبحوا سادة هذه البيئة فقد وجدوا الزاماً عليهم أن يغيروا من نظام حياتهم ، لذلك بدأوا فى إقامة منازل ثابته ودائمة حتى يتمكنوا من تقوية وسائل الدفاع عنهم ، وحتى يخططوا لإقتصاد حقيقى ، ويوحدوا أو يضموا وحداتهم السياسية الصغيرة وهى القبيلة فى نظام أكبر وأشمل (٧).

وخلال القرنين الثامن والتاسع الميلادى فقدت القبيلة أهميتها ، وبدأت المدن فى الظهور عندما إستقر فيها هؤلاء السلاف ، وقد ساعد على نمو هذه المدن وجود الطرق التجارية بين شرق وغرب أوربا ، ونتيجة لذلك إمتدت التجارة بين أوربا وآسيا ، وكان أهم هذه الطرق التجارية طريق نهر الرود Road الذى يمتد من البحر البلطى الى البحر الأسود ، وطريق آخر يصل بين بحر قزوين ونهر دفينا Dvina أو بحيرة لادوجا Ladoga ونهر الفولجا . وكانت أعظم المدن الروسية هى مدينة كييف Kiev، وتشرينجوف Chernigor ونوفجورد Novgorod التى نمت على الطرق النهرية ، وقد ربحت هذه المدن وغيرها من نمو التجارة بتصدير الفراء ، والعسل ، والشمع والدقيق التى كانت ترسل الى القسطنطينية، وهى المركز الرئيسى للتجارة البيزنطية والى البلاد العربية . وكان يتم تبادل

---

(٧) Harcave, op. cit., p. 8.

البضائع مثل الحرير ، والعطور ، والتوابل ، والرماح ، والسيوف،والمعادن الثمينة ، وهى التى يعاد بيعها فى عودة الرحلة الى البحر البلطى (٨).

وكان لنمو المدن آثراً كبيراً على الحياة السياسية والاجتماعية والإقتصادية . وقد غير هذا كله من أحوال السلاف الشرقيين فقد ظهرت فى كل مدينة نواة للسلطة وهى المجلس العام ، وهو يتكون من جميع الرجال البالغين . ومن وقت لآخر يعين هذا المجلس أميراً على المدينة ومعه بعض المحاربين الذين يتولون أمر حماية المدينة .ومع زيادة الأمان زادت المشروعات وظهرت طبقة من التجار المغامرين ، وبدأت الثروات فى الازدياد والظهور وقد تعاون ذوى الثروة والمراكز الإجتماعية تماماً مع أمير المدينة من أجل الحفاظ على مصالحهم (٩).

وقد إستطاع العديد من هؤلاء الأمراء تقوية مدنهم بإخضاع المدن الضعيفة ، أو بإتحاد مدنهم الضعيفة مع مدن أقوى من أجل الحماية العامة ، وعلى سبيل المثال ، فإن مدينة مثل كييف أو نوفجورود أو تشيرنجوف ، وسمولنك Smolensk وبلوزيرو Beloozero وإزبورسك Izborsk أصبحت مركزاً لوحدات سياسية واسعة (١٠).

---

(٨) Halperin, Russia and the Golden Horde, Indiana, 1987, pp. 6-7, Harcave, op. cit., pp. 8-9.

(٩) Loc. cit.

(١٠) Ibid., pp. 8-9.

وكان نمو المدن هاما جداً لتقدم هؤلاء السلاف ، ولم يتم ذلك فى وقت قصير ، ولكنه غير من أنماط الحياة التقليدية . وفى القرن التاسع فإن قوة التجار الفارانجيين Varangians من أهل إسكندنافيا قد ظهرت على طول الطرق النهرية ، وقد قام الفارنجيون بأعمال النهب عندما لا يكون لديهم تجارة ، وقاموا بأعمال التجارة إن لم يكن لديهم قدرة على النهب، وكانو قادرين على أن يكسبوا الجانب الإقتصادى والسياسى فى المدن السلافية وانهم إستخدموا هذه القوة فى تقدم المدن فى النشاط التجارى المدنى . وكانت سيطرتهم قد ساعدتهم على النمو السريع للتنظيم السياسى بعيداً عن النمو الروسى (١١).

الأمة الروسية قبل الغزو المغولي

ومع أن شعوباً عديدة قد عاشت على سهول روسيا قبل قدوم السلاف الشرقيين ، الا أن أيا منها لم يوفق فى خلق سياسة مستديمة أو فى إستحداث ثقافة قومية ، وقد نجح سلاف الشرق فى ذلك ولكن بعد التغلب على مصاعب جمة .فلقدعاق تقدمهم عوامل كثيرة منها (١٢):

١ - تخلفهم الثقافى عند هجرتهم .

٢ - ضعفهم النسبى كأسبق المتنافسين على أفضل أقاليم السهل .

٣ - القتال المستمر والصمود للغارات التى كانت تشنها الجماعات البدوية العديدة .

---

(١١) Kaiser and Marker (ed) Reinterpreting Russian History, 1994, p. 11.

(١٢) Harcave, op. cit., p. 11.

٤ - الضرورة التى فرضت عليهم التسليم لسيادة الشعوب التى تفوقهم قـوة . والتى تسـعى وراء القـوة والمكسب فى الأرض التى إختاروها .

٥ - الأنشقاقات الداخلية التى نشبت بتطوير وتقدم نظامهم السياسى .

وكأن الثمن الذى دفعوه للبقاء والتقدم فى ظل هذه الظروف هـو:

١ - الاستبداد المطلق للحكومة

٢ - إستعباد الأغلبية للأقلية

٣ - التخلف الثقافى المستمر

١ - روسيا الكييفية :

إقـامـة الدولة الروسـيـة : - ليس من السـهل الكتـابة عن تسلسل الأحداث أثنـاء الفـتـرة التـى قـامت فـيـهـا عـلاقـة وثـيـقـة بـين السلافيـين والفارنجيين ، وهى الفترة التى شهدت بداية الدولة الروسية ، وذلك بسبب نقص المصـادر الموثوق بـهـا . وعلـى أيـه حـال فـإن "Chronicle of Contemporary years" وهى من أقدم الحوليات التاريخية الروسـيـة التى تورد أحداث عن تلك الفـتـرة تعـتـبـر هامة وثقه كـتـراث للروس، ولو أن أجزاء منها غير قابلة للتصديق ، ولكن ملخصاً بسيطاً لها يصلح على الأقل كمقدمة لسرد التاريخ الروسى [١٣].

ووفقاً للحوليات ، بدأ الفارنجيون القادمون من إسكندناوه الواثقون

---

(١٣) Kaiser and Marker, op. cit., p. 11, Harcave, op. cit., pp. 11-12.

مـن تفوقهم فى الحصول على ضرائب من السلاف فى منتصف القرن التاسع ، وقد أدى هذا الى إثارة السخط ، ودفع السلاف إلى الثورة ضدهم وطردهم مرة أخرى إلى إسكندناوة . ولكن سرعان ماسادت الفوضى وعم الأضطراب من محاولة السلافيين حكم أنفسهم إلى درجة انهم توسلوا للفارنجيين أن يعودوا ويحكموهم .

وقد لبى الدعوى ثلاثة إخوة فارنجيين وهم روريك Rurik وسنيوس Sineus وتروفور Truvor، وأقبلوا مع أتباعهم المسلحين ، وقد نصب روريك نفسه آميراً فى مدينة نوفجورد ، وسينيوس فى بلوزيروBeloozero وتروفور فى إزبورسك Izborsk . وفى خلال عامين توفى سينيوس وتروفور تاركين روريك يسيطر على منطقتيهما ، وبينما كان روريك يهتم بشئون إمارته الواسعة فإن أتباعه من السلافيين والفارنجيين عبروا حدود الإمارة وإستقروا فى كييف وأقاموا علاقات تجارية واسعة . وبعد وفاة روريك فى ٨٧٩م إعترف بإبنه إيجور Igor . وكان طفلاً صغيراً وريثاً له فى أرضه وسلطته ، ولكن لما كان إيجور طفلاً صغيراً فقد حكم بالنيابة عنه قريبه أولج oleg حتى بلغ الطفل سن الرشد ، وقد آثبت أولج أنه أوسع طموحاً من روريك فى توسيع وتقوية إمارته . فإستولى على مدينة كييف وأقام بها سلطة مركزية على كثير من المدن الأخرى التى أخضعها لحكمه ، بما فى ذلك المراكز التجارية الهامة مثل سمولنسك ونوفجوررود . وبعد هذا ضم أتباعه من سلافيين وفارانجيين ، وأطلق عليهم جميعاً إسم الروس من الكلمة الفارنجية (Rus) ، نتيجة حمايتهم وتنظيم مستوطناتهم وتأمينهم فى ترويج تجارتهم مع بيزنطة .وهكذا وضع أولج آساس دولة روسيا الكييفية ، وهى دولة حكمها الأمراء المتعاقبون من سلاله روريك .

إن أجزاء من تلك الرواية ثبتت صحتها بالمصادر الموثوقه بها . فقد يكون من المؤكد أن الفارنجيين كانوا قد وطدوا فى النصف الثانى من القرن التاسع سيطرتهم الحربية والسياسية على المستوطنات السلافية الشرقية ، وأنهم كانوا قد نجحوا فى تكوين نواة دولة مركزها كييف ، وأنهم تولوا سلطة الحكم فى تلك الدولة وانه خلال القرن العاشر كان اسم الروس يطلق على الدولة الوليدة وشعبها كما تدل الشواهد . على أن أحد الفارنجيين وإسمه روريك كذلك كان قد إكتسب وضعاً بارزاً بالنسبة لبعض المدن السلافية فى الفترة التى تعنيها الحوليات . وأنه كان أول من أسس عائلة حاكمة روسية توفى آخر أفرادها وهو فيودور عام ١٥٩٨ م . وهناك نقط فى الرواية لازالت موضع جدل خصوصاً بالنسبة لكلمة Rus (روس) وردها إلى أصل فارانجى لأن الكثير يعتقد أن أصلها سلافى شرقى .

ومع أن السلافيين فى تلك الفترة المبكرة قبلوا قيادة الفارانجيين فى الشئون السياسية والاقتصادية إلا أنهم لم يقبلوا ثقافتهم . وعلى العكس فإن الفارنجيين هم الذين تطبعوا بخصائص الثقافة السلافية ، وإستمرت الدولة النامية سلافية فى الأساس .

٢ - نمو القوة فى كييف :

فى بداية القرن العاشر كان الروس قد وطدوا مركزهم فى كييف الى حد استخدامها كمعقل لحماية تجارتهم فى نهر الدنيبر الأسفل ، لأن هذا النهر كان طريقاً خطراً الى القسطنطينية - وخلال المائة سنة التالية كان أمراء كييف قادرين على تقوية ذلك المركز ، وبسط سلطانهم على القبائل والمدن التى تقع على إمتداد الطريق النهرى ، وضم مساحات جديدة الى الدولة

التى يسيطرون عليها ، ولكن تقدمهم لم يكن سريعاً أو سهلاً . وكانوا يعهدون بإدارة الأراضى الخارجية (أى الإمارات) إلى الأقارب الذين لم يكن لهم إهتمام سوى عزل قريبهم فى كييف من كرسى الإمارة ولبس توطيد سلطانه . وظلت الدولة أقرب الى كيان مفكك ، فضلاً عن المضايقة المستمرة من الأعداء الخارجيين خاصة الخزر Khazars والبجناكية(البشناق) Becheneğs الذين كانوا يتنافسون معها على الطرق التجارية الجنوبية . ومع ذلك إستمر أمراء كييف فى تعزيز إمتيازاتهم . فقد نجحوا أن يبقوا أعداءهم على مسافة آمنه لعدة أعوام، وفى كبح مطامح الأمراء الصغار . وفى نفس الوقت حافظوا على العلاقات التجارية مع الإمبراطورية البيزنطية ، وإستطاعوا بالتدريج ان يأمنوا شرها بتكرار إستعراض القوة العسكرية الكييفية ، والتى وصلت فى بعض الأحيان الى مهاجمة القسطنطينية مثلما حدث فى عام ٨٦٠ م . والواقع أن الهجوم الروسى لم يستهدف الغزو بل كان من أجل السلب والنهب ، لذلك عادت القوة الروسية بعد أن حققت أهدافها ، وقد ساعد على ذلك أن الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثالث Micheal III (٨٤٢ - ٨٦٧م) كان قد خرج بجيشة لمحاربة المسلمين ويمدنا فوتيوس photius بطريك القسطنطينية بجانب من المادة التاريخية حول هذه الأحدث .

وهاجم الروس الإمبراطورية البيزنطية مرة أخرى عندما هاجموها بقيادة أميرهم أولج Oleg ووصلوا حتى اسوار العاصمة فى عام ٩٠٧ م . وقد نجح الروس فى إنزال بعض الخسائر ببعض المواقع البيزنطية ، وإضطر الإمبراطور ليو السادس ٨٨٦- ٩١٢م إلى التفاوض ، وانتهى

الأمر بعقد اتفاق بين الطرفين ، وجدد هذا الإتفاق مرة أخرى عام ٩١١م ، ونصت بنوده على منح الروس تسهيلات وإمتيازات بحرية فى الأراضى البيزنطية . وإستمر السلام بين الطرفين حوالى ثلاثين عاماً إنتعشت خلالها التجارة بين الطرفين ، وإستمر البيزنطيون فى سياستهم التى ترمى الى كسب الروس إلى جانبهم عن طريق الهدايا . وفى عام ٩٤١م تعكر صفو السلام بين الطرفين ، فقد قام الأمير الروسى إيجور بحملة فجائية على العاصمة البيزنطية ، ودخلت السفن الروسية مضيق البسفور، ورست القرات الروسية على الشاطئ الآسيوى للبسفور فى إقليم بثينا Bithynia ونهبوا وسلبوا . وفى ذلك الوقت كانت القوات البيزنطية تحارب فى الشرق عند مدينة ملطية ، فإستدارت القوات وعلى رأسها حنا كوركواس John Curcuas وتوجهت الى ميدان القتال وهزمت الروس شر هزيمة فى إقليم بثينا . وحاولت القوات الروسية الفرار عن طريق البحر ، ولكن القائد البحرى ثيوفانيس Theophanes قاد حملة بحرية ضدهم - وهم يعدون العدة للإنسحاب ، مستخدماً النار الأغريقية ونجح فى تدمير معظم سفنهم التى قدموا عليها(١٤).

وعاود الروس الإغارة على الأراضى البيزنطية فى خريف عام ٩٤٤ م ، وإستعدوا إستعداداً ضخماً هذه المرة وتحالفوا من البجناكية لضرب الإمبراطورية ، وحددوا ميدان المعركة فى هذه المرحلة لكى تكون على نهر الدانوب بدلاً من الشاطئ الأسيوى ، ليكونوا على مقربة من البجناكية المتحالفين معهم ، والواضح أن الإمبراطورية لم تكن على استعداد لملاقاة

---

(١٤) Photius, The Homilies, Cambridge, 1958, pp. 74 ff.

الروس والبجناكية لإنشغالها بحروبها فى الشرق خلال هذا العام ، وماتلى ذلك من الصراع على العرش بين ولدى رومانوس وقسطنطين السابع ، لذلك وجدت الدولة أن من الحكمة أن تريح نفسها من هذا الصراع فى الوقت الذى تعلم فيه ان الأموال والهدايا لها مفعول أقوى من مفعول السيوف مع مثل هذه الأقوام ، لذلك إنتهى الأمر بالصلح فى العام نفسه ، وكلل هذا الصلح بمعاهدة تجارية تتلاقى فى خطواتها الرئيسية مع صلح عام ٩١١ م ، ولكنها كانت لصالح الإمبراطورية البيزنطية أكثر منها لصالح روسيا (١٥).

ساد السلام بين بيزنطة والروس ، وتوطدت أركان الصداقة بينهما عندما زارت الأمبراطورة أولجا olga - أرملة إجور والوصية على العرش الروسى - القسطنطينية عام ٩٥٧ م حيث تم إستقبالها إستقبالا حاراً وعمدها بوليكتوس polyeuctes بطريق القسطنطينية (٩٥٦ - ٩٧٠ م)) وسميت باسم هيلينا ، وهو إسم زوجة الإمبراطور قسطنطين السابع(١٦) ، وإن كان البعض يرى أنها إعتنقت المسيحية قبل ذلك بعدة سنوات ، والمهم أن هذا الحدث فتح عصراً جديداً فى العلاقات البيزنطية الروسية ، وفتحت الكنيسة البيزنطية الأرثوذكية أرضاً صالحة للقيام بعملها التبشيرى فى روسيا .

وعندما أصبح سفياتوسلاف Svyatoslav أميراً لكييف عام ٩٦٤م ،

---

(١٥) Ostrogorsky, op. cit., p. 245.

(١٦) عن تحول روسيا إلي المسيحية راجع،

Martin, op. cit, pp. 5- 11.

وجد أن المدينة على درجة من القوة سياسياً وإقتصادياً وعسكرياً تبرر محاولة توسيع المملكة فى ظل سيطرتها . فإتجه أولاً الى الشرق وغزا بلاد الخزر وإستولى على أراضيهم الواقعة عند نهرى الفولجا السفلى والدون ، ثم استدار بقوته بناء على طلب الإمبراطور البيزنطى الى الغرب ضد البلغار على الدانوب ، وهناك ضم إلى إمارة كييف مزيداً من الأراضى - ولكن طموحه تجاوز الحد وشتت حملاته العسكرية القوة العسكرية لكييف (١٧).

وكان البجناكية والإمبراطورية البيزنطية على استعداد لإنتهاز الفرصة، واستطاع البجناكية أن يحرزوا إنتصارات كبيرة ضد الروس حتى أصبحوا يهددون مدينة كييف ذاتها ، كما أجبروا الإمبراطور البيزنطى على التخلى عن الأراضى الواقعة على الدانوب ، وحاول سفياتوسلاف أن يعزز دفاعاته، ولكنه قتل فى عام ٩٧٢ م فى مواجهة مع البجناكية .

٣- تحول روسيا الى المسيحية :

من أهم الأحداث خلال حكم فلاديمير تحول الروس الى ديانة كانت تشكل العنصر الرئيسى فى الثقافة البيزنطية - أي الديانة المسيحية -- التى تؤيدها الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية - أو الكنيسة الارثوذكسية البيزنطية . ولقد ولدت هذه الكنيسة نتيجة للإنشقاقات والإنقسامات العديدة التى دمرت الوحدة الأهلية للكنيسة المسيحية . وبسبب الإنقسام

---

(١٧) Balaban and Other, the Jews of Khazaria, Northvale, 1999, pp. 192- 5.

نشأ مركزان دينيان رئيسيان وهما روما. والقسطنطينية. ومع أن الإنقسام النهائى بين هذين المركزين لم يحدث إلا عام ١٠٥٤، . فقد ظهر تنظيميان دينيان مستقلان فى القرن التاسع وهما الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ومركزها روما ، والكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ومركزها القسطنطينة .

وخلال القرن العاشر كان عدد كبير من أفراد الطبقات العليا قد تأثروا بالثقافة والديانة البيزنطية الأكثر تقدماً ، وكان من الطبيعى أن يميل الأمراء والحكام نحو العقيدة البيزنطية ، وحوالى عام ٩٨٨ م إستقبل فلاديمير فى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية بالقسطنطينية ، وبعد سنتين أعلن أن المسيحية هى عقيدة مملكته ، وأمر بتعميد كل رعاياه . وكانت هذه الأعمال سبباً فى ضمه الى القديسين فيما بعد . وأعقب ذلك إقامة أسقفية مركزها كييف لتكون فرعاً للكنيسة البيزنطية ، وكان مطرانها يعين بمعرفة بطريق القسطنطينية . وحتى عام١٢٣٧م كان المطارنة والقسس من اليونانيين أو البلغار.

وكان انتشار المسحيية فى الروسيا تدريجياً وقد بدأ بالطبقات العليا وانتشرت ببطء فى الطبقات السفلى وعلى نحو أبطأ فى سكان المناطق الريفية ، وإستمرت عبادة الآلهة الوثنية سراً لعدة قرون حتى وجدت بعض العناصر الوثنية طريقها للعقيدة الجديدة تدريجياً . ومع بناء دور العبادة وإقامة الأديرة وتدريب رجال الدين المحليين بدأ الروس فى النظر الى الكنيسة كمركز روحى لهم حتى أصبح القطر الروسى يعرف باسم « روسيا المقدسة »[١٨] .

---

(١٨) Harcave, op. cit., p. 14.

كانت لغة الكنيسة فى الروسيا هى السلافية وليس اليونانية ، لقد إعتادت الكنيسة الأرثوذكية الشرقية على إستخدام اللغات المحلية فى الصلاة بالمناطق التى تدخلها المسيحية ، ولما كانت الكنيسة السلافية قد نشأت وتطورت فى بلغاريا والتى كانت قريبة الصلة باللغة المتداولة فى الروسيا ، فقد استخدمت فى الأخيرة كلغة دينية . ولقد تطورت أبجدية اللغة السلافية الكنيسة المبنية على الأبجدية الأغريقية أساساً على يد المبشر سيريل Cyril . وذلك فى الجزء الأخير من القرن التاسع ، حتى يمكن ترجمة الأدب الدينى الى اللغة المحلية للسلاف الجنوبيين والغربيين ، وبذلك يمكن تحويلهم إلى المسيحية . وقام شقيق سيريل ويدعى مثوديوس Methedius بترجمة الكتاب المقدس(الإنجيل) للغة السلافية الكنسية، وأعقب ذلك ترجمة النصوص الدينية الأخرى . كانت هذه الترجمات أول عمل أدبى مكتوب متاح للروس وأصبحت نموذجاً لأدبهم الدينى . كما أن أدبهم الدنيوى قد استخدم السلافية الكنيسة حتى القرن الثامن عشر تقريباً (١٩) .

٤ - الحرب الأهلية ١٠١٥ - ١٠٣٦م

تمزقت روسيا الكييفية نتيجة الصراع على العرش بين أبناء فلاديمير الخمسة لمدة عشرة أعوام بعد وفاته عام (١٠١٥م) ،وقد بدأ أكبرهم سفياتوبولك Svyatopolk فى تبوأ العرش بعد قتل إثنين من إخوته ، ولكنه وجد منافساً له وهو أخ آخر يدعى ياروسلاف Yaroslav أميرنوفجورد .وقد هزم ياروسلاف الأمير سفياتوبولك عام ١٠١٩م

(١٩) Harcave, op. cit., pp. 14 - 15.

واخضع كييف وسيطر عليها واعتبر نفسه الأمير الكبير ، وفى ذلك الوقت كان هذا هو اللقب المقبول للحكام الروس الكيفيين . ولكن أخاه الذى ظل على قيد الحياة ويدعى مستيلاف Mstilav نازعه هذا اللقب ، فإضطر الى أن يتقاسم معه المملكة حتى عام ١٠٣٦ وهو تاريخ وفاته ، وكان مستيلاف يحكم ذلك الجزء الواقع شرق الدنيبر بينما كان ياروسلاف يحكم باقى القطر[٢٠] .

٥ - السنوات المجيدة ١٠٣٦ - ١٠٥٤ م

وبعد عام ١٠٣٦ م إستطاع ياروسلاف المعروف باسم الحكيم باعتباره الأمير العظيم أن يصل بروسيا الكييفية إلى ذروة التقدم عن طريق الاستمرار فى المشاريع والخطط التقدمية التى بدأها فى سنواته الأولى . وهكذا أخذ يشجع ويحمى العلاقات الاقتصادية الروسية مع الأقطار الأوربية والاسيوية حتى أصبحت كييف ملتقى التجار البيزنطيين والعرب والهولنديين والبولنديين والمجريين والأسكندناويين . كما أصبحت كييف مركزاً للتقدم الثقافى الروسى . وتم تشييد كاتدرائية أيا صوفيا هناك بمساعدة بيزنطة ، كما آقيمت بها مدارس ومكتبات ، وحظى الدارسون والفنانون بالتشجيع واتجه الشعب إلى الأنشطة السلمية . ورغم أن روسيا الكييفية كانت مرتبطة على نحو أوثق بالامبراطورية البيزنطية إقتصادياً وثقافياً إلا آنها بدأت تعقد صلات أسرية مع العائلات الحاكمة فى أجزاء أخرى من العالم وكانت مثل هذه الروابط هامة فى تلك الأيام . لقد إرتبط ياروسلاف نفسة بروابط المصاهرة مع ملوك إنجلترا وفرنسا والنرويج

---

(٢٠) Martin, op. cit., p. 25.

وبولندا . وبتوجيهات من ياروسلاف تم تجميع أول مجموعة للقوانين فى الروسيا وهى القانون الروسى . ومن حيث الشكل كان هذا القانون على نمط القانون البيزنطى ، وفى المضمون كان عبارة عن ملخص لما إعتبره ياروسلاف الأفضل بين الحقوق والإجراءات التى إستقرت بالعرف بين السلافيين والسكندنافيين والألمان ، لقد اعترفت أحكامه بالرق كنظام وبالتجارة كنشاط أساسى ، كما إعترفت هذه الأحكام فى صورة معدلة بالممارسة العرفية فى السماح بتسوية المسائل الجنائية بين أطراف الخصومة، لقد سمح بالانتقام الشخصى فى ظل بعض الظروف ، وفى أحوال أخرى كانت تدفع أموال تتدرج حسب المركز الإجتماعى للشخص المضار ، وكان تنفيذ القانون العرفى فى ظل القانون الرسمى مشاركة بين الكنيسة والدولة [٢١].

٦ - السنوات المظلمة : ١٠٥٤ - ١٢٢٣ م :

عندما توفى ياروسلاف (١٠٥٤ م) إبتداء نور السنوات المشرقة فى الأفول . وعلى أمل تلافى الصراعات الداخلية فى المستقبل والإحتفاظ بوحدة المملكة ترك ياروسلاف لكل واحد من ورثته الستة إدارة جزء من المملكة ، وأوصى الخمسة الصغار من الورثة بطاعة أخيهم الأكبر الذى سيكون أميراً لكييف . وبعد ذلك إنقسم القطر الى إمارات تختلف من حيث الأهمية وتتزايد من حيث العدد مع كل جيل من نسل الإمارة . فعند موت أمير كييف فإن أكبر الأمراء يقوم بإخلاء الإمارة التى كان يحكمها ويتولى حكم كييف حاملاً لقب أميرها ، بينما ينتقل الأمراء

---

(٢١) Harcave, op. cit., pp. 15- 16.

الأحداث سناً فى السلم الهرمى للإمارات [٢٢].

وكان فى هذه الطريقة للخلافة بعض نقاط الضعف الرئسية منها : أنها تفرض فى بعض الأحيان على الرعايا فى الإمارة أميراً جديداً لايوافقون عليه ، وتستبعد أميراً كانوا يفضلونه . لقد سمحت للإمراء بتولى السيادة والحكم بترتيب عمرى منتظم بصرف النظر عن قدراتهم ، وكان نجاح العملية يتطلب درجة عالية من الوحدة السياسية والتماسك الثقافى تفوق تلك التى كانت متاحة لروسيا الكيفية . وكانت قوة الأمير الكبير فى كييف هى العامل الرئيسى فى تماسك القطر ووحدته .

وعندما يتولى السلطة فى كييف أمير ضعيف كان الأفراد الصغار فى العائلة المالكة ، يميلون الى تأكيد طمرحاتهم فى السلطة والاستقلال . مكونين تحالفات عسكرية ضد الأمير الكبير أو شانين الحرب ضد المنافسين الآخرين . وقد تطرف البعض إلى حد التحالف مع الأجانب ، كالبولنديين والمجريين وقبائل القفجاق البدوية .

وأخيراً وفى عام ١١١٣ م ، حكم كييف أمير كان من القوة بحيث إستطاع إيقاف هذا التمزق لوقت قصير - وهو الأمير فلاديمير مونماخ monomakn حفيد ياروسلاف . لقد بذل جهداً لعقدالسلام بين الأمراء المتنافسين ، ونجح فى نشر السلام بينهما نسبياً لمدة اثنا عشر عام ، ولو أنه أخفق فى إرساء نظام فعال لهم .وفى هذه الأثناء أمكنه أن يوقف غارات القبائل البدوية على حدود الروسيا ، وأتاح لكييف الفرصة فى استعادة بعض رخائها السابق . ولكنه لم ينجح فى تحويل قوى

---

(٢٢) Harcave, op. cit., pp. 16-7.

التحلل والتفكك إلى قوى فاعله . وبعد وفاته أخذ الفساد ينخر فى بناء الدولة على نحو أسرع من ذى قبل ، وبدأت كييف تفقد القوة سواء كنقطة مركزية للسلطة السياسية أو كمدينة ، فالسلطة التى تركزت هناك أصبحت مقسمة بحيث أصبحت سيطرة كييف قاصرة على الجنوب فى حين سيطرت نوفجورود على الشمال ، وغاليسيا galicia على الغرب ،سوزدال Suzdal ، وفلاديمير Vladmir على الشمال الشرقى[٢٣] .

٧ - نشأة مدينة موسكوفى Muscovy

من بين تلك المدن التى كانت تتنافس على الظهور ، لم تكن هناك مدينة أحسن موقعا من موسكو، وهي مدينة أنشأت - حسب المصادر القديمة - فى عام ١١٤٧م، فموقعها الجغرافى بالقرب من قلب الأراضى الروسية بالاضافة إلى الأحداث التاريخية وشدة بأس حكامها الأمراء ، كل هذه العوامل وفرت لها مزايا غير عادية للنمو .

وبسبب موقعها على نهر موسكوفا (ويطلق على المدينة باللغة الروسية مدينة موسكوفا) فى نقطة مرور طريق التجارة الذى يصل ما بين نهرى أوكا Oka وفولجا العليا ، أمكن لأمرائها أن يطوروها كمركز تجارى متين فيتحكمون منه على إمارة شاسعة تعرف باسم موسكوفى، وفى الوقت المناسب استطاع أمراء موسكو أن يعظموها مضفين عليها شعارات ورموزا وطنية معينة وباسطين سلطتهم السياسية والعسكرية على المناطق المجاورة[٢٤].

---

(٢٣) Mirsky, op. cit., p. 45.

(٢٤) Harcave, op. cit., p. 22.

وبعد هذا التقسيم أخذت كييف تتدهور بسرعة ، وفى عام ١١٦٩ م إجتاحت المدينة قوات متحالفة لمجموعة من الأمراء ، وفى خلال ثلاث أيام كانت قد خربت أو نهبت . كما أخذت كييف تعانى على أيدى القبائل الرحل التى أخذت تهاجم شمال البحر الأسود مما أدى إلى تقليل حجم التجارة مع بيزنطة وهددت المدينة ذاتها ، وبعد أن وقعت القسطنطينية فى يد الصليبين عام ١٢٠٤ م وتدهورت بيزنطة نفسها إقتصادياً وسياسياً أصبحت الحياة الاقتصادية لكييف بلاسند أو نصير . وبعد أن أصبحت روسيا فقيرة وضعيفة لثالث مرة خلال مائتى عام صارت فريسة سهلة نسبياً للقوى الأجنبية النهاية ، وكان على حدودهـا الكثير من تلك القوى. وجاءت أولاً قبائل القفجاق البدرية التى أزعجت الإمارات فى منطقة الأستبس حتى القرن الثالث عشر . عندما مايئست من النجاح بدأت تتحالف مع مختلف الأمراء الروس .

وفى خلال هذه الفترة جاء اللتز Letts والليتوانيون من منطقة البلطيق الذين طردهم الفرسان التيوتون من ديارهم بهدف الإقامة فى الإمارات الروسية الشمالية ، كذلك السويديون الذين أرادوا السيطرة على مصب نهر نافا Neva وقطع تجارة نوفجورود ، ومن الجنوب الغربى جاء المجريون الذين كانو يندفعون نحو الشرق فاتحين خاصة إلى إمارة غالسيا . وأخيراً جاء المغول من الجنوب الشرقى وهم محاربون متوحشون ومدربون على القتال فاكتسحوا الروسيا من منطقة القوقاز عام ١٢٢٣م [٢٥].

---

(٢٥) Harcave, op. cit., p. 18-9.

الغزو المغولى وأمراء روسيا

١ - طبيعة الحكم المغولى :

نجح المغول فى محاولاتهم الأولى عام ١٢٢٣م فى هزيمة الأمراء الروس الذي تحالفوا ضدهم وألحقوا بهم الهزيمة بالقرب من بحر أزوف . وعلى أى حال فانهم لم يندفعوا فى الغزو فى ذلك الوقت ، وبدلاً من ذلك عادوا إلي آسيا . وبعد ثلاثة عشرعاماً أى فى عام ١٢٣٦م جددوا هجومهم ، وفى هذه المرة أتموا غزوهم للروسيا فى غزوتين رئيسيتين. فقد هاجموا أولاً الإمارات الوسطى والشمالية حيث إحتلوا بالقوة أو قبلوا خضوع مدن ريازان ، وكولومنا ، وموسكو، وفلاديمير ،و سوزدال ، وتفرTevr ، وفى شتاء عام ١٢٣٨ كانوا على بعد ستين ميلاً من نوفجورد ،ولكنهم عادوا إلى جنوب روسيا هرباً من قسوة الشتاء فى الشمال ، ومن قاعدتهم فى الجنوب جددوا غزوهم التالى الذى بدأ عام ١٢٣٩م. الذى أسفر عن سقوط كييف عام ١٢٤٠ م [٢٦].

ومن كييف إستمروا فى الزحف غرباً إلى المجر وبولندا إلى أن اضطروا إلى إيقاف العمليات عام ١٢٤١ م بسبب حدوث تغيرات سياسية فى امبراطورية المغول . وخلال العام التالى أقاموا مراكز رئيسية لهم فى ساراى sarai التى تقع على نهر الفولجا بالقرب من ستالنجراد الحالية ، ووطدوا حكمهم وأصبحت الامارات الروسية التى غزوها ، وتلك التى وافقت على الخضوع ،تعترف بسيادة المغول .كما إعترفت بها نوفجورود - ولو أنها لم تتعرض للغزو - وذلك لضعفها . ولكن المغول لم يستطيعوا

---

(٢٦) The Chronicle of Novgord, op. cit., pp. 64- 66, 81- 84.

أن يحتفظوا بكل مكاسبهم . ففــى النصف الأول من القـرن الرابع عشـر ضمت دوقية ليتوانيـا الكبرى الصاعدة معظم غرب روسيا (المعروفة الآن بروسيا البيضـاء)، وفيما بعد ضمت جزء من روسيا الصغيرة (المعروفة الآن بأوكرانيا) بما فيها مدينة كييف[٢٧] .

لقد خضعت روسيا فيما عدا مدينة نوفجورد والبلاد الشمالية الغربية للسيطرة المغولية، وقد مات خلال المعارك التي وقعت بين المغول والروس العديد من الأمراء كما فر الباقون، أما العامة فقد ماتوا بالآلاف خلال هذه الحروب، كما أن سيدات وأفراد الطبقات العليا قد أصابتهم المزلة ونزلوا إلى ميدان العمل بعد الحياة الرغدة التي عاشوها. وإذا بحثنا عن الأسباب التي أدت إلى هزيمة الروس أمام المغول فنجدها كثيرة، ولعل أهمها النقاط التالية:

١ - أن المغول لم يكونوا أكثر تقدماً في الجانب العسكري عن الروس الذين تعلموا بعض فنون القتـال من أوربا في تلك المرحلة، ولكن المغـول كان لديهم التفوق العددي في كل المعارك التي خاضوها ضد الروس.

٢ - كان تحرك القوات المغولية بمثابة تحرك رجل واحد أمام القوات الروسية المتفرقة، لذلك نجحت في هزيمة قوات أمراء المدن.

٣ - لقد كانت القوات الروسية منقسمة وموزعة داخل روسيا ، وإذا ما حاولت القوات الروسية الاتحاد لمواجهة المغول، كانت القوات المغولية تفاجئها قبل الاتحاد بقواتها السريعة الحركة.

---

(٢٧) Matthew Paris, op. cit., II, pp. 28-9, Harcave, op. cit., p.19.

٤ - كانت جميع القوات المغولية موحدة عسكرياً تحت قيادة الأمير باطو وجميعها مسلحة، أما القوات الروسية فإن الأمراء ورجالهم هم الذين كانوا مسلحين فقط، وفيما يتعلق بالغالبية العظمى فقد كانت غير مسلحة، لذلك تعرضوا بسهولة للقتل أو الأسر.

وبعد سيطرة القوات المغولية على روسيا، شيد باطو مدينة أكتوبا Aktouboa التي أطلق عليها إسم ساراي Sarai أي القلعة، وهي التي أصبحت عاصمة لمغول القبيلة الذهبية التي إمتدت ممتلكاتها من جبال الأورال وبحر قزوين شرقاً حتى مصب نهر الدانوب على البحر الأسود غرباً [٢٨]. ومن الملاحظ هنا أن القبيلة الذهبية قد ضمت إليها عناصر أخرى غير مغولية مثل البجاناكية والكومان وقبائل تركية أخرى، وبدأت تتعلم معنى الاستقرار وظل باطو وخلفائه من بعده يتحكمون هذه المناطق حوالي قرنين من الزمان. ولقد بدأ إستقلال القبيلة الذهبية في عام ١٢٦٠م أي في العام الذي وقعت فيه معركة عين جالوت وهو العام الذي توفى فيه الخان الأعظم مونكو. وسوف تمر القبيلة الذهبية بمرحلة من الانقسام الداخلي حتى وحدها مرة أخرى الخان أوزبك في عام ١٣١٢م، وهو الذي أعاد إليها هيبتها ومجدها مرة أخرى[٢٩].

لقد كان الأمير جورج الثاني يتولى أمر قيادة قوات مدينة سوزدال ولكنه فشل في مقاومة القوات المغولية ولقى مصرعه في إحدى المعارك،

---

(٢٨) Rambaud, op. cit. p. 132.

(٢٩) Morgan, op. cit., p. 144.

ثم تولى أحد أبنائه قيادة قوات الإمارة ولكنه فشل في مقاومة الغزو المغولي وهزم في معركة أوكا Oka، كما أن الأمير ياروسلاف Yaroslafe أخ الأمير جورج الثاني قد هزم في معركة ليبوتسك Lipotsk، وتوجه بعد ذلك إلى مدينة سوزدال. والحقيقة أن الأمير ياروسلاف (١٢٣٨ - ١٢٤٦م) قد وجد إمارة أخيه في حالة سيئة للغاية، فقد وجد جثث الموتى تملأ المدن والقرى، أما الأحياء فقد فروا إلى الغابات، كما كانت الحرائق التي أشعلتها الحروب قد أتت على الأخضر واليابس. وكان على ياروسلاف إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فبدأ في تجميع فلول قوات الإمارة لإعادة بناء القوات المسلحة(٣٠).

وكان على ياروسلاف أيضاً إن أراد البقاء في إمارته أن يذهب إلى الأمير باطو في عاصمته سراي ليقدم له فروض الولاء والطاعة، وقد أستقبل ياروسلاف في العاصمة بكل ترحاب، وأنعم عليه باطو بلقب أمير الأمراء، وطلب منه التوجه إلى العاصمة قراقورم ليقدم فروض الولاء للخان الأعظم أوكيتاي، وقد ذهب ياروسلاف إلى قراقورم وقدم يمين الولاء والطاعة للخان الأعظم، وبرأ نفسه من الإتهامات التي وجهت إليه، ولكن ياروسلاف مات أثناء عودته إلى بلاده، وقد حمل رفاقه جسده إلى مدينة فلاديمير. وكان لياروسلاف ولدين هما أندرو الذي كان يحكم إمارة سوزدال (١٢٤٦ - ١٢٥٢) والكسندر الذي كان يحكم إمارة نوفجورد(٣١).

وكان الكسندر (١٢٤٦ - ١٢٦٣م) هذا قائداً شجاعاً وذكياً ولقب

---

(٣١) Rambaud, op. cit., pp. 132- 3.

(٣٢) Loc. cit.

ببطل الشمال، لأنه نجح في شبابه في صد جميع محاولات الغزو الخارجي خاصة العناصر الفلندية، وكافة العناصر الاسكندنافية والقوات التي حركها البابا في شكل حرب صليبية لنشر المسيحية على المذهب الكاثوليكي داخل روسيا. وقد أدرك الكسندر الذي عرف باسم الكسندر نيفسكي Nevski أن مقاومة القوات المغولية يعتبر ضرباً من الجنون، وأن ذلك يعني خراب كل روسيا، وكان عليه أن يتصرف بكل حكمة لمواجهة الموقف. كما أدرك أيضاً أن القوات المغولية بوسعها أن تتقدم حتى إمارته نوفجورد وإلى أبعد منها إذا لزم الأمر(٣٢).

وقد بدأ خضوع الكسندر إلي المغول عندما أرسل إليه الخان باطو رسالة يقول فيها، إن الله قد أخضع لي الكثير من الشعوب، وإن كنت تريد أن تحافظ على إمارتك فعليك الحضور إلينا لترى عظمة ومجد المغول. ولم يكن أمام الكسندر إلا تنفيذ أوامر باطو، فاتجه إلى العاصمة سراي ومعه أخوه أندرو، ومنها إلى العاصمة قراقورم في عام ١٢٥٧م ليقدما فروض الولاء والطاعة مثلما فعل ياروسلاف من قبل. وفي العاصمة المغولية أنعم الخان الأعظم كيوك على الكسندر بولاية نوفجورد بالإضافة إلى روسيا الجنوبية حتى مدينة كييف، وأنعم على أخيه أندرو بولاية فلاديمير(٣٣).

وفي عام ١٢٦٠م تغيرت الأوضاع الداخلية لدولة المغول وأصبح بركه بن جوجي خان القبيلة الذهبية مستقلاً عن بقية الدولة المغولية في منغوليا، وفي فارس ، وفي تركستان الشرقية. وكان على الخان بركه أن

---

(٣٢) Mirsky, op. cit., p. 96.

(٣٣) The Chronic of Novgord, op. cit., pp. 94- 5, Rambaud, op. cit., p. 136.

يعيد تنظيم دولته. ومن ضمن هذه التنظيمات إجراء إحصاء في ولاية نوفجورد يتم بموجبه تحديد قيمة الضرائب المطلوبة. وعند هذه المرحلة اعترض البعض ورأى الآخرون أنه يجب الخضوع للمغول ودفع الضرائب باعتبار العناصر المغولية دولة قوية. وكان بازيل بن الكسندر من المعترضين على دفع الضرائب، وبدأ التمرد داخل الولاية ، ومن أحداثه إعادة السفراء المغول . ولم يكن أمام المغول سوى الاستعداد لمعركة عسكرية ضد الكسندر. وعند هذه المرحلة أحس الكسندر أو عليه أن يواجه التمرد أو المغول، فواجه التمرد وقبض على ابنه بازيل وأعدمه وأعدم من ساندوه. ورغم هذا كله فقد كانت الثورة كامنة في شعب ولاية نوفجورد ، فقد تجمع الأهالي في ميدان كنيسة آيا صوفيا وأعلنوا أنهم يفضلون الموت وهم أحرار عن الحياة وهم عبيد. وعند هذه المرحلة أعلن الكسندر أنه سوف يغادر المدينة ومعه قواته، ويتركها لمصيرها في مواجهة المغول. وبذلك تخلى شعب نوفجورد عن الثورة إلى حين[٣٤].

بعد هذه الأحداث استطاع عمال المغول من جامعي الضرائب أن يدخلوا المدينة آمنين يعاونهم أنصار الكسندر في التنقل من منزل إلى آخر لحصر السكان وتدوين ذلك في سجلاتهم، وتكرر ذلك المنظر في المدن الأخرى التابعة لولاية نوفجورد ، ورغم الهدوء الذي ساد المدن الروسية، إلا أنه كان هدوء نسبياً لم يلبث أن انفجر في الوقت المناسب[٣٥].

---

(٣٤) The Chronicle of Novgord, op. cit., pp. 96-7, Rambaud, op. cit, pp. 136 - 7.

(٣٥) The Chronicle of Novgord, op. cit., p. 97-8.

ففي عام ١٢٦٢م ثار سكان مدن فلاديمير، وسوزدال وروستوف Ros-tofe، ضد جامعي الضرائب من المغول، وتمادت مدينة ياروسلاف Yarosalv وقامت بذبح أحد جامعي الضرائب من المغول، وكان راهباً مسيحياً اعتنق الإسلام. وبذلك حل عقاب المغول على المدينة، ولكن الكسندر أنقذ الموقف عندما خاطر بحياته وأسرع إلى مدينة سراي العاصمة المغولية محملاً بالهدايا، وقدم شديد إعتذاره إلى القيادة المغولية عن الحادث وفسر حدوثه إلى التعصب الديني، وليس إلى التمرد على السلطات المغولية. وقد استقبل بركه خان القبيلة الذهبية الأمير الكسندر وتقبل العذر الذي قدمه وأعفاه من دفع الغرامات المطلوبة، وبذلك نجح الكسندر في إنقاذ ولايته من انتقام المغول، واستعد للعودة إلى بلاده(٣٦).

وأثناء وجود الكسندر في رحلة الوفاق هذه، هاجمت العناصر الشمالية أراضي الإمارة، فاتحدت قوات نوفجورد مع قوات سوزدال تحت قيادة ديمتري بن الكسندر في صد القوات المغيرة، ومع عودة الكسندر إلى عاصمته فلاديمير تدهورت صحته ومات في هذا الوقت العصيب الذي تتعرض فيه ولايته للسيطرة المغولية وأخطار العناصر الشمالية(٣٧)، فنعته الكنيسة وأنصاره ومحبيه واعتبر البعض أن الشمس التي كانت تضئ روسيا قد غربت(٣٨).

والحقيقة أن الكسندر إستطاع بسياسته السليمة مع المغول أن يعيد

---

(٣٦) The Chronicle of Novgord, op.cit., p. 98.

(٣٧) Ibid., p. 97- 8.

(٣٨) Rambaud, op. cit., p. 138.

الهدء إلى بلاده، وأن يمنع العناصر الشمالية من إجتياح أراضيه بقواته العسكرية، وبهذه السياسة المرنة نجح الكسندر في الحفاظ على مجد وهيبة ولاية نوفجورد في هذا الوقت العصيب الذي لم تتعرض له من قبل.

بعد أن سيطر المغول على روسيا لم يقوموا بأي تغيير في الأوضاع الداخلية للبلاد بصورة مباشرة، فلم يغيروا الدساتير أو القوانين أو الأعراف التي سادت المناطق الروسية، كما أنهم لم يغيروا حكام الولايات طالما قدموا للمغول فروض الولاء والطاعة. يضاف إلى ذلك أن أصحاب الأراضي ظلوا يمتلكونها لأن المغول كشعب بدوي فضلوا التمركز في السهول الشرقية والجنوبية الواسعة. ولعل ذلك يفسر لنا بقاء العناصر المغولية متماسكة لفترة طويلة قبل أن تذوب مع العناصر الروسية. أما عن العلاقة بين المنتصر وهم المغول والمغلوب وهم الروس فيمكن تلخيصها في النقاط التالية:

أولاً : كان على الأمراء الروس الذهاب إلى العاصمة سراي لتقديم فروض الولاء والطاعة أو يتم استدعاء هؤلاء الأمراء لتلقي الأوامر، يضاف إلى ذلك أنه كان على الأمراء الروس الذهاب إلى الخان الأعظم في قراقورم إذا ما طلب منهم خان القبيلة الذهبية التي تحكم روسيا ذلك، وليس ذلك فحسب بل كان عليهم أن يقدموا الهدايا المناسبة متحملين مخاطر الطريق ذهاباً وإياباً، كما كان على هؤلاء الأمراء إتباع الطقوس التي يقوم بها المغول مثل السجود أمام خيمة الخان قبل دخولها. وكان الأمير لا يتولى أمر إمارته إلا بعد صدور قرار من الخان بذلك[٣٩].

---

(٣٩) Rambaud, op. cit., pp. 139- 141.

ثانياً: كان على الروس تقديم ما يسمى بضريبة الرؤوس، وهي ضريبه يدفعها كل فرد، وكانت تمثل عبئاً على الفقراء والأغنياء أيضاً. وكانت الضريبة تسدد نقداً أو عيناً مثل الفراء، ومن يعجز عند سدادها ينضم إلى طائفة العبيد. وكان لتعسف جامعي هذه الضريبة دوراً هاماً في قيام العديد من الثورات مثلما حدث عام ١٢٦٢م كما أوضحنا وكما حدث عام ١٢٨٤م في مدينة كورسك Koursk وفي عام ١٣١٨ في مدينة كولومنا، عام ١٣٢٧ في مدينة تفر، وفي الحادثة الأخيرة ذبح الأهالي أحد جامعي الضرائب فتعرضوا للانتقام الشديد(٤٠).

ثالثاً: وكان هناك أيضاً ضريبة تعرف باسم ضريبة الدم وهي الخدمة العسكرية مع القوات المغولية، وكان على الأمراء الروس تقديم جماعات من الجنود الأشداء وتكون مهمتهم السير أمام الجيش المغولي لتلقي الصدمة الأولى، ومن ذلك أنه في عام ١٢٧٦م قدم الأمراء الروس قوات كبيرة إلى خان القبيلة الذهبية منكو تيمور (١٢٦٧ - ١٢٨٠م) لمحاربة شعوب القوقاز، وكان من عادة المغول تسليم هؤلاء الأمراء نصيبهم من الغنائم مثل ما حدث في مدينة ديدياكوف Dediakof(٤١).

رابعاً: كان الأمراء الروس مكلفين بالقبض على الثائرين والخارجين على القانون إلى السلطات المغولية، ومن ذلك ما حدث مع المغامر لاخاناس Lachanas، وهو راعي للخنازير قام بالثورة عند منطقة الدانوب(٤٢).

---

(٤٠) Rambaud, op. cit., pp. 140-1.

(٤١) Ibid., p. 141, Martin, op. cit., pp. 140-1.

(٤٢) Rambaud., pp. 140-1.

خامساً : اتبع المغول سياسة فرق تسد ، ومن ذلك أنه عام ١٢٣٧م قام أمراء موسكو وسوزدال بحملة عسكرية ضد مدينة نفر بناء على تعليمات صادرة من خان القبيلة الذهبية. وعندما تصارع أولج مع سفياستوسلاف على حكم مدينة كورسك ساند الخان الأمير أولج ودفعه لقتل غريمه، ولعل هناك بعض الصواب من الوجهة السياسية لأن سيفاتوسلاف قد أثار غضب الخان بسبب تصرفاته غير الحكيمة. إتبع المغول سياسة فرق تسد. و في عام ١٢٨١م تنازع أندرو بن السكندر مع أخيه ديمتري، وساند المغول أندرو وساعدوه على نهب مدينة فلاديمير، وسوزدال، وموسكو وغيرهما، ولم يفرق هذا العمل بين المنازل أو الكنائس أو الأديرة(٤٣).

سادساً : لم يكن من حق الأمراء الروس إعلان الحرب على بعضهم أو خارج روسيا إلا بعد موافقة الخان، ومن ذلك إن أمير نوفجورد حصل على موافقة الخان لإعلان الحرب على ريفل مدينة Revel. وعندما اختلف بعض الأمراء في عام ١٣٠٣م، وصل مرسوم من الخان يطالبهم بوضع حد لخلافاتهم وأن يكتفي كل منهم بالأقطاعية المخصصة له(٤٤).

سابعاً : عندما كان الأمراء الروس يستقبلون سفراء الخان كان عليهم السجود أمامهم، وأن يفرشوا لهم السجاجيد الفاخرة، وأن يقدموا لهم الكؤوس المملوءة بقطع الذهب، وعليهم الاستماع بكل اهتمام إلى أوامر الخان وتنفيذها بكل دقة(٤٥).

---

(٤٣) Rambaud, op. cit., pp. 140-1.

(٤٤) Ibid. 140-2.

(٤٥) Ibid., p. 142.

ثامناً: لقد قدر المغول الروس خاصة الشجعان منهم، ولذلك نرى قيام مصاهرات بين المغول والأمراء الروس، ومن ذلك ما حدث عام ١٢٧٢م تزوج الأمير الروسي جليب Glebe أمير بيلوزرسك Bielozersk من إحدى الأميرات المغوليات، وعندما تزوج فيودور Feodor أمير ريازان من عائلة القائد المغولي نوجاي، وقد خصص للأمير فيودور قصراً في مدينة سراي. كما تزوج في عام ١٣١٨م كبير الأمراء جورج من أخت خان القبيلة الذهبية أوزبك ١٣١٢ - ١٣٤١م، وكان عليها أن تعتنق المسيحية وأصبح أسمها أجات Agathe، ولعل ذلك يوضح لنا موقف المغول من الديانات الأخرى[٤٦].

وتفاوتت درجة التأثير والتأثر بين المغول والروس، فواقع الحال أنه مع نهاية القرن الرابع عشر لم يعد المغول هم الرعاه الأشداء، فقد تأثر المغول بسكان المدن الأكثر تحضراً منهم، ولذلك شيد المغول بعض المدن مثل العاصمة سراي، وقازان، واسترخان. ومع إقامة هذه المدن عرف المغول حياة الدعة والرفاهية، وأقاموا الحفلات للشعراء الذين كانوا يمدحونهم ويفاخرون بفروسيتهم وشهامتهم. ولم يكن الدين حائلاً في وجه المغول فقد تعاملوا مع جميع الأديان بسماحة متوازنة[٤٧].

وقد اختلف المؤرخون حول درجة تأثير المغول على الروس، فيرى البعض أن الروس اكتسبوا بعض العادات من المغول ظل أثرها حتى العصور الحديثة. بينما يرى أخرون أن الروس تأثروا بعناصر البجناكية أكثر من

---

(٤٦) Rambaud, op. cit., p. 142.

(٤٧) Ibid., p. 143.

تأثرهم بالعناصر المغولية. وفي إتجاه آخر يرى البعض أن المغول الروس كانوا قوة عسكرية واحدة إختلفت عن التي كانت سائدة في غرب أوربا. وقد أصبح هذا النظام نموذجاً حتى عدة قرون. كما يلاحظ أن الزي العسكري للأمراء الروس في القرن الخامس عشر كان يتمثل في المعطف الطويل والقلنسوات العالية، مع وضع السيوف أو الخناجر في أحزمتهم(٤٨).

ويرى بعض المؤرخين أن بعض العادات التي يعتقد أنها من أثر الحكم المغولي لروسيا ربما تكون من أصل سلافي أو بيزنطي، ويتجلى ذلك في النزعة الاستبدادية التي ترجع إلى النمو الطبيعي للأفكار الاستبدادية القادمة من الامبراطورية البيزنطية، فقد كان الامبراطور البيزنطي هو النموذج للحكم المطلق(٤٩).

وقد إستخدم الروس عقوبة الموت أو التعذيب الجسدي، ويرى البعض إن ذلك يرجع إلى التأثر بالقوانين البيزنطية التي تسللت تدريجياً إلى روسيا، ومن هذه القوانين الإعدام وبتر أحد أعضاء الجسم والجلد والحرق. أما عادة السجود أمام الحاكم فهي عادات شرقية ترجع إلى أصول بيزنطية(٥٠).

وإذا كان الروس قد ظلوا لفترة طويلة بالملابس الطويلة والطرز الشرقية فعلينا أن نتذكر أن الفرنسيين والايطاليين ظلوا حتى القرن الخامس عشر يرتدون الأزياء نفسها، ولكن التغيير الذي حدث في أوربا لم يحدث في

---

(٤٨) Rambaut, op. cit., p. 143.

(٤٩) Ibid, p. 143-4.

(٥٠) Loc. cit.

روسيا وظلت على حالها بسبب عزلتها عن أوربا.

وعن إمتزاج الدماء المغولية بالدماء الروسية فيرى البعض أنه كان ضعيفاً، وأن التقارب لم يحدث إلا بين الطبقة الارستقراطية في كلا الجانبين، وإن كلا الشعبين قد ظل غريباً عن الآخر. ولعل هذا الرأي يكون مقبولاً في أوائل الحكم المغولي لروسيا، أما مع مرور الزمن فقد إنصهر الجميع في بوتقة واحدة وضمت الأمة الروسية جميع العناصر التي عاشت على أرضها بغض النظر عن الأديان التي اعتنقتها تلك العناصر، فقد نما الإسلام خاصة في المناطق الجنوبية كما نمت المسيحية على المذهب الارثوذكسي في الشمال وهو مذهب الامبراطورية البيزنطية، ومنح الخانات الامتيازات العديدة للكنائس والأديرة والمساجد على السواء[٥١].

٢ - إيفان الأول وخلفاؤه :

إن الأمير ايفان الأول Ivan I المعروف باسم بكاليتا أو صندوق الأموال (Money page) الذى حكم موسكو (١٣٢٥ الى ١٣٤١م) زاد من نفوذه بإتخاذ خطوتين هامتين : الأولى أنه أغرى المطران بنقل مقر الكنيسة إلى موسكو ، وبذلك كسب لمدينته هيبة ونفوذاً باعتبارها المركز الروحى لروسيا ، والثانية انه برشوة زعماء المغول ، وإستخدام القوة ضد جيرانه حصل على تأييد بمنحه لقب الأمير الكبير لإمارة فلاديمير وكل الروسيا ، وإحتفظ الأميران اللذان خلفاه وهما سيمون Simeon وإيفان الثانى (الأحمر) بمكاسبة .وجاء الأمير الأعظم ديمترى Dmitri بعدهم وعزز مركز موسكو أكثر عندما هزم المغول فى منطقة نهر الدون الأعلى عام

---

(٥١) Rambaut., op.cit., p. 144.

١٣٨٠ م ، ومع ان المغول فاقوا من الهزيمة ، فإن جهده ونجاحه الأول كانا سبباً فى إيقاظ المشاعر القومية للروس حول حكام موسكو كرموز لتحدى المعتدين الأجانب . وانهمك خلفاؤه باسيل الأول وباسيل الثانى فى المحافظة على ممتلكاتهما ضد تدخل الليتوانيين والمغول ومحاولات المتنافسين على العرش ، ومع ذلك استطاع باسيل الأول أن يضم أراضى قليله إلى إمارة موسكو ، كما عزز باسيل الثانى إستقلال مطرانية موسكو بمعارضة الترتيبات التى إتخذت بمجلس فلورنسا عام ١٤٣٨ م لتوحيد الكنيسة الشرقية والغربية . وفى منتصف القرن الرابع عشر قطع أمراء موسكو شوطاً بعيداً فى إرساء زعامتهم بين الروس وأخذت قوتهم تكتسب مزيداً من الاحترام والتقدير[٥٢] .

استقلال روسيا عن الحكم المغولى

خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر بلغت إمارة موسكوفى القوية مرتبه الامبراطورية عن طريق التقدم المتسم بالتوسع الجغرافى السريع ، وإقامة حكومة أوتوقراطية الشكل واستعباد السكان الزراعيين . تلك التطورات المرتبطه ببعضها يمكن أن يرجع الفضل فيها الى ثلاثة حكام أقوياء من أسرة روريك Rurik ، هم إيفان الثالث (العظيم) وباسيل الثالث وإيفان الرابع (إيفان الرهيب) [٥٣].

١ - المرحلة الأولي :

فى بداية حكم ايفان الثالث(١٤٦٢ - ١٥٠٥ م) ، كانت البلاد

---

(٥٢) Harcave, op. cit., pp. 22- 3.

(٥٣) Martin, op. cit., pp.245- 6.

الروسية مقسمة الى اجزاء عديدة ، بعضها تحت الحكم الوطنى والبعض الآخر تحت الحكم الأجنبى . وكانت موسكو تسيطر على الجزء الذى أصبح فيما بعد قلب روسيا الكبرى .وحولها كانت تقع الامارات الأخرى تحت حكم أمراء يتمتعون بالاستقلال على نحو ما . أما المناطق الأخرى التى كان يسكنها الروس - روسيا الغربية وروسيا الصغرى - فقد كانت خاضعة للبولنديين والليتوانيين . ولكن إيفان الثالث كان ينظر الى نفسه ليس كأمير لموسكو وإنما كوريث لروسيا ، لأن إمارته أصبحت تملك فى ذلك الوقت الرموز القومية لروسيا . وفى عام ١٤٨٠ رفض الحكم المغولى وامتنع عن دفع الجزية، وأطلق على نفسه لقب ملك كل الروسيا ، وأكد طموحه بتوحيد كل الأراضى التى كانت تخضع لروسيا الكييفية فى ذروة قوتها ، وذلك بوضعها تحت السيطرة الموسكوفية. وقد عرف هذا المشروع باسم « تجميع الاراضى الروسية معاً » ولتحقيق ذلك الطموح إشترك هو وحلفاؤه من الأمراء الروس فى حروب طويلة مع بولندا التى كانت تضم ليتوانيا وتخضعان لحاكم واحد فى معظم الوقت منذ عام ١٣٨٦ م ، وقد أعلن إيفان الثالث أنه لن تكون هناك بين إمارته وبولندا أى سلام طالما ظلت أجزاء من ممتلكاته تحت سيطرة البولنديين ، وقد حافظ خلفاؤه على هذا المبدأ واتخذوا نفس السياسة المتشددة إزاء ليتوانيا ، وكان نتيجة ذلك أن ظلت موسكو فى حرب مع ذلك القطر طوال أربعين عام متقطعة فى الفترة الواقعة مابين ١٤٩٢ - ١٥٨٢م [٥٤].

والقول بأن تلك الجهود لتجميع الاراضى الروسية كانت إنعكاساً لروح قومية بالمعنى المفهوم فى وقتنا الحالى ينطوى على أخطاء ، فقد كانت

---

(٥٤) Harcave, op. cit., p.p. 24- 5.

إنعكاساً للطموحات الشخصية لإيفان الثالث وخلفائه الذين كانوا ينظرون الى الدولة الروسية كضيعة خاصة بهم ، واعتقدوا أن لهم الحق فى محاولة إخضاعها لإرادتهم وتوجهاتهم ، ولم يتم إنجاز التجميع بالفعل إلا عام ١٦٤٧ م ، ولكن إيفان والحاكمين اللذين أعقباه وهما باسيل الثالث (١٥٠٥ - ١٥٣٣) وايفان الرابع (١٥٣٣ - ١٥٨٤) استطاعا أن يستعيدا الكثير لتوسيع إمارتهم وجعلها امبراطورية [٥٥].

وكان أحد أهداف الحملة العسكرية - التي اعتبروها صليبية - لإيفان الثالث إمتلاك مدينة نوفجورود التى كانت تعتبر حين ذاك أقوى مركز تجارى فى الأراضى الروسية ، إذا كانت تسيطر على المناطق التى تحيط بها مباشرة فى نصف قطر يبلغ مائة وخمسين ميلاً من المراكز ، وكذلك على طرق واسعة فى شمال روسيا تمتد شرقاً فى جبال الأورال . ومع أن نوفجورود كانت تفوق موسكو إقتصادياً إلا أنها كانت دون موسكو من حيث القوة العسكرية ، وبذلك وجد إيفان الثالث مبرراً للهجوم على نوفجورد ، واستطاع أن يحولها عام ١٤٧١ م إلى إمارة تدفع له الجزية . وبعد سبع سنوات جعلها تستسلم ،وضم أراضيها اليه ورحل المشتبه فيهم من الطبقات العليا إلى داخل مملكته . وكان هذا كسباً كبيراً للإمارة . ورغم هذا لم يكن ايفان فى مرحلة تطمئنه على مستقبله السياسى لوجود نفوذ أجنبى على ممتلكاته الجديدة ، وفى حماسة قام بطرد معظم التجار الأجانب من نوفجورد ، مما عطل وأعاق التجارة الاجنبية عن المدينة فإحتكرت موسكو تجارتها .كما تغلب إيفان على الأمير ميخائيل أمير نفر ، وضم إمارته فى عام ١٤٨٥ م ، وبعد أن ضم نوفجورد ونفر الى

---

(٥٥) Mirsky, op. cit., p. 124.

مملكته بالاضافة الى إمارات أخرى أقل أهمية إستطاع ضمها بدون جهد يذكر . كما بدأ حرباً من أجل استعادة الأراضى الروسية التى كانت تخضع لدولة بولندا- ليتوانيا . لقد استمر فى هذه الحرب بصفه متقطعة منذ عام ١٤٩٢وحتى عام١٥٠٣ ، حين أصبح يسيطر على بعض الأراضى الحدودية فى غرب روسيا وفى روسيا الصغرى[٥٦] .

وقد واصل باسيل الثالث إبن إيفان عمل أبيه ولكن فى نطاق أضيق. وكانت المكاسب الرئسية لإمارة موسكوفى فى النصف الأول من حكمه عندما أنهى استقلال مدينة بسكوف Bskov، وضم أرضها فى عام ١٥١١م[٥٧]. وفى عام ١٥١٤ م على أثر حرب إستمرت عامين ضد بولندا استولى على مدينة سمولنسك التى كانت تسيطر على المداخل الغربية لموسكو ، وفى عام ١٥١٧ ضم مدينة وإقليم ريازان [٥٨].

والحاكم الثالث فى الأسرة وهو إيفان الرابع الذى نجح فى بسط سيطرة حكومة موسكو الى ماوراء الحدود الروسية ، وكان أول من حقق مكاسب أرضية ضد المغول . فلقد إنهارت امبراطورية القبيلة الذهبية فى النصف الأول من القرن السادس عشر وقسمت الى خانيات Khanates وهى وحدات سياسية صغيرة ، وصارت بعضها ، وهى خانيات إسطراخان ، وقازان ، والقرم ، وغرب سيبيريا ، تشكل تهديداً مباشراً لموسكو[٥٩] .

---

(٥٦) Harcave, op. cit., p. 25- 6.

(٥٧) Mirsky, op. cit., p. 124.

(٥٨) Harcave, op. cit., p. 26.

(٥٩) Mirsky, op. cit., p. 124.

ولقد إستمرت هذه الخانيات في حروب حدودية وأخذت تشن الغارات وتقوم بعمليات النهب والخطف ، وعلى سبيل المثال كانت خانية قازان تحتفظ بما يزيد عن ستين ألف أسير روسى فى عام ١٥٥١م . وعجزت الدبلوماسة الروسية أو القوة العسكرية لروسيا عن كبح جماح هذه الإمارات المغولية - ولكن إيفان الرابع أخذ يحاربهم حتى إستطاع أن يستولى على قازان ١٥٥٢م ، وأسطرخان عام ١٥٥٦م وبذلك أخضع حوض نهر الفولجا كله لسيطرة موسكو، وفتح باب السيطرة الروسية لهذه المنطقة . كما أن سقوط قازان فتح الطريق أمام التوسع الروسى فى سيبريا . وفى سنة ١٥٥٥م إضطر خانها الى قبول سيادة موسكو حفاظاً على سلطته وثروته(٦٠) . وكان إخضاع اسطرخان فى العام التالى سبباً فى مد السلطة الروسية الى بحر الخزر وفتح الطريق لإقامة علاقات تجارية ودبلوماسية مع فارس ودول وسط آسيا (٦١).

إن ضم موسكو لمنطقة الفولجا السفلى أدى إلى مشاكل حدودية جديدة ، فقد كان يقع على شرقها إحدى بقايا القبيله الذهبية ، وهى دولة نوجاى Nogay والتى كان مقاتلوها المشاغبون يشكلون تهديداً مستمراً لموسكو ، وفى غربها كان قوزاق الدون Don Cossucks والذين إستمدوا إسمهم من إسم نهر الدون الذى كان يجرى فى بلادهم . وهؤلاء الآخيرون كانوا يشكلون تنظيماً ديمقراطياً مستقلاً عن أهالى الحدود الروس ، ولهم قوه مقاتله تضم عشرة آلاف مقاتل ، ولكنهم وافقوا على إنهاء المقاومة وأن

---

(٦٠) Halperin, op. cit., p. 82.

(٦١) Harcave, op. cit., p. 27.

يصبحوا خلفاء لموسكو ضد مغول القرم لقاء مساعدات من السلاح والدقيق . وكانت مساعدتهم مطلوبة في ذلك المكان لأن خان مغول القرم، والذى كان يعد منذ عام ١٤٧٥ من ولاة الامبراطورية العثمانية كان لايهيمن على شعب جزيرة القرم فقط وإنما على كل ساحل بحرآزوف Azov ، وكان يعتدى باستمرار على الأراضى المجاورة . ولكن إيفان الرابع تحول عن هجومه المخطط ضد مغول القرم الى ما إعتبره أكبر وأهم ، وهو التقدم إلى البلطيق. لقد كان الحصول على موطأ قدم على بحر البلطيق كفيل بإتخاذ منفذ إلى سوق أوربا الغربية ، حيث تستطيع موسكو أن تشترى ماتحتاج اليه من أسلحة ومستلزمات . وفى ذلك الوقت كانت الطرق على البلطيق مسدودة بقوى معادية - بولندا وليتوانيا وليفونيا Livonia ، ولم يستطع الروس أن يصلوا الى أسواقهم السابقة فى أوربا الا بالطريق البحرى الدائرى من أرشانجل Arshangel . ذلك الطريق الذى رسمه الإنجليز عام ١٥٥٣ م ، كان بالغ الطول ولم يكن صالحاً للملاحة سوى فى آشهر الصيف ، ومع ذلك كانت هناك موانى على ساحل البلطيق وخليج فنلندا ، ومن أهمها ميناء ريجا Riga عند مصب نهر دفينا Dvina الغربى ، والذى قال إيفان الرابع عن ضفافه أنها تستحق وزنها فضه وأن مياهه تستحق وزنها ذهباً .ولم يكن ميناء ريجا يبعد سوى مائة وخمسة وعشرين ميلا من حدود أراضى موسكو . ولكن كانت تقع بينهما الطائفة الليفونية للفرسان الجرمان وهى منظمة رهبانية عسكرية تسيطر على كورلاند Courland وليتوانياا واستونيا Estonia[٦٢] .

وفى عام ١٥٥٨ م بدأ ايفان الرابع هجومه على تلك الطائفة الليفونية

---

(٦٢) Harcave, op. cit., 27.

بادئا بذلك صراعاً إستمر متقطعاً لمدة أربعة وعشرين عاماً وسجل فى التاريخ باسم الحرب الليفونية[٦٣] - وقد قامت الطائفة بحل نفسها وأصبح رئيسها والياً لبولندا بإسم دوق كورلاند ، وأصبح تابعاً لبولندا ، واتحدت لينونيا مع بولندا وليتوانيا وإستونيا ووضعت نفسها تحت حماية السويد. وتولت بولندا ولبتوانيا الدفاع ضد إيفان وإنضمت اليها فيما بعد السويد واستمرت الحرب بنجاح متباين عام ١٥٧١ ، قد إنتهز مغول القرم فرصة انشغال ايفان وأغاروا على موسكو ، فإستدار إيفان للدفاع عن المدينة وطرد المغول إلى مسافة إعتبرها مأمونه مؤقتاً ، ثم عاد وركز إهتمامه على الحرب الليفونية والتى استمرت عشرة سنوات أخرى .
وأخيراً إتفقا الطرفان اللذان أرهقهما الحرب دون تحقيق إنتصاراً حاسم - إتفقا فى عام ١٥٨٢ م على وقف الأعمال العدائية بشروط كفلت إبقاء ساحل البلطيق فى ايدى ليتوانيا وبولندا والسويد . ومع أن قوة موسكو قد أثبتت قصوراً فى تحقيق كل أحلام إيفان فى توسيع حدوده ،إلا أن مكاسبه كانت كفيله بتكوين إمبراطورية [٦٤].

٢ - إقامة الحكومة المستبدة

وباتحاد روسيا وتوسعها ، أخذت مكانة حكامها تتحول الى مكانه ملك أوتوقراطى شأن كل حكام الاقطار الاوربية الآخرى التى خضعت لعملية التوحيد فى ذلك العصر ، وبدأ التحول فى نفس الوقت التى اتسعت فيه سيطرة موسكو على الإمارات المجاورة ، وقد سمح للأمراء

(٦٣) Mirsky, op. cit., p. 124.

(٦٤) Harcave, op. cit., p.p. 27-8.

والنبلاء (الذين عرفوا باسم البويارات Boyars) (٦٥) الذين كانوا يحكمون الإمارات التى ضمت اليهم بالاحتفاظ بضياعهم على شرط أن يقوموا بالخدمة العسكرية والادارية ، ويزودوا موسكو بالجند ، ولكن هذا النظام ثبت أنه غير فعال ، لأن معظم الأمراء الذين تم إخضاعهم لم تطاوعهم أنفسهم على الاعتراف بسيادة أمراء موسكو عليهم . كما أن معظم البويارات ماكانوا ليتخلوا طواعية عن الحق السياسى الذى إكتسبوه فى السنوات السابقة ، أى الحق فى إسداء المشورة لإمرائهم . وفى كثير من الإمارات كان البويارات متمثلين فى تنظيم المجلس الخاص (دوما النبلاء Boyars Duma) الذى كان يقدم المشورة للأمراء ، وفى بعض الأحيان يصدر الأوامر لهؤلاء الأمراء ، وعندما خضع أمراء ونبلاء الأمارات الخارجية لسيطرة موسكو ، أدمجوا في المجلس الخاص لموسكو ، وكانو يأملون أن يستطيعوا بذلك أن يتمكنوا من المشاركة فى سلطة موسكو ، ولكنهم سرعان ماتبينوا أن فرص تحقيق أملهم أصبحت ضعيفة ، ومن ثم لجأوا الى المكائد والتآمر حيث أخذوا يتآمرون فيما بينهم أو مع أعداء موسكو لإضعاف سلطة الأمير الحاكم أو التخلص منها(٦٦) .

ولكن الأمراء الذين حكموا موسكو لم يستهينوا بتلك الأعمال الهدامة، ففى أثناء حكم إيفان الثالث وباسيل الثالث وايفان الرابع ضعفت سلطة النبلاء والأمراء بدرجة ملموسة ، عن طريق مباشر بتقليص حقوقهم ومصادرة ممتلكاتهم فى بعض الاحيان ، وبطريق غير مباشر بخلق طبقة

---

(٦٥) لمزيد من التفاصيل عن ذلك راجع:

Mirsky, op. cit., pp. 102- 3.

(٦٦) Harcave, op. cit., p. 28.

إدارية عسكرية جديدة تعرف باسم نبلاء الخدمة . وقد بدأ هذه الأجراءات إيفان الثالث وطورها باسيل الثالث الذى قام بابعاد عدد كبير من البويارات والامراء الذين أدينوا بالتآمر ، ولكن ايفان الرابع هو الذى حقق مكاسب حاسمة على حساب النبلاء القدامى (٦٧).

لقد كان ايفان الرابع يخاف ويرتاب فى الأسر الأرستقراطية نتيجة مالمسه فى طفولته من مؤمرات البويارات ، وكانت الطريقة التى إتبعها معهم تتسم بالوحشية مما جعله أهلاً للقب الذى عرف به وهو " ايفان الرهيب » . ولم يهدأ أو يسترح حتى تخلص من التهديد الذى تشكله قوتهم ، فقد كون طبقة جديدة من النبلاء من الموظفين ، وهذه الطبقة كانت تختلف عن القديمة من حيث الأصل والمكانه والحقوق . وبينما كانت البويارات والأمراء يتمتعون بحق وراثى فى أراضيهم ومكانة متميزة وإمتيازاتهم ، فإن النبلاء الجدد كانو يستمدون مكانتهم وإمتيازاتهم وإستخدام الأرض كشرط للخدمة ، وكانوا يحتفظون بها بشرط القيام بواجباتهم على خير وجه ، وكان عدد قليل من هؤلاء الجدد مختارين من زمرة قدامى النبلاء ، ولكن معظمهم كانوا يرقون من المراتب الصغرى أو يختارون من العسكريين الأجانب (٦٨).

وقد قام إيفان بإضعاف النفوذ السياسى لباقى الأمراء والبوريارات الى حد كبير بإنشاء جهاز إستشارى ثان وهو جميعة الأرض (Zemsky

(٦٧) Mirsky, op. cit., p. 150.

(٦٨) Harcave, op. cit., p. 30.

suber) لموازنة تأثير المجلس الخاص [٦٩]. وقد دعا الى الجمعية الجديدة ممثلى الأمراء والبويارات وكبار موظفى الحكومة ورجال الدين والتجار ، ولكنه لم يعط لهؤلاء آيه سلطة جماعية . وكانت جمعية الأرض تجمع مرة واحدة وقتما يريد هو ولمناقشة ماكان يريدهو أن يناقش . وكان من اختصاصها إن تسدى المشورة والنصيحة ، إذا كانت فى عبارات مهذبة ولاتتسم بالهجوم ، ولكنها ماكانت تستطيع ان تقرر شيئاً . وقد أدى هذا الى تقليل أهمية المجلس الخاص وتزويد الحاكم بمسانده شعبية وهمية لحكمه ، ونتيجة لأعماله المباشرة ومناوراته المحسوبة إستطاع إيفان الرابع إن يورث خلفائه عرشاً قوياً مدعوماً بطبقة من النبلاء ضعيفة سياسياً ، وليس عرشاً ضعيفاً كعرش بولندا يعتمد على أرستقراطية قوية من نبلاء الأرض [٧٠] .

وبينما كان أمراء موسكو الطموحين يوسعون سلطانهم إلا أنهم فى ذات الوقت كانوا يضيفون على أنفسهم خصائص إمبراطورية معينة ، كانت فى ذلك الوقت من السمات الخاصة لأباطرة بيزنطة. ولقد سهل من ذلك الأحداث الدينية والسياسية التى وقعت فى الإمبراطورية البيزنطية، عندما لجأت الامبراطورية تحت وطأة هجمات الاتراك الى أوربا الغربية تطلب العون ، ولتقوية طلبها وافقت الامبراطورية فى عام ١٤٣٩ م على توحيد الكنيستين الشرقية الأرثوذكسية الكاثوليكية[٧١] ، ومن هذا

---

(٦٩) Mirsky, op. cit., p. 140.

(٧٠) Harcave, op. cit., p. 30.

(٧١) Martin, op. cit., p. 255.

الضعف والوهن إستفاد الحكام الروس . ومع أن فكرة التوحيد بين الكنيستين لم يترتب عليها تلقى أى مساعدة هامة بالنسبة للقسطنطينية أو وحدة الكنيسة ، الا أنه أقنع رئاسة الكنيسة الارثوذكية فى الروسيا أن القسطنطينية قد سقطت أدبياً . ولم يتطلب جهداً يذكر إثبات أن الروسيا كانت القلعة الوحيدة الصامدة للأرثوذكسية وأن حكام روسيا يجب أن يرثوا أباطرة القسطنطينية حماة العقيدة الأرثوذكسية . وعلى حد تعبير أحد رجال الدين فى أول القرن السادس عشر ، إن موسكو هى وريثة أعظم عواصم العالم . وهي روما القديمة، وروما الثانية أى القسطنطينية ، وأن موسكو هى روما الثالثة[٧٢] .

كان سقوط القسطنطينية فى ايدى الاتراك عام ١٤٥٣ م علامة على نهاية الامبراطورية البيزنطية ، وأعطت فرصة جديدة لإيفان الثالث بادر بإنتهازها ، فعندما تزوج من صوفيا ابنه شقيق آخر أباطرة بيزنطة عام ١٤٧٢ م ، أعلن حقه فى كثير من صفات ورموز الامبراطورية . وفى الحال أطلق على نفسة لقب Tsar - Autocrat أى القيصر السيد المختار من الرب « وملك كل الروسيا » كما اتخذ لنفسة شعار الصقر ذى الرأسين الذى كان يستخدم فى اختام بيزنطة ، وبعد هذا أصبح امراء موسكو الكبار يعترف بهم قياصرة ، ولو أن إيفان الرابع أول من توج رسمياً بهذا اللقب عام ١٥٤٧ م[٧٣].

---

(٧٢) Harcave, op. cit., p. 30.

(٧٣) Mirsky, op. cit., p. 137.

وكإضافة نهائية لأسس النظرية القيصرية حاول إيفان الرابع جعل الكنيسة الأرثوذكسية الروسية تقوم كبطريكية مستقلة مقرها موسكو ، ولم يتم هذا أثناء حكمه ،وإنما فى عام ١٥٨٩ وذلك بناء على قرار من بطريك القسطنطينية - وافق عليه فيما بعد كل البطاركة . وعندما إكتملت الصورة الروسية للبابوية القيصرية ، لقى القياصرة بعد ذلك مساندة رسمية للإفتراضات التى كانو يتصرفون على أساسها لسنوات طويلة ، وانهم سياسياً ظل الله فى أرضه فيتولون السلطة بمشيئة الرب ويعملون حراساً للعقيدة الحقة (٧٤).

٣ - نشأة رقيق الأرض

إن قيام حكم استبدادى فى روسيا لم يؤثر فقط على الطبقات العليا وإنما أيضاً على الطبقات الدنيا ، وهم الفلاحين ، وكان هؤلاء يمثلون الطبقة الغالبة ، وكان عملهم ركيزة إقتصاد البلاد ، وكان يقوم فى ذلك الحين على صورة بسيطة من الزراعة . وفى بداية القرن الخامس عشر ، كان معظمهم أحراراً يفلحون قطعاً من الأرض يخصصها لهم الملاك ، سواء الكنيسة أو الأمراء أو البويارات لفترات محددة تبلغ حوالى ثلاث الى خمس سنوات ، وأحياناً كان الملاك يقبلون العمل مقابل إستخدام الأرض أو البذور أو الأدوات التى تعار للفلاحين ، ولكن المقابل بصفة عامة كان فى صورة مقابل عينى يصل الى خمس المحصولات . وحتى منتصف القرن

---

(٧٤) Harcave, op. cit., p. 31.

السادس عشر كان الفلاحون أحراراً فى الانتقال من ضيعة إلى اخرى بعد موسم المحصول مالم يكونوا مدينين . وبعد هذا أخذت إلتزاماتهم المتعاقبة المحدودة تتحول بالتدريج الى التزامات لايمكن الفكاك منها تربطهم وتربط إطفالهم بالأرض كرقيق للأرض Serfdom . وكانت أسباب التغيير متعددة ، ومعظمها ترتبط بحقيقه أن طبقة ملاك الأراضى تغيرت، وأن معظم الأمراء والبويارات قد حل محلهم طبقة نبلاء الخدمة والموظفين (٧٥).

وفى معظم الأحوال كانت الضياع التى يخصصها القياصرة لنبلاء الخدمة بالوظيفة شاسعة جداً فى زراعة مكثفة وكافية لتلبية حاجاتهم. ولما كان هناك نقص فى الأيدى العاملة المحلية لهجرة الفلاحين وإستقرارهم فى أراضى جديدة ، بدأ الملاك فى التنافس المحموم على العمال وغالباً ماكانوا يغرونهم بترك الأراضى التى يعملون فيها بصرف النظر عن التزاماتهم للغير واعتماداً على الخدمات العسكرية والادارية للنبلاء . ورغبة فى أن يصبحوا مكتفين ذاتياً على الأراضى التى منحت لهم ، بدأ ايفان الرابع فى اتخاذ اجراءات تصحيح الموقف ،لذلك فرض حظراً قانونياً على حركة الفلاحين أثناء بعض السنوات الحرجة من الوجهة الاقتصادية ، وأعطى أصحاب وملاك الأراضى الحق فى البحث عن الفلاحين الذين يغادرون الأرض دون الوفاء بالتزاماتهم واعادتهم مرة أخرى (٧٦).

---

(٧٥) Martin, op. cit., pp. 296- 7.

(٧٦) Harcave, op. cit., p. 31.

وبخلاف مساعدة النبلاء كان لدية سببا آخر لإتخاذ تلك الإجراءات، لقد كان يفرض الضرائب على الفلاحين لمواجهة الإحتياجات المالية للدولة ، ووضع الفلاحين فى أماكن محددة لا يبرحونها حتى يضمن الحصول على الضرائب . وقد أضاف خلفاء إيفان قيوداً أخرى ، وفى النهاية حددوا أماكن معظم الفلاحين بصفة دائمة فى مناطق محددة ، والقليلون منهم ظلوا أحراراً ومعهم الذين اختاروا أن يعيشوا فى المناطق الفقيرة والقليلة السكان من الإمبراطورية . وهكذا ،فى الوقت الذى كان نظام رقيق الأرض يتراجع فى غرب أوربا ، كان هذا النظام يتوطد ويرسخ فى الروسيا ، وأصبح جزء من التقدم الكاسح للحكم الأتوقراطى . وفى الوقت نفسه كانت الطبقات العليا المستقلة نسبياً ، قد أخذت تضعف وأخذت طبقة جديدة خادمة للدولة فى الظهور . وأخيراً إرتبطت الطبقة الدنيا بالأرض ، التى أصبحت الدولة تمتلك معظمها[٧٧] .

٤- الأزمة القيصرية

كان الحكام الذين جاءوا مباشرة بعد إيفان الرابع عاجزين عن أن يحتفظوا بإرثهم سليماً لأنهم لم يكونوا على درجة كافية من القوة لتوطيد الأمن فى امبراطورية مترابطة بفعل القوة . فبعد وفاة إيفان انتقل التاج الى ابنه فيودور الأول Feodor I (١٥٨٤ - ١٥٩٨) [٧٨] وكان رجلا ضعيفا سمح عن طواعية لصهرة وشقيق زوجته بوريس جودونوف Boris godunov بأن يصرف شئون الدولة بدلاً منه[٧٩] ، وكان جودونوف

(٧٧) Martin, op. cit., p. 297.

(٧٨) Ibid., p. 336

(٧٩) Mirsky, op. cit., p. 151.

رجلاً قديراً ولكنه عجز عن تهدئة القلق الذي كان يزداد داخل البلاد نتيجة لإقامة الحكم القيصرى وإرهاب البويارات ، وإستعباد واسترقاق الفلاحين، وفرض أعباء اقتصادية للانفاق على الحروب التى تدخلها الامبراطورية المتوسعة . ولم يمض وقت طويل حتى أصبح هو نفسه موضع المؤامرات والمكايد التى قادها البويارات المتضررون .وعندما توفى ديمترى الشقيق الوحيد الباقى لفيودور عام ١٥٩١ م انتشرت شائعة رددها البعض وصدقها الكثيرون بأن جودونوف قد أمر بقتله حتى لايخلفة فيودور على العرش ، وسارت المملكة دون أيه متاعب خطيرة حتى وفاة فيودور فى يناير عام ١٥٩٨م ، فتطورت الأمور بعد ذلك إلى أزمة، خاصة أن فيودور لم يعقب أى ذكر فانتهت أسرة بوريك .وثارت مسألة الخلافة على العرش. وكان بوريس جودونوف لايزال الحاكم الفعلى والواقعى ولكنه لم يبادر بتتويج نفسه، وبدلاً من ذلك أعادجمعية الأرض (التى أهملت منذ أيام إيفان الرابع) و حرص على اختيار أعضائها من أنصاره، وأعلن إنه سيقبل التاج فقط إذا قدم اليه من تلك الجمعية . وفى فبراير طلبت منه الجمعية أن يصبح قيصراً لروسيا ، وعلى الرغم من إختياره وأن البويارات كانوا لايزالون يتآمرون ضده علانية ، فقد بدأ القيصر بوريس حكمه بسنوات ثلاثة خالية نسبيا من أية متاعب ، ولكن فى سنه ١٦٠١م ، مع بدء ثلاث سنوات من المجاعة ، بدأت القلاقل العامة تظهر من جديد [٨٠] .

---

(٨٠) Harcave, op. cit., pp. 32- 3.

٥ - زمن القلاقل

وفى عـام ١٦٠٤ بعـد ثلاث سنوات من المجاعـة والكوارث المتـزايدة أصبح البويارات المتضـررون ،والفلاحون اليائسون فى حالة نفسية خطيرة ، وبدأ بويارات موسكو العمل ضد القيصر بوريس بمناصرة مطالب بالعرش هو أحد البويارات المغمورين الذى إدعى بأن ديمترى ابن إيفان لم يمت فى عـام ١٥٩١ م ، وأنه هو نفسـه ديمترى الوريث الشرعى للعـرش ، وبادر ملك بولندا الذى تاقت نفسـه الى الصيـد فى ميـاه روسيـا العكرة بالاعتراف بديمترى الزائف . وساعد فى إعداد جيش من البولنديين والروس الساخطين لمساعدة المدعى للحصول على العرش . وعندما سار هذا الجيش الى الروسيـا دخل فى سلسلة من الحروب الأهليـة إستـمرت زهاء تسع سنوات ، وهذه الفترة تسمى بحق فترة القلاقل [٨١].

وكـانت قـوات القيـصر أقـوى بكثـير من ذلك المدعى وقـضت على الهجمات الأولى . ولكن موت بوريس سنة ١٦٠٥ م قلب الاوضاع داخل روسيا ،فقد أعلن ابنه فيودور المعروف بالثانى نفسه قيصراً على روسيا ، ولكنه لم يحصل على تأييد كل الجماعات الساخطة . فقام بالتآمر ضده مجموعة من البويارات الذين لم يعجبهم إنحيازه للبولنديين ، وفى عام ١٦٠٦ قتلوه وولوا مكانه أحدهم وهو باسيل شـويسكى Basil Shuisry (١٦٠٧ - ١٦١٠م) وخـلال حكمـه الذى إسـتـمـر أربع سنوات بذل البويارات جهداً بائساً لإسترداد الوضع الاقتصادى والسياسى الذى فقدوه فى القرن والنصف المنصرم ، ولكنهم سرعان ماوجدوا أنفسهم أمام حقيقة

---

(٨١) Harcave, op. cit., 33.

أن الجماعات الأخرى تريد تعديلات أيضاً . ففي جنوب روسيا هب الفلاحون القوزاق وبعض ملاك الأراضى الأنقر ضد الطبقة الحاكمة مطالبين بتحسين أحوالهم ، ومع أن الثورة إنتشرت بسرعة إلا انه لم يكن لها أى برنامج منسق أو أى زعماء كبار ، وما إن حلت نهاية عام ١٦٠٧ م حتى كانت المراكز الرئيسية للتمرد قد هدأت[٨٢] .

واجه القيصر باسيل المتاعب من اتجاه أخر فقد ظهر ديمترى أخر زائف ينتمى هذه المرة الى الطبقات الدنيا مطالباً بالعرش ، وتقدم ديمترى الثانى، كما أصبح يطلق على نفسه داخل الروسيا ، على رأس قوة جهزتها بولندا وتساندها قوات من القوزاق . ولمواجهة هذا المدعى إستدار القيصر إلى السويد طالباً المساندة العسكرية ، وقد حصل عليها مقابل التنازل عن كاريليا Karelia والتخلى عن المطالب الروسية فى ليفونيا ، وكان الصراع الذى أعقب ذلك متسماً بالخداع من كلا الطرفين . ولقد تبادل البويارات والقادة الروس المواقع فى كلا الجانبين متنقلين من طريق إلى أخر حتى أطلق على الكثيرين منهم (الطيور المتنقلة أو العابرة birds of Passage) ، وهجرت القوات السويدية باسيل وأسقط البولنديون ديمترى الثانى الزائف وبدأوا حملة مستقلة ، وأخيراً وفى عام ١٦١٠ خُلع باسيل من العرش على يد أنصاره ومؤيديه وتقدم البولنديون نحو موسكو[٨٣].

وهنا تفجرت المشاعر القومية على غير إنتظار . وقد استعرت بنداء من

---

(٨٢) Harcave, op. cit., p. 33.

(٨٣) Mirsky, op. cit., p. 151.

البطريرك هرموجن Hermogen ، الذى إستطاع رغم وجوده فى السجن الذى وضعه فيه البولنديون أن يرسل نداءاته داعياً الشعب الى طرد الأجانب وتشكل جيش شعبى ، ولكنه أخفق فى محاولاته الأولى لتحرير موسكو .. ثم ظهر قائدان قديران إستطاعا أن يعطيا الجيش توجيهاً ملهماً وفعالاً أحدهما كوزما منين Kuzma Minin وهو تاجر ، الذى عزز بخطبة وأحاديثه المشجعة وقدرته الإدارية المهارة العسكرية للقائد الثانى النبيل ديمترى بوزهارسكى Dmitri Pozharsky ، وتحت قيادة هذين القائدين تحرك الجيش الشعبى إلى موسكو . وفى أكتوبر عام ١٦١٢ إستطاع أن يحطم مقاومة القوات البولندية وأن يستعيد الروس المدينة (٨٤).

وفى عام ١٦١٣ م قامت جمعية مؤلفة من ممثلى رجال الدين والبويارات ونبلاء الخدمة ، وبعض ممثلى القرى والمدن بإنتخاب ميخائيل رومانوف Michael Romanov (١٦١٣ - ١٦٤٥ م) قيصراً للروس . وكان ينتمى الى البويارات الروس ويمت بصلة القرابة للزوجة الأولى لايفان الرابع ، وبتوليه العرش تبدأ أسرة حاكمة جديدة وهى أسرة رومانوف التى قدرلها أن تحكم الروسيا من ١٦١٣حتى١٩١٧ .

المغول والاقتصاد الروسي:

كان تأثير الغزو المغولى على روسيا كارثة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ روسيا ، لقد استخدم المغول كل أدوات الحصار التى تعلموها من الصينيين

---

(٨٤) Harcave, op. cit., p. 34.

والمسلمين على نطاق واسع داخل الأراضى الروسية، لقد قاموا بقذف المدن ليلا ونهارا بآلاف المنجنيقات. وعندما كانت المدن تسقط فى أيدى المغول فانه يتم ذبح الأهالى وهدم المبانى إذا لزم الأمر، والخلاصة أنهم شنوا حربا مرعبة. لقد سرت الشائعات عن التخريب الوحشى قبل وصول القوات المغولية، وعن عظم آلاتهم العسكرية وما سيلحق بالمواطنين الذين سيقاومون تقدم القوات المغولية. ومن المعروف أن حروب العصور الوسطى كانت قاسية إلى حد كبير، ولكن المغول كانوا أقسى من كل ما عداهم(٨٥).

لقد أثبت علماء الآثار بما وجدوه من جماجم حقيقة الغزو المغولى، كما أن هؤلاء العلماء أوضحوا لنا الأثر الاقتصادى والسكانى لهذا الغزو. وواقع الحال أن روسيا الكيفية كانت تدير الأمور بشكل مناسب قبل هذا الغزو. لقد مارست مدن إمارة كييف التجارة مع الشرق والغرب واشتملت على الاشكال العديدة للنشاط الحرفى الذى مارسه السكان والفلاحون، وكان ذلك كافيا لإعاشة سكان الإمارة. ولكن عمليات الغزو المغولى الذى استمر من ١٢٣٧ - ١٢٤٠م قضى على هذا الاقتصاد، بعد أن خرب العديد من المدن وذبح الكثير من الأهالى، ومن الذين بقوا على قيد الحياة اختار المغول منهم العمال المهرة ونقلوهم إلى جنوب نهر الفولجا حيث شيدوا المدن للمغول الغزاه، أما الباقون فقد بيعوا كرقيق(٨٦).

وقد كان لذلك كله أثره على الحياة فى مدن الإمارات الروسية. لقد اختفى العديد من العمال المهرة تماما واختفت أيضا فنون أشغال المينا من

---

(٨٥) Halperin, op. cit., p. 75.

(٨٦) Martin, op. cit., 149.

الأسواق، كما أحرقت المحاصيل فى الريف، يضاف إلى ذلك عمليات السلب والنهب، وكان لذلك كله أثراً كبيراً على الأحوال الاقتصادية. ورغم أن الروس قد أوقفوا صك عملتهم قبل الغزو الروسى، فقد جاء بعد الغزو المغولى وحدة المائة، ولعل ذلك ما ساعد على نهوض الاقتصاد الروسى مرة أخرى فى مرحلة لاحقة(٨٧).

وخلال الحكم المغولى قامت القوات المغولية بمهاجمة الأماكن التى تتمرد عليهم، وقد كانت هذه الهجمات قاسية، ومن الأماكن التى نالت جانبا كبيرا من هذه الغارات منطقة نهر الدنبير فى اقليم أكرانيا، وكان لذلك أثرا كبيراً على الوضع السكانى فى هذا الاقليم. كما قاست منطقة جاليسيا وفوليانا Volhynia أيضاً خاصة فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر. وفى الأقاليم الزراعية الغنية ومدن منطقة أقاليم فلاديمير وسوزدال وغيرهما فان المغول مارسوا عمليات السلب انتقاما من هذه المناطق التى أظهرت عدم الرضا عن الحكم المغولى(٨٨). وإلى جانب التخريب الذى قام به المغول بطرق مختلفة، كان هناك تخريب فى أماكن أخرى من وقت لآخر. وقامت غزوات أخرى من أجل جلب الرقيق على طول الحدود، ولكنها لم تكن تسير بصفة مستمرة. كما أن الغارات المغولية بمساعدة القوات الروسية ضد بولندا أو هنغاريا، كان لها أثرها على الاقتصاد والوضع السكانى فيما بعد. وكان لكل هذه الأعمال القاسية ذكرى سيئة فى نفوس الروس(٨٩).

---

(٨٧) Halperin, op. cit., p. 76.

(٨٨) Martin, op. cit., pp. 151- 2.

(٨٩) Halperin, op. cit., pp. 76- 7.

لم يخسر المغول كثيرا فى حملاتهم على روسيا عدا بعض الأرواح والمعدات، وقد عوض المغول ذلك بفرضهم ضرائب كبيرة على الروس سببت الكثير فى الخسائر الاقتصادية. لقد فرض المغول الكثير من الضرائب المباشرة وغير المباشرة، نذكر منها الضرائب الخاصة بالبريد، والضرائب الجمركية، وضرائب على المعدات. وكان على الروس أيضاً أن يتحملوا نفقات خاصة بالنظم الادارية، ونفقات جامعى الضرائب ومن معهم أثناء تجوالهم فى المدن والمزارع لجمع الضرائب فى ذهابهم وعودتهم واعاشتهم أيضا، وكذلك نفقات المبعوثين الروس ومن معهم أثناء ذهابهم إلى العاصمة سراى وعند عودتهم[٩٠]. ومما لاشك فيه أن ذلك كان عبئا كبيرا على الاقتصاد الروسى. كما كان على القرى التى تقع فى طريق المبعوثين المغول داخل الأراضى الروسية أن يتحملوا بعض الضرائب، وقد أدى ذلك إلى هجرة السكان من هذه القرى إلى أماكن أخرى. وفيما يتعلق بالأمراء الروس فقد تحملوا الكثير من النفقات أثناء ذهابهم وعودتهم من وإلى العاصمة سراى أو إلى قراقورم مقر الخان الأعظم إذا لزم الأمر للحصول على قرارات تتعلق بتعينهم وما يلزم من تقديم فروض الولاء والطاعة، هذا بخلاف الهدايا التى يحملونها معهم إلى الخان وحاشيته وما يقدموه من رشاوى لنجاح مهمتهم[٩١].

لقد فرض المغول نظام فدية المدنية أو الرهائن كما حدث فى موسكو عام ١٤٠٨م، وكما طلب الخان أولغ محمد فى عام ١٤٢٥م فدية عن

---

(٩٠) Martin, op. cit., 150.

(٩١) Ibid., p. 168.

الرهائن من الأمير بازيل الثانى. يضاف إلى ذلك كله ضرائب أخرى غير منظورة. وقد أدى هذا كله إلى نقل الثروة الروسية من الاراضى الروسية إلى الحكومة فى سراى أو إلى قراقورم فى مرحلة ما(٩٢).

وفى محاولة لحصر الضرائب السنوية التى قدمها الروس إلى الحكام المغول فقد تم التوصل إلى نتائج عديدة، منها أنه لم يوجد أى احصاء للعديد من الامارات حتى عام ١٣٨٩م. ومنذ هذا التاريخ يمكن القول أن ما دفعه الروس من ضرائب يتراوح من خمسة آلإف إلى سبعة آلاف روبيل فضى فى العام، ويعتبر هذا الرقم كبيراً بالنسبة للاقتصادى المحطم بعد الاجتياح الروسى للمدن الروسية، وما تبع ذلك من غارات علي الأقاليم الروسية فى مراحل لاحقة. وفيما يتعلق بالمدن التى لم تجتاحها القوات الروسية مثل نوفجورد فان توقف حركة بناء الكنائس يشير إلى ضعف الحالة الاقتصادية فى هذه الامارة أيضا(٩٣).

أما الفلاحون الروس فقد تحملوا عبئا كبيرا من الضرائب أكثر من الطبقة الروسية الحاكمة، لأن الأمراء الروس الكبار هم الذين تولوا جمع الضرائب من الشعب الروسى في بعض المراحل، وقد عاد ذلك بالفوائد الكبيرة على الأمراء الروس. ويشير المؤرخون إلى قيام هؤلاء الأمراء باختلاس الكثير من هذه الأموال قبل تسليمها إلى الحكام المغول، وقد أدى ذلك إلى ثراء هؤلاء الأمراء بطريقة سهلة. لقد أعفيت أراضى الأمراء الروس من الضرائب وتحمل عبء هذه الضرائب أهل الاقطاعية كمسئولية

---

(٩٢) Halperin, op. cit., pp. 76-7

(٩٣) Ibid, pp. 77- 8.

جماعية. ولما كان الحكام المغول يحصلون على ما يريدون فلم يكن يعنيهم الضرر الواقع على الأهالى(٩٤).

وفى السهول الروسية، فإن الضرائب التى فرضها المغول فى هذه المناطق فانها كانت تطابق ما هو متفق عليه بالنسبة لقبائل الرعاه. وربما يشير ذلك إلى زيادة فى الضرائب، ولكن كان هناك نسبة تعود إلى خزانة المغول، ولكن هذه النسبة لم تكن كبيرة وبدأت فى التراجع. ومرجع ذلك إلى الصفوة الروسية التى كانت تقوم بجمع الضرائب وارغمت هؤلاء الرعاة على دفع المزيد لمصلحة تلك الصفوة. وحتى بعد أن انتهت فترة الحكم المغولى فى روسيا فان هذه الضرائب ظلت كما كانت عليه فى عصر المغول، وأصبحت تؤول إلى الحكومات الروسية(٩٥).

وقد جنى الأمراء مكاسب أيضا من مشاركتهم المغول فى حملاتهم على المناطق المجاورة، وذلك بمشاركتهم فى الغنائم التى يحصلون عليها من هذه الحملات. وقد كان نصيب هؤلاء الأمراء يعتمد بطبيعة الحال على عدد الجنود الذين شاركوا فى هذه الحملات والأسلحة والخيول التى قدموها للمغول، ويعتمد كذلك على ما أنفقوه والخراب الذى أنزلوه بالأماكن التى تعاملوا معها. ومن ذلك فإن أمراء جالسيا تسلموا مكافآتهم مقابل مساعدتهم للمغول فى حملاتهم على بولندا وهنغاريا ولتوانيا. وربما كانت مثل هذه الحملات غير ناجحة فى جميع الأحوال، ولكن هذه المكافآت كانت مقابل التخريب الذى لحق بأراضى الأمراء أثناء عبور المغول إلى

---

(٩٤) Martin, op. cit., pp. 150- 1.

(٩٥) Halperin, op. cit., p. 78.

الجهات المجاورة. وفى مقابل ذلك فإن أمراء الروس الشماليين الذين قدموا خدماتهم إلى القبيلة الذهبية قد نالوا مكافآتهم بطريقة أو بأخرى. كما شارك أمراء مدينة روستوف Rostov المغول فى الحملة التى اجتاحت مدينة ددياكوف Dediakov الواقعة فى إقليم القوقاز عام ١٢٧٧م(٩٦)، شاركوا المغول فى ثروة المدينة وأسراها، كما توضح الحملات على اذربيجان المكافآت التى قدمت للأمراء الروس والفوائد التى عادت عليهم، ومما لاشك فيه أن ذلك كله كان له أثراً بعيداً على الإقتصاد الروسى(٩٧).

لقد كان للغزو المغولى أثراً كبيراً على الاقتصاد الروسى، وقد كان متنوعا فى مناطق عديدة فى روسيا، كما كان له أثراً كبيراً علي الطبقات الاجتماعية. لقد اجتاح الغزو المغولي العديد من البلاد، ولكن بعض المدن مثل نوفجورد وبسكوف Pskov. وسمولنك لم يطالها الغزو المغولي أو ربما كان التخريب فيها أقل من المدن الأخري. وعلي أية حال فانه بعد ١٢٤٠م فان التخريب المغولي كان أقل من قبل ذلك. لقد استفادت بعض المدن من سياسة المغول في مراحل مختلفة في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي، وعلي سبيل المثال، ومنذ أن تحالفت إمارة موسكو مع القبيلة الذهبية، فان القوات المغولية تحالفت مع أعداء موسكو مثل إمارة تفر وريازان، وفي الحقيقة أن المدينة الأخيرة قد أصلحت ما خربه المغول أكثر من مرة. أما في النصف الأخر من القرن الرابع الميلادي وما بعده، فان

---

(٩٦) Martin, op. cit. pp. 154, 172.

(٩٧) Halperin, pp. 78-9.

المغول قد تعاملوا مع إمارة موسكو كمركز تهديد لهم، ومن هنا أصبحت إمارة موسكو هي الهدف الرئيسي لهجات المغول كما حدث في عام ١٤٣٩[٩٨].

لقد كانت هجمات المغول تقصد إيجاد نوع من توازن القوى بين الامارات الروسية وذلك عن طريق التأثير المباشر لأعداد السكان. وواقع الحال أن مدن العصور الوسطى قد اعتمدت كثيرا في سكانها وغذائها على ما يرد اليها من الريف المجاور، وهذا ما جعلها تنمو سكانيا واقتصاديا. ومن هنا لم يكن بوسع مدينة أن تعتمد على نفسها وتنمو دون الاعتماد على البنية الزراعية للأراضي المحيطة بها[٩٩]. ومع الزمن زاد عدد سكان المدينة وهذا يعني احتياجها لمزيد من المنتجات الزراعية، ومزيد من دافعي الضرائب ومزيد من الادارة، وبذلك أصبحت قوة الأمراء في القوة البشرية[١٠٠]. ومن هنا كان المغول يعملون على تغيير الأوضاع السكانية من أجل اضمحلال نفوذ وسطوة الإمارات الروسية.

لقد استهدفت الهجمات الروسية - في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي - على مدينتي فلاديمير وسوزدال، ايجاد تغير في الوضع السكاني في الشمال حتى مدن أوستيوج Ustiug، وبلوزيرو Beloozero، وفياتكا Viatka وإلى الغرب حتى روستوف وياروسلاف، وإلى الجنوب الغربي حتى تفر وموسكو. وفي النصف الأول من القرن الرابع عشر

(٩٨) Martin, op. cit., p. 242.

(٩٩) Halperin, op. cit., p. 79.

(١٠٠) عن الفلاحين وأوضاعهم راجع:

Martin, op. cit., pp. 268- 9.

الميلادى فان موسكو كانت المستفيدة الوحيدة من هذا التهجير الإجبارى، وذلك بفضل تحالفها مع القبيلة الذهبية، وفى تلك المرحلة كان المغول يقومون بالاغارة على أعداء موسكو، لقد أضعفت هذه الغارات أعداء إمارة موسكو. وفى الوقت نفسه كانت الإمارة فى طريقها إلى النمو بطرق مختلفة، ومنها قمع السكان داخل أراضيها. وفى الوقت الذى كانت فيه إمارة موسكو تنمو وتزدهر فان الامارات الأخرى التى كانت معادية للمغول تعانى من ضعف إقتصادها وقلة سكانها خاصة إمارة تفر. وعندما بدأت القبيلة الذهبية تعانى من المتاعب منذ عام ١٣٦٠م(١٠١)، كانت إمارة موسكو تسير قدما نحو القوة. وعندما بدأ المغول يستردون عافيتهم مع مرور الوقت كانت أمارة موسكو أصبحت من القوة وتفرقت على إمارتى فلاديمير وسوزدال. وبذلك أصبحت إمارة موسكو المنافس القوى للقوى المغولية، وعندما حاول المغول الاستعانة بإمارة تفر كان الوقت قد فات(١٠٢).

لقد كان للتخريب والإفناء والابتزاز أسوأ الأثر على الاقتصاد أثناء الحكم المغولى، لأن اهتمام المغول بمنافعهم الشخصية حرم روسيا من استعادة عافيتها. وكان مثلهم فى ذلك مثل المغول فى عمق آسيا(١٠٣)، لقد كان المغول فى آسيا يسيطرون على الطرق الممتدة فى آسيا وأوربا وعلى القوافل التجارية، وكانوا يحمون التجار. وقد عاد عليهم ذلك

---

(١٠١) Halperin, op. cit., p. 80.

(١٠٢) Martin, op. cit., pp. 268 ff.

(١٠٣) Halperin, op. cit, p. 80.

بالفوائد عن طريق حصولهم على الضرائب[١٠٤]. ولو غير المغول فى آسيا هذا الطريق الوحيد لسار مغول روسيا على أثرهم، وكانت النتيجة أكثر نفعا.

لقد غيرت القبيلة الذهبية داخليا الطرق التجارية لتجارة الفراء التى كانت تسير من الشمال إلى الجنوب وجعلوها تحت حمايتهم ومرت من أوستيوج إلى موسكو إلى سراى العاصمة، وقد أدى ذلك إلى إزدهار المدن الروسية التى تمر بها تجارة الفراء والفضة أيضاً، وفقدت نوفجورد دخلها من هذه التجارة بعد تحويلها[١٠٥]، واذا كانت نوفجورد قد تضررت من جراء هذا التحول فان المغول عوضوهم عن ذلك وقدموا ضمانات لتجار العصبة الهانسية الألمانية مع إعفاءات ضريبية لهؤلاء التجار أثناء مرورهم عبر نوفجورد وسوزدال، وبذلك أصبحت نوفجورد مركزا تجاريا لكل تجارة البلطى التى تدخل وتخرج من روسيا، ومما لاشك فيه أن ذلك كله قد إدى إلى ازدهار التجارة والدخل القومى لمعظم مدن روسيا[١٠٦].
ويقول المؤرخون إذا كانت نوفجورد قد ارتبطت بالتجارة الغربية، فان المدينة تعاملت أيضا مع التجارة الشرقية نظرا لما وجده علماء الآثار من حراير وفخار مطعم بالزجاج الآتى من الشرق، وكذلك السيوف الدمشقية، ومن خلال مدينة نوفجورد فقد مرت البضائع الشرقية فى طريقها إلى البحر البلطى والبضائع الأوربية فى طريقها إلى القبيلة الذهبية، وبفضل

---

(١٠٤) Martin, op. cit., p. 142.

(١٠٥) Halperin, op. cit., p. 80.

(١٠٦) Zimmern, The Hansa Town, New York, 1889, pp. 152 -4.

هذه السياسة المغولية التجارية إزدهرت بعض المدن الروسية مثل نوفجورد وموسكو وأوستيوج[١٠٧].

ويعلل المؤرخون هذا النشاط التجارى فى روسيا إلى الجودة العالية للبضائع الشرقية، وقد عادت هذه التجارة بالأرباح التجارية العالية التى عادت بوجه خاص على الأمراء والنبلاء وكبار التجار، وقد أكد علماء الآثار على دور روسيا فى التجارة مع الشرق. وإلى جانب تلك الطرق فقد قامت تجارة شرقية أخرى عبر شبه جزيرة القرم التى تقع شمال البحر الاسود ومنها إلى مولدافيا، وكان للبنادقة مركز تجارى فى مدينة كافا Caffa الواقعة على هذا البحر[١٠٨]. وكان لذلك كله أثراً كبيراً على المجتمع الروسى، لأن البضائع الشرقية مثل الحرير والزجاج والخرز والأعمال المكفتة بالاصداف والأمشاط الخشبية كانت تصل إلى عمق الريف الروسى، وهذا يدل على اتصال أعماق روسيا بالاسواق العالمية[١٠٩].

وبالاضافة إلى هذه التجارة التى تدفقت إلى روسيا من الشرق والغرب، فقد كانت هناك تجارة أخرى فى الأراضى الروسية التى كانت تحت سيطرة المغول، فقد تعامل التجار الروس مع السكان المقيمين المتمركزين فى منطقة بولجار الفولجا وجينوز كفا Genoese Kaffa وأخيرا قازان. وقد أشارت الحوليات انه فى حملة عام ١٤٧٤م من القبيلة الذهبية إلى موسكو، انها تضمنت ثلاثة الاف ومائتى تاجر، وأخرى تضمنت سفارة من

---

(١٠٧) Halperin, op. cit., p. 81.

(١٠٨) Martin, op. cit., pp. 167-8.

(١٠٩) Halperin, op. cit., p. 81.

ستمائة فرد. لقد اشترت موسكو أربعة آلاف حصان لفرسانها. لقد استجلبت روسيا الخيول، والمواشى والدواجن وجلود الحيوانات فى مقابل الفضة والمصنوعات والمنسوجات. وبذلك كانت التجارة بين الروس بعضهم البعض ومع الشرق والغرب أثناء الحكم المغولى، وسارت على الأوضاع التجارية التى كانت سائرة فى روسيا الكيفية(١١٠).

لقد بدأت روسيا تستعيد عافيتها التجارية مع مطلع القرن الرابع عشر الميلادى، وبدأت فى تقدم ملموس فى منتصف هذا القرن أى بعد مائة عام تقريبا من الغزو المغولى، لقد ازدهرت المدن ونشأت مدن اخرى جديدة، وكانت أكثر المدن تقدما هى مدينة موسكو، وفى هذه المدينة وفى مدينة نوفجورد وكثير من المدن الشمالية الروسية بدأ إعادة بناء الكنائس، وفى هذا ما يشير إلى التقدم الاقتصادى فى هذه النواحى(١١١).

وهناك العديد من الشواهد التى تجعلنا نصدق أن التجارة العالمية التى أقامها المغول داخل روسيا كان لها أكبر الأثر فى هذا الانتعاش. لقد ازدهرت المدن التى كانت تقع على خطوط الطرق التجارية إلى الشرق ومن هذه المدن نوفجورد التى أصبحت عامصة للإمارة(١١٢)، والحقيقة أنه كان للتجارة الشرقية العامل الأكبر فى ازدهار الاقتصاد الروسى. لقد قام الأمراء الروس بصك العملة فى نطاق محدود فى بداية الأمر، ورغم أن روسيا لا تنتج معدن الفضة فان الميزان التجارى كان يبشر بالنجاح.

---

(١١٠) Halperin, op. cit., p. 81.

(١١١) Martin, op. cit., p. 167.

(١١٢) Loc. cit.

وعندما ارتقت التجارة لصالح الروس عمل المغول على الارتقاء بها وتنميتها(١١٣).

ومع رقى المدن الروسية زاد إحتياجها للمنتجات الزراعية التى ترد إليها من الريف، ولما كانت الأعمال الزراعية تسير بالطرق المعروفة فى العصور الوسطى، أى الاعتماد على العنصر البشرى، فقد تطلب الحال إزدياد عدد الفلاحين فى الضواحى لمواجهة الوفاء باحتياجات السكان فى المدن، خاصة أن المدن قد زادت مساحتها لاستيعاب المهاجرين الجدد اليها. ومن هنا كان هناك زيادة فى إعمار المدن، وزيادة عدد السكان فيها وزيادة عدد سكان الريف كذلك، وهذا ما يميز الوضع السكانى فى القرن الرابع عشر والخامس عشر. وللأسف الشديد لا توجد لدينا مادة علمية كافية لتأييد هذا الرأى لأن اجتياح الطاعون لروسيا فى هذه المرحلة(١١٤)، قد قلب الحقائق رأسا على عقب. وهنا نقطة هامة يجب الإشارة إليها وهى أن نمو المدن لا يمكن أن يتم بتهجير السكان من آن لآخر، بل عن طريق زيادة عدد السكان.

ومن الصعب القول أن الاقتصاد الروسى كان يتقدم، مع التسليم بقيام الروس بتقديم الضرائب إلى المغول دون معاناة الشعب الروسى خاصة أن الضرائب كانت تدفع بالعملة الفضية، ولقد تحمل الجميع هذه المعاناة وعملوا على زيادة إيرادتهم حتى يتمكنوا من دفع الضريبة للمغول، بعدما تبادلوا إنتاجهم بالفضة التى استوردوها من الخارج، وبعد أن أصبح لدى

---

(١١٣) Halperin, op. cit., p. 83.

(١١٤) Martin, op. cit., p. 269.

الفلاحين الروس فائضا فى دخولهم، حتى أن البضائع الشرقية الراقية كانت موجودة فى معظم ديار الفلاحين الروس.

وليس معني ذلك أن الضرائب التي كانت تدفع للمغول لم تكن كبيرة، لأن الدلائل تشير أن هذه الضرائب كان لها أثراً كبيراً علي الاقتصاد المغولي، وأن الضرائب السنوية التي دفعها الروس للمغول كانت تتراوح بين خمسة إلي سبعة آلاف روبيل في العام. وعندما انخفضت الضرائب التي كانت تقدم للمغول فى عام ١٤٨٠م إلى حوالى الف روبيل فى العام، فإن الأمراء الروس ظلوا يجمعون الكثير ويدفعون الألف فقط إلى الحكام المغول ويحتفظون لأنفسهم بالفرق. وفى المرحلة التالية - أى فى نهاية القرن الخامس عشر وما بعده لعدة عقود من الزمن - أحضر أمراء موسكو الفنانين الايطاليين والمعدات لبناء العديد من الكاتدرائيات، والعديد من القصور، والأبراج والأسوار. أما تكلفة هذه الأعمال فهى غير معروفة. ولكن فى ذلك ما يشير إلى ثراء الأمراء[١١٥]، وخير دليل على ذلك أن أمير موسكو إيفان الثالث Ivan III (١٤٦٢- ١٥٠٥م) قد أحضر عروسه صوفيا باليولوج Sofia Poleologa (زوى Zoe) من روما فى عام ١٤٧٢م - ابنة توماس شقيق آخر الأباطرة البيزنطيين[١١٦]، يضاف إلى ذلك انه استخدم لقب قيصر واستخدام ذات المراسم والملابس البيزنطية، وهذا ما يدل على الثراء الذى تمتع به هذا الأمير الناتج عما كان يؤول إليه من فائض الضرائب التى يحتجزها لنفسه[١١٧].

---

(١١٥) Halperin, op. cit., p. 84.

(١١٦) Martin, op. cit., pp. 245, 258.

(١١٧) Ibid., p. 258.

وهناك مؤشر آخر يدل على قدرة الاقتصاد الروسى أنه ظل جامدا أثناء الحكم المغولى، وانه تداخل مع الاقتصاد المغولى وتقوى به. وإذا كانت غزوات تيمورلنك قد حولت التجارة الشرقية عن مستقرات المغول، فأنها لم تؤثر كثيراً على الاقتصاد الروسى. وقد ظل الوضع كذلك حتى القرن السادس عشر حيث تمكنت روسيا من الاتصال المباشر مع التجارة الشرقية خاصة مع بلاد فارس، وذلك مثلما فعل ياروسلاف وربط مناطق الفولجا وقازان واسترخان مع القبيلة الذهبية. وأن التجار الروس الذين كانوا يترددون على العاصمة سراى قد ذهبوا بسهولة إلى بلاد فارس، كما أن تجار فارس الذين كانوا يعملون بنشاط مع منطقة الفولجا قد أتوا إلى البلاد الرزوسية، أو أرسلوا مندوبين عنهم من الأرمن أو اليهود، وبعدما انتهى حكم القبيلة الذهبية فان التجارة الروسية العالمية ظلم مستمرة(١١٨).

وحتي تكتمل صورة التأثير المغولي علي الاقتصاد الروسي خلال فترة الحكم المغولي، فانه يمكن القول أن الحكم المغولي للبلاد الروسية كان نعمة ونقمة في آن واحد، وان هذا التأثير اختلف من منطقة إلي أخري ومن طبقة إلي أخري. ومما لاشك فيه أن معاناة الفلاحين كان كثيرة بسبب فداحه الضرائب التي تحملونها وذلك بعكس الطبقات الارستقراطية التي تحملت بعض الضرائب، ثم عوضتها باختلاس بعض الضرائب التي كانت تقوم بجمعها لصالح المغول، وما عاد عليهم من أرباح نتيجة تجارتها مع الشرق.

---

(١١٨) Halperin, op. cit., p. 85.



الفصل السادس
السفارات بين أوربا والمغول
قبل عين جالوت

- مقدمة
- المغول وأسطورة الكاهن يوحنا
- سفراء البابا انوسنت الرابع ١٢٤٥ م

١ - سفارة لورانس البرتغالي

٢ - سفارة يوحنا أف بيان دل كاربين

٣ - سفارة أسكلين

٤ - سفارة اندرو أف لونجومو (مرة أولى)

سفراء لويس التاسع إلى المغول

١ - اندرو أف لونجومو (مرة ثانية)

٢- وليم روبرك وبارثليميو إف كرعونا .

الأرمن والمغول

القبيلة الذهبية .



الفصل السادس
السفارات بين أوربا والمغول
قبل عين جالوت

مقدمة :

لعبت القوة العسكرية المغولية دوراً كبيراً فى تاريخ آسيا فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وكان لهذه القوة أثراً كبيراً على الصراع الذى دار بين المسلمين والصليبيين فى منطقة الشرق الأدنى الاسلامى. وفى تلك الفترة لم يكن هناك على وجه الأرض من قوة سواء فى الشرق أو الغرب تستطيع مواجهة الهجمات المغولية ،ويمكن القول إنه كان بالامكان مقاومة جزء صغير مستقل من المغول لاتسانده القوى المغولية الكبرى، وكان الخان المغولى الكبير فى منغوليا قوبيلاى Kubulai (١٢٦٠-١٢٩٣م) يدرك ذلك تماماً . وكان معروفاً أيضاً أن بإمكان الجيش المغولى غزو الصين وأن يتقدم إلى الجنوب حيث أندونسيا حالياً، وأن بإمكانه أيضا أن يتقدم إلى بلاد الشرق الأدنى الاسلامى وينتصر على الدويلات القائمة به، كما كان بإمكانه كذلك الإنتصار على الإمبراطورية البيزنطية .

أما فيما يتعلق بالغرب الأوربى فيجب علينا أن نضع فى الاعتبار إنه منذ بداية التوسع العسكرى المغولى لم يكن للغرب الأوربى إعتباراً كبيراً فى نظر القادة المغول . ولعل ذلك كان حقيقياً فى بداية العمليات العسكرية ضد الدولة العباسية ، ثم بعد ذلك ضد دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى. وعندما كان القائد المغولى ،جيبب Jebe وزميله سوبوتاى

Subotei يطاردان فلول القوات الخوارزمية، فإنهما لم يتجها الى الدولة العباسية فى بغداد، بعد وفاة علاء الدين محمد خوارزم شاه فى عام ١٢١٩ م ، ولكنهما اتجها بقواتهما إلى اقليم جورجيا Georgia وضد إقليم القفجاق.

وقد إنزعج الخليفة العباسى أبو العباسى أحمد الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ / ١١٨٠ - ١٢٢٥م) من أخطار تقدم المغول بهذه الصورة من جانب ، وإلى الوجود الصليبى فى بلاد الشام من جانب آخر ، خاصة أن الحملة الصليبية الخامسة كانت تهاجم مصر فى تلك المرحلة . وقد طلب الخليفة العباسى المساعدة من البيت الأيوبى فى مصر والشام، ولكن أحداث الحملة الخامسة فى مصر حالت دون إرسال هذه النجدة. ومن حسن حظ العالم الاسلامى أن القوات المغولية قد اتجهت الى الشمال بدلاً من بغداد فى تلك المرحلة ، لأن سقوط بغداد فى تلك المرحلة المبكرة من التاريخ قد ينزل أفدح الخسائر بالعالم الاسلامى ،ويضع العالم الاسلامى بين القوات المغولية فى الشرق والصليبين فى مصر والشام من الغرب .

لقد كان نجاح المغول الساحق على جنوب روسيا وانتصاراتهم فى معركة نهر كالكا Kalka فى عام ١٢٢٣ م أمراً خطيراً ، وإن هذه القوات التى تمكنت من الحصول على هذه الإنجازات فى مثل هذه البلاد البعيدة يوضح الى حد كبير قدرة هذه القوات على اجتياح بغداد والسيطرة على الدولة العباسية . وإذا كان المغول قد تأخروا فى إجتياح أراضى العالم الاسلامى فى تلك المرحلة ، فإن ذلك يرجع الى سياسة المغول لا إلى قصر نظر حكامهم أو ضعف قواتهم ، فقد أولى حكام المغول إهتمامهم إلى غزو

بلاد الصين فى تلك المرحلة ، أما الشرق الاسلامى فقد وضع أمره فى المرتبة التالية .

لقد إعتقد المغول أنه ليس بوسع القوات الاسلاميةأو الصليبية أن تقف فى طريق تقدمهم الى الشرق ،وأن ذلك سوف يأتى فى الوقت المناسب ، لذلك أعد المغول حملة لإجتياح هنغاريا ، وقد قاد هذه الحملة القائد المغولى باطو Batu ، وهو الرجل الثانى صاحب السطوة الكبيرة فى الامبراطورية، وقد نجح باطو فى مهمتة فيما بين عامى ١٢٤١ - ١٢٤٢م ، كما نجحت قوة مغولية أخرى فى تولى أمر العمليات فى بلاد سلاجقة الروم حيث وقعت معركة كوس داغ Kosedagh عام ١٢٤٣ م . وكان لهذه الحملة الأخيرة أثراً على انهيار سلطنة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى . وهناك مظهر هام لظهور المغول على الساحة الآسيوية ، وهو علاقة المغول بالصليبين فقد تزامن ظهور المغول كقوة عسكرية خلال فترة الصراع بين المسلمين والصلبيين . وعندما تقدم المغول الى بلاد الأناضول كان لكل من المسلمين والصلبيين ميزة تجعل إحدى القوتين تتفوق على الأخرى ، وإن امكانية التحالف مع القوى الخارجية هو الأمل الكبير فى تفوق إحدى القوى على الأخرى ، وإذا كانت الدبلوماسية تعنى فن الحصول على الممكن لاعلى المستحيل ، فإن النفاق والخيانه وعدم الوفاء يكونون فى بعض الأوقات طريقاً للحصول على ذلك الممكن . وكان ذلك كله من خصال الصليبيين . وأحداث معركة عين جالوت التى وقعت فى الثالث من سبتمبر ١٢٦٠م ، الخامس والعشرين من رمضان ٦٥٨ هـ، توضح أن الصليبيين فى عكا قد سمحوا للقوات الإسلامية بقيادة سيف الدين قطز أن تمر عبر الأراضى الصليبية ومهاجمة القوات المغولية

من الخلف ، عندما كان القائد المغولي كتبغا يتولى أمر قيادة القوات المغولية .

وهنا يتضح مدى خيانه الصليبيين للمسيحية التى تستروا فيها لمحاربة المسلمين . وهنا يجب القول أنه كان من الممكن أن يتحالف الصلبيين مع المغول فى تلك المرحلة بالذات ويغيروا وجه المعركة ،وهناك تفسير عملى لتصرف الصليبيين على هذا النحو . لقد ظل العداء بين المسلمين والصلبيين فى بلاد الشام مايزيد عن مائة وخمسين عاماً ، وانهم قد اعتادوا الحياة على نحو من القسوة ، بما فيها من القتال ، وكانت هناك الحرب التقليدية بين الطرفين ، أما تدخل المغول فى المنطقة وماعرف عنهم من أساليب الحرب والدمار فهو أمر غير مرغوب فيه من الطرفين .

ويمكن القول أن تصرف الصلبيين على هذا النحو يرجع الى فكرة لعلها تكون مقبولة من الناحية العسكرية ، وخلاصة هذه الفكرة أن يترك الصليبيون القوات المغولية لتقاتل القوات الاسلامية ، وفى نهاية الأمر سيكون هناك غالب ومغلوب ، ومن المعروف أن المنتصر يخرج من المعركة ضعيفاً ، وبذلك تكون هناك فرصة للصلبيين وهى إما مواجهة المغول إذا أحسوا بقدرتهم على ذلك ، أو التقرب منهم بصورة أو بأخرى إذا أدركوا أن القوة لاتفيد فى المواجهة ، ويجب أن يكون من المعروف أن فكرة محالفة الصليبيين مع المغول لاتعود الى أمراء الصليبيين فى الإمارات الصليبية بل إلى أمراء وملوك الغرب الأوربى مثل ملوك فرنسا وإنجلترا وكذلك الباباوية .

منذ منتصف القرن الثانى عشر ساد الإعتقاد فى أوربا أنه فى الشرق المسيحى البعيد أمير خرافى غنى وقوى بإمكانه مساعدة الصليبيين ومهاجمة المسلمين من الخلف ، وقد إنتشرت هذه الخرافة بمعرفة رجل الدين المؤرخ أوتو أف فرايزنج Otto of Freising الذى جعل من نفسه متحدثاً باسم هيو Hugh أسقف مدينة في شمال بلاد الشام هي جبله ، وذلك فى غمرة من اليأس الذى سادالصليبين من عدم تقديم المساعدات الأوربية لهم فى بلاد الشام عقب سقوط مدينة الرها عام ١١٤٤م ،وطبقاً لمارواه أوتو ،فقد ذكر هيو أن شخصاً يدعى يوحنا هو ملك وقسيس يقطن فى بلاد ماوراء أرمينيا وبلاد الفرس فى الشرق البعيد مع المسيحيين النساطرة ، وقد حارب يوحنا هذا إخوته ملوك الفرس وميديا واجتاح بلادهم . وعندما تقابل يوحنا مع إخوته الملوك بجيشه المكون من الفرس والميديين والسريان فى معركة إستمرت لمدة ثلاثة أيام ، حرص كل فريق على القتال حتى الموت ، وكان يوحنا على حد قول الأسطورة ، يطالب رجاله بإجبار الفرس على الفرار وإحراز النصر ، وتستطرد الأسطورة القول أنه بعد إنتصار يوحنا تحرك بجيشة ليقدم المساعدة إلى كنيسة القيامة فى القدس، ولكن يوحنا وقواته عجزوا عن عبور نهر دجلة ، لذلك إتجهوا إلى الشمال . وقد علم يوحنا أن النهر يتحول الى ثلج مع فصل الشتاء ، ورغم هذا حاول يوحنا العبور لعدة سنوات ولكنه فقد العديد من رجاله بسبب الطقس غير العادى بالنسبة لهم ، لذلك عاد يوحنا ورجاله الى بلادهم (١).

---

(١) Otto of Freising, the Two Cities, tran. Charles Christpher Mierow, New York 1928. pp. 443- 4.

ويقال أن أصل يوحنا يرجع الى المجوس الذين ورد إشارة عنهم فى إنجيل متى الأصحاح الثانى الآية الأولى ومابعدها فقد ورد « ولما ولد يسوع فى بيت لحم اليهودية فى أيام هيرودس الملك إذ مجوس من الشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود فإننا رأينا نجمة فى المشرق وأتينا لنسجد له » . وسواء كان انتصار بعض قبائل المغول على السلاجقة فى سنجار فى عام ١٢٤١م كان قوة دافعة تاريخية لإحياء أسطورة الكاهن يوحنا أم لا ، فإن ماحدث قد حرك مشاعر البابا اسكندر الثالث ليكتب الى الكاهن يوحنا والبحث عنه [٢].

ولم تتحقق مساعدة الكاهن يوحنا فى منتصف القرن الثانى عشر، ولكن بوادر هذه المساعدة بدأت تظهر بعد حوالى ثمانين عاماً عندما ظهرت الأسطورة من جديد بعد سقوط دمياط فى أيدى الصليبيين فى نوفمبر عام ١٢١٩م ، فقد ذكر أوليفر أف بادربورن Oliver of Paderborn أن الملك داود ملك دولة الهند ، سوف يسارع لمساعدة المسيحيين وسوف يأتى ومعه قوات كثيرة ، وسوف ينقضون كالوحوش على المسلمين ، وقد اعتمدت كتابات جاك أف فترى على تقرير كتب باللغة العربية ثم ترجم للاتينية فى المرحلة من ١٢١٨ - ١٢٢١ م [٣]، وفيه خلط بين إسم جنكيز خان واسم داود الذى يسمى الكاهن يوحنا .

---

(٢) Newton. Travel and Travellers of the Middle Ages. London 1930. p. 179.

(٣) Oliver of Paderborn. The Capture of Domietta. tran. John J. Gavigan, Philadelphia 1948. pp. 50- 1 and notes.

لقد عرفت إنتصارات المغول على مدى واسع فى أوربا عن طريق ماكتبه أوليفر أن بادربورن والمندوب البابوى للحملة الصليبية الخامسة وكان يدعى بلاجيوس Pelagius . وبذلك لاح الأمل فى مساعدة الصليبيين. ولذلك أرسل البابا هونوريوس الثالث خطابات يعلن فيها الى رؤساء أساقفة فرنسا وانجلترا فى نبرة حارة ، أن الملك داود هو الكاهن يوحنا وأنه إنتصر على شاه بلاد فارس ، وإستولى على بلاده ، وأنه أصبح على بعد مسيرة عشرة أيام من بغداد . وقد انتشرت هذه الشائعة على نطاق واسع منذ عام ١٢١٩ م وكان لهذه الشائعة أكبر الأثر على القوات الصليبية فى دمياط حتى أن المندوب البابوى بلاجيوس قد رفض العرض السخى الذى قدمه الكامل ملك مصر الى الصليبين ، والذى يقضى بتنازل الملك الكامل وأخوه الملك المعظم ملك دمشق عن جميع الأراضى التى فتحها صلاح الدين ، عدا قلعتى الكرك والشوبك مقابل الجلاء عن دمياط [٤].

وفى عام ١٢٢١م ساد الاعتقاد بأن هناك تطابقاً بين الملك داود وبين الكاهن يوحنا وبين رجاله وبين المغول ، والحقيقة أنه خلال عام ١٢٢٠ - ١٢٢١ م إجتاح المغول إقليم جورجيا وهذا مالم يكن يعرفه المندوب بلاجيوس فى دمياط ،لذك أرسل إلى ملك جورجيا لاشين الرابع Lashen IV يطلب منه إرسال النجدات الى الصليبيين فى دمياط [٥].

---

(٤) محمود سعيد عمران: المرجع السابق - ص٢٧٠ وما بعدها.

(٥) Oliver of Paderborn. op. cit. p. 50-1.

سفراء البابا انوسنت الرابع ١٢٤٥م

والحقيقة أن تهديدات المغول بدأت تظهر فى شرق أوربا فى عام ١٢٣٦م ، عندما بدأت بعض القوات المغولية تغير على الجزء الأوربى من بلاد روسيا ، وفى خريف عام ١٢٣٧ م إجتاح المغول دولة بلغار، الى جانب بعض المدن الروسية ورغم بُعد هذه الأماكن عن أوربا الغربية إلا أن ماحدث من تدمير وتخريب على يد المغول قد وصل الى مسامع أوربا الغربية فتغيرت الصورة المشرقة للمغول عند الأوربيين .

وتأكد هذا الحال عندما إجتاح المغول هنغاريا فى عامى ١٢٤١ - ١٢٤٢م وأنزلوا بها الدمار ، وأن إنهيار القوة الهنغارية أمام المغول قد أذهل حكام غرب أوربا ، وقد لام فريدريك الثانى إمبراطور ألمانيا الهنغاريين على مالحق بهم من هزيمة ، وعرض أن يقدم لهم المساعدات على نفقته الخاصة ، وإستغل فرصة ظهور الخطر المغولى وحث حكام أوربا على الاتحاد تحت قيادته [٦].

لقد انزعج البابا جريجورى التاسع لهذه الأخبار وعجز عن تقديم المساعدة للملك الهنغارى بيلا الرابع Bela IV (١٢٣٥ - ١٢٧٠ م) ، وكان إنسحاب المغول المفاجئ من هنغاريا فى ربيع عام ١٢٤٢ م مثار دهشة وفرحة فى الأوساط الأوربية ، واعتقدت أن الخطر قد زال عن أوربا ولو إلى حين ، ولكن المهم فى تلك المرحلة أن احتمال قيام تحالف أوربى مغولى ضد المسلمين قد زال تماماً ، وان ماكان يشغل بال أوربا فى

---

(٦) Matthew Paris, op. cit., I, pp. 341-7.

تلـك المرحلة هو تجـدد الخطـر المغـولى علـى هنغـاريا مـرة أخرى وأن يصبح قـريباً من أوربا الغـربيـة . وبعـد أسـابيع قـليلة من إعـتـلاء البابا أنوسنت الرابع عـرش البابوية فى روما دعا البـابا بطريق مدينة أكويليـا Aquileia عاصـمة هنغاريا ليجند الرجال وأن يعلن عن حملة صليبيـة ضد المغول (٧).

كمـا دعا البـابا أيضاً الى مـجلس دينى فى مدينة ليون Lyons للنظر فى أمـر الخطر المغـولى وأمـور أخرى ، على أن يبدأ المجلس أعـمـاله فى الثامن والعشرين من يونيه عام ١٢٤٥م. (٨)ولكن البابا لم ينتظر اجتماع المجلس فـيمـا يتعلق بأمر المغول ، فـقد أعـد البـابا عدة سـفارات لارسالها إلى المغول (٩).

١- سفارة لورانس البرتغالي :

وكـان على رأس السـفـارة الأولى البـرتغـالي Lawrence of Portugal، وهو من الرهبان الفرنشـسكان. وقد حـمل لورانس خطاباً من البابا مؤرخاً في الخامـس من مـارس ١٢٤٥م، وفي هذا الخطاب دعـا البـابا خـان المغـول إلى إعـتناق الديانة المسـيحيـة. وقـد إتخذ لورانس طريقـه إلى الشـرق عبر

---

(٧) Matthew Paris, op. cit., 48-9.

(٨) Setton, op. cit. II, p. 272.

(٩) أرسل البـابا انوسننس الرابع خطابان إلي خان المغـول أنظر نص الخطابين مـؤرخين في الخامس والثالث عشر من مارس ١٢٤٥.

Innocent IV, Two Bulls to the Emperor of the Tartars, cf. Dawson. the Mongol Mission, New York, 1955, pp. 73- 6.

أرمنيا الصغرى ولكنه لم يتقدم أبعد من ذلك حيث انتهت رحلته عند مدينة أياس Lajazzo (Ayas). وقد عاد لورانس من حيث أتى ثم قام في العام التالي بزيارة لبعض مناطق شرق البحر المتوسط ومنها بلاد اليونان(١٠).

ويبدو أنه كان في صحبة لورانس البرتغالي أحد الرهبان الفرنشسكان ويدعى دومنيك أف أرجوان Dominic of Argon، وقد عهد لورانس إليه للقيام بزيارة بعض المدن الإسلامية، وقد زار دومنيك منطقة أرمينية وربما بعض المدن الإسلامية في الشام ومصر ومكث فترة طويلة في القسطنطينية قبل عودته إلى روما في صيف عام ١٢٤٧م. والحقيقة الواضحة أن السفارة الأولى التي أرسلها البابا إنوسنت الرابع لم تصل إلى بلاد المغول، وبالتالي لم تسلم رسالته إلى أي حاكم من حكام المغول. وعلى ذلك يمكن القول أن هذه البعثة لم تحقق أهدافها السياسية (١١).

ويرى البعض أن لورانس البرتغالي قد نجح في نشر الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي في بلاد المغول. والحقيقة أن في هذا الرأي مغالاة كبيرة، فالمقدمات لا تتفق مع النتائج، كما أن لورانس نفسه لم يترك لنا وصفاً أو نصاً عن رحلته حتى يمكن مناقشته وأن ما سجل هذا الرأي هم رجال الدين الكاثوليك الذين كتبوا في أواخر القرن الماضي عن بعثات جماعة الفرنشسكان إلى المغول.

---

(١٠) Setton, op. cit., II, p. 472.

(١١) Ibid, pp. 722- 3.

٢ - سفارة يوحنا أف بيان دل كاربين [١٢]:

وتولى أمر السفارة الثانية أحد الرهبان الفرنشسكان أيضاً ويدعى يوحنا أف بيان دل كاربين John of Pian del Carpine، وقد حمل هذا السفير الخطاب الثاني الموجه من البابا الذي يرجع تاريخه إلى الثالث عشر من مارس في العام نفسة (١٢٤٥م) أي بعد حوالي أسبوع من تاريخ الخطاب الأول الذي حمله السفير لورانس البرتغالي، ويتضح من ذلك أن البابا إنوسنت الرابع كان يتعجل إرسال السفراء إلى المغول دون إنتظار وصول نتائج البعثة الأولى.

ومعلوماتنا عن يوحنا أكثر من لورانس، فقد ولد يوحنا في بيروجيا Perogia بالقرب من مدينة أسيس Assise الواقعة على الساحل الايطالي الشرقي المواجه للبحر الادرياتيكي، ولعل ذلك جعله من رفاق القديس فرانسيس أف أسيس مؤسس طائفة الفرنشيسكان (١٢١٥م)، وقد لعب يوحنا دوراً كبيراً في نشر أفكار هذه الطائفة في ألمانيا، وبوهيميا، والمجر، والنرويج، والدانمرك، واللورين وأسبانيا. ولعل في هذا الرصيد الهائل من الرهبانية والتبشير بالمذهب الكاثوليكي ما جعل البابا يختاره ليكون سفيراً له وللمسيحية بأكملها لدى خانات المغول في تلك المرحلة من التاريخ الوسيط[١٣].

---

(١٢) تركت هذه السفارة معلومات قيمة عن المغول وحياتهم وأنظمهم، أنظر التفاصيل:
John of Plano Carpini, History of the Mongols. cf. Dawson, op. cit., pp. 3- 71.

(١٣) Dawson, op. cit, p. 2.

والحقيقة أن بعثة يوحنا اختلفت عن بعثة سلفه لورانس التي كانت مهمته التبشير بالمسيحية داخل قبائل المغول، فقد كانت مهمة يوحنا هي محاولة كبح جماح المغول وإيقاف توسعاتهم، وربطهم بفكرة السلام التي كانت تسعى إليها البابوية للتفرغ لمحاربة المسلمين، ويتضح ذلك من بعض نصوص خطاب البابا إلى خان المغول. فقد ورد به أن البابا يرسل إليكم ابنه العزيز يوحنا ورفاقه لتوقعوا مع أوربا معاهدة سلام، ومن خلال هذه المعاهدة يمكن التعرف على نواياكم والتخطيط معكم للغزوات المقبلة[١٤].

وعلى أية حال فقد رحل يوحنا ورفاقه بينهم الراهب بنوا دي بولوني Benoit de Pologne كمترجم لهم، وبدأت رحلة السفارة من مدينة ليون في فرنسا إلى مقاطعة بوهيميا، ومنها اتجهت إلى بولندا. وعندما دخلت البعثة الأراضي الروسية استضافها أحد الحكام الروس ويدعى بازيل حيث قضوا بعض الوقت حاولت فيه البعثة الدعوة للمسيحية على المذهب الكاثوليكي، ولكنها لم توفق في مهمتها.

أخذت البعثة طريقها إلى مدينة كييف،، وقد تعرضت البعثة لسوء الأحوال الجوية بالإضافة إلى أخطار غارات اللتوانيين على المناطق الروسية، وفي النهاية وصلت البعثة إلى كييف في الثالث من فبراير عام ١٢٤٦م، ومنها خططت لإتخاذ طريقها إلى العاصمة المغولية قراقورم، فوصلت في البداية إلى معسكر المغولي في سيرا – أوردو Sira - Orda

---

(١٤) راجع ما ورد في حاشية رقم (٩)، وعن المعلومات الخاصة بسفاره يوحنا راجع حاشية (١٢).

الذي يبعد عن سراي مركز المغول علي نهر الفولجا بمسيرة نصف اليوم، في الثاني والعشرين من يونية.

وعندما وصلت البعثة كان الخان الأعظم أوكيتاي قد مات، وكان يتولى الوصاية توراكينا خاتون، وطبقاً لقوانين المغول كان لابد من الانتظار حتى يتم انتخاب الخان الجديد. ولذلك ظلت البعثة حوالي ستة أسابيع حتى تم انتخاب كيوك، ولكن الاحتفال بالتتويج تأخر لبعض الوقت بسبب سوء الأحوال الجوية. وفي الرابع والعشرين من أغسطس ١٢٤٦م تم تتويج الخان الجديد حيث ركع الجميع أمامه.

كان يحيط بالخان كيوك مجموعة من المسيحين النساطرة، فاعتقدت البعثة أنه سيعتنق المسيحية بعد وقت قريب، ولعل ما شجع رجال البعثة على هذا الاعتقاد ما تردد حول قيام الخان الجديد ببناء كنيسة صغيرة من ماله الخاص تقام فيها الشعائر المسيحية.

وفي نهاية الأمر استدعى الخان كيوك السفارة البابوية وعلى رأسها يوحنا دي بيان كاربين، وقد سأل الخان رئيس البعثة عن أسباب قدومه، فأبلغه بها، وكان من ردود الخان أن الله أمر المغول بمعاقبة الأمم العاصية التي لا تدخل في طاعته، وعلى البابا إذا أراد أن يعرف ديانة المغول فعليه الحضور إليهم بنفسه، وأضاف أن المغول يرفعون سيوفهم في وجه كل الشعوب التي لم تخضع لهم بعد، وأن سبيلهم في ذلك استخدام الحديد والنار.

وبعد طول بقاء البعثة طلب الخان كيوك منها أن تكتب له اقتراحاتها، ولكن البعثة أحست بعدم جدوى ذلك. كما أنها كانت

غير مفوضة بمثل هذه الأمور، وكل ما يهمها هو تقديم رسائل البابا التي وجدت فيها الكفاية، أو أنها خشيت الدخول في تفاصيل الحديث عن المسيحية الكاثوليكية، في حين يعلم المغول الكثير عن المسيحية النسطورية والأرثوذكسية، فيعلم المغول الكثير عن الشقاق الديني الذي يسود الطوائف المسيحية، وبذلك يظهر ضعف الدول المسيحية أمام المغول.

أحس يوحنا أنه أدى واجبه المكلف به، وأنه لا جدوى من بقائه واستأذنت البعثة في الرحيل، فعادت من نفس الطريق التي أتت منه، وفي حوالي شهر مايو من عام ١٢٤٧م كانت قد وصلت إلى معسكر الخان باطو على نهر الفولجا ومنه إلى مدينة كييف ومنها إلى المقرر البابوي في روما حيث استقبلها البابا انوست الرابع بحفاوة بالغة . وبعد أن ظل يوحنا إلى جوار البابا حوالي شهر عينه رئيساً لاساقفة مدينة أنتفاري Antivari الواقعة على ساحل دلماشيا.

والحقيقة أن يوحنا قد فشل في رحلته تماماً وأنه لم يقم بعمل شئ سوى أنه سلم خطابات البابا إلى خان المغول، ولكنه على الجانب الآخر ترك لنا وصفاً طيباً عن الأماكن التي مر بها وما لحق بها من خراب، وكثيراً من التفاصيل عن عادات المغول وتقاليدهم وأحوالهم الاجتماعية المتعلقة بالزواج والوفاة وطعامهم وشرابهم وحياتهم الأخرى بعد الموت. وهي أمور يطول شرحها ولا داعي لذكرها في هذا المقام. والخلاصة أن المغول لم يسلموا برغبات البابا، كما أن الخان كيوك لم يشر في رده إلى أي ارتباط مع البابوية بروابط الصداقة، وأن الرد الذي قدمه خان المغول لا يعدو أن يكون بعض عبارات المجاملة إلى البابا.

٣ - بعثة أسكلين Ascelin[١٥]

وهو أحد رجال الدين الدومنيكان، وكان من ضمن حاشيته رجل يدعى سيمون أف سانت كونتين Simon of saint Quentin صاحب كتاب تاريخ التتار الذى فقد والذى قدم لنا بعض المعلومات التى بقيت لنا فى بعض المصادر. وعلى أيه حال فقد سار أسكلين فى الطريق الجنوبى الى المغول عبر قبرص وبلاد الإسلام ثم الى مدينة تفليس Tiflis فى الشمال حيث لحق بالبعثة راهب دومنيكانى آخر يدعى جيوسكارد أف كريمونا Guiscard of Cremona ، ومن تفليس بدأت الرحلة التى إستمرت حوالى سته أسابيع حتى وصلو الى معسكر المغول الذى كان يتولى أمره القائد بياجو Baigu فى الخامس والعشرين من مايو عام ١٢٤٧ م وكان اللقاء بين بياجو وإسكلين بعيداً عن الصداقة ، فقد كـان كلاهما عنيداً ، وقد سجل لنا سيمون أحد رجال البعثة مادار من اقتراحات قدمت من رجال حاشية بياجو وفيها : قتل إثنين من رجل البعثة ، وإقترح آخر يقضى باعادة أسكليين إلى البابا وعلى جسده أثر الضرب بالسياط .

لم يكن بياجو راغباً فى نقل رسالة البابا إلى خان المغول ، بل طلب من رجال البعثة أن يواصلوا مسيرتهم الى منغوليا ، وقد رفض أسكلين بشدة في أول الأمر . ولكن حب الاستطلاع دفعه إلى السير إلى منغوليا بمساعدة بعض البيزنطيين والأتراك من الرهبان ، وقد تم ترجمة الرسالة من اللاتينية إلى الفارسية ثم إلى اللغة المغولية . وقد أرسل بياجو أصل

---

(١٥) عن هذه السفارة راجع:

Runciman, op. cit., III, p. 232, Setton, op. cit.. v, pp. 474-6.

الرسالة ومعه الترجمة المغولية إلى عاصمة المغول قراقورم Karakourm حيث أعدت رسالة مغولية رداً على رسالة البابا . وقد تضمنت الرسالة رداً عنيفاً يقضى بإخضاع البابا وشعبه للمغول . وبهذه الرسالة الحزينه عاد أسكلين ورفاقه إلى البابا فى صيف عام ١٢٤٨م، وعاد مع البعثه أيضاً مبعوثان مغوليان هما أيبك Aybeg وسرجيس أو سركيس Sargis ، لعل الأول مسلم تركى والثانى مسيحى ، وكان قدومها يعنى أول إتصال سلمى بين المغول وبين أحد حكام أوربا .

٤ - بعثة أندرو أف لونجومو [١٦] (المرة الأولي)

أما البعثة الأخرى التى تستحق الذكر فقد تولى أمرها الراهب الدومنيكانى أندرو آف لونجوموAndrew of longjumeau ، وأثناء ذهابه فى رحلته الى المغول زار الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ثم المنصور صاحب حمص ، وكان كلاهما على علاقات طيبة فى تلك المرحلة مع الصليبيين . وفى خطاب مؤرخ فى الثلاثين من ديسمبر عام ١٢٤٥ م موجه الى البابا ورد به على لسان المنصور إنه ومن أجل الأسباب العديدة الذي قدمتها فاننى قد نصحت الراهب أندرو ورفاقة ألا يكملوا رحلتهم الى المغول ، ويتضح من الخطاب أنه أثناء جدال المنصور مع أندرو انه لم يشر الى الأسباب التى من أجلها يرى عدم إكمال الرحلة . وأنه كان يرى أن التحالف بين المغول والصليبيين سوف يؤثر كثيراً على المنصور وسوف يضعه فى موقف حرج .

ورغم عدم تشجيع المنصور للراهب أندرو فإن الأخير واصل رحلته الى

---

(١٦) Setton, op. cit., III, pp. 520-1.

المغول ، وفى ضواحى مدينة تبريز تقابل مع جيش مغولى . كما تقابل مع الراهب النسطورى سيمون الذى يعرف باسم ربان عطا . وكان ربان هذا معروفاً عند الخان العظيم أوكيتاى . وقد ذهب ربان عطا إلى الارمن فى إقليم قيليقية عدة مرات بين سنتى ١٢٣٥ - ١٢٤٠ م ، ولعب دوراً هاماً فى رعاية شئون المسيحيين الذين يعيشون فى ظل الحكم المغولى . وقد تجادل أندروا وربان عطا لمدة عشرين يوماً ، وعندما حان وقت الرحيل فإن الراهب النسطورى ربان عطا ودع الآخر وحمله بعض الهدايا منها عصا من الخشب الأبنوس ليقدمها للبابا ، وحمل أندرو أيضاً خطاباً من ربان عطا يحث فيه البابا على أن يعقد سلاماً مع الامبراطور فريد يدرك الثانى حتى يعم السلام أوربا وتتوحد لمواجهة المغول ، وبدون هذه الوحدة الأوربية لايمكن مواجهة القوات الاسلامية ، والحقيقة الماثلة أمامنا الآن أن أندرو وربان عطا قد إستطاعا إقامة جسر دينى قوى بين المسيحيين فى الغرب الأوربى والمسيحيين فى أقصى الشرق ، هذا الجسر الذى قام فوق القوات المغولية والقوات الإسلامية . وعاد اندرو الى أوربا فى النصف الأول من عام ١٢٤٧م ومعه كل هذه التقارير . وكان أندروا أول الذين أرسلهم البابا وعادوا الى أوربا ، وتعتبر التقارير التى أحضرها معه والنتائج التى توصل اليها أفضل من النتائج التى توصل اليها المبعوثان الآخران وهما أسكلين ويوحنا أف بيان دل كاربين ، والمعروف أن الآخير قد قابل كيوك خان منغوليا العظيم، وعاد ومعه أخبار مزعجة تفيد أن هذا الخان الذى يفترض فيه من أنصار المسيحية قد رفع راية العصيان ضد كنيسة الله ، وضد الامبراطورية الرومانية المقدسة وضد كل الممالك المسحية ودول الغرب الأوربى .

لقد أيد ماورد فى الخطاب الذى حمله يوحنا للبابا من قبل المغول ماورد فى تقارير الراهب أندرو، فقد كان ماورد فى هذين الخطابين قاسياً على البابا وأوربا بأسرها ، فقد كان على البابا أن يقدم يمين الولاء والطاعة للخان الأعظم ، وكان فى ذلك إهانة للباباوية وضياع هيبتها فى العالم المسيحى ، والأهم من ذلك كله أن هذه المعلومات قد أصبحت معروفة للجميع . والخلاصة أن هذه البعثات البابوية قد وضعت البابا أمام حقيقة هامة جداً ، وهو أن الخطر المغولى أصبح العدو الأول للباباوية وأوربا ، وكانت إجابة البابا الى الخان بياجو فى خطاب أرخ فى الثانى والعشرين من نوفمبر عام ١٢٤٨ م ، وقد حمل رسالة البابا المبعوثان المغوليان اللذان قدما مع السفارة وهما أيبك وسركيس ، وفى هذه الرسالة شرح البابا للمغول العقيدة المسيحية ، وطالبهم بوقف تهديدهم .

لقد فقد البابا الثقة فى المغول وفى إقامة تحالف معهم أو الإرتباط معهم برباط الصداقة على الأقل ، وقد تبنى هذه الفكرة لويس التاسع ملك فرنسا . ورغم الصورة القاتمة التى قدمها المبعوث البابوى يوحنا أف بيان دل كاربين إلى البابا ، فقد قام الأخير بالاتصال بالملك لويس بصفة بخاصة ينصحه بالاتصال بالمغول ، وقد قرر الملك الفرنسى أن يواصل المساعى التى بدأها البابا أنوسنت الرابع ، ولقد سعى لويس فى هذا الجانب ولكنه لم يوفق فى مسعاه . ولعل ذلك مرجعة إلى أن لويس كان يسعى من جانب المغامرات السياسية ، وإنه كان يسعى لإقامه الصداقة مع القوى المغولية بإعتبارها تقع الى الشرق من العالم الاسلامى ، وكان من المهم فى البداية تحويل المغول من الوثنية إلى الديانه المسيحية .

وفى غمرة هذه الأحداث تحرك الملك لويس التاسع بحملته المعروفة فى التاريخ باسم الحملة الصليبية السابعة لمهاجمة مصر ، وقد رسا بسفنه على جزيرة قبرص وهو فى الطريق إلى مصر ، واذا كان البابا إنوسنت الرابع هو الذى بدأ بمرسلة حكام المغول ، فان العكس هو الذى حدث مع الملك لويس، ففى أثناء وجود الملك فى جزيرة قبرص وقبل أن يرحل إلى مصر، وصل إليه مبعوثان مغوليان هما مرقص وداود من قبل القائد المغولى الجيهداى الذى كان يشغل منصب نائب الخان الأعظم فى الموصل [١٧]، ومن الواضح أن هذين المبعوثين كانا من المسيحيين النساطره .

وقد قدما هذان المبعوثان رسالة مكتوبة إلى الملك لويس التاسع بالاضافة إلى رسالة شفوية وكان فى كلاهما مايثير الدهشة ، فقد كان ماورد فيها أن كيوك وبعض رجال المغول البارزين ومنهم الجهيداى نفسه قد اعتنقوا الديانة المسيحية ، وأن الخان الأعظم قد أرسل الجهيداى إلى الغرب لعله يستطيع أن يساعد الصليبيين لإستعادة الأراضى المقدسة ، وأن المغول متحمسين إلى الدخول فى حلف مع ملك فرنسا ، كما كان من خطط المغول أن يتجهوا إلى بغداد فى الوقت الذى يهاجم فيه لويس سلطان مصر حتى لاتساعد القوات الايوبية الخليفة العباسى ، وبذلك يصبح الحلم القديم حقيقة وهو الحلم الذى ساد إعتقاد الغرب بظهور

---

(١٧) Runciman, op. cit., III, pp. 259- 60.

الكاهن يوحنا ملك المسيحيين فى الشرق ويضرب المسلمين من الخلف[(١٨)] .

كان فى كل هذا تحول كبير لموقف المغول الذى أبلغ للبابا أنوسنت الرابع، ولكن الأحداث سوف تسفر عن غير ذلك ، وأن الحديث والاتفاق شئ والواقع شئ آخر لأن كل مادار بين داود ومرقص والملك لويس التاسع لم يكن سوى هراء بعد أن تصور الطرفان أن بالأمكان تنفيذ ماتم الاتفاق عليه .

لقد كانت السفارة التى أرسلها المغول إلى الملك لويس عملا كبيرا من الوجهة الرسمية ، كما إعتبرت السفارة عملا دبلوماسيا قام به المغول واستجاب له الملك لويس، وقد حاول كلا من الجانبين المغولى والفرنسى إستغلال الآخر لمصلحته . ومن ذلك يتضح انه حدث تطابق مرحلى لأهداف كل منهما، وهذا الهدف هو القضاء على القوة الايوبية فى مصر والشام . وبالنسبة للملك لويس فهو أمر يسهل عليه تحقيق هدفه الرئيسى وهو استعادة الأراضى المقدسة، أما بالنسبة للمغول فان القضاء على القوات الأيوبية فى مصر يسهل عليهم القضاء على الخلافة العباسية فى بغداد إعتقادا منهم أن مصر لن تقف مكتوفه الأيدى اذا ما تعرضت الخلافة العباسية للخطر . وربما يكون فى السفارة المغولية إلى قبرص نوع من التجسس على نوايا وتحركات الغرب الأوروبى ممثلة فى تصرفات الملك الفرنسى لويس .

---

(١٨) Setton, op. cit. III, p.p. 522-3.

وعلى أية حال لم يكن أمام الملك لويس سوى الترحيب بالسفارة المغولية التى يرى فيها نية تحالف المغول مع الغرب الأوربى ضد المسلمين بعامة وفى مصر والشام وبغداد بخاصة ، ومن جانب آخر كان الملك الفرنسى يعلق آمالا كبيرة على دخول العناصر المغولية فى الديانة المسيحية خاصة بعدما صور اليه البعض ميول الخان العظيم كيوك إلى بعض المسيحيين النساطرة ، وتعين عدد منهم فى بعض الوظائف القيادية الهامة فى دولة المغول، وتخيل الملك الفرنسى أن الوحدة الدينية بين المغول وأوربا ستكون المدخل الطبيعى إلى التحالف العسكرى بين أوربا والمغول للقضاء على المسلمين فى منطقة الشرق الأدنى الاسلامى خاصة الدولة الأيوبية .

١ - سفارة اندرو أف لونجومو (المرة الثانية)

والحقيقة أن الملك لويس قد أكرم وفاده السفارة المغولية وأبدى إستعداده تماما للتحالف مع المغول ، لأنه لم يكن بوسعه أن يفعل غير ذلك . وإلى جانب ذلك أعد الملك سفارة من لدنه لمرافقه البعثة المغولية عند عودتها إلى القيادة المغولية . وكانت البعثة الفرنسية مكونة من بعض الرهبان من جماعة الدومنيكان على رأسها أندرو أف لونجومو An-drew of Longiumeau وأخوة وليم لمعرفتما باللغة العربية والثالث هو أحد رجال الدين من مدينة عكا يدعي ڤيودلف Theodulf وقد تولى أندرو رئاسة هذه السفارة نظر لخبرته بأمور الشرق السابقة . وسوف يطول غياب هذه السفارة حوالى عامين [١٩].

---

(١٩) Setton, op. cit, V, p. 477.

والمهم هنا أن الملك لويس أرسل مع سفارته خيمة من قماش بلون قرمزى فى شكل كنيسة صغيرة وذلك بقصد جذب أنظار المغول إلى الديانة المسيحية، بالاضافة إلى بعض التماثيل التى صنعت من الحجارة ، ومن هذه التماثيل تمثال للملاك جبريل وهو يحمل البشارة للسيدة مريم العذراء ، وبعض التماثيل الأخرى المتعلقة بالديانة المسيحية. ويلاحظ أن عضوين من سفارة الملك لويس كانا يعرفان اللغة المغولية ، وكان بوسعهما أن يعلما المغول القواعد الاساسية للديانة المسيحية وأن يقنعوهم بقبولها [٢٠].

غادرت السفارة الفرنسية والمغولية جزيرة قبرص واتجهت إلى مدينة أنطاكية الصليبية كما ذكر المؤرخ جوانفيل. ومن أنطاكية اتجهت إلى الموصل حيث معسكر الجهيداى . وعند هذه المرحلة كان الموقف السياسى المغولى قد تغير تماماً ، فقد مات الخان الأعظم كيوك ، لذلك وجد الجهيدى أن من الحكمة ألا يتصرف من نفسه مع السفارة الفرنسية ، ورأى أنه من الأفضل أن يوجه السفارة إلى الوصية على العرش المغولى فى العاصمة قراقورم وهى أوغول قاميش - أرمله الخان كيوك - لأن الصراع على السلطة لاختيار خليقة للخان الأعظم كان على أشده . وكان على السفارة الفرنسية أن تواصل الرحلة من الموصل إلى العاصمة المغولية [٢١].

ظلت أغول قاميش وصية فى الفترة ١٢٤٩ - ١٢٥١م ، ورغم وضعها

---

(٢٠) Joinville, op. cit, p. 282.

(٢١) Ibid, p. 287.

المشكوك فيه ، الا أنها فعلت ما فى وسعها لإرضاء السفارة الفرنسية. وفى نهاية الأمر غادرت السفارة الفرنسية ومعها سفارة من قبل المغول من العاصمة قراقورم فى طريقها إلى بلاد الشام حيث كان الملك لويس موجوداً فى مدينة قيسارية . وكانت حملة لويس التاسع قد هزمت فى مصر كما أسر الملك لويس فى المنصورة ، وبعد فشل الحملة وفك أسر لويس غادر مدينة دمياط إلى بلاد الشام حتى وصل إلى مدينة قيسارية (٢٢) .

والمهم هنا أن السفارة المغولية المصاحبة للسفارة الفرنسية قد تقابلت مع الملك لويس فى ابريل عام ١٢٥١م، وقد قدمت السفارة المغولية ، رسالة إلى الملك لويس ، وقد ورد في هذه الرسالة أن الوصية على العرش المغول أوغول قاميش قد اعتبرت الهدايا التى أرسلها الملك لويس بمثابة جزية من الملك كتابع لأسياده المغول، وأن المشاكل التى تمر بها دولة المغول بسبب وفاة الخان العظيم تمنعها من إرسال حملة عسكرية إلى البلاد الإسلامية فى تلك المرحلة . وقد ذكر المؤرخ جوانفيل أن ما ورد برسالة المغول لا يعدو أن يكون إنذارا من المغول إلى الملك لويس الذى إعتبره المغول تابعا لهم ، وان الهدايا التى أرسلها الملك إلى الخان المغول تعتبر جزية، وعلى الملك أن يتابع إرسال هذه الجزية سنويا لحكومة المغول حتى لا يتعرض الملك والشعب الفرنسى للغزو كما تعرضت له شعوبا أخرى من قبل (٢٣).

---

(٢٢) Joinville, op. cit., p. 287.

(٢٣) Loc. cit.

لقد خاب أمل الملك لويس فى السفارة التى أرسلها للمغول، لأنه كان يتمنى أن تعود السفارة بمساندة ايجابية للملك يعوض بها خسارته وهزيمته فى حملته على مصر، خاصة انها لم تكن هزيمة عادية ، بل هزيمة مهينة أعقبها وقوع الملك أسيرا في أيدى المسلمين . والواقع أن الملك لويس لم يكن قد تفهم حتى هذه المرحلة سياسية المغول وهى الخضوع إما سلما أم حرباً لدولة المغول .

ورغم هذا كله فان الملك لويس لم ييأس ، والواقع أن الملك لويس كان يسعى من جانبه إلى أمرين، أولهما محاولة جذب المغول إلى الديانة المسيحية؛ ويعتبر ذلك إن تم نصرا للملك لويس المعروف باسم القديس لويس، ومن جانب آخر فهو يريد تحالفا عسكريا مع المغول لضرب الدولة الأيوبية التى تسيطر على مصر والشام وأنزلت به هزيمة قاسية على ضفاف النيل . ولعل ما شجع الملك لويس على معاودة إرسال سفارة أخرى للمغول هو ما شاع فى تلك المرحلة عن تحول الأمير المغولى سارتاق بن باطو إلى الديانة المسيحية.

٢ - سفارة وليم روبرك وبارثليمو أف كريمونا [٢٤]

ولما كان سارتاق من أمراء القبيلة الذهبية التى تحكم بلاد القفجاق الواقعة إلى الشمال من البحر الأسود ، لذلك انصب تفكير الملك لويس على إرسال بعثة ثانية إلى القفجاق . وقد تكونت البعثة من راهب

---

(٢٤) سجل وليم روبرك رحلته في أكثر من مائة وعشرين صفحة، ويمكن للباحث الرجوع اليها وهنا أقدمها بإيجاز شديد أنظر:

William of Rubruck, the Journey. cf. Dawson, op. cit., pp. 89-115.

فرنشيسكانى هو وليم أف روبرك William of Robruck [٢٥]، وأخر دومنيكانى هو بارثليميو أف كريمونا Bartholomew of Cremona فى محاولة من الملك لمساعدة المغول للصليبيين فى بلاد الشام . وقد رحلت السفارة الفرنسية من مدينة قيسارية مقر إقامة الملك لويس فى بداية ربيع عام ١٢٥٢م وإتخذت طريقها إلى القسطنطينية . وقد استقرت البعثة هناك لبعض الوقت لتقصى أخبار مغول القفجاق ، ومنها إبحرت البعثة في البحر الأسود حتى شبه جزيرة القرم Crima ، وهى مركز تجارى هام ، ولعل أفراد البعثة قد استفادوا الكثير من المعلومات التى تلقوها من التجار عن المغول، وقد لاحظت البعثة تعدد الديانات الى يعتنقها أهل هذه المناطق ومنها الديانة الاسلامية[٢٦] .

لقد قاست البعثة الكثير من السير بالعربات بعد مغادرتها شبة جزيرة القرم لأن البعثة كانت تسير فى أراضى خالية من المدن أو القرى وكانوا ينامون تحت عرباتهم حتى وصلوا إلى مقر إقامة سارتاق وهي مدينة سراى الواقعة على نهر الفولجا [٢٧].

تم اللقاء بين البعثة الفرنسية وبين الأمير المغولى سارتاق بعد إتمام المراسم الواجب على البعثة القيام بها ، وقد قدم روبروك خطاب الملك

---

(٢٥) William of Rubruck op. cit., pp. 155- 6.

(٢٦) Ibid, pp. 117- 119.

(٢٧) Ibid, pp. 119- 122.

لويس إلى سارتاق، وبعد أن علم بمضمون رسالة الملك ومنها بقاء البعثة فى الاراضى التى يسيطر عليها المغول للتبشير بالديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكى والتحالف مع الملك لويس لمحاربة المسلمين ، أحس سارتاق أنه لا يملك الموافقة على أمور خطيرة كهذه ، لذلك طلب سارتاق من البعثة التوجه إلى والده الخان باطو المقيم فى مدينة سراى للموافقة على ذلك ، وكان فى هذا التصرف ردا كافيا من الأمير سارتاق بانه لم يعتنق المسيحية[٢٨].

واصلت البعثة السير مع مرشدين إلى مقر إقامة باطو ، ويتضح من النصوص أن الخان باطو قد احيط علما بأمر هذه البعثة، فأعد اللازم لاستقبالها فى خيمة كبيرة أعدت لهذا الغرض . وعندما التقى روبروك بالخان باطو، بدأ روبروك بالحديث عن الهدف من قدومه وأبلغه أن الملك لويس قد أرسله إلى الأمير سارتاق عندما علم بأنه اعتنق الديانة المسيحية، كما أبلغه أيضا أن الملك لويس قد أعد العدة لمحاربة المسلمين وأنه يأمل فى التحالف مع المغول لتنفيذ ذلك والاستيلاء على الأراضى المقدسة. ولم يكن بوسع الخان باطو الموافقة على طلب البعثة أو على جزء منها، فطلب من البعثة التوجه إلى العاصمة قراقورم لمقابلة الخان الأعظم مونكو لعرض الأمر عليه، لأنه الوحيد الذى يملك هذه السلطة ، وقد وافق روبروك على ذلك[٢٩].

---

(٢٨) William of Rubruck., op. cit., p. 129.

(٢٩) Ibid, pp. 123 ff.

وقد زود الخان باطر البعثة الفرنسية بالأدلاء اللازمين حتى تصل إلى مقر الخان عند قراقورم ، وقد بدأت البعثة رحلتها حوالى منتصف سبتمبر ١٢٥٣م حتى وصلت فى أواخر ديسمبر من العام نفسه ، أى أن الرحلة استغرقت حوالى ثلاثة أشهر ونصف . وفى نهاية الأمر تقابل رويروك وزميله مع الخان مونكو، ولكن هذه المقابلة لم تسفر عن موافقة صريحة من الخان الأعظم لطلب الملك لويس . والخلاصة أن فكرة البعثة قد بدأت بشائعة أن الأمير سارتاق قد اعتنق المسيحية وانتهت إلى لا شيء بعد رحلة طويلة بدأت من قيسارية إلى القسطنطينية ثم إلي شبه جزيرة القرم فإلى مدينة سراى على نهر الفولجا ثم إلي قراقورم . والحقيقة أن المغول كانوا يتعاملون بسياسة التسامح مع كل الأديان ، كما أن المغول قد وثقوا فى بعض المسيحيين النساطرة وانهم أسندوا إليهم بعض المناصب الهامة ، كما أن حكام المغول كانوا يحضرون بعض الاحتفالات الدينية للنساطرة وللمسلمين أيضا . ولعل البعض قد توهم فى ذلك ، تحول بعض المغول إلى المسيحية وأشاعوا ذلك ، وتحولت الشائعة إلى حقيقة صدقها باباوات وحكام أوربا فى تلك المرحلة (٣٠).

الأرمن والمغول

وفى عام ١٢٥٣م قام الملك هيثوم الأول Hethoum ملك أرمينية الصغرى (١٢٢٦ - ١٢٦٩م) بنفسه لزيارة الخان الأعظم مونكو فى العاصمة قراقورم ، وكان أول ملك يصل الى البلاط المغولى من تلقاء

(٣٠) William of Rubruck, op. cit., pp. 133ff.

نفسه ، وقد تم إستقباله بكل ترحاب ، ولقد وعد المغول بعدم فرض ضرائب على الكنائس والاديرة الأرمينية التى تقع فى الأراضى المغولية ، ولم تكن زيارة هيثوم قاصرة على حماية المسيحية الذين يعيشون على أرض المغول ، ولكنه كان يريد الحصول على مساعدة المغول للسيطرة على الأراضى المقدسة وإنتزاعها من أيدى المسلمين (٣١).

وقد عاد هيثوم فى عام ١٢٥٦م متشجعاً بالوعود التى بذلها المغول محملا بالهدايا ، وكان هيثوم قد سار فى رحلته الى المغول عبر أرمينيا الكبرى ومر بها عند عودته أيضاً ، وفى هذه المرة الأخيرة ظل فترة طويلة إستقبل خلالها العديد من الأمراء المحليين والأساقفة ورؤساء الأديرة ، وكان الملك الأرمن ليوالثانى Leo II (١١٨٧ - ١٢١٩م) يعتبر نفسه ملكاً على كل الأرمن ، وقد سجل ذلك على بعض عملاته ، ولكن زيارة الملك هيثوم تعتبر أول زيارة يقوم بها حاكم قيليقة الأرمينى بإتصال مباشر مع السكان فى أرمينيا الكبرى (٣٢) .

وحاول هيثوم أن يكسب الأمراء الصليبيين إلى جانبه ليؤيدوا فكرة التحالف مع المغول ، ولكنه لم يوفق إلا مع أمير أنطاكية بوهمند السادس Bohemond VI (١٢٥١ - ١٢٦٨ م) ، ولقد ظل هيثوم متفهماً ومخلصاً لهذه الفكرة ، وقام من جانبه بزيارات متعددة إلى بلاط

---

(٣١) Setton, op. cit., II, pp. 652-3.

(٣٢) عن هذه القلاع راجع:

Runciman, op. cit., I, pp. 195-7, Setton, op. cit., II, p. 653.

المغول ، وقدم مساعداته العسكرية للمغول عندما طلب منه ذلك. ولقد حاربت الفرق الأرمينية إلى جانب القوات المغولية فى آسيا الصغرى وبلاد الشام . وقد أدت هذه المساعدة الى تقدم هيثوم وإستعادة بعض القلاع التى كان سلاجقة الروم قد إستولوا عليها ، وهى القلاع التى كانت تابعة للأمير الأرمينى كوخ باسيل Kogh Vasil(٣٣) .

لقد كان فى عودة هذه القلاع الى أرمينيا بداية المنافع التى حصل عليها الأرمن من جراء تحالفهم مع المغول ، ولقد نجح هيثوم أيضاً فى حروبه مع سلطان سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى قلج أرسلان الرابع (١٢٥٧ - ١٢٦٧م) وإنتصر عليه ، وعلى التركمان الذين إستقروا على حدود قيليقية فى عام ١٢٥٩م .و لقد أخترق صفوفهم وجرح قائدهم قرامان Karaman جرحاً مميتاً ، ودافع عن منطقة سليوقية Seleucia ضد هجماتهم فى عام ١٢٦٣م . وكان على الأرمن أن يتحملوا نتيجة تحالفهم مع المغول خاصة بعد هزيمه كتبغا فى معركة عين جالوت ، وبعد إسترداد المسلمين لمدينة دمشق وحلب وضعف النفوذ المغولى فى بلاد الشام ، ولقد دفعت أرمينيا ثمن تحالفها مع المغول عندما وقفت قواتها ضد المسلمين أعداء الصليبيين والمغول (٣٤).

---

(٣٣) Setton, op. cit., II, p. 653.

(٣٤) انظر ما سبق ص ١٠٥ وما بعدها، راجع أيضا:

Sambat, La Chronique, Introduction, Traduction et Notes, Paris, 1980, pp. 118- 9.

وحاول هيثوم ملك أرمينيا التفاوض مع بيبرس ، وتم تبادل السفراء بينهما ، لكن طلبات السلطان كان مبالغ فيها ،وأحس هيثوم أن الحرب مع المماليك واقعة لامحالة ، فذهب الى تبريز يطلب معونة المغول ، وفى تلك المرحلة عاجل السلطان بيبرس بدفع أمرائه وقواته مع قوات المنصور الثانى صاحب حماه لغزو قيليقية . وقد مرت هذه القوات عبر ممرات الأمانوس Amanus بدلاً من المرور عبر ممرات سوريا وذلك فى عام ١٢٦٦ م . وقد حاولت القوات الأرمينية بقيادة الكندستبل سمباد والأميران الصغيران ثوروس وليون Toros and leon مقاومة القوات الإسلامية بكل مالديها من قوة . ولكن القوات الأرمينية هُزمت فى هذه المعركة ، وقد قتل ثوروس كما أسر الكثير كان من بينهم الأمير الأرمينى ليون ، وقد دام إجتياح القوات الإسلامية البلاد الأرمينية مدة عشرين يوماً دون أن تبدى القوات الأرمينية أيه مقاومة فيها ، وقد إجتاحت فيها مدن المصيصه وأدرنه وأياس وطرسوس وبعض المدن الأخرى . وفى مدينة سيس أضرمت القوات الإسلامية النار فى كاتدرائيتها وأخذت كنوزها وكل ماتجمع من مجوهرات بداخلها ، كما ذبحت القوات الإسلامية الآلاف من السكان وحملت العديد منهم أسرى الى مصر ، وعندما عاد هيثوم من رحلته الى المغول فى تبريز وجد بلاده خراباً ، وقد أثر ذلك عليه كثيراً ، وظل ينتظر عودة إبنه ليون Leon من الأسر حتى يتخلى عن العرش والتماس السلوى فى أحد الأديرة [٣٥].

---

(٣٥) انظر ص ٣٢٩، راجع أيضا:

Sambat, op. cit., pp. 119- 120

وبعد هزيمة القوات الأرمينية فرض بيبرس على مملكة أرمينيا شروطاً قاسية ، فقد طلب تسليم كل القلاع الموجودة فى منطقة الأمانوس وكل القلاع المقامة على الحدود مع بلاد الشام بإستثناء مدينة بهنسي . كما تم إطلاق سراح الأمير ليون بعد إتصالات عديدة مقابل إطلاق سراح الأمير سنقر الأشقر - المقرب الى بيبرس وهو الذى أسره المغول فى حلب [٣٦].

لقد أستسلمت قيليقية للقوات الإسلامية ، وتخلى فرسان الداوية عن قلعة بغراس والقلاع المجاورة لها ، وأصبح الطريق مفتوحاً أمام القوات المملوكية ، ولم يعد هناك سوى المغول الذين أصبح بإمكانهم تقديم المساعدة للأرمن ضد القوات المملوكية . ورغم هذا كله فإن وضع الأرمن أصبح ضعيفاً عما كان عليه فى عهد هولاكو ، وعندما أطلق سراح ليون إصطحبه والده هيثوم إلى إبغا ليصبح ليون تحت حمايته ، وأن يصبح أبغا وريثاً لمملكته من بعده ، وبعد أن إعتزل هيثوم فى عام ١٢٦٩م عاد ليون من بلاط المغول ليصبح ملكاً على أرمينية . واعتقد ليون المعروف بالثالث (١٢٧٠ - ١٢٨٩م) فى التحالف مع المغول وهو الأمل الذى رآه ليون لإنقاذ الأراضى المقدسة[٣٧].

وقد إلتمس ليون المساعدة من الغرب الأوربى أيضاً ، كما أن القائد المغولى أبغا قد أرسل السفراء بدوره إلى البابا فى روما وإلى إدوارد الأول إنجلترا من أجل التحالف ضد المماليك ، ولكن ذلك لم يسفر عن

---

(٣٦) Setton, op. cit., II, p. 654.

(٣٧) الداودار: المصدر السابق - ص٣٨٣ - ٣٨٤.

عمل ملموس ، لقد أصبح من المؤكد أن مثل هذا التحالف ، أصبح غير ممكن ولن يصاحبه أى نجاح . وفى غياب أى عمل عسكرى أوربى أو مغولى نجح المماليك فى إستكمال إنتصاراتهم العسكرية وتمكنوا خلال سنوات قليلة أن يستولوا على الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام وأن يحطموا فى الجزء الأول من القرن الرابع عشر مملكة أرمينية (٣٨).

لقد أعطت أعمال بيبرس العسكرية ضد الصليبيين الفرصة للملك الأرمينى ليون فى بداية عهده أن يصلح مادمرته القوات الإسلامية فى أرمينية ، فبادر بإعطاء إمتيازات أجنبية للبنادقة فى بلاده عام ١٢٧١م ، وكما تم إعادة بناء مدينة إياس وأصبحت مركزاً تجارياً كبيراً. ولقد ذكر الرحاله ماركوبولو الذى زار المدينة عام ١٢٧١م بقوله « وهى مكان تدور فيه تجارة ضخمة ، ويكثر التجار من التردد على مينائها قادمين من البندقية وجنوه ومن أماكن أخرى كثيرة ، وهم يتاجرون فى التوابل والعقاقير والبضائع المختلفة كالمنسوجات والحرير والصوف وغير ذلك من السلع الثمينة ، ومن المتبع أن من يريدون السفر الى البلاد الداخلية فى الشرق أن يقصدون هذا الثغر » (٣٩) وعندما إستعاد المسلمون المدن الساحلية الصليبية ، تحولت التجارة إلى مدينة اياس وأصبحت ميناء هام وزاد نموها ، وأصبحت الميناء الرئيسى فى حوض البحر المتوسط للبضائع التى تأتى من أواسط آسيا ، ولكن أهميتها وثرواتها قد جعلها هدفاً رئيسياً لغارات القوات المملوكية .

---

(٣٨) Marco Polo, op. cit., p. 46.

(٣٩) Loc. cit.

لقد بدأت الغارات المملوكية على الأرمن فى عام ١٢٧٥م ، وكانت سريعة ومخربة وتقدمت حتى حصن كريكوس Carycus . وفى الوقت نفسه تقدمت عناصر التركمان ودخلت قيليقية من الغرب . ورغم مقاومتها، فإنها تقدمت داخل الأراضى الأرمينية سنة بعد أخرى . وقد زاد قيام بعض الثورات داخل البلاد من صعوبة التعامل مع القوات المملوكية خاصة أنه فى تلك المرحلة لم يكن هناك مساعدات مغولية للمملكة الأرمينية ، ولكن تقدم القوات المغولية الى سوريا فى عام ١٢٨١ م كانت عاملاً خطيراً فى موازين القوى فى تلك النواحى منذ موت هولاكو. لقد حارب الأرمن إلى جانب المغول . ولكن السلطان قلاوون نجح فى هزيمة القوات المغولية والأرمينية بعد أن نجح فى ايقاف الصليبيين موقف الحياد[٤٠] .

ووقعت أرمينية فريسة للسلب والنهب من قبل القوات المصرية والتركمانية فضلاً عن الأكراد ، وإشتعلت النار فى مدينة أياس ، وسلبت المنازل وهجرها سكانها الكثيرون الذين هربوا إلى القلاع التى بنوها حديثاً بعيداً عن البحر ، ولم يكن أمام الملك ليون سوى إرسال السفراء إلى مصر لطلب السلام ، ولكن هؤلاء السفراء ظلوا سجناء حتى تدخل مقدم جماعة الداوية فى هذا الأمر . وهناك عامل آخر ظهر فى تلك المرحلة هو أن الخان المغولى أرغون كان متعاطفاً مع الصليبيين ، لذلك ذهب الملك الأرمينى ليون الى بلاط المغول ليقدم فروض الولاء والطاعة . وقد خشى قلاوون من تدخل المغول ، لذلك عقد هدنه

---

(٤٠) Setton, op. cit., II, p. 655.

مدتها عشرة سنوات مع الصليبيين بدأت من شهر يونيه في ١٢٨٥م ، وذلك مقابل جزية سنوية قيمتها مليون دينار مع منح مزايا كثيرة للمصريين . ولكن هذا السلام الذى عاد على المصريين بالفوائد المادية الكثيرة لم يستمر طويلاً (٤١) .

وبعد سقوط عكا وطرابلس وتولى هيثوم الثانى حكم أرمينيه (١٢٨٩ - ١٢٩٣ م) كانت القوات المملوكية فى حمص ، وحاول هيثوم ابعاد خطر القوات المملوكية عن بلاده ، فقدم الى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م مبلغاً كبيراً من المال ، وقد قبله السلطان حتى يستكمل غزو الاراضى التى كانت فى حوزة الصليبيين . وفى ربيع عام ١٢٩٢م سارت القوات المملوكية حتى وصلت الى مدينة هرومجلا Hromgla (قلعة الروم) ، وقد قاومت القلعة لمدة ثلاثة وثلاثين يوماً ، وفى النهاية تم إجتياحها بقوة السلاح (٤٢).

فى الحادى عشر من مايو من العام نفسه ، وقد وقعت مذبحة رهيبة قتل فيها العديد ، كما أخذ الكثير أسرى ومنهم الجاثليق ستيفن الرابع Stephen IV نفسه ، وقد نهبت القوات المملوكية الكنائس ومقر إقامة الجاثليق وخربت وسلبت المخلفات المقدسة وكنوز الكنيسة ، واعتبر سقوط هرومجلا نصراً كبيراً ، وقد إستقبل السلطان فى دمشق إستقبالاً مشرفاً ، وظلت الطبول تدق طوال الليل على أنوار الشموع (٤٣) .

---

(٤١) Runciman, op. cit., III, p. 395, Setton, op. cit., p. 655.

(٤٢) المقريزي: المصدر السابق - جـ ق٣ - ص ص٧٨٤. أنظر أيضاً:

Setton, op. cit., II, p. 656.

(٤٣) Loc. cit.

ولم تدخل القوات المملوكية بلاد الأرمن على الفور ، وفى عام ١٢٩٣م تلقت القوات المملوكية الموجودة فى دمشق الأوامر للتقدم الى مدينة سيس sis . وعلى أثر ذلك تحرك الملك الأرمينى وأرسل السفراء ، وفى النهاية أجبر الأرمن على التخلى عن ماتبقى من قلاع على الحدود وهى بهسنى وتل حمدون وأن يضاعفوا الضريبة التى كان يدفعها الأرمن من قبل . مات الاشراف فى أواخر عام ١٢٩٣م ، واغتصب العرش السلطان كتبغا (١٢٩٤ - ١٢٩٦) كما إجتاحت المجاعة والطاعون مصر والشام [٤٤] .

وقد أدى هذا كله إلى راحة الأرمن من الخطر المملوكى ، وان الملك هيثوم الذى كان قد تنازل عن العرش لأخيه ثوروس الثالث فى عام ١٢٩٣ م قد عاد إلى العرش مرة أخرى ولمدة عامين (١٢٩٩ - ١٣٠١م)، وقد وطد الروابط مع مملكة قبرص وهى المملكة الوحيدة المسيحية التى ظلت باقية بعد سقوط الأمارات الصليبية فى بلاد الشام ، وقد زوج أخته إيزابيلا إلى عمورى أخ الملك هنرى الثانى ملك قبرص ، وحاول هيثوم أيضاً إحياء التحالف مع المغول ، وذهب لزيارة حفيد هولاكو الخان بايدو Baido فى فارس (١٢٩٥م) ، وبينما كان هيثوم موجوداً فى مراغة إستطاع أن ينقذ من التخريب الكنيسة السريانية التى شيدها ربان سوما Rabban Souma وأن يحمى البطريق النسطورى ماريا ياهبالاها Mar Yahballahah الثالث [٤٥].

---

(٤٤) المقريزي: المصدر السابق - جـ١ ق٣ - ص٨٠٦- ٨٠٩.

(٤٥) Bar Hebraeus, op. cit. p. 506.

وعندما إستولى غازان (١٢٩٥ - ١٣٠٣م) على السلطة من بايدو ذهب هيثوم إلى غازان وتلقى منه وعداً بحماية الكنائس المسيحية ، ويحتمل أنه تلقى منه وعداً بتحالف عسكرى ، وعند عودة هيثوم الى مدينة سيس فى عام ١٢٩٥م رتب زواج أخته ريتا Rita وميخائيل التاسع Michaél IX (١٢٩٤ - ١٣٠٢م) ابن وشريك الامبراطور البيرنطى أندرونيق الثانى باليولوج Andronicus II Palaleologus (١٢٨٢ - ١٣٢٨ م) فى العرش [٤٦].

ومن أجل إقامة تحالف مع الإمبراطورية البيزنطية ، إتجه الملك هيثوم بنفسه الى العاصمة البيزنطية وإصطحب معه إبنه ثوروس ، وخلال غيابة عن أرمينية قام أخية سمباد وإستولى على السلطة عام ١٢٩٦م ، وسانده فى ذلك الجاثليق جريجورى السابع والبابا بونيفاس الثامن فى روما [٤٧].

تأثرت قيليقية كثيراً بالصراع الداخلى ، ولما عاد هيثوم الى بلاد سعى للحصول على تأييد المغول ، ولكنه لقى مقاومة من أخيه سمباد عند مدينه قيصرية وتم القبض عليه وسجنه مع أخيه ثوروس ، ثم شنقه بعد ذلك ، أما أخوه هيثوم فقد أصيب بضرر كبير فى بصره ، ولكن الاخ الاصغر قسطنطين نجح فى طرد سمباد من المملكة وأطلق سراح أخيه هيثوم ، ثم استولى قسطنطين على السلطة عام ١٢٩٨ م ، وبعد عام

---

(٤٦) Setton, op. cit., II, p. 656 - 7.

(٤٧) Loc. cit.

شفى هيثوم واستعاد السلطة للمرة الثالثة ونفى أخواه سمباد وقسطنطين إلى القسطنطينية حيث عاشا هناك (٤٨).

كان ماحدث عاملاً مشجعاً للمماليك على غزو مملكة أرمينيا ، وساعد على ذلك ماأصاب الجانب المغولى من إنشغال بالأمور الداخلية . وفى عام ١٢٩٨ إجتاح المماليك مدينة أدنه والمصيصة واستولوا على احدى عشر قلعة من بينهم مرعش وتل حمدون ، وهى المدن التى سبق أن تخلى عنها الأرمن من قبل ثم إستعادوها . ورغم هذا كله كان هيثوم لايزال يطمع فى مساعدة المغول ، وقد بدا لبعض الوقت أنه يمكن إتمام هذا التحالف وهزيمة المماليك . فلقد قاد الخان المغولى غازان حملة على الشام إشترك فيها هيثوم بحوالى خمسة آلاف من رجاله ، وكان اللقاء عن مدينة حمص فى ديسمبر عام ١٢٩٩م، ولكن غازان مالبث أن عاد بسرعة بعد أن دخلت القوات المملوكية بلاد الشام . وكانت الحملة الثانية عام ١٣٠١م وكان للأحوال المناخية عاملاً كبيراً فى فشل هذه الحملة ، أما الحملة الثالثة فقد كانت فى عام ١٣٠٢ م وقد انتهت بكارثة ، فقد غرق الكثير من القوات المغولية فى فيضان نهر الفرات فإنسحب هيثوم مع القوات المغولية وذهب الى بلاط الخان غازان قبل أن يعود الى بلاده (٤٩).

---

(٤٨) Setton, op. cit., II, p. 657.

(٤٩) رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ - تاريخ غازان خان - دراسة وترجمة الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد - الدار الثقافية للنشر - القاهرة ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م - ص١٦٠ وما بعدها.

أصبح الطريق مفتوحاً الى أرمينية مرة أمام القوات المملوكية ، وفى عام ١٣٠٢ م قام أمير حلب بحملة سريعة فأحرق المحاصيل وإستولى على الكثير من الأسلاب ، وفى عام ١٣٠٤م إستولى المماليك على مدينة تل حمدون التى إستعـــادها هيثوم بعد إنتصار المغول المؤقت عام ١٢٩٩ . وعادت القوات المملوكية فى عام ١٣٠٥ ، رغم مساعدة بعض القوات المغولية التى كانت تقوم بجمع الجزية السنوية للقوات الأرمينية فقد تكبد الأرمن خسائر فادحة ، وقد وقعت الهزيمة بعد وصول بعض القوات من مصر(٥٠) . وقد عبر الرحالة مارينو سانودو Marino Sanudo عن الحالة السيئة التى وصلت اليها بلاد الأرمن فى تلك الرحلة ، وكتب يقول لقد وقعت بلاد الأرمن بين أنياب أربع وحوش وهم الأسد أو المغول الذين دفع لهم الأرمن جزية كبيرة ، والنمر أو السلطان المملوكى الذى قام بعمليةغزو يومية للبلاد ، والذئب أو الترك الذى قضى على قوة الأرمن ، والرابع وهو الحية أو القراصنة الذين نخروا فى عظام المسيحية فى أرمينيا(٥١) . وزادت هذه المشاكل عندما تحول المغول إلى الإسلام وبذلك فقد الأرمن الأمل في أية مساعدات مغولية حقيقية .

وتنازل هيثوم عن العرش لابن عمه ليون الرابع (١٣٠١ -١٣٠٧ م) وسلك الرهبانية وتميز عهد ليون بالاضطراب الداخلى . وكان لسياسة هيثوم السابقة مع البابوية دوراً كبيراً فى ذلك ، وكانت النهاية غير متوقعة ووقعت فى السابع عشر من شهر نوفمبر عام ١٣٠٧ م . فقد قام

---

(٥٠) المقريزي: المصدر السابق - جـ١ ق٣ - ص٩٤٩.

(٥١) Setton. op. cit.. II. p.p. 657 -

الأمير المغولى بلارغوBilarghu بقتل هيثوم والملك ليون ومعهم أربعين من الأرمن الذين كانوا معهم فى مذبحة أعتبرت خيانه للأمن[٥٢] .

القبيلة الذهبية وبيزنطة

تعتبر القبيلة الذهبية Golden horde الجزء الغربى من إمبراطورية المغول ، وقد تمتعت منذ قيامها بطابع إستقلالى اكثر من أى جزء آخر بين أقسام امبراطورية المغول . ويرجع ذلك الى الوضع الاستثنائى الذى تمتع به الزعيم باطو . وكان للحاكم الأول وهو باطو والحاكم الثانى وهو سارتاق وضع خاص فى امبراطورية المغول . ويتضح ذلك مما ذكره وليم روبروك سفير الملك الفرنسى لويس التاسع الى المغول ، فقد وضع وليم روبروك كلا من الخان مونكو وهو خان المغول الأعظم فى منغوليا على قدم المساواة مع باطوخان القبيلة الزرقاء (فرع من القبيلة الذهبية) ، وذكر أنهما عينان فى رأس واحده ، ورغم انهما اثنان ، إلا ان لهما رؤية واحدة[٥٣].

وتحت قيادة الخان بركة (١٢٥٧ - ١٢٦٦م) أصبحت القبيلة الذهبية أكثر استقلالاً ، ولعل ذلك مرجعه الى أن قو بيلاى الخان الاعظم فى منغوليا لم يكن له إتصال كبير مع القبيلة الذهبية البعيده الاقليم .

أما الاتصالات بين الخان الأعظم قوبيلاى وخانات فارس فقد كانت أكثر اتصالاً . ولم يكن ذلك لقرب المسافة بين منغوليا وايران ولكن بفضل الاتصال البحرى بين الصين وفارس ايضاً ، رغم ان هذا الطريق

---

(٥٢) Setton, op. cit., II, p. 658 and nots.

(٥٣) William Rubruck, op. cit., p. 196.

بطئ ومشحون بالمخاطر . ولقد كان هذا الطريق مناسباً تماما للاميرة المغولية كوكاشين Kokachin الذى اتخذته فى طريقها للزواج من الخان أرغون فى فارس (ت ١٢٩٠م) ولكن قدرها جعلها تتزوج من إبنه غازان (ت ١٣٠٣م) وهى الاميرة التى صاحبت الرحالة ماركوبولو فى رحلته (٥٤).

وإذا كان هناك اتصال قوى بين المغول فى فارس وبين منغوليا فان المغول الروس تحت قيادة الخان بركة ،لم يتمكنوا من العمل على زيادة استقلالهم ،، ولكنهم تمكنوا من التقدم الى المناطق الحضرية التى فصلتهم عن جنسهم الاصلى ، وكان السكان الذين عاشو ا تحت قيادة القبيلة الذهبيه خليطاً اجتماعياً ولغوياً ودينياً (٥٥).

لقد كان هناك ما يعرف بسكان الغابات وهم عناصر Finno - Ugrians ، كما أسس المغول المنتصرون ما يعرف جغرافياً بأسم أوراسيا . وغالبيتهم من عناصر سلجوقية تركية ، وكانت مسيحية ثم إسلامية (٥٦).

وفى الجنوب تقابل المغول مع الاتراك الذين عرفو باسم القفجاق (كومان بولفزتى) (Kumans Polovtsy) أما فى الشمال البعيد فإن المغول قد وضعو نهاية للامبراطورية البلغارية على نهر الفولجا ، وهى دولة تركية كان لها صلات تجارية مع بغداد ومصر منذ مائة عام . وقد ظلت هذه

---

(٥٣) William Rubruck, op. cit., p. 196.

(٥٤) Marco Polo, op. cit., pp. 44- 45.

(٥٥) Halperin, op. cit., p.p. 1- 10.

المناطق وطوال ضم المغول لها الاقاليم التى امدت الامبراطورية البيزنطية والدولة الايوبيـة بالرجال ، ولقد كان لمماليك القفجاق أهميـة فى عـهد السلطان الصالح أيوب خاصة عندما عهد اليهم ليكونوا حرسه الخاص . لقد استخدم كثير من الاتراك القفجاق إصطلاحات جديدة بتأثير الغزو المغولى .

لقد تفهم القفجاق المغول رغم انهم اعداء ، وبعد عام ١٢٥٠ م وبعد قيـام الدولة المملوكيـة ، فإن بعض الاتراك القـفـجـاق هم الذيـن تولوا السلطة فى مصر والشام وفى جنوب روسيا ، وقد كانوا يفوقـون المغول عدداً . وهناك حقيقة هامه وهى أن المماليك فى مصر ومغول القبيلة الذهبية كانوا حلفاء طبيعيين وذلك بسبب التقاليد التاريخيه التى تعود إلى أيام إمـبراطورية بلغـار الفولجا ، وبسـبب الارتبـاط العـرقى بين القبيلة الذهبية وبين حكام مصر من سلاطين المماليك .

أن اللهجة التى تكلم بها المماليك كـانت نفس اللهجه التى تـكلم بهـا معظم الاتراك الذين كانوا يتبعون الخان بركة ، وحتى هذا الوقت فإن الاتراك الذين استقروا فى منتصف منطقه الفولجا يتكلمون اللغة التركية القفجاقـية . إن كراهية المماليك للمغول لم تنعكس على القبيلة الذهبـية ولكن هذه الكراهـية إنصبت على مغـول فارس . وفى الوقت نفسـه كان التـوتر قد سـاد بين المغول فى ايران والمغول فى روسـيا . لقد كان للعداء الذى ساد بين القبيلة الذهبية والمغول فى فـارس أثراً كبيراً على الاحداث التى وقـعت فى آسـيا الصـغرى وعلى الامـارات الصليبيـة ، ولعله ليس من الضـرورى أن نـدرس على هذه الصـفـحـات أسـبابـهـا بل نـكتـفى بنتائجهـا .

ان تحول بركه خان المغول فى جنوب روسيا وغرب سيبريا وهم مغول القبيلة الزرقاء للإسلام كان بدافع شخصى منه . وظلت مواقفه واضحه ضدالمغول الآخرين لانزالهم الاضطهاد باصحاب الديانات الاخرى غير المغولية . كما أن بركة خان لم يمارس أى ضغط على اتباعه لاعتناق الديانة الاسلامية . لقد كان مخلصاً للاسلام ، كارهاً للحملات التى تولى قيادتها ابن عمه هولاكو ضد المسلمين والتى اجتاحوا فيها بغداد وقضوا على الخلافة العباسية ١٢٥٨ م . لقد اعترض بركة على هذه التصرفات المغولية وطلب من قواته أن ينضموا إلى الجيش المملوكى . وربما يكون ذلك سليماً ومقبولاً رغم صمت الوثائق التاريخية ، ولعل بعض الكتائب المغولية التابعة للخان بركة قد أتت بموافقته لتحارب فى معركة عين جالوت قوات الخان المغولى كتبغا .إن الصراع بين خلفاء باطو زعيم القبيلة الذهبية (١٢٢٧ - ١٢٥٥ م) واليخانات فارس لم يكن بسبب الخلاف الدينى ، لأن هذا الصراع ظل فى تزايد مستمر فى عهد مانكو تيمور Mangue Timar (توفى ١٢٨٠ م) الذى خلف الخان بركه على عرش القبيلة الزرقاء ، ولم يكن مانكو تيمور هذا مسلما ، وواقع الأمر أن الاعتناق النهائى للاسلام من خانات القبيلة الذهبية كان أيام حكم جانى بك Jani Beg (١٣٤٢ - ١٣٥٧ م) ، وذلك بعد أن تحول خانات فارس إلى الاسلام .

ومن المعروف فى التاريخ أن الذاتيه والشخصيه تلعب دوراً كبيراً ، لقد كان هولاكو أول خانات فارس ، وكان الإثنان من خلفاء المغول على منغوليا هما مونكو (ت ١٢٦٠م) وقوبيلاى (ت ١٢٩٣م) وكان بركه ابن عمها ، لقد كانت العلاقة بين هولاكو ومونكو حميمة للغاية . ولقد سجل المؤرخ رشيد الدين حزن هولاكو الشديد على

مونكو عند وفاته ، في الوقت الذي كانت فيه العلاقات سيئة مع بركة . ولعل الترابط بين هولاكو ومونكو كان يرجع إلى عوامل شخصية ، ويوضح ذلك أن العامل الرئيسي فى القرار الخاص بتخلى مونكو عن منطقة القوقاز إلى هولاكو يرجع الى هذا العامل .

وإن محاولات هولاكو للقضاء على بركه كان يرجع الى حقوق هولاكو الاقطاعية فى الحكم ومحاولاته ليدفع به الى جنوب القوقاز قد باءت بالفشل . وأن التباين الذى فصل القبيلة الذهبية عن عالم المغول قد زاد بعد موت مونكو .

ولم يتوقف الصراع بعد موت هولاكو فى عام ١٢٦٥ م أو بعد موت بركة فى عام ١٢٦٦ م ، فلقد ظل الصراع قائماً بين أبغا Abagha خان فارس وبين مانكو تيمور (قبيلة زرقاء)، وكان الذى بدأ هذا الصراع حكام القبيلة الذهبية ، لأنه من أجل حماية حدود القوقاز ، اضطر أبغا لاقامة نظام تحصينات تتكون من سور وخندق على طول نهر كور Kur ، وفى ذلك إدماج لمنطقة إستبس موغان Mughan ، وهو المكان المفضل لإستراحة الطيور المهاجرة التى لعبت دوراً كبيراً فى الوضع الدفاعى - كانذار - لخانات المغول لأنه بتحرك العدو فى أرض الأستبس فإن تحليق هذه الطيور فى السماء يقدم التحذير الكافى لهذه التحركات . لقد كانت الاهتمامات السياسية للقبيلة الذهبية من جانب والخانات الآخرين من جانب آخر ، كانت متعارضة. ولقد بحث كل طرف منها على حليف يفوق الجانب الآخر، ولذلك تطلع مغول منغوليا الى التحالف مع خانات فارس ، والشئ ذاته فعله بركه خان القبيلة الذهبية كما فعله مانكو تيمور وذلك بتحالف بركة وابنه مانكو تيمور مع كيوك خان منغوليا (١٢٤٦

- ١٢٤٩م) ابن أوكيتاى ، لقد أسرع كيوك الى القائد المغولى إريك بوجى Arig Boge لنجدته أو للتفاهم معه أو للقيام بعمل مشترك ، ولكنه بعد موافقة قوبيلاى ، فقد وقف بجانبه وتولى أمر الاراضى التى تتوسط وادى إيتي وشو Iti and chu وأدمجها فى الجزء الشمالى الذي يعرف حالياً باسم أفغانستان .

وهكذا أصبح مغول فارس محاطين بسلسلة من الحلفاء تفصل بين المماليك والقبيلة الذهبية ومغول منغوليا . وكانت السفارات المتبادلة بين المماليك والقبيلة الذهبية متعددة ، وكانت العوامل الجغرافية مثل العوامل السياسية فقد كان هناك محوراً بين سكان ضفاف نهر النيل وسكان نهر الفولجا .

ولم يكن من الطبيعى أن تتجنب بيزنطة الارتباط بمثلث العلاقة بين المماليك ودولتى المغول الأخرتين .ولقد لفت هذا نظر الامبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن باليولوجس الذى تولى أمر العرش البيزنطى وبادر بالاتصال بالمغول . وقد إستغل ميخائيل العداوة القائمة بين الفروع المغولية ، حتى أن كل طرف من أطراف المغول سارع بمساعدة الإمبراطورية، فقد كان كل طرف يود أن يرى نفوذه يزداد داخل الإمبراطورية البيزنطية ، وبالنسبة للعلاقات مع مغول فارس فإن ميخائيل باليولوج قد اضطر لمصاهرتهم ليأمن جانبهم ، وحتى قبل أن يستعيد ميخائيل الإمبراطورية وأثناء إقامته فى المنفى فى مدينة نيقيه ، فقد عقد حلفاً مع هولاكو أقوى شخصية بعد جنكيز خان ، وخطبت ابنة غير شرعية للإمبراطور الى هولاكو الذى مات قبل اتمام الزواج، وبعد موت هولاكو تزوجت من إبغا إبنه وخليفته .

إن زيادة الصراع بين بيزنطة والقبيلة الذهبية كان نتيجة طبيعية لعلاقات الصداقة مع خانات منغوليا . وفى عام ١٢٥٦ تقدم الخان بركة وحلفاؤه البلغار وهاجموا الحدود الشمالية البيزنطية ،وكانت القوات المغـــــولية تحت قيادة الامير المغولى نوجاى Noghay (ت حوالى ١٢٩٩) ، وقد ظل نوجاى لعدة سنوات الحاكم الفعلى للأقاليم الروسية الجنوبية ومنطقة الحدود مع بيزنطة . وفى حوالى ١٢٧٣ م تزوج من يوفروسين Euphrosyne وهى ابنه غير شرعية للإمبراطور ميخائيل باليولوجس[٥٧] ، وعلى ذلك يكون الامبراطور البيزنطى قد ارتبط بالمصاهرة مع ايلخانات فارس ، ومع خانات القبيلة الذهبية ، وبهذه المهارة الدبلوماسية أمنت الامبراطورية البيزنطية شر خطر المنافسة المغولية . ومع ذلك فإنه فى نهاية عهد الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوجس , فإنه نجح فى اقرار العلاقات الودية مع السلطان المملوكى قلاوون . وإن الطريق البحرى عبر البسفور قد ربط بين القبيلة الذهبية ومصر ، كان نتيجة ذلك تدفق التجارة عبر الاراضى البيزنطية ، ومزيداً من الاتصالات الدبلوماسية بين المماليك والقبيلة الذهبية .

---

(٥٧) Ostrogorsky, op. cit., p. 408.



الفصل السابع
سفارات المغول إلى أوربا بعد عين جالوت للتحالف وسيطرة أوربا على القدس

- سفارات الخان المغولي أرغون إلى أوربا

١ - سفارة رابان سوما ١٢٨٧م
٢ - سفارة بوسكال أف جيزولف ١٢٨٩م
٣ - سفارة أندرو وسهادين ١٢٩٠م

- سفارات الخان المغولى غازان إلى أوربا

١ - سفارة إيزول البيزي ١٣٠٠م
٢ - سفارة جيوسكارد باستارى ١٣٠٠م

- سفارات الخان المغولى اولجايتو وخلفائه

١ - سفارة أولجاتيو إلى فيليب الرابع ١٣٠٥م
٢- سفارة توماس أوجي أف سينا ١٣٠٧م
٣- خطاب الملك الانجليزي إدرارد إلي اولجاتيو ١٣٠٧م
٤- خطاب البابا كلمنت الخامس إلي أولجاتيو ١٣٠٨م
٥- رسالة المؤرخ الأرميني هيثوم ١٣٠٧م
٦- سفارة بطرس ديسبورتس من قبيل جيمس الثاني ملك أراجون ١٣٠٧م

- نشاط البعثات التبشيرية.

- فكرة أوربا للحصار الاقتصادى لدولة المماليك.

الفصل السابع
سفارات المغول إلى أوريا بعد عين جالوت
للتحالف وسيطرة أوريا على القدس

كان موقف الصليبيين فى بلاد الشام بعد عام ١٢٦٠ فى غاية السوء حاصة بعد هزيمة المغول فى عين جالوت ، لذلك بدأ الغرب الأوربى يبحث مرة أخرى عن مساعدات خارجية ، وكان إبغا خان المغول فى فارس ١٢٦٥ - ١٩٨٢ م ، صهر الامبراطور ميخائيل ، معروف بميوله للمسيحية وبذلك أصبح ابغا هدفاً واضحاً للإقتراحات السياسية . وقد شارك البابا كلمنت الرابع أفكار الملك الأراغونى جيمس الأول James I (١٢١٣ - ١٢٦٧م) فى الاعداد لحملة صليبية ومحالفة المغول . وقد ذهب سفيرهما جيمس ألاريك أف بريجنان James Alaric of perpig-nan الى الخان المغولى فى فارس وقد إستقبل استقبالاً رائعاً فى البلاط المغولى عند أبغا ، لعل ذلك حدث عام ١٢٦٧ ، وقد عاد الى الغرب يصاحبه إثنان من سفراء المغول . ودام الاتصال بين البابا كلمنت الرابع وأبغا بصورة مستمرة ، وفى احدى الخطابات التى أرسلها البابا الى الخان المغولى ، إشتكى البابا من أنه تسلم خطاباً من أبغا يصعب على أى فرد أن يقرأه ، وقد أبدى البابا أسفه إن الخان أيضاً لم يكتب له باللغة اللاتينية كما سبق فى مناسبات أخرى ، وهناك رسالة ودية أرسلها إبغا فى ١٢٦٧م ، أو ربما عام ١٢٧٩ خاصة بالسفراء الذين قدموا إلى

البابا وهذه الرسالة محفوظة فى إرشيف الفاتيكان [1].

وظل ابغا على الاتصال بعدد من القادة الأوربيين ، وقد اسفرت هذه الاتصالات عن مشروع تعاون عسكرى بين المغول وأوربا ، ولكن هذا كله لم يصل الى نتائج ملموسة . ففى أول سبتمبر من عام ١٢٦٩م أبحر من مدينة برشلونه جيمس الأول ملك إراغون بأسطول قوى لإنقاذ الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام ، ولكن عاصفة قوية منعت الأسطول من مواصلة الرحلة ، واضطر الملك والجزء الاكبر من الاسطول إلى العودة إلى بلاده ، ولم يواصل الرحلة إلا أسطول صغير يقودة ولدان غير شرعيين للملك ، وقد وصل الأسطول إلى عكا فى نهاية ديسمبر من العام نفسه [2] ، وقد فشلت الحملة فى إنجاز تحالف مع أبغا الذى كان مشغولا فى تلك المرحلة بالدفاع عن اقليم خراسان ضد الأمير بركه .

وفى الوقت الذى خطط فيه لويس التاسع للقيام بحملةعلى تونس عام ١٢٧٠م كان أبغا راغباً ومستعداً لمهاجمة السلطان المملوكى بيبرس ، وكان مثل هذا التعاون بين المشرق والغرب قد خطط له البابا كلمنت الرابع، وبدا من ذلك أنه يمكن إصلاح موازين القوى التى بدت لصالح

---

(١) عن المبعوث جيمس ألاريك أنظر الحوليه الأراجونية

James of Aragon, The Chronicle, tran. John forster, London 1883, II, pp. 594 ff.

راجع أيضا: Setton, op. cit., III, p. 530.

(٢) عن هذه الحملة راجع:

James of Aragon, op. cit., pp. 651 ff.

المماليك ، ولكن فشل حملة لويس التاسع عرقت الامكانات التى بدت من التحالف مع المغول فى فارس ، لأن لويس فضل القيام بحملته على تونس حيث مات هناك [٣].

وكان إدوارد ملك إنجلترا أكثر وضوحاً فى تعامله مع المغول ، وبعد أن رسا بحملته فى التاسع من مايو ١٢٧١م فى ميناء ، عكا ، عمل على الحصول على مساعدة أبغا ، وأرسل سفارة من ثلاثة أعضاء لمناقشة شروط التعاون ، وكان نتيجة هذه المناقشات قيام جيش مغولى بلغ عدده حوالى عشرة آلاف فارس وعسكر فى آسيا الصغرى وغزا سوريا . وقد أحرزت هذه القوات بعض النجاح ، ولكن القوات المغولية إنسحبت قبل أن تشتبك مع الجيش المملوكى الرئيسى [٤].

ورغم هذه الأهمية المحدودة للتحالف المغولى الإنجليزى باعتباره أول تحالف بين المغول والغرب ، وبالرغم أيضاً من النجاح الظاهرى المحدود لهذا التعاون ، فإن أبغا رأى أن يقوى من هذا التعاون الانجليزى ، أما بالنسبة للملك إدوارد الذى عاد الى بلادة ليتولى عرش إنجلترا ، فإنه لم ينس آماله فى التحالف مع إبغا ومع خليفته أرغون (١٢٨٤ - ١٢٩١م) ، وكلف أحد فرسان الاسبتارية الإنجليزي ويدعى جوزيف أف كانسي Joseph of Cancy ، بامداده بالتقارير اللازمه حول المغول وأحوال الأرض المقدسة [٥].

---

(٣) Joinville. op. cit., pp. 345 ff.

(٤) عن هذه الحملة راجع.

Matthew of Westminster, op. cit., II, pp. 450 ff.

(٥) Jeseph of Cancy, letter from the Holy land, dated 1281. cf P.P. T. S.. v. pp. 1-16.

ويتميز عهد الخان أرغون بقمة العلاقات بين المغول والغرب الأوربى ومن الأهمية أن نلاحظ أن البوذى أرغون وتحت حكمه البوذى أعلن أن الديانة الرسمية فى دولة مغول فارس لايمكن أن تقيم علاقة صداقة مع الأمراء المسيحيين كما كانت عليه فى عهد أسلافه أنصاف المسيحين .

وأرسل أرغون أول سفارة له الى الغرب كانت الى البابا هونوريوس فى عام ١٢٨٥م ، وحملت هذه السفاره خطاباً أرخ فى مايو فى العام نفسه لايزال موجوداً بلغته اللاتينية ، وفى هذا الخطاب يشير أرغون الى المزايا الخاصة التى تلائم المسيحية وتلائمه ، ومع إشارة خاصة الى سلفة أحمد تكودار الذى إعتنق الديانة الاسلامية (١٢٨٢ - ١٢٨٤ م) والذى فقد عرشه بسبب ذلك ، وتولى أرغون من بعده . وأن الثقه فى رسالة الخان أرغون قد أيدها بعض الرهبان الفرنسيكان والدومنيكان الذين عادوا من بلاد الشام .والمهم أن فى هذه الرسالة أو فيما تلاها من رسائل مع الغرب الأوربى مايشير الى تحول أرغون عن الديانة البوذية . وإن كان البابا فى أحد خطاباته قد نصح أرغون بالدخول فى الديانه المسيحية ، وكان البابا نفسه يعول كثيراً على هذا الأمل ، ولكن أرغون خيب أمل البابا فى هذا الجانب . وفى هذا الخطاب المؤرخ فى ١٤مايو ١٢٩٠ م إلى البابا نيقولا الرابع يقول أرغون فيه أنه ليس فى حاجة الى إعتناق المسيحية . وفى نفس الخطاب يشير أيضاً الى أن رعاياه لهم الحق فى إختيار الدين الذى يلائمهم(٦).

---

(٦) Setton, op. cit., III, pp. 530-1.

١ - سفارة رابان سوما ١٢٨٧م

مات أبغا فى أوائل شهر ابريل عام ١٢٨٢ م وخلفه على حكم المغول فى فارس أخوه تكودار Tekuder . ويعرف فى المصادر العربية باسم بيكودار ، وقد تنصر تكودار هذا فى طفولته واتخذ اسم نيقولا ، ولكنه كان يميل الى الدين الاسلامى ، وما أن تولى العرش (١٢٨٢ - ١٢٨٤م) حتى إعتنق الدين الاسلامى واتخذ اسم أحمد ، ومع اعتناقه الديانة الاسلامية حدث تحول خطير فى السياسة المغولية ، ولكن هذا التحول كان وقتياً لم يستمر طويلاً . وقد أرسل السلطان المغولى أحمد رسالة الى السلطان قلاوون فى مصر يطلب فيها عقد معاهدة صداقة مع السلطان [٧].

والحقيقة أن سياسة السلطان أحمد أزعجت المغول فكتبوا بذلك الى الخان الأعظم قوبيلاى فى منغوليا (١٢٦٠ - ١٢٩٤م)، فانزعج الخان وقامت ثورة بقيادة أرغون بن ابغا بمساندة من الخان الأعظم ، ولكن الخان أحمد الحق الهزيمة بابن أخيه أرغون فى بداية الأمر ، ولكن القادة الذين ساندوا الخان أحمد فى بداية الأمر تخلوا عنه فلقى مصرعه إثر مؤامرة دبرها القصر فى العاشر من اغسطس ١٢٨٤م ، وتولى ارغون عرش المغول فى فارس (١٢٨٤ - ١٢٩١ م) وكان وزير أرغون سعد الدولة وهو يهودى الديانة [٨].

---

(٧) انظر: المقريزي: المصدر السابق - جـ١ ق٣ - ص٧٠٧.

(٨) انظر: المقريزي: المصدر السابق - جـ١ ق٣ - ص٧١٤.

وحاول أرغون فى محاولة شجاعة أن يقيم تحالفاً مع حكام الغرب الأوربى لذلك أرسل الراهب النسطورى رابان سوما Rabban mar sauma (ت ١٢٩٤م) فى سفارة الى الغرب ، وقد علق عليها الخان أرغون أهمية كبيرة جداً . وكان رابان سوما مواطن صينى ولكنه تركى الأصل (من قبائل الإيجور Uighur) ، وقد أصبح ربان سوما سفيراً متجولاً للكنيسة النسطورية فى المقاطعات المغولية ، وكان يرتبط مع حكام المغول بعلاقات طيبة ، وقد إختاره أرغون للقيام بهذه المهمة التى كان يصلح لها تماماً (٩).

بدأ رابان سوما رحلته فى أوائل عام ١٢٨٧ فوصل مدينة طرابيزون على الساحل الشمالى للبحر الأسود ، ومنها إتجه بحراً الى العاصمة البيزنطية القسطنطينية فوصلها فى أوئل شهر ابريل من العام نفسه ، وقد إستقبله الامبراطور البيزنطى أندرونيقوس الثانى Andronicus (١٢٨٢ - ١٣٢٨م) إستقبالاً حاراً ، وأثناء إقامته فى العاصمة البيزنطية زار كنيسة آيا صوفيا وبعض المشاهد الدينية الأخرى . ويرجع ذلك الى أن الامبراطور كان على علاقات طيبة مع المغول فى فارس وكذلك مع مغول القبيلة الذهبية . لذلك عرض الامبراطور على ربان سوما أن يبذل أقصى مافى وسعه للمساعدة رغم إمكاناته الضئيلة(١٠) .

إتجه رابان سوما الى مدينة نابلى فى جنوب إيطاليا فوصلها فى أواخر شهر يونيه ، وأثناء وجوده فى نابلى شاهد معركة بحرية بين أسطول نابلى

---

(٩) Rabban Sauma, History of Rabban Sauma and Mar Yahbhallaha tran. Budge, London 1928, p.p. 1-16, 62-3.

(١٠) Ibid, pp. 49 ff.

واسطول مملكة أرغون وذلك بسبب الصراع على حكم جزيرة صقلية ، بعد وقوع المذبحة الشهيرة باسم المذبحة الصقلية ، التى وقعت فى أواخر مارس ١٢٨٢م ، فأدرك ان الغرب الأوربى مشغول بخلافاته ، وأن الخصومه تسود ممالك أوربا بعد ماتعرف على أبعاد هذه المذبحة [١١].

إتجه رابان سوما من نابلى إلى روما ، وتبين له أن البابا هونوريوس الرابع (١٢٨٥ - ١٢٨٧م) قد مات فى الثالث من أبريل من العام نفسه ، ولم يوفق الكرادلة فى روما فى اختيار خلفاً له وذلك حتى الثانى والعشرين من فبراير عام ١٢٨٨م . وعلى أيه حال فقد إستقبله الكرادلة المقيمون فى روما ، وخلال إقامته دار جدل كبير حول الديانة المسيحية ، وقد علم أن الكرادلة لايعلمون شيئاً عن انتشار الديانه المسيحية بين المغول ، كما أن هؤلاء الكرادلة قد تعجبوا لكونه يعمل فى خدمة حاكم وثنى ، وتطرق الأمر الى الحديث عن المذهب النسطورى ، وهو ما أزعج السفير رابان سوما واعتقد انه يضيع وقته فى هذا الجدل الدينى ، وأن الأحرى به وبالكرادلة أن يناقشوا الأمور السياسية الهامة. وبعد أن أدى الشعائر الدينية فى الكنائس الرئيسية بمدينة روما غادر المدينة واتجه الى تسكانى Tuscany ، ومنها وصل الى مدينة جنوة حيث إستقبله أهل المدينة باحتفال كبير بعد أن عملوا بالمهمة التى قدم من أجلها وهى تحالف المغول مع الغرب الأوربى ، من أجل القضاء على الدولة المملوكية ، ومايترتب على ذلك من نتائج تجارية ، وهو الأمر الذى كان يهم أهل جنوة[١٢] .

---

(١١) Rabban Sauma, op. cit. , p. 54.

(١٢) Ibid, pp. 55- 67.

ومن جنوة إتجه الى مدينة باريس فوصلها فى أوائل شهر سبتمبر ، وكان يحكم فرنسا فى ذلك الوقت الملك الشاب فيليب الرابع الجميل ، وقد أعد الملك حرساً خاصاً ليرافق رابان سوما منذ وصوله الى العاصمة حتى القصر الملكى ، وقد تم إستقبال المبعوث المغولى إستقبالاً رائعاً حتى وصل الى حضرة الملك الذى نهضه من كرسيه ليستقبله ، فسر رابان سوما بذلك كثيراً (١٣).

وقد استمع الملك الفرنسى الى السفير ووعده بأن يتولى بنفسه قيادة حملة صليبية لتخليص الاراضى المقدسة من أيدى المسلمين ، وخلال وجود رابان سوما فى باريس طاف بأنحائها وشاهد جامعتها التى كانت فى ذروة مجدها فى تلك المرحلة (١٤).

كما زار كنيسة سانت شابل Saint chapelle ، وشاهد المخلفات المقدسة التى إشتراها القديس لويس من القسطنطينية ، ولما حان موعد رحيل رابان سوما لمقابلة ملك إنجلترا ، عين الملك فيليب سفيراً من عنده هو جوبرت أف هلفى Gobert of Helleville ليكون فى رفقته عند عودته الى بلاط الخان أرغون ، ليعود ومعه تفاصيل التحالف مع المغول دون أن يدخل فى أيه تفاصيل أو تحديد موعد معين لبداية العمليات العسكرية ضد المماليك (١٥).

كان ملك انجلترا إدوارد الأول مقيماً فى تلك المرحلة فى مدينة بوردو

---

(١٣) Rubban Sauma, op. cit, p. 69.

(١٤) Ibid, pp. 69-71.

(١٥) Loc. cit.

وهى مدينة فرنسية تقع الى الغرب على شاطئ المحيط ، وكانت فى تلك المرحلة من أملاك ملك انجلترا ، والمعروف أن الملك إدوارد حضر الى الأراضى المقدسة فى عام ١٢٧١م على رأس حملة صليبية عندما كان أميراً ، وكان من أشد المتحمسين للحركة الصليبية والتحالف مع المغول لمواجهة القوات المملوكية (١٦).

إستقبل الملك الإنجليزى السفير رابان سوما ورفاقه بكل ترحاب وعاملهم بما يقتضيه كرم الضيافة ، وقد إستجاب الملك إدوارد لمقترحات السفير المغولى ، ولكنها كانت إستجابة ظاهرية ، وقد كان للملك خبرة فى هذا الجانب ، ولم يكن له أمل كبير فى تحالف الغرب الأوربى مع المغولى ، كما أنه كان لايأمل فى مشروع حملة صليبية جديدة ضد المسلمين .وعلى أيه حال فقد طرح رابان سوما فكرة إعداد جدول زمنى من أجل تنفيذ هذا التحالف ، ولم يتمكن الملك الانجليزى مثل الملك الفرنسى أن يحدد موعداً محدداً للقيام بحملة صليبية (١٧).

رحل رابان سوما خالى الوفاض من مدينة بوردو مثلما رحل من قبل من باريس واتجه الى مدينة جنوة فى طريقه الى روما . وقد وصل رابان سوما الي مدينة جنوه فى أواخر عام ١٢٨٧ م حيث التقى فيها المندوب البابوى الكاردينال يوحنا توسكلوم JohnTusculum ، وقد أبلغ يوحنا السفير المغولى بأن لديه معلومات عن إستعدادت المماليك باعداد حملة عسكرية للقضاء على البقيةالباقية من الإمارات الصليبية، وأن حكام

---

(١٦) Rubban Sauma, op. cit., pp. 11-2.

(١٧) Ibid. pp. 72-4.

الغرب الأوربى مشغولون بالصراعات فيما بينهم وبأمورهم الشخصية عن الاستعداد لمواجهة مثل هذا الخطر ، وقضى رابان سوما فى جنوة شتاء عام ١٢٨٧م - ١٢٨٨م) وأدرك أن أهل جنوة يفضلون العمل التجارى والدبلوماسى مع مغول فارس . وفى الحقيقة لقد كان هناك العديد من أهل جنوة فى خدمة خان فارس ، كما كان فى حاشية رابان سوما نفسه أحد الجنيويين وهو توماس أنـــفوسى Thomas Anfossi وهو عضو بارزا فى عائلة جنوية كلها من رجال الأعمال [١٨].

ومن جنوة توجه رابان سوما إلى روما ، حيث تم فى العشرين من فبراير ١٢٨٨م إختيار الكاردينال جيروم Jerome وهو لمباردى الأصل لأعتلاء عرش البابا فى روما واتخذ اسم نيقولاس الرابع ، وكان من أوائل أعمال البابا أنه استقبل رابان سوما ، وتمت المقابلة فى جو من المودة ، ولكن البابا لم يقدم للسفير المغولى مايشير الى العمل على إرسال حملة صليبية الى الشرق .وغادر رابان سوما روما ومعه حاشيته فى ربيع عام ١٢٨٨ م بعد أن سمع من الحديث مالا يقنعه ، بعد أن طاف بالمدينة وزار مشاهدها .وقد حمل من الهدايا الكثير وبعض المخلفات الدينية التى أهداها البابا للخان أرغون ، وبعض الرسائل التى لاتخدم قضية التحالف المغولى الأوربى ، وبعد ما أدرك أن لدى حكام أوربا مايشغلهم عن القضية الصليبية[١٩] .

وفى ربيع عام ١٢٨٨ إتخذ رابان سوما طريق العودة الى الخان أرغون

---

(١٨) Setton, op. cit., III, p 553.

(١٩) Rabban Sauma, op. cit., p. 76- 84.

ومعه العديد من الرسائل البابوية ومعه بعض الايطاليين والفرنسيين ، وكان فى حاشيته جوبرت أف هلفى سفير الملك الفرنسى فيليب الرابع الى الخان أرغون ، وكان معه أيضاً من رجال الدين روبرت اف سنلس Robert of Senlis ووليم اف برويرس William of Broyeres ، ومع هذه السفارة كان الأمل فى إقامة تحالف مغولى أوربى خاصة أنه حوالى ذلك الوقت كان هناك العديد من الجاليات الأوربية تعيش فى مدينة تبريز[٢٠] .

وقد إشتغلت هذه الجاليات بالتجارة خاصة مع البندقية وجنوة ، ومع هذه الجاليات كانت البعثات التبشيرية من جماعات الفرنشيسكان والدومنيكان . وكان الأمل فى هذه الجاليات والبعثات التبشيرية إقامة جسور الصداقة بين الغرب والمغول فى فارس ، وظهرت بعض الأسماء الأوربية فى السفارات التى ذهبت الى إوربا من بلاط الخان وإليه . ومن خلال هؤلاء السفراء ظهر خلط فيما أنجزوه . وظهر فى الوثائق بعض الأسماء التى تولت أمر بعض السفارات ، ولكن هذه الأسماء لم تذهب فى سفارة ما ، وماكتب لايعدوا أن يكون ترشيحاً أو فكرة لم تنفذ ، وبذلك اخترعوا من الاحداث أو شوهوها ، ويتضح ذلك من أحد الخطابات التى أرسلها البابا نيقولا الرابع الى أرغون وهى مؤرخة فى الثانى من ابريل عام ١٢٨٨م ، وفى هذه الرسالة مايفيد ان البابا إعتقد أن أرغون سوف يعتنق المسيحية فى مدينة القدس عندما يستولى عليها الصليبيون من المسلمين[٢١] .

---

(٢٠) Setton, op. cit., p. 553.

(٢١) Rabban Sauma, op. cit., p. 87- 8.

ومع عودة رابان سوما الى الخان أرغون خاب أمل الأخير فى الغرب الأوربى ، ولم يصدق النتائج التى عاد بها رابان سوما ، واقتنع الخان أن مايظهره الغرب الأوربى من التعلق بالاراضى المقدسة لايتعدى القول لاالفعل ، خاصة أن المبعوث الفرنسى جوبرت أف هلفي لم يكن بوسعه أن يفسر أو يقدم شيئاً للخان أرغون .

٢ - سفارة بوسكال أف جيزولف

لم ييأس الخان من هذه النتائج ، وأعد سفيراً آخر فى شهر ابريل ١٢٨٩م للتوجه الى ملك فرنسا فيليب الرابع ، كان هذا السفير جنيوى الأصل أقام فى بلاد فارس لمدة طويلة ، ويبدوا أنه أحد الرهبان أو رجال الأعمال ، ويعرف هذا السفير بإسم بوسكارل أوف جيزولف Buscarel of Gisolf ، وقد حمل هذا السفير رسائل الى الملك الفرنسى فيليب الرابع، والى الملك الأنجليزى ادوارد الأول والى البابا نيقولا الرابع [٢٢].

وفى الرسالة التى كتبها أرغون الى ملك فرنسا والتى لازالت محفوظة فى دار المحفوظات الوطنية فى باريس وقد كتبت باللغة المغولية يقدم فيها أرغون عرضاً مؤكداً بضرورة الاشتراك بحملة عسكرية مع ملك فرنسا ضد المماليك يكون موعدها عام ١٢٩٠م ، وأنه سوف يتجه الى مدينة دمشق لفتحها فى مطلع ربيع هذه العام ، وطلب أرغون من الملك الفرنسى أن يرسل اليه قواته فى الوقت المناسب ، وإذا نجحت الحملة

---

(٢٢) Runciman, op. cit., III, p. 401.

المغولية الفرنسية فى الاستيلاء على مدينة بيت المقدس ، فسوف تصبح المدينة من أملاك الملك الفرنسى . وهناك إضافه إلى الرسالة الموجهة الى الملك فيليب لعل بروسكارل قد أضافها ، تفيد أن خان المغول أرغون سوف يتكفل بامداد الملك الفرنسى بحوالى عشرين أو ثلاثين الف فارس دون مقابل أو بثمن معقول ، والمهم هنا أن رد الملك الفرنسى فيليب غير معروف لدينا وسوف توضح السطور التالية مايمكن أن يكون عليه رد الملك الفرنسى(٢٣).

اتجه المبعوث المغولى بوسكارل الى الملك الإنجليزى إدوارد فى لندن فوصلها فى الخامس من يناير عام ١٢٩٠ م . وقد قضى المبعوث فى البلاط الإنجليزى حوالى إسبوعين وحوالى اسبوعاً خارج البلاط حيث عومل معاملة طيبة ، والواقع أن الرسالة التى أرسلت الى ملك إنجلترا قد فقدت أما الرد على هذا الخطاب ، فيتلخص فى أن الملك إدوارد يرغب فى اللحاق بالحملة المغولية ، ولكن هذا الأمر يتعلق بالبابا نفسه(٢٤).

ومن الصعب أن نقرر عما إذا كان المبعوث المغولى قد عاد الى أرغون أو أنه أطال مده إقامته فى الغرب ، فمن الواضح أن هناك إشارات الى وجوده فى أيطاليا فى أواخر عام ١٢٩٠ م ، فقد ورد إسمه فى بعض الرسائل البابوية يوصى فيها البابا الملك إدوارد الإنجليزى بمبعوث الخان أرغون (٢٥).

---

(٢٣) Setton, op. cit., III, p. 534, Mckilliam, op. cit., p. 332.

(٢٤) Matthew of Westminister, op. cit., II, pp. 482-3.

(٢٥) Setton, op. cit., III, p. 534.

٣ - سفارة أندرو وسهادين ١٢٩٠م

عاد بوسكارل بإجابات لاتبشر بخير ، ولعل ذلك مرجعه الى إنشغال الملك الفرنسى بأموره الداخلية وإنشغال الملك الأنجليزى بأمور أسكتلندا وويلز ، وتأثر مركز البابوية بنتائج المذبحة الصقلية التى وقعت فى أواخر مارس ١٢٨٢ م (٢٦).

ورغم هذا كله فإن الخان المغولى لم ييأس ، وأرسل سفارة جديدة على رأسها أثنان من المسحيين المغول هما أندرو زاكان Andrew Zagan وسهادين Sahadin . وقد توجه المبعوثان فى أول الأمر الى البابا فى روما حيث إستقبلهم إستقبالا طيباً ، وقد حملهم البابا الرسائل اللازمه الى الملك الإنجليزى إدوارد الذى إعتبره البابا أشد حماساً واهتماماً بالأراضى المقدسة . وقد وصل المبعوثان الى الملك الإنجليزى فى بدايات عام ١٢٩١ م ، ولكن إهتمامات الملك بأمر ويلز وإسكتلندا كانت أكثر بكثير من إهتمامته بالاراضى المقدسة والتحالف مع المغول ، فعاد المبعوثان خالياً الوفاض الى روما ليبلغا البابا بالنتائج الفاشلة التى توصلا اليها ، ومكثا بعض الوقت حتى انهما قضيا فصل الصيف فى ايطاليا (٢٧).

وخلال هذه المرحلة كان مصير بقايا الامارات الصليبية قد تحدد بالحملات التى قام بها الاشرف خليل بن قلاوون ، وذلك على عكس

---

(٢٦) Matthew of westminister, op. cit., II, pp. 482 ff., Mckilliam, op. cit., p. 331.

(٢٧) Runciman, op. cit., III, p. 401.

ماكان يعتقد أنه فى ربيع عام ١٢٩١ م سيقوم تحالف مغولى أوربى لاستعادة الاراضى المقدسة من المسلمين ، ولكن الحال تبدل ومات أرغون فى العاشر من مارس من العام نفسه (ربيع الأول من عام ٦٩٠ هـ) وإنشغل كل من ملك إنجلترا وملك فرنسا بأمورهما الخاصة ، وبذلك عجز البابا عن توجيه نداء لمثل هذا التحالف(٢٨) .

وتشجع الاشرف بالاستيلاء على ماتبقى من الامارات الصليبية بالشام ، فقد كان السلطان قلاوون قد إستعاد طرابلس فى عام ١٢٨٩ م . وحاصر عكا واستكمل إبنه الاشرف إسقاطها فى ابريل ١٢٩١م ، ولعل فى كل هذا ما شجع الاشرف على إعلان الجهاد ضد مغول فارس بعد موت خانهم أرغون وتولى أمرهم أخوه كيختو Caikhatu) ابن ابغا (١٢٩١ - ١٢٩٥ م) . وقد نجحت القوات المملوكية فى هزيمة المغول والاستيلاء على قلعة الروم ، ولكن الحروب المملوكية المغولية لم يتسع نطاقها كثيراً فى تلك المرحلة ، وسرعان ماقتل كيختو على يد رجاله لفساده ، وقد تولى بعده بايدو Baidu ابن عم كيختو ولكنه حكم عدة أشهر وقتل فى الرابع من اكتوبر عام ١٢٩٥ م على أيدى غازان بن أرغون الذى تولى حكم مغول فارس (١٢٩٥ - ١٣٠٤ م) واعتنق الاسلام (٢٩).

---

(٢٨) Setton, op. cit., III, p. 534.

(٢٩) الهمذاني: المصدر السابق - ص٤١٤ - ٤١٨.

يعتبر غازان أكثر حكام المغول فى فارس موهبة ، وعندما تولى السلطة وضع سياسة معينه للتعامل مع المسلمين ، كما أن فترة حكمه تتميز باتصال تجاوز الحد مع المسيحية ، وفيما يتعلق بمسألة العقيدة الدينية فقد كان رجلاً متحضراً إلى أبعد الحدود لأنه لم يخلط بين العقيدة الدينية وبين السياسة ، وقد كان غازان يعتبر أن المماليك هم الأعداء الألداء .

إن كثيراً من الخلافات التى وقعت فى كلا المعسكرين المغولى والمملوكى دعت غازان الى غزو بلاد الشام . ففى الثانى والعشرين من ديسمبر عام ١٢٩٩ م وعلى بعد أميال قليلة من مدينة حمص إنتصر المغول على المماليك . وقد إستسلمت مدينة حمص ودمشق وفى نهاية ١٣٠٠ م لم تكن هناك قوة مملوكية عسكرية فى بلاد الشام [٣٠].

وكان لهذا الانتصار المغولى رد فعل كبير فى اوربا وتفاءل حكامها بالكثير ، فقد وصلت الأخبار الى أوربا أن الخان غازان قد إستولى على كل بلاد الشام ومصر أيضا، وأنه أعاد الأراضى المقدسة الى جماعة فرسان الداوية والإسبتارية ، وأنه وضع الضريح المقدس تحت حماية جماعة الرهبان الدومنيكان . وسرت الشائعات فى أوربا أن غازان قد صك عمله عليها صورة الضريح المقدس ، وأن علامة الصليب قد وضعت على أعلام غازان . ومن الشائعات أيضاً ماورد بها أن سقوط الأراضى المقدسة يرجع الى تعاون عسكري بين المغول وحكام الامبراطورية

(٣٠) المقريزي: المصدر السابق جـ١ ق٣ - ص٩٣١.

البيزنطية وملكى قبرص وأرمينيا . والحقيقة أن الجانب الذى ينسب لغير المغول فى هذا الموضوع قد بولغ فيه بقدر كبير جداً ويناقى الحقيقة، ولكن هناك بعض الحقيقة حول هذا الموضوع ، وترجع هذه الشائعة الى أنه فى عام ١٣٠٠ - ١٣٠١ م أرسل هنرى الثانى لوزنجيان ملك قبرص عام (١٢٨٥ - ١٣٢٤ م) بعض قطع الاسطول يساعده فى ذلك جماعة فرسان الداوية والاسبتاريه وهاجموا مدينه رشيد حيث وقعت بعض المناوشات [٣١].

١ - سفارة ايزول البيزى :

والحقيقة أن التعاون القبرصى المغولى ينسب إلى المبعوث المغولى زولس بوفتى Zolus Bofeti . ويعرف باسم إيزول البيزى Isol the Pisan . وكان لهذا المبعوث مكانه فى حاشية غازان ولذلك أرسله في عام ١٣٠٠م على رأس سفارة الى هنرى ملك قبرص . وقد ذكر إيزول البيزى أن اولجايتو أخ غازان قد تنصر ، وأن إيزول كان الأب الروحى له عند التعميد وأن الجايتو هذا قد شارك فى الحملة التى إتجهت الى رشيد[٣٢] .

٢ - سفارة جيوسكارد باستارى

لم يكن ايزول هو الوحيد الذى تحدث عن مجد وانتصارات غازان ، ففى عام ١٣٠٠ استقبل البابا بونيفاس الثامن فى كنيسة اللاتيران

---

(٣١) Setton, op. cit. III, p. 535.

(٣٢) Ibid, pp. 535-6, Rouen, op. cit., p. 109.

جيوسكارد باستارى Guiscard Bastari وهو من أصل فلورنسى كمبعوث من الخان غازان تصاحبه حاشية من مائة رجل وكلهم فى زى المغول (٣٣).

ولأسباب ليست معروفة لدينا حتى الآن ، فإن الخان غازان لم يحاول ان يحتفظ بالأراضى التى فتحها فى بلاد الشام ، ففى نهاية مايو عام ١٣٠٠ م تمكن المماليك من استعادتها مرة اخرى ، وان انسحاب المغول من بلاد الشام لايعود الى عدم إهتمام غازان بالقضية. لقد عاد غازان الى بلاده في فبراير من عام ١٣٠١ م دون أن يشتبك فى معركة رئيسية(٣٤). وكان إنسحاب غازان يرجع إلى أنه لم يكن لديه القوات الكافية للإشتباك مع المماليك . ومعنى ذلك أنه يرجع للبحث عن حلفاء أوربيين لمشروع حملته ، وان تقدمه إلى بلاد الشام يكون قد فعل كل مابوسعه للبقاء على علاقات الصداقة مع أوربا مثلما كان الحال عليه من قبل مع أسلافه .

وأرسل غازان سفارات عديدة الى البابا والى الملك الفرنسى فيليب الرابع والى الملك الانجليزى إدوارد الأول ، ويقال أن البابا بونيفاس الثامن استقبل بعض السفراء فى عام ١٣٠٢ ، وانهم قد تنصروا فى روما ، وان البابا أرسل معهم تاجاً من الذهب ليقدموه الى الخان غازان حتى يغفر الله له خطاياه ، ويساعده لكى يقود المسيحيين الى بلادالشام (٣٥).

---

(٣٣) Setton, op. cit., III, p. 536.

(٣٤) الهمذاني: المصدر السابق – ص١٦٧– ١٦٨.

(٣٥) Setton, op. cit., III, p. 536.

وبالاضافة الى ذلك فقد أرسل غازان خطاباً الى البابا بونيفاس الثامن فى ابريل عام ١٣٠٢ م وأشار فيه غازان الى موضوع التعاون المغولى الأوربى ، وفى هذا الخطاب حث غازان البابا على إعداد القوات لمهاجمة القوات المملوكية وترك للبابا تحديد الموعد المناسب . ولازال هذا الخطاب محفوظاً بلغته المغولية (٣٦).

وقد أحضر هذا الخطاب الى البابا ثلاثة مبعوثين بأسماء اسلامية. ولقد إستغل الجنيويون سنوات الاضطراب التى أعقبت وفاة أرغون وظهر اسم بوسكارل فى رسالة كتبها الملك الانجليزى إدوارد يرجع تاريخها إلى الثانى عشر من مارس ١٣٠٢ م ، وقد حملها بوسكارل ، وجاء فيها أن الملك يولى أمر الأراضى المقدسة أهمية خاصة وانه يلقى باللوم على الحروب الدائرة بين دول أوربا . وقد أرسل إدوارد سفارة أخرى كان من بين أعضائها جوفرى أف لانجلز Geoffrey of Langles ، ونيقولا أف شارتر Nicholas of Chartres، وقد سافروا فى صحبة بوسكارل .وفى عيد القيامة عام ١٣٠٣ م زار بعض المبعوثين من المغول مدينة باريس ، وكان هدف هؤلاء المبعوثين الاتصال ببعض حكام أوربا من أجل التحالف معهم لمحاربة المماليك (٣٧).

وظل غازان أيضاً على إتصال بالملك جيمس الثانى ملك أرغون (١٢٩١ - ١٣٢٧م) ، وقد عبر الملك عن فرحته فى مايو عام ١٣٠٠ م ، واعتبر أن ماقدمه غازان يعتبر كرم كبير منه فى مساعدة أوربا لقتال

---

(٣٦) Setton, op. cit., III, p. 536.

(٣٧) Ibid, pp. 536-7.

المسلمين وإستعادة الفرنج لمدينة بيت المقدس . كما إرتبط غازان بروابط المودة والصداقة مع الامبراطور البيزنطى اندرنيقوس الثانى ، وكان التحالف بين الامبراطورية والمغول مفيداً للإمبراطوريه - المهددة بالغزو من جيرانها - عن إستفادة المغول منه ، وقد كلل هذا التحالف بزواج الخان غازان من ابنه غير شرعية للإمبراطور اندرونيقوس (١٢٨٢ - ١٢٢٧)[٣٨] ، ولكن مشروع التحالف نفسه لم يسفر عن شئ لأن غازان مات بعد قليل .

سفارات أولجاتيو وخلفائه إلى أوربا

سفارة أولجاتيو إلي فيليب الرابع ١٣٠٥

وخلف غازان اخوه اولجاتيو Oljeitu (١٣٠٤ - ١٣١٦ م) وقد سار أولجايتو على سياسة أخيه الودية مع الغرب الأوربى . وقد كتب اولجاتيو إلى فيليب الرابع ملك فرنسا خطابا في صيف عام ١٣٠٥م ، وفى هذا الخطاب ركز أولجاتيو على قيام العلاقات الودية التى كانت مزدهرة بين أسلافه مع الفرنجة ، وقدم الخان الخطوط العريضة لمشروع تحالف ضد الذين يعملون على تخريب التفاهم الدولى ، وهم المماليك [٣٩].

وقد كتب على ظهر الرسالة المغولية تعليق من أحد المعاصرين الايطاليين ، وهذا التعليق يقودنا الى معلومات دقيقة ، أو ربما الى إقتراح محدد ، أم كانت هذه التعليقات هى رساله شفوية حملها مبعوث

---

(٣٨) Ostrogorsky, op. cit, 407.

(٣٩) Setton, op. cit., III, p. 537.

الخان ؟ ومن هذا التعليق يتضح أن الخان يقترح إقامة سلام يعم العالم بأسره . وطبقاً لرأى آخر أن مع هذا السلام الشامل يكون هناك تحالف ضد المماليك ، وهذا الرأى الأخير يمكن قبوله . ولكن إذا كان ذلك هو المقصود بالسلام فلماذا لايذكر ذلك صراحة ويكون لدينا شواهد ثابته على هذا الاقتراح الواقعي ، ولكن مثل ذلك لم يرد فى الخطاب الأصلى المغولى ولا فى التعليق الايطالى على الوثيقة [٤٠].

ولعل ماورد فى الخطاب . يقصد به إقامة سلام عام مع الغرب الاوربى ، لأنه فى الوقت الذى كتب فيه هذا الخطاب كان فترة هدوء مؤقت بعدحرب دامت لمدة نصف قرن قادها المغول فى جميع الانحاء ، وقد أضعفت هذه الحروب من قوة الامبراطورية المغولية . وحول هذا السلام الداخلى فى الامبراطورية المغولية فقد أشار أولجاتيو إلى ذلك فى أحد خطاباته الى الملك فيليب الرابع ، وليس تحت أيدينا حتى الآن وثيقة ورد بها رد الملك الفرنسى ، لأن الخطاب يتعرض إلى عبارات عامة [٤١].

٢ - سفارة توماس أوجي أف سينا (١٣٠٧م)

ومرة أخرى نجد أحد سفراء المغول وهو ايطالى يدعى توماس أوجى اف سينا Thomas ugi of Siena [٤٢] ، الذى زار ورفاقه بعض ملوك أوربا

---

(٤٠) Setton, op. cit., III, p. 537.

(٤١) Loc. cit.

(٤٢) Rouen, op. cit., pp. 132 ff.

حيث استقبل إستقبالاً طيباً ومن بين هؤلاء ملك إنجلترا . وكان الملك ادوارد الثانى قد خلف والده ادوارد الأول الذي مات فى يوليو ١٣٠٧ م والمعروف أن ملك انجلترا قد أرسل على الأقل خطابان الى الخان أولجاتيو . وكان أحد هذين الخطابين قد كتب فى نورثهامبتون North-ampten فى منتصف اكتوبر ١٣٠٧ م وليس من الصعب أن نستنتج أن الملك إدوارد الثانى قد إستقبل خطاباً مطابقاً لما تسلمه فيليب الرابع .

٣ - خطاب الملك الانجليزي إدوارد إلى أولجاتيو

وكان الخطاب الثانى الذى أرسله إدوارد قد كتب فى لانجليى Langley فى الثلاثين من نوفمبر ١٣٠٧ م . وفى ذلك أمر يدعو للغرابة وأنها وثيقة تدعو للدهشة ، وتظهر أن من نقل الرسالة من أولجايتو الى الملك، قد حرف فى بعض العبارات التى أدت إلى تغيير القواعد السياسية للعلاقات مع الخانات . لقد كان فى خطاب إدوارد هجوماً وحقداً على المسلمين ، وقد طلب أولجاتيو محو ذلك من الخطاب ، وهذا يوضح بعض التلاعب فى نصوص الوثيقة . ولايمكن أن نتصور أن الملك إدوارد الثانى إعتقد أن أولجاتيو كان مسلماً ، ويكون بذلك قد ارتكب خطأ كبيراً بذكر مثل هذه العبارات التى تسئ الى الاسلام ، ويقع الشك على توماس ، إذ يلاحظ أن فى تعامل توماس مع البابا لم يقدم له أى إنطباع عن أن أولجاتيو كان مسيحياً (٤٣).

---

(٤٣) Setton, op. cit., III, p. 537 -8.

٤ - خطاب الباب كلمنت الخامس إلى أولجاتيو ١٣٠٨م :

وفى خطاب كتبه البابا كلمنت الخامس فى مدينة بواتو ويرجع تاريخه الى أول مارس ١٣٠٨ ، نلاحظ أنه لم يرد بالخطاب أى إشارة ضد المسلمين ، وبدلاً من ذلك نجد أن البابا يخبر الخان أولجاتيو برضاد التام عن المساعدة التى يقدمها . واذا كان لأحد أن يصدق الحقائق التى أشير اليها فى إجابة كلمنت ، دون أن يعبث بها المبعوث توماس ، ويضع فيها من خياله ماشاء ، فإن أولجاتيو قد عرض أن يقدم عشرين ألف حصان ، وعشرين ألف حمل قمح ، ويتبع ذلك مائة ألف من الفرسان الذين يقودهم الخان لمحاربة المماليك .

٥ - رسالة المؤرخ الأرمينى هيثوم ١٣٠٧م :

وكان للأهمية التى أظهرها البابا كلمنت الخامس فى إقامة تحالف عسكرى مع المغول لها عبقريتها ، لقد أرسل البابا إلى المورخ الإرمينى هيثوم ابن ملك أرمينيا يطالبه بأن يعد مذكرة عن الطريقة الملائمة للتحالف مع المغول . وقد أعد هيثوم كتاباً الى البابا فى أغسطس ١٣٠٧م أى قبل إجابة البابا على رسالة أولجاتيو . ويعتبر هيثوم أحد أفراد الاسرة الأرمينية الحاكمة وكان مع المتحمسين جداً للتحالف مع المغول ولتتدخل الغرب فى البلاد الشرقية . وجاء فى هذا الخطاب ، الخطوط العريضة التى قدمها هيثوم لأستعادة الاراضى المقدسة وهو يقول « أنه بالنسبة لى الذى يعرف أهداف المغول جيداً ، فإننى اعتقد وأؤكد أن المغول يرغبون دون نقاش وبدون أيه نفقات أو دون أى نوع من انواع التبعية ، إنهم سوف يسلمون المدن والأراضى التى تفتح الى المسحيين ، وذلك بسبب شدة حرارة الصيف فى المنطقة ، وأن المغول لايرغبون فى

البقاء فى هذه المناطق . وأنهم سوف يوافقون على أن يتسلم المسيحيون الأراض المقدسة بكل ترحاب ، وأن المغول لايخوضون الحرب ضد سلطان مصر من أجل كسب إقليمى بعدما أصبحت كل آسيا خاضعة لهم ، ولكن لأن السلطان يعتبر العدو الرئيسى لهم ، وأنه أنزل بهم ضرراً أكثر من أى شخص آخر [٤٤].

٦ - سفارة بطرس ديسبورتس :

لم يكن البابا كلمنت الخامس أول مسئول أوربى يتصور إمكانية إستعادة الأراضى المقدسة ، بمساعدة المغول ، لقد أقام الملك الأراغونى جيمس الثانى إتصالات مع أولجايتو ولعله أرسل فى عام ١٣٠٧م سفيره بطرس ديسبورتس Peter Desportes الى الخان . وفى هذا الخطاب أراد الملك جيمس أن يستفسر عن الطريقة التى يمكن إرسال قواته بها الى الشرق وكيفية إمدادها ، وفى هذه الرسالة أيضاً طلب أن يكون للمسيحيين الحق فى دخول الأماكن المقدسة أحراراً . ويتضح من نغمة هذا الخطاب أنه سبق هذا الخطاب خطابات أخرى ، ومن الملاحظ أنه لايوجد خطابات سابقة أولاحقة مع أولجايتو لهذا الخطاب قد ظهرت حتى الآن ، وهذا مايعقد المسألة الى حد ما .

ويكون من الأهمية بمكان إضافة معلومات عن العلاقات الأراغونية مع المماليك أعداء المغول ، وفى الاتصالات التى قام بها جيمس الثانى

---

(٤٤) Setton, op. cit., III, p.p. 537- 8.

ملك أراغون مع السلطان المملوكى محمد الناصر نلاحظ انه لايوجد بها أى إشارة الى المغول ، وأنه من الممكن أن يقدم جيمس الثانى الى أولجاتيو مايساعد على إفساد مفاجئ للعلاقات الأراغونية المملوكية ، لأن الاتصالات الدبلوماسية الأراغونية والمملوكية قد توقفت فى الفترة من ١٣٠٦ وحتى ١٣١٤ م [٤٥].

وهناك كلمة يجب أن نسجلها عن الزيادة المطردة فى العلاقات التجارية بين امبراطورية المغول وبين الغرب الأوربى خاصة مايميز عهد الخان أولجاتيو . لقد كانت كل التجارة تقريباً فى أيدى التجار الإيطاليين ، وما لدينا من مادة تاريخية يعتبر قليلاً . ولقد ظهرت بصفه رئيسية فى أنحاء الغرب الأوربى معلومات عن الأحوال الداخلية لدولة الخان وعن الصين أيضاً ، حيث أقام العديد من التجار الأوربيين أسواقاً كبيرة هناك . لقد ظل النشاط التجارى مرتبطاً فى معظم الأوقات بالأحداث السياسية ، ولكن من المعروف أن هذه التجارة ارتكزت على النفوذ التجارى الذى زاد وإعتمد على السلام الدائم . لقد ظلت الطرق التجارية مفتوحة ، والدليل على ذلك أن المعاهدات التجارية واتفاقيات القناصل ، ربط بعض الجمهوريات الايطالية مع دولة المغول .

لقد كان هناك دائماً آلية لإقامة القضايا الخاصة بالتجارة ، كما هو واضح فى قضية أو حالة الحاج سليمان ، وهو أحد مواطنى تبريز الذى

---

(٤٥) Setton, op. cit., III, p.p 538-9.

حكم له فى عام ١٣٢٢م بسبب مالحق به من خسائر ألحقها به أحد البنادقة ، وكان قيمة التعويض أربعة آلاف بيزنط(٤٦) .

قد استمر كثير من هذه التجارة فى أراضى الامبراطورية المغولية بعد سقوطها ، وتواصلت هذه التجارة حتى وقت تيمور خان القبيلة الذهبية أى حتى الفترة من ١٤١٠ - ١٤١٢ م .

ورغم الطرق البحرية فإن الطرق البرية الداخلية للتجارة ظلت هى الأسرع والمفضلة للوصول إلى شرق آسيا . وقد وضح عن ذلك بجلاء يوحنا أف مونت كورفينو John of Monte Corvino ، وهو أحد الخبراء فى شئون الطرق البحرية ، وقد ذكر أنه بالنسبة للطرق الى الصين يمكن القول أن الطريق الى شبه جزيرة القرم (التى أطلق عليها أرض القوط) تخضع لخان المغول الشماليين أى القبيلة الذهبية ، وهى أقصر الطرق وأكثرها أمناً ، وعن طريقها يمكن للرهبان أن يسلكوها مع حاملى الرسائل فى مدة طولها خمسة أوسته أشهر ، أما الطريق البحرى فهو طويل ومحفوظ بالمخاطر ، وأن هذا الطريق بالإمكان أن يستغرق عامين لاتمام الرحلة . ولكن الطريق البرى لايكون آمناً فى كل الأوقات بسبب الحروب التى تقع فى تلك المناطق .

لقد كان يوحنا آف مونت كورفينو متشائماً اكثر من اللازم ، لأن الطريق البرى ظل هو الطريق العملى فى عام ١٣٣٨ م . حينما إستخدمه مبعوثو طوغان تيمور Toghon Ttemur خان المغول فى منغوليا (١٣٣٢ - ١٣٧٠ م) وهم فى طريقهم الى أفنيون Avignon . وفى سفارة

---

(٤٦) Setton, op. cit., III, p.p 539-40.

ملك أراغون مع السلطان المملوكي محمد الناصر نلاحظ انه لايوجد بها أي إشارة الى المغول ، وأنه من الممكن أن يقدم جيمس الثاني الى أولجاتيو مايساعد على إفساد مفاجئ للعلاقات الأراغونية المملوكية ، لأن الاتصالات الدبلوماسية الأراغونية والمملوكية قد توقفت في الفترة من ١٣٠٦ وحتى ١٣١٤ م (٤٥).

وهناك كلمة يجب أن نسجلها عن الزيادة المطردة في العلاقات التجارية بين امبراطورية المغول وبين الغرب الأوربي خاصة مايميز عهد الخان أولجاتيو . لقد كانت كل التجارة تقريباً في أيدي التجار الإيطاليين ، وما لدينا من مادة تاريخية يعتبر قليلاً . ولقد ظهرت بصفه رئيسية في أنحاء الغرب الأوربي معلومات عن الأحوال الداخلية لدولة الخان وعن الصين أيضاً ، حيث أقام العديد من التجار الأوربيين أسواقاً كبيرة هناك . لقد ظل النشاط التجاري مرتبطاً في معظم الأوقات بالأحداث السياسية ، ولكن من المعروف أن هذه التجارة ارتكزت على النفوذ التجاري الذي زاد وإعتمد على السلام الدائم . لقد ظلت الطرق التجارية مفتوحة ، والدليل على ذلك أن المعاهدات التجارية واتفاقيات القناصل ، ربط بعض الجمهوريات الايطالية مع دولة المغول .

لقد كان هناك دائماً آلية لإقامة القضايا الخاصة بالتجارة ، كما هو واضح في قضية أو حالة الحاج سليمان ، وهو أحد مواطني تبريز الذي

---

(٤٥) Setton, op. cit., III, p.p 538-9.

حكم له فى عام ١٣٢٢م بسبب مالحق به من خسائر ألحقها به أحد البنادقة ، وكان قيمة التعويض أربعة آلاف بيزنط(٤٦) .

قد استمر كثير من هذه التجارة فى أراضى الامبراطورية المغولية بعد سقوطها ، وتواصلت هذه التجارة حتى وقت تيمور خان القبيلة الذهبية أى حتى الفترة من ١٤١٠ - ١٤١٢ م .

ورغم الطرق البحرية فإن الطرق البرية الداخلية للتجارة ظلت هى الأسرع والمفضلة للوصول إلى شرق آسيا . وقد وضح عن ذلك بجلاء يوحنا أف مونت كورفينو John of Monte Corvino ، وهو أحد الخبراء فى شئون الطرق البحرية ، وقد ذكر أنه بالنسبة للطرق الى الصين يمكن القول أن الطريق الى شبه جزيرة القرم (التى أطلق عليها أرض القوط) تخضع لخان المغول الشماليين أى القبيلة الذهبية ، وهى أقصر الطرق وأكثرها أمناً ، وعن طريقها يمكن للرهبان أن يسلكوها مع حاملى الرسائل فى مدة طولها خمسة أوسته أشهر ، أما الطريق البحرى فهو طويل ومحفوظ بالمخاطر ، وأن هذا الطريق بالإمكان أن يستغرق عامين لاتمام الرحلة . ولكن الطريق البرى لايكون آمناً فى كل الأوقات بسبب الحروب التى تقع فى تلك المناطق .

لقد كان يوحنا آف مونت كورفينو متشائماً اكثر من اللازم ، لأن الطريق البرى ظل هو الطريق العملى فى عام ١٣٣٨ م . حينما إستخدمه مبعوثو طوغان تيمور Toghon Ttemur خان المغول فى منغوليا (١٣٣٢ - ١٣٧٠ م) وهم فى طريقهم الى أفنيون Avignon . وفى سفارة

---

(٤٦) Setton, op. cit., III, p.p 539-40.

عكسية كان على رأسها يوحنـا دى مـاريـنولى John de Marig-nolli ماورد بها أن الخيول التى إستخدمتها هذه السفارة قد أحدثت إحساسا غريبا فى بلاط منغوليا ، وساعدت على إستعمال الطريق البرى، وعملت ايضاً على إحياء الطريق البحرى الى حد ما(٤٧) .

وفـى الخطـاب الذى قـدمـه يوحنا دى مـارينولى فى الثـلاثين من نوفـمبر عـام ١٣٠٧ الي الملك إدوارد الثـانى يوصى فـيه بإرسـال بعض البعثات الي أولجاتيـو . وكان من ضمن هذه البعثة وليم أسقف مدينة اللد Lydda، والمعروف أن وليم كان أسقفاً إسمياً ، وان هدفه الرئيسى كـان التبشيـر بالمسيحيـة بين المسلمين الذين يعيشـون فى الأراضى المغولية(٤٨) .

نشاط البعثات التبشيرية

لقد أشرنا من قبل الى وجود بعض الرهبان الفرنشيسكان فى مدينة تبريز ، وفى نهاية القرن الثالث عشر أصبح للفرنشيسكان قدماً راسخة فى دولة الخان ، ويبدوا أن نشاطهم كان روحياً ، ولم يظهر منهم أنهم قدموا عرضاً من أجل التحالف بين المغول وأوربا .

لم يكـن هنـاك للفـرنشـسكـان دوراً فى دفـع عـمليـة التـحـالف لاستعادة بلاد الشام ، وانهم دون شك قد أخذوا زمام المبادرة فى اتاحة الفـرصـة لاتسـاع بـاب الرهبـانيـة فى آسـيـا ، ان أعظم الجـهـود المبكرة

---

(٤٧) عن بعثة يوحنا أف مونت كورفينو أنظر:

Rouen, op. cit., pp. 200 ff.,

(٤٨) Setton, op. cit., III, p. 540-1.

والناجحة قد تمت فى الأراضى التى تحكمها القبيلة الذهبية لأن هؤلاء الفرنشيسكان قد دخلوا أراضيها عبر أراضى هنغاريا وأراضى القفجاق [٤٩].

وفى بلاد المغول كانت البعثات التبشيرية ذات نفع كبير للإتصال المستمر مع الصين لتوسيع مجال نشاطها ، لقد ذهب يوحنا أف مونت كورفينو الى الشرق حوالى ١٢٨٠ م ، ولابد أنه عاش لبعض الوقت فى فارس قبل أن يعود الى روما فى عام ١٢٨٩ ، وان المعلومات التى قدمها يوحنا عن الحالة التى يعيشها المغول كان بها تفاصيل كثيرة ، وكانت هى السبب الذى دفع البابا نيقولا الرابع Nicholoas IV (١٢٨٨ - ١٢٩٢م) أن يرسله مرة أخرى الى الخان أرغون ، كما توغل بعد ذلك الى بلاد الصين[٥٠] .

ومن بين الرسائل التى حملها جماعة الفرنشيسكان كان من بينها ماأرسل الى الخان أراغون ، وخطاب آخر يرجع تاريخه الى الثالث عشر من يوليو عام ١٢٨٩م ، وهو موجه بالاسم الى الخان العظيم قوبيلاى (١٢٦٠ - ١٢٩٤ م) ، الذى كان إسمه معروفاً للبابا . وان هذه الوثيقة جعلت الأمر واضحاً لنا ، ويتضح فيه رغبة حكام المغول فى اقامة تحالف مغولى مسيحى دائم ، وان المعلومات المتاحة لنا عن الأحوال الداخلية والأحوال الجغرافية للمغول كانت تحت أيدى حكام الغرب الأوربى [٥١].

---

(٤٠) Setton, op. cit., III, p. 541.

(٥٠) Loc. cit

(٥١) Loc. cit.

لقد ترك يوحنا اف مونت كورفينو مدينة تبريز فى عام ١٢٩١م ولم يعد ، فلقد مات بعدأن أصبح رئيس أساقفة فى مدينة بكين . ولم يكن رحيلة نهاية نشاط جماعة الفرنشيسكان أو الدرمنيكان فى نواحى فارس. ولقد أقام لأخوان الرماديون Friars Minor مراكز للقساوسة فى امبراطورية المغول . ففى الشمال استقامت الاسقفيات فى أراضى القبيلة الذهبية ، وفى الصين ، وفى القسطنطينية وطرابيزون وتبريز . وأنه من الأهمية أن نلاحظ أن البابا إطلع على حقيقة أن المركز الرئيسي للمغول يوجد فى ضواحى الصين ، وعلية أن يساند أسقفيات الصين ، وعلى كل القساوسة أن يعملون بنشاط داخل الامبراطورية المغولية ، كما أن هؤلاء القساوسة يعملون فى أراضى متأخمة للغرب مثل شبه جزيرة القرم وبلاد فارس .وفى عام ١٣١٨ م أقام البابا يوحنا الثانى والعشرين أول رئاسة للأسقفية فى امبراطورية المغول وكان مقرها مدينة سلطانية وهى العاصمة الجديدة لمغول فارس ، وكان أول من تولى هذا المنصب الدومنيكانى فرانسيس اف بروجيا Froncis of Perugia وقد خلفه فى منصبه فى عام ١٣٢٣ م وليم آدم William Adam ، وكان من المتحمسين للقيام بعمل عسكرى جديد ضد المماليك . وفى عام ١٣١٨ م عين وليم آدم مساعد أسقف فى سلطانية ، وبعد ذلك ولمدة قصيرة تولى منصب الأسقف فى مدينة أزمير ، وفى السادس من أكتوبر من عام ١٣٢٢ عين لمنصب رئيس أساقفة سلطانية ، وفى السادس والعشرين من اكتوبر ١٣٢٤م نقل الى مركز أسقفية إنتفارى Antivary الواقعة على ساحل دالماشيا ، وفى عام (١٣٣٧ م)كان آخر عهدنا بوليم آدم ،

ولعله مات قبل ديسمبر عام ١٢٤١م عندما عين خلفاً له (٥٢).

فكرة الحصار الاقتصادى لدولة المماليك

وفى خضم الأحداث التى اقترنت بطرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام، وإحساس العالم الأوربى بالمهانة التى لحقت به، ظهرت موجه من الدعاية تولى أمرها بعض رجال الدين والمثقفين المتعصبين للحروب الصليبية(٥٣). وقد نادى هؤلاء ببعض الأفكار ووضعوا عدة مشاريع رأوا فيها إمكانية استعادة الأراضى المقدسة .

ومن هؤلاء الراهب الفرنسكانى فيدنتشو أوف بادو Fidenizo of Pa-duo الذى كتب فى عام ١٢٩١م كتاباً أهداه إلى الباب نيقولا الرابع . ويشتمل هذا الكتاب على دراسة قيمة عن تاريخ بلاد الشام والجيش الصليبي المطلوب لاستعادة الأراضى المقدسة، والطرق التى على الجيش أن يسلكها .

ومن هذه المشاريع أيضا التقرير الذي كتبه الراهب ثاديوس Thaddeus فى عام ١٢٩٢م، وقد حوى هذا التقرير أخبار سقوط مدينة عكا فى أيدى المسلمين ، مع نداء حار إلى الباب وحكام أوربا لإعداد حملة صليبية لتخليص الأراضى المقدسة (٥٤).

---

(٥٢) Atiya, The Crucade in the Later Middle Ages, London 1938, pp. 65.

(٥٣) Loc cit,

(٥٤) عن هؤلاء الدعاة الذين ورد ذكرهم في هذه الصفحة والصفحة التالية أنظر: Ibid, pp. 47 ff.

أما الداعية الجنوى جلفانو أف ليفانتى Galvano of Levanti فقد وضع كتاباً فى عام ١٢٩٤م ، وأهداه إلى الملك الفرنسى فيليب الرابع Philip IV (١٢٨٥ - ١٣١٤م) . ولكن هذا الكتاب لا يتجاوز بعض الانطباعات والعظات ، وجاء خالياً من الأفكار العملية التى تؤدى إلى استعادة الأراضى المقدسة .

ومع هؤلاء يأتى المبشر رامون لول Ramon Lull ورغم أن شهرة رامون بلغت القمة باعتباره من الزهاد، إلا أنه في الوقت نفسه يعتبر من رجال السياسة العلمانيين . وقد انتهى من كتابه فى عام ١٣٠٥ ، وبه كثير من التفاصيل والأفكار حول المنهج العلمى لاستعادة الأراضى المقدسة. وقد ركز على رجال الدين الذى عليهم أن يبذلوا الجهد الكبير لإعداد حملة صليبية يتولى أمرها ملك محارب تعمل تحت إمرته كافة الطوائف الدينية العسكرية، مع اتخاذ جزيرتى رودس ومالطة قاعدتين عسكريتين لطرد المسلمين من أسبانيا، والاستيلاء علي الساحل الافريقى من تونس حتى مصر، كما نادى أيضاً بالاستيلاء على القسطنطية واتخاذها طريقا إلى بلاد الأناضول ثم إلى بلاد الشام.

وإلى جانب هؤلاء يأتى بطرس ديبوPeter Dubois وهو من رجال القانون الفرنسيين ، إذ نادى ببعض الإصلاحات الاجتماعية والكنيسة، وقيام الملك فيليب الرابع بقيادة حملة صليبية لاستعادة الأراضي المقدسة. أما عن تمويل هذه الحملة فقد طالب بانتزاع أملاك الداوية وفرض الضرائب على رجال الدين .

وفى فرنسا أيضاً ظهر المستشار الدبلوماسى وليم نوجارت William

Nogaret الذى قدم فى عام ١٣١٠ م تقريرا عن حملة صليبية لاستعادة الأراضى المقدسة ، وركز على أن تقوم البابوية بتقديم ما لديها من أموال دون تردد ، والقضاء على هيئة فرسان الداوية ومصادرة أموالها لاستغلالها فى هذه الحملة .

كذلك شاركت أرمينية فى تلك الدعوة عن طريق المفكر والمؤرخ الأمير هيثوم أف كوريكوس Hethum of Corycus . وجاء في كتابة الذى ظهر فى عام ١٣٠٧م خلاصة موجزة عن تاريخ الشرق الأدنى الإسلامى وأحوال الدولة المملوكية ، وأوصى بضرورة قيام حملة صيلبية برية وبحرية تتخذ من قبرص وأرمينية قاعدتين للعمليات العسكرية لاستعادة الأراضى المقدسة بالتحالف مع المغول وبمساعدة الأرمن .

وإذ نكتفى بهذه القائمة نأتى إلى الحديث عن الدبلوماسى البابوى وليم آدم William Adam ، وهو الشخصية التى نركز عليها فى هذا الحديث. وقد ولد وليم آدم حوالى عام ١٢٧٥ ، فى أقليم لانجدوك Lan-guedoc الذى يقع فى الجزء الجنوبى الشرقى فى فرنسا ، ودرس اللاهوت فى كوندوم Condom فى عام ١٣٠٢ م . ثم سلك طريق الرهبانية فى جماعة الدومنيكان . وفى عام ١٣٠٥م أختاره البابا كلمنت الخامس Clement V (١٣٠٥ - ١٣١٤م) فى بعثة إلى الشرق ، فذهب إلى القسطنطينية ومنها إلى آسيا الصغرى ثم إلى بلاد الشام. ثم عاد إلى أوربا فى عام ١٣١٣م فى وقت كانت تتردد فى أوربا فكرة الإعداد لحملة صليبية ، ولكن هذه الفكرة لم تتحق . وقد قام وليم بعد ذلك برحلة إلى الشرق بتكليف من البابا ، فاتجه إلى خان مغول فارس أولجايتو خدا بنده محمد (١٣٠٤ - ١٣١٧م) ، كما قام بعملية التبشير

بالديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكى فى فارس، ثم سافر إلى الهند ثم إلى اليمين وجال في تلك الأنحاء حتي وصل إلى أثيوبيا. والحقيقة أن هذا الترحال كان في غاية الأهمية بالنسبة لوليم آدم والأفكار التى دونها حول مشروع إعداد حملة صليبية لاستعادة الأراضي المقدسة. وعاد وليم إلى مدينة أفنيون مقر البابوية الجديد فى تلك المرحلة ، ولكنه لم يبق فيها سوى فترة قصيرة ، لأن البابا يوحنا الثانى والعشرين John XXII (١٣١٦ - ١٣٣٤م) أنشأ كرسيا أسقفيا فى مدينة سلطانية ، التى اتخذها أولجاتيو عاصمة لمغول فارس بعد مدينة تبريز فى الأول من أبريل ١٣١٨م ، فأرسل فرانكو دى بروجيا Franco di Perugia ليتولى منصب أول رئيس اساقفة لهذا المقر الجديد ، ومعه وليم آدم وآخرون بمثابة مساعدين لرئيس الأسقفية. وقد سافرت المجموعة كلها سويا إلى سلطانية.

عاد أن وليم أدم فى عام ١٣٢٢م إلى مقر البابوية في أفنيون حيث عينه البابا فى منصب رئيس أسقافة مدينة سلطانية خلفاً لسلفه فرانكو دى بروجيا . وفى العالم التالى (١٣٢٣م) كلفه البابا للقيام ببعثة من أجل وحدة الكنيسية الكاثوليكية فى أرمينية . وليس من المعروف لنا أن كان وليم قد قام بهذه المهمة أم لا ، لأنه كان موجودا فى مدينة أفنيون فى عام ١٣٢٤م ، ثم عين في العام التالى (١٣٢٥م) فى منصب رئيس أساقفة مدينة انتفارى Antivari التى تقع على ساحل دالماشيا، وظل في منصبه هذا حتى مات فى عام ١٣٤١م(٥٥).

---

(٥٥) Guillaume Adae, De Modo Sarracenos Extripandi, in R.H.C. Arm. II, p. 542.

وقد وضع وليم آدم بعض الكتب الخاصة بالطقوس الدينية ، بالاضافة إلى كتابه الذى يعنينا فى هذه الدراسة وهو De Mode Saracenos Extripandi ، أى كيفية اقتلاع جذور المسلمين ، وقد حوى هذا الكتاب العديد من الأفكار العسكرية والسياسية والدينية والاقتصادية التى من شأنها استعادة الأراضي المقدسة محور هذا البحث .

وكان وليم آدم قد طاف بمنطقة واسعة متعددة الحضارات ، تشمل الإمبراطورية البيزنطية ، وجزيرة خيوس Chios ، وهي جزيرة كبيرة تقع إلى الغرب من مدينة أزمير ، بالإضافة إلى اسيا الصغرى، كما زار خليج البسفور ومدينة القسطنطينية. وقد تحدث عن هذه المناطق وسواحلها ومنتجاتها الزراعية ومواردها المختلفة ووصفها وصفا دقيقا للغاية(٥٦) .

كذلك تحدث وليم عن مقابلته لبعض البحارة الجنويين ، ومنهم سيجورانوس سلفاتشى Seguranus Salvatici ، وهو من الذين كانوا يتولون نقل المؤن إلى مصر ، ويرفعون علم مصر على سفنهم حرصاً علي سلامتها . أما معلوماته عن مصر والشام فهى قليلة ، ويبدو أنه دون معلوماته عن مصر من خلال ما سمعه عنها .

ومن الواضح أن وليم آدم كان موجودا فى بلاد فارس فى عهد البابا كلمنت الخامس في الوقت الذى ترددت الشائعات فى أوربا حول إرسال حملة صليبية إلى الشرق أى حوالى ١٣١٣ - ١٣١٤م ، ثم أنه اتجه بعد

---

(٥٦) Guillaume Adae, op. cit., p. 542.

ذلك جنوباً بعد أن دون كتابه - في حوالي عام ١٣١٦ - ١٣١٧م - حتى وصل إلى الهند حيث باشر الدعوة للديانة المسيحية مدة تزيد عن عام ونصف . وقد طاف بالأقاليم وتعرف على أخشاب أشجارها التى تصلح لبناء السفن مثل خشب التك والصندل [٥٧]. كذلك كان وليم على معرفة تامة ببحر فارس - الخليج العربى - والجزء التى يقع عند مدخله الجنوبى . وقد ذكر أنه سار من شمال إيلخانية فارس حتى جنوبها ، حيث قام بعملية الدعوة للديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكى ، كما تجول فى جزيرة سقطرى Socotara كما كتب عن إثيوبيا . وقضى فى تلك المناطق حوالى تسعة أشهر ، مما جعله على معرفة تامة بمواقع بعض الجزر الموجودة فيها ، مثل جزيرة هرمز ، وجزيرة ديف Dive [٥٨].

وبعد هذا العرض للأماكن التى زارها وليم آدم ، والتى كان لها أكبر الأثر على كتاباته ، ننتقل إلى المشاريع التى قدمها أو سجلها لاستعادة الاراضي المقدسة . والحقيقة أن كافة الأفكار التى وردت فى كتابات أصحاب المشاريع الصليبية فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى ، كانت أفكارها نظرية وبعيدة عن الواقع العملى إلى حد كبير ، لأن هذه الأفكار اعتمدت فى أساسها على وجود تفاهم بين كافة حكام أوربا من أجل استعادة الأماكن المقدسة فى بلاد الشام ، مما يسهل قيام تحالف فورى بينهم لضرب مصر، باعتبارها القوة الرئيسية التى اجتثت الإمارات الصليبية من بلاد الشام . ولكن وليم أدم خرج عن هذه القاعدة ، فذكر

---

(٥٧) Guillaume Adae, op. cit., p. 552.

(٥٨) Ibid, pp. 551-2.

أن العقبة الرئيسية فى القضاء على مصر تكمن فى أوربا نفسها، وترجع إلي إنشغال الغرب بأمور الداخلية ، وإلى صراع الدول الأوربية مع بعضها البعض ، وإلى مطامع بعضها في تحقيق مكاسب خاصة ، ولذلك فإنه يرى أنه لا سبيل للقضاء على القوة المملوكية فى مصر غير العناية الإلهية التي ربما تتدخل لتمكين الغرب الأوربى من انتزاع القبر المقدس من أيدى المسلمين . وقد قدم وليم أدم بعض النصائح إلى البابا وحكام أوربا حول إعداد حملة عسكرية أو القيام بأعمال أخرى من شأنها العمل على استعادة الأراضى المقدسة .

وفيما يتعلق بقيام الغرب الأوربى بإعداد حملة عسكرية لضرب الدولة المملوكية ، قدم وليم آدم أفكاراً تمهيدية يجب الأخذ بها قبل الشروع فى أي عمل عسكرى ضد مصر ، ووضع هذه الأفكار فى أربع نقاط رئيسية.

أولاً : يجب التعامل بكل شدة مع الأفراد أو الهيئات أو الدول التى تساعد مصر وتمدها بالدقيق والمواد الحربية وكافة المستلزمات الخرى، لأن هؤلاء لا يطبقون مبدأ الحصار البحري الذى نادت البلابوية بفرضه علي الموانىء الإسلامية ، ومن هؤلاء القطلان والبنادقة والبيزيين والجينوية، كما أنهم لا يبالون بقرارات الحرمان من رحمة الكنيسة التى تفرضها البابوية ضد المتعاملين مع المسلمين ، خاصة الدول المملوكية (٥٩).

(٥٩) Guillaume Adae op. cit., p. 523.

ذلك جنوباً بعد أن دون كتابه - في حوالي عام ١٣١٦ - ١٣١٧م - حتى وصل إلى الهند حيث باشر الدعوة للديانة المسيحية مدة تزيد عن عام ونصف . وقد طاف بالأقاليم وتعرف على أخشاب أشجارها التى تصلح لبناء السفن مثل خشب التك والصندل (٥٧). كذلك كان وليم على معرفة تامة ببحر فارس - الخليج العربى - والجزء التى يقع عند مدخله الجنوبى . وقد ذكر أنه سار من شمال إيلخانية فارس حتى جنوبها، حيث قام بعملية الدعوة للديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكى ، كما تجول فى جزيرة سقطرى Socotara كما كتب عن إثيوبيا . وقضى فى تلك المناطق حوالى تسعة أشهر ، مما جعله على معرفة تامة بمواقع بعض الجزر الموجودة فيها ، مثل جزيرة هرمز ، وجزيرة ديف Dive (٥٨).

وبعد هذا العرض للأماكن التى زارها وليم آدم ، والتى كان لها أكبر الأثر على كتاباته ، ننتقل إلى المشاريع التى قدمها أو سجلها لاستعادة الاراضي المقدسة . والحقيقة أن كافة الأفكار التى وردت فى كتابات أصحاب المشاريع الصليبية فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى ، كانت أفكارها نظرية وبعيدة عن الواقع العملى إلى حد كبير ، لأن هذه الأفكار اعتمدت فى أساسها على وجود تفاهم بين كافة حكام أوربا من أجل استعادة الأماكن المقدسة فى بلاد الشام ، مما يسهل قيام تحالف فورى بينهم لضرب مصر، باعتبارها القوة الرئيسية التى اجتثت الإمارات الصليبية من بلاد الشام . ولكن وليم أدم خرج عن هذه القاعدة ، فذكر

---

(٥٧) Guillaume Adae, op. cit., p. 552.

(٥٨) Ibid, pp. 551-2.

أن العقبة الرئيسية فى القضاء على مصر تكمن فى أوربا نفسها، وترجع إلي إنشغال الغرب بأمور الداخلية ، وإلى صراع الدول الأوربية مع بعضها البعض ، وإلى مطامع بعضها في تحقيق مكاسب خاصة ، ولذلك فإنه يرى أنه لا سبيل للقضاء على القوة المملوكية فى مصر غير العناية الإلهية التي ربما تتدخل لتمكين الغرب الأوربى من انتزاع القبر المقدس من أيدى المسلمين . وقد قدم وليم أدم بعض النصائح إلى البابا وحكام أوربا حول إعداد حملة عسكرية أو القيام بأعمال أخرى من شأنها العمل على استعادة الأراضى المقدسة .

وفيما يتعلق بقيام الغرب الأوربى بإعداد حملة عسكرية لضرب الدولة المملوكية ، قدم وليم آدم أفكاراً تمهيدية يجب الأخذ بها قبل الشروع فى أي عمل عسكرى ضد مصر ، ووضع هذه الأفكار فى أربع نقاط رئيسية.

أولاً : يجب التعامل بكل شدة مع الأفراد أو الهيئات أو الدول التى تساعد مصر وتمدها بالدقيق والمواد الحربية وكافة المستلزمات الخرى، لأن هؤلاء لا يطبقون مبدأ الحصار البحري الذى نادت البلابوية بفرضه علي الموانىء الإسلامية ، ومن هؤلاء القطلان والبنادقة والبيزيين والجينوية، كما أنهم لا يبالون بقرارات الحرمان من رحمة الكنيسة التى تفرضها البابوية ضد المتعاملين مع المسلمين ، خاصة الدول المملوكية [٥٩].

---

(٥٩) Guillaume Adae op. cit., p. 523.

ثانيا : يطالب وليم أدم قبل القيام بأي حملة عسكرية ضد مصر بضرورة قيام دول غرب أوربا بالاستيلاء على مدينة القسطنطينية. وركز على أن البيزنطيين هم الأعداء الحقيقيون للصليبيين ، كما أن الأمبراطور البيزنطى يرتبط بروابط الود والصداقة مع سلطان مصر ، ويعمل على إمداد مصر بالمؤن فى أوقات الشدة. وبقيام اللاتين بغزو القسطنطينية والاستيلاء على أراضى الإمبراطورية البيزنطية يتم تحويل الشعب البيزنطى الأرثوذكسى المذهب إلى شعب كاثوليكى المذهب، ويدخل فى تبعية كنيسة روما(٦٠) .

ثالثا : يجب منع خان مغول القفجاق أو تتار القرم من التعاون مع مصر ضد مغول فارس الذين يسعون إلى التحالف مع الدول الأوربية والباباوية لضرب الدولة المملوكية .

رابعاً : يطالب وليم آدم بإعداد أسطول أوربى تكون مهمته السيطرة على موانى البحر المتوسط ، كما يقوم أسطول آخر يتم إعداده فى موانى بحر الهند بإغلاق مضيق هرمز ، وكذلك مضيق باب المندب، وذلك لإيقاف الحركة التجارية بين موانى البحر المتوسط ، وموانى الشرق الأقصى التى تتدفق عن طريقها على مصر بضائع وغلات الشرق عبر ثغر عدن (٦١). ويرى أيضاً أنه يجب تحويل طريق التجارة ليكون فى أيدى الأوربيين بحيث تنقل بضائع الشرق عبر مضيق هرمز إلى الخليج الذى تسيطر عليه القوات المغولية ، ثم إلى نهر الفرات ، ومنه إلى

---

(٦٠) Guillaume Adae op. cit., p. 528.

(٦١) Ibid, p. 553.

موانىء دولة أرمينية ، والمقصود هنا مدينة أياس [٦٢].

وبعد أن حدد وليم آدم الخطوط العريضة للأفكار التى من شأنها إحكام الحصار البحرى على مصر من الشمال والجنوب للأضرار بمصالحها التجارية التى تشكل الدخل الرئيسى للدولة المملوكية فى تلك المرحلة ، قام بتحديد السبل التى من شأنها وضع هذه الأفكار موضع التنفيذ.

وفيما يتعلق بالدول أو السفن أو الأفراد الذين يتعاملون مع مصر تجارياً ولا يبالون بالقضية الصليبية ولا يخشون قرارات الحرمان التى تصدرها البابوية ، يطالب وليم آدم باستباحة دماءهم ومصادرة ممتلكاتهم وبيعها علناً، وتخصيص العائد من بيعها للحركة الصليبية وإنقاذ الأراضى المقدسة . كذلك طلب باستباحة سلب أو الاستيلاء على حمولة السفن التى تتعامل مع مصر دون خوف من أحد . ويرى أنه من أجل ضرب هؤلاء المتعاملين مع مصر يجب إعداد مجموعة من السفن تكون مهمتها التجول فى مياه البحر المتوسط لملاحقة السفن الخارجة عن القانون[٦٣] .

كذلك طالب بحرمان كل السفن التى تتعامل مع المسلمين فضلاً عن السفن الإسلامية من التعويضات التى يقدمها مكتب الضمان الجنوى. وكان هذا المكتب يقدم تعويضاً لكل المسلمين واليهود الذين تتعرض بضائعهم للخسائر وهى محمولة على ظهر السفن الجنوية، بشرط ألا

---

(٦٢) Marco Polo, op. cit., p. 46.

(36) Guillaume Adae op. cit., p. 537.

يكون الضرر قد وقع من إحدى الدول التى هى فى حالة حرب مع جمهورية جنوة(٦٤).

ويرى وليم آدم حرمان الدولة المملوكية من الأموال التى تدخل خزانتها من عائد عملية الحج التى يقوم بها المسيحيون الأوربيون إلى الأراضى المقدسة ، وذلك بمنع الحج تماماً إلى القدس، لأن الرسوم التى يقدمها هؤلاء الحجاج تمثل دخلاً كبيراً لخزانة الدولة المملوكية . وأضاف إنه يمكن التحكم فى عملية الحج التى يقوم بها المسيحيون الأوربيون إلى الأراضى المقدسة عن طريق قبرس أثناء رسو الحجاج فيها وهم فى طريقهم إلى بيت المقدس . كذلك نادى بانزال العقاب بكل من يساعد هؤلاء الحجاج سواء بالسفن أو الاستضافة (٦٥)، وطالب كذلك بتطبيق هذه العقوبات على كل من يقوم بنقل البضائع والرقيق إلى مصر أو يقوم بالوساطة بين الإمبراطور البيزنطى وخان القفجاق وبين سلطان مصر(٦٦) .

ولما كان وليم آدم يرى أن عقوبة الحرمان من رحمة الكنيسية غير كافية لمنع التجار الأوربيين المتعاملين مع مصر، فقد طالب البابوية بإعداد بعض السفن المسلحة ووضعها تحت تصرف حكام جزيرة خيوس(٦٧)، لأنهم من الحكام الأقوياء المدافعين عن المصالح الأوربية الصليبية، وخاصة أن موقع هذه الجزيرة من الأهمية بمكان لوقوعه على

---

(46) Guillaume Adae op. cit., p.p. 526-7.

(٦٥) Ibid, p. 528.

(٦٦) Ibid, pp. 424-5, 544.

(٦٧) Ibid, p. 533.

الطريق البحري بين القسطنطينية والإسكندرية، وباستطاعة حاكم هذه الجزيرة قطع الاتصال التجاري بين مصر من جهة وبين خان القفجان والإمبراطورية البيزنطية من جهة أخرى. وركز وليم آدم على ضرورة غزو القسطنطينية وخصص لذلك جانباً كبيراً من كتاباته، واعتبر هذا العمل حجر الزاوية لأي مشروع لضرب المصالح الاقتصادية(٦٨).

وقد سجل وليم بعض الآراء التي عزز بها وجهة نظره لغزو الإمبراطورية البيزنطية، منها أن تبدأ أوربا بغزو آسيا الصغرى حتى تكون على اتصال بري بتلك الانحاء قبل غزو بلاد الشام، لأن غزو بلاد الشام قبل غزو آسيا الصغرى يجعل القوات الصليبية محاطة بالأتراك والعرب من كل جانب. وذكر وليم أنه إذا كانت الغاية النهائية لكل هذه الأعمال هي السيطرة على مصر، فإن السيطرة على آسيا الصغرى لابد أن تبدأ من القسطنطينية لاتخاذها نقطة ارتكاز لاستكمال فتح آسيا الصغرى. ولم يستبعد وليم آدم رغم هذا كله الحلول السلمية لاحتواء الإمبراطورية البيزنطية وضمها إلى حظيرة المسيحية الكاثوليكية. وطالب البابا بمحاولة إقناع حكام بيزنطة باعتناق المذهب الكاثوليكي، أما إذا فشل البابا في ذلك فإن السلاح يصبح الحل الأمثل، خاصة أن هناك تعاوناً كبيراً بين الإمبراطورية والجنيوية(٦٩).

وفي الحديث عن الإمبراطورية البيزنطية، أنحى وليم آدم باللائمة عليها وذكر أنه يجب معاملة البيزنطيين بمنتهى الشدة، وركز على أنه لا

---

(٦٨) Guillaume Adae op. cit., p. 531.

(٦٩) Ibid, pp. 545, 547.

يمكن سيطرة أوربا على بلاد الشام دون الهيمنة على الإمبراطورية البيزنطية التي تتحالف مع مصر وتقع إلى الشمال منها. وتصور أنه من السهولة السيطرة عسكرياً على بيزنطة من أجل تسخير ثرواتها لخدمة القضية الصليبية، وأنه بالإمكان بعد ذلك اتخاذ الطريق البري عبر هنغاريا إلى بلاد الشام، وهو طريق أسهل من الطريق البحري. وحول هذا الصدد، روى وليم أنه إذا كان على أوربا أن تحارب المسلمين، فعليها أولاً إعادة الأبن الضال أي الإمبراطورية البيزنطية إلى حظيرة الكنيسة الرومانية(٧٠).

وبالإضافة إلى ذلك عدد وليم آدم ما ذكرته المصادر الصليبية عن الاضرار التي لحقت بالحملة الصليبية الأولى بسبب موقف الإمبراطورية البيزنطية من جودفري Godfery (٧١)، وذكر قصة الدقيق المخلوط بالجير الذي باعه البيزنطيون للصليبين - وهو هنا يقصد ما سُجل عن بعض أحداث الحملة الصليبية الثانية(٧٢)، واغتصاب آل باليولوج Polaeologus لعرش الإمبراطورية البيزنطية. والمراد هنا عودة أسرة باليولوج لحكم بيزنطة في عام ١٢٦١م، والقضاء على حكم اللاتين. والحقيقة أن وليم آدم عدد مساوئ كثيرة للأباطرة البيزنطيين خاصة

---

(٧٠) Guillaume Adae op. cit., p. 544.

(٧١) Fulcher of Chartres, A History of the Expedition to Jerusalem, tran. R.R. knoxville, 1964, p. 79.

(٧٢) William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea, tran. A.C.krey, New York, 1943, II, pp. 168 ff.

موقفهم من توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، وأفرد لها صفحات طوال(٧٣).

وتبقى نقطة أخيرة في هذا البحث وهي التي تتعلق بوقف تدفق البضائع القادمة من الهند والشرق الأقصى عبر البحر الأحمر والخليج. فالحقيقة أن فكرة القيام بحصار مصر بحرياً كانت من الأفكار التي ساندتها البابوية قبل عام ١٢٩١م من أجل الإبقاء على الإمارات الصليبية في بلاد الشام، أو بعد سقوط هذه الإمارات من أجل استعادتها مرة أخرى. ومن المعروف أن بقاء أو قيام هذه الإمارات كان مرهوناً بموقف القوى الإسلامية المحيطة ببلاد الشام خاصة مصر، ونذكر على سبيل المثال الأفكار التي نادى بها الرحالة والمفكر مارينو سانودو Marino Sanudo، ولكنه قصر أفكاره على حصار مصر اقتصادياً من ناحية البحر المتوسط فقط(٧٤).

ومن الواضح أن وليم آدم كان أول من نادى بحصار مصر اقتصادياً عن طريق الجنوب والشمال أي عن طريق الخليج ، وباب المندب من جهة والبحر المتوسط من جهة أخرى، لأنه استهدف إغلاق طريق باب المندب في وجه التجارة القادمة إلى مصر بحراً من الشرق الأقصى. وقد أدرك وليم مسبقاً صعوبة تنفيذ ذلك المشروع باعتباره مشروعاً غير مسبوق، لذلك نراه يقدم بعض المعلومات التي استند إليها لتنفيذ هذه الفكرة، فذكر أن بعض الجنويين حاولوا تنفيذ جانباً من هذا المشروع لأسباب

---

(٧٣) Guillaume Adae op. cit., p.p. 529-30, 545ff.

(٧٤) Atiya, op. cit., pp. 114- 127.

تجارية. وبفضل مساعدة خان مغول فارس أرغون فإن هؤلاء الجنوبيين قاموا بإعداد سفينتين في بغداد، وكانوا يودون تسيير هذه السفن في نهر الفرات - ولعله يقصد نهر دجلة - ومنه تسير إلى المحيط الهندي عبر الخليج. ولكن هذا المشروع لم يستكمل بسبب بعض الخلافات التي قامت بين هؤلاء الجنوبيين(٧٥).

وعندما عرض وليم هذا المشروع ذكر أن شواطئ المحيط الهندي مملوءة بأشجار التك والصندل التي تصلح أخشابها تماماً لبناء السفن(٧٦). وقال أنه يجب أن يتم ذلك بعيداً عن أعين التجار المسلمين سكان مدينة عدن الذين يتولون أمر الملاحة في البحر الأحمر. واقترح أن توضع هذه السفن في جزيرة هرمز، ولعله يقصد جزيرة قشم التي كانت ضمن أملاك الدولة المغولية في فارس، أو في جزيرة أخري أسماها ديف Dive، أو إقامتها على الساحل الهندي. ولعل في اسم ديف تشابه مع جزر الكارديف أو مالديف ولكن الأخيرة تبعد كثيراً إلى الجنوب، لأن عبارة وليم تفيد أن جزيرة ديف قريبة من جزيرة هرمز. وأشار أيضاً إلى أنه بالإمكان إعداد هذه السفن على الساحل الغربي للهند في مدينة تانا Tana وهي بومباي حالياً، أو في مدينة كامباي Cambay وهي تحمل الاسم نفسه حتى الآن، أو مدينة كولوم Colom وهي كولومبو حالياً التي تقع في جزيرة سيلان حيث تنمو بكثافة أشجار التك والصندل. ويضيف وليم أنه إذا تم إعداد ثلاث سفن أو أربع فإنه بالإمكان غلق فتحة باب المندب ومراقبة السفن القادمة من الهند إلى البحر الأحمر، وستكون هذه بمثابة عوائق تسد

---

(٧٥) Guillaume Adae op. cit., p. 551.

(٧٦) Ibid, p. 552.

المدخل إلى البحر الأحمر[٧٧]، وفي هذه الحالة يمكن استغلال جزيرة سوقطرة أيضاً.

وأشار وليم إلى أن سكان الجزر التي أشار إليها مسيحيون وأنهم يكرهون المسلمين ويفضلون التعامل مع السفن المسيحية، ولذا فإنهم سوف يساعدون السفن المزمع إعدادها للرسو في موانيهم. أما فيما يتعلق بالتجار الذين يعملون على ظهر السفن من الهند إلى عدن، وهم الذين سماهم وليم بالمهربين، فإنهم يجهلون أصول الحرب البحرية وليس لديهم سفن لحمايتهم، وإذا ما تعرضوا للهجوم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، وإنهم يصدون سهام الأعداء القراصنة البحريين بدروع مصنوعة من القش أو سعف النخيل[٧٨].

كذلك رأى وليم آدم ضرورة وجود ميناء صالح قريب من هذه المواقع حتى تلجأ إليه سفن الحراسة للقيام بعملية الصيانة الموسمية، ومن أجل تخزين البضائع التي يتم الاستيلاء عليها. وأختار لذلك الجزر الموجودة في مدخل الخليج عند مدينة هرمز باعتبارها المكان المناسب للرسو، وهي آمنة كذلك لتبعيتها لخان مغول فارس الذي يسعى جاهداً لضرب التجارة المصرية وإذا تعذر الحصول على موافقة الخان فإنه يمكن البحث عن مكان آخر مثل أرخبيل ديف على وجه التحديد[٧٩].

كذلك تحدث وليم عن مسألة تسليح السفن وإمدادها بالمقاتلين، وقال

---

(٧٧) Guillaume Adae, op. cit., p. 550.

(٧٨) Ibid. p. 554.

(٧٩) Ibid, p. 552.

أنه يلزم لذلك إعداد حوالي ألف ومائتين من الرجال، وإن هذا أمر متروك للقائد الذي سيتولى قيادة هذه السفن. أما تمويل هذه السفن فأمر يتولاه البابا من حصيلة صكوك الغفران، أو من أثمان السلع التي تصادر من التجار الذين يتاجرون مع مصر(٨٠).

هذه هي الأفكار الرئيسية التي قدمها وليم آدم للقضاء اقتصادياً على الدولة المملوكية، وما يتبع ذلك من القضاء عليها عسكرياً، ويمكن تلخيص هذه الأفكار في النقاط التالية:

١ - وضع الموانى المملوكية - خاصة مدينة الإسكندرية - تحت الحصار الاقتصادي الأوربي.

٢ - إنزال قرار الحرمان من رحمة الكنيسة على جميع التجار الذين يتعاملون مع مصر.

٣ - إعداد السفن اللازمة لمراقبة حركة التجارة في حوض البحر المتوسط ومعاقبة من يتعامل مع مصر ومصادرة سلعه.

٤ - وقف حركة الحج الأوربية إلى الأراضي المقدسة لحرمان الخزانة المصرية من الأموال التي يدفعها الحجاج للدولة المملوكية.

٥ - الاستيلاء على مدينة القسطنطينية، والقضاء على الإمبراطورية البيزنطية باعتبارها دولة مارقة على الدين المسيحي، وكانت دائماً تقف موقف الخيانة من القضية الصليبية، فضلاً عن أنها مرتبطة بمصر

---

(٨٠) Guilliam Adae, op. cit., p. 553.

اقتصادياً، بالإضافة إلى قيامها بدور الوسيط في نقل التجارة بين مغول القفجاق وبين مصر.

٦ - قطع طريق التجارة التي ترد من الشرق الأقصى، وذلك بغلق مضيق باب المندب بالسفن الحربية.

٧ - تحويل التجارة القادمة من الشرق الأقصى إلى الخليج ومنها إلى نهر الفرات ثم براً إلى دولة وموانى أرمينية.

والحقيقة أنه كان لأفكار وليم آدم صدى كبير في أوربا، فقد عارضها البعض، ومن هؤلاء فيليب الخامس Philip V ملك فرنسا (١٣١٦ - ١٣٢٢م)، ورأي أن في إعداد مثل هذه الحملات فرصة لقيام البابا بجمع الأموال واستخدامها في أغراض أخرى. ولكن يبدو أن البابوية اهتمت بهذه الآراء، وقام البابا يوحنا الثاني والعشرون بالإعداد لحملة وجهتها القسطنطينية، وأسند هذا العمل إلى روبرت ملك نابلي Robert of Naples (١٣٠٧ - ١٣٤٣م). على أن هذه الحملة فشلت ولم تتجه إلى القسطنطينية.

على أنه إذا كانت أفكار وليم آدم لم تجد من ينفذها في عصره، فإنها وجدت في العصور التالية، سبيلاً لتحقيق بعضها من خلال الكشوف الجغرافية.

خاتمة
دخول المغول فى الإسلام



تعتبر امبراطورية المغول اكثر الامبراطوريات إتساعاً عرفت فى تاريخ العصور الوسطى، والتى امتدت من كوريا حتى بولندا ومن طنكين Tonkin الى سواحل البحر المتوسط. وكان قيام المغول مثل أى امبراطورية أخرى إعتمدت على أصولها القبلية . لقد استمرت امبراطورية المغول لفترة ليست قصيرة، ووضعت بصماتها على العديد من الأجيال التى تلتها، والحقيقة أن قيام امبراطورية المغول ظهر فى أوقات عصيبة حيث كانت الإمارات الصليبية فى بلاد الشام وما لذلك من علاقات عسكرية بين الشرق والغرب. ومايعنينا فى هذا الفصل العناصر التى تعاملت مع المغول فى منطقة الشرق الأدنى وفى بلاد الأناضول.

وقبل القرن الثالث عشر الميلادى كان المغول معروفين بالكاد الى جيرانهم فى الصين ومنتصف آسيا ولبعض التجار القلائل ولبعض البعثات التبشيرية والنساطرة . وكانت فكرتهم حول النظم الاجتماعية وطرق الحياة مختلفة قليلاً عن القبائل التركية الأخرى . وفى عام ١٢١١ - ١٢١٢ م سقطت شمال الصين بما فيها مدينة بكين فى ايدى القوات المغولية ، كما أن سيطرة المغول على حدود ووسط آسيا جعلتهم على اتصال مع الدولة الخوارزمية . وفى عام ١٢١٩ - ١٢٢٠ م سيطروا على خوارزم وأغاروا على ايران وأزربيجان .وفى عام ١٢٢١ م سقطت غزنه التى خربت جزئياً ، والى جانب ذلك يلاحظ أن عدداً كبيراً من المسلمين خاصة التركمان فى بلاد الأناضول قد إنصهروا مع المغول الفاتحين ، رغم أن المغول :كانو اقل عدداً . وعلى ذلك أن المجتمع البدوى قد فضل الحياة فى الأماكن الجديدة ، وزاد عدده ولم يعد للعمل

فى الحياة الزراعية التى خربت من جراء الغزوات المغولية ، وفضلاً عن ذلك فإن المغول قد تسامحوا مع كل الاديان . ولما كان سكان البلاد فى غرب آسيا وهى البلاد التى فتحها المغول كان يسودها الاسلام لذلك أصبحت الديانة الاسلامية هى الغالبة على المجتمعات التى أصبحت تحت السيادة المغولية وكان لذلك اثرا كبيراً على الحكومات المغولية .

ويلاحظ أيضاً أن المغول أزالوا الخط الفاصل الذى أقامه السلاجقة وهى الفصل بين العالم العربى وايران . ولقد أصبح عرب بغداد في اقليم مستقل عن ايران ولم يعد عرب بغداد هم قلب الاسلام لمجاورتهم دولة المغول فى ايران . لقد اصبحت القاهرة أو دولة المماليك فى مصر هى العاصمة الاسلامية أو العاصمة الروحية ، وأصبحت هذه الدولة المؤهلة للدفاع عن الاسلام بعد ما خرب المغول بلاد الشام . ومع دخول المغول فى بلاد الشام لعبوا دوراً كبيراً فى العلاقات العالمية نظراً للصراع الدائر بين المسلمين فى الشرق وبين الامارات الصليبية وأرمينيا التى يساندها الغرب الأوربى والبابوية . لقد كان هناك إصراراً من قبل دولة المماليك على إستئصال شأفة الصليبيين من بلاد الشام ومن هنا إرتمى الأرمن والصليبيون فى أحضان المغول لنجدتهم من الضربات الاسلامية .

وواقع الحال ان المماليك لم يهتموا إلا بدولة المغول التى قامت فى ايران والعراق وبالمسلمين فى بلاد الأناضول . لقد أقام دولة أيلخانات فارس ، خلفاء هولاكو بعد موته فى عام ١٢٦٥م. وكانت مدينة تبريز فى أول الأمر عاصمة الدولة وبعد عهد أولجايتو انتقلت الى مدينة السليمانية (كانجولان) Kangwlan وظلت مزدهرة فى شمال ايران . وقد تميزت هذه الدولة بعداوتها مع دولة مغول روسيا ، وهى التى عرفت باسم

القبيلة الذهبية ، على العكس مع الامبراطورية البيزنطية التى ساد الوئام بينها وبين إيلخانات فارس . وقد تعاون الاثنان ضد القبيلة الذهبية ودولة المماليك ، كما تعاون مغول فارس مع الغرب المسيحى ضد دولة المماليك. وقد لعب الدين والاقتصاد دوراً كبيراً عند المغول لما لهما من تأثير عالمى فى تلك العصور .

والواقع لم يكن للمغول دينا محدداً فى تلك المرحلة ، وقد تعاملوا مع كافيه الاديان بسياسة التسامح . وفى بداية الامر كان المغول يميلون الى المسيحية والى طائفة الشيعة . لأن هذه الطوائف كما رأى المغول أنهم عانوا من النظم الاسلامية القديمة ، لذلك تقربوا إلى المغول . يضاف الى ذلك دون شك أن النساطرة فى إيران وفى وسط آسيا والأرمن فى قيليقيا قد مالوا الى جانب المغول وساعدوهم ، يلاحظ أن هولاكو نفسه كان يميل الى البوذية وأن زوجته طقز خاتون كانت نسطورية ، كما أن البلاط المغولى كان به كثير من المسيحيين ، ومن جانب آخر فإن سعد الدوله وزير الخان أرغون كان يهودياً وقد ظل كذلك دون أن يكتشف أمره.

إسلام القبيلة الذهبية :

وحول تحول المغول إلى الاسلام فالحقيقة الماثلة أمامنا أن مغول القبيلة الذهبية قد تحولوا الى الاسلام قبل مغول إيران. وفيما يتعلق بدخول مغول القبيلة الذهبية فى الاسلام فان ذلك يرجع إلى عدة أسباب، لعل مدخلها العداء الذى وقع بين المغول حول وراثة العرش فى القبيلة الذهبية ، وما كان لهولاكو من موقف فيها . وترجع هذه الاحداث الى أن باطو بن جوجى بن جنكيزخان قد تولى حكم القبيلة الذهبية منذ عام ١٢٢٧ -

١٢٥٥م ، ثم تولى سارتاق الحكم بعده من ١٢٥٥ - ١٢٥٦م ، ولم يكن لسارتاق هذا ولد يتولى الحكم بعده، وأرادت الخاتون «براق شين» زوجة طغان بن أخيه أن تولى ولدها «تدان منكو» الحكم ، ولكن بقية أمراء المغول لم يوافقوها على رأيها. فلما رأت منهم ذلك راسلت هولاكو وأرسلت اليه «نشابه بلا ريش وقبا بغير بنود وبعثت تقول له لقد فرغ الكاش من النساب وخلا القربان من القوس فتقدم لاستلام السلطة»، ومعنى هذه الرسالة أنه لم يبق ممانع ولا مدافع. ثم سارت فى أثر الرسول لقصد اللحاق بهولاكو وإحضاره الى بلاد القبيلة الذهبية فى الشمال ليتولى حكمها [١].

وقد بلغ أمراد القبيلة الذهبية ما عزمت عليه «براق شين» فأرسلوا فى طلبها واعادوها كارهة وأماتوها غرقا جزاء ما فعلت وجلس فى كرس الحكم بركة خان ١٢٥٧ - ١٢٦٧م . وفى الوقت نفسه كان هولاكو قد تلقى الرسالة التى بعثت بها «براق شين» وهو فى العراق فتجهز وسار بجيوشه اليها، وكان وصوله بعد مقتلها وجلوس بركه خان على كرسى الحكم، فاستعد بركة خان بقواته للقاء قوات هولاكو . وكان اللقاء عند نهر ترك وقد جمد ماؤه لشدة البرد فعبر هولاكو وقواته إلى الجانب الذى تقف فيه قوات بركه والتقى الجمعان. وانهزم هولاكو وعكسره فهربوا وتكدسوا فى النهر المتجمد فانكسرت الثلوج من تحتهم وغرق من جنود هولاكو الكثير ومن نجا عاد بصحبة هولاكو حيث أتوا . ومن هنا صارت العداوة بين الطائفتين متمكنه. وكان لهذا العداء أثراً كبيراً في مسيرة

---

(١) الداودار: المصدر السابق - ص١٤.

مغول القبيلة الذهبية وعلي رأسهم الخان بركة [٢].

وفيما يتعلق باسلام الخان بركة فقد ورد أن سبب ذلك يرجع إلى أنه كان هناك شيخا كبيرا له شهرة عظيمة هو الشيخ نجم الدين كبرا، وقد قام بتوزيع مريديه فى المدن الكبيرة ليظهروا بها شعائر الاسلام، ولما استقر الأمر بهذا الشيخ فى مدينة بخارى أرسل من لدنه الشيخ خادم إلى بركة خان، فأجتمع به وحبب الاسلام اليه ، وأوضح له مناهجه فأسلم على يديه وأمر له «ببايزة» ، وهى لفظة مغولية ، والبايزه لوح صغير من ذهب مرسوم على أحد وجهيه رأس سبع، وكانت تمنح لكبار الدولة عند المغول ، وللمكلفين بحمل الرسائل الحكومية، أى انها عبارة عن مرسوم أمان لمن يحمله فى كافة الاماكن التى يحل بها. وقد أرسل الشيخ خادم هذه البايزه إلى إستاذه سيف الدين الباخرزى المقيم فى بخارى . ولما وصلت البايزه اليه قال للرسول الذى حملها ما هذه؟ فقال له هذه البايزه تبسط يد الشيخ فى الاقليم التى يمر بها وتحمى كل من يكون معه، فقال له أربطها على حمار ثم أرسلها فى البرية فإن حمته من الذباب فأنا أقبلها، وإن كانت لا تحمى الحمار فلا فائدة منها، وأبى أن يقبلها فعاد الرسول وأخبر الخان بركة بما قاله الشيخ الباخرزى. فقال بركة أنا أتوجه بنفسى اليه، واتجه الخان بركة وأقام بباب الشيخ الباخرزى ثلاثة أيام لم يأذن له الشيخ فى الدخول اليه حتى تحدث معه بعض مريده وقال أن هذا ملك كبير وقد أتى من بلاده يلتمس التبرك فلا بأس بالاذن له ، فأذن له عند ذلك فدخل وسلم عليه ، وجدد إسلامه على يديه وعاد الى بلاده

---

(٢) الداودار: المصدر السابق - ص١٦- ١٧.

وأسلمت أسرته وكذلك زوجته «ججك» واتخذت لها مسجدا من الخيم يحمل معها حيث اتجهت، ويضرب حيث نزلت[٣] . وقد علم السلطان بيبرس بالواقعة التى تمت بين هولاكو والخان بركة والعداء الذى وقع بين الطرفين، كما علم أيضا بإسلام بركة خان، وقد رأى السلطان بيبرس أن يتقرب من الخان بركة فكتب اليه يقويه على هولاكو ويعرفه أن جهاده واجب عليه[٤].

وواقع الحال أنه توجد أقوال كثيرة فى تعليل سبب العداوة بين هولاكو وبركة ؛ ومنها أن بركة لم يرض عما فعله هولاكو ببلاد المسلمين وأنه عنفه لقتله الخليفة العباسى المستعصم ، ومنها أيضا أن تأسيس دولة هولاكو بفارس لم يرق فى عين بركة لا سيما بعد إدماج بلاد آران وأذربيجان داخل حدودها ، مع أنها كانت من إرث جوجى والد الخان بركه حسب وصية جنكيزخان، ومنها أيضا أن عدم مناصرة بركة للخان الأعظم قوبيلاى، ومساندته للأخ الصغير أريق بوقا . ومنها ايضا أن هولاكو كان منذ صار بركة خانا للقبيلة الذهبية قد منع عنه نصيبه المعتاد من مغانم الحروب[٥].

وعلى أية حال فقد أتت رسالة السلطان ببيبرس الى الخان بركة أكلها ، وأرسل الأخير رسلا من لدنه على رأسهم الأمير جلال الدين بن القاضى والشيخ نور الدين على ، وقد أخبر الرسل السلطان ببيرس بإسلام الخان

---

(٣) الداودار: المصدر السابق – ص١٤- ١٥ ، ٨٢-٨٣.

(٤) الداودار: المصدر السابق – ص٧٠، المقريزي: المصدر السابق جـ١ ق٢ – ص٤٦٥.

(٥) المقريزي: المصدر السابق – جـ١ ق٢ – ص٤٧٥.

بركة، وكان مع الرسل كتابا يتضمن ذكر من أسلم من بيوت القبيلة الذهبية، بقبائلهم وعشائرهم وأنفارهم وعساكرهم وصغيرهم وكبيرهم، وأسماء القبائل والزعماء الذين دخلوا فى الاسلام وأقاموا الفرائض والسنن والزكاة والجهاد فى سبيل الله . وقد ورد فى هذا الكتاب قول الخان بركه أننى حاربت هولاكو الذى من لحمى ودمى لاعلاء كلمة الله العليا تعصبا لدين الاسلام لانه باغ والباغى كافر بالله ورسوله . وقد ورد فى الكتاب أيضا دعاء الخان بركه للسلطان بيبرس لأنه أعاد إحياء الخلافة العباسية فى بغداد[٦] .

وكان من نتائج هذا أن كشافة المسلمين قد خرجت من دمشق وغيرها فظفروا بكثير من المغول يريدون القدوم إلى مصر مستأمنين[٧]، وفى الإسلام راغبين، وكان من بينهم بعض الاعيان، وقد بلغ عددهم حوالى ألف نفس، وكان هؤلاء قد أرسلهم الخان بركة نجده لهولاكو فأقاموا عنده مدة ، فلما وقع الخلاف بين هولاكو وبركة وتمكنت العداوة بينهم، كتب الأخير اليهم بأن يفارقوا هولاكو ويحضروا اليه ، وإن لم يتمكنوا فيتحازوا إلى عساكر الديار المصرية [٨].

ويروى ابن عبدالظاهر، أن السلطان عندما علم بوصولهم إلى الحدود الشامية كتب إلى نوابه فى بلاد الشام بإكرامهم ، والإقامة بهم، وحمل الخلع اليهم وإلى نسائهم ، والاحسان إلى مقدميهم . وبدأ السلطان

---

(٦) الداودار: المصدر السابق - ص٨٢-٨٣.

(٧)المقريزي: المصدر السابق - جـ١ ق٢ - ص٤٧٣.

(٨) الداودار: المصدر السابق - ص٨٤- ٨٥.

يستعد لاستقبالهم فى مصر، وأعد الاغنام والسكر والشعير وغير ذلك . وقد خرج أهل القاهرة ومصر للقائهم ، وكان يوما عظيما [٩]، وكان السلطان قد أمر باقامة المساكن لهم فى اللوق (باب اللوق حاليا) ، كما أن السلطان قد ركب لتلقيهم والملائكة والملوك به محيطه، والملة الاسلامية به محوطة . ولما قرب المغول، وشاهدوا السلطان ، وهو كالبدر ليلة كماله ، والأسد بين أشباله، نزلوا وقبلوا الأرض [١٠].

ومن الواضح تماما أنه كان لقدوم هؤلاء المغول فرحة كبيرة فى نفوس الخاصة والعامة، فقد ورد فى المصادر «الواجب الدعاء لملك نصر الاسلام، والمقصود به السلطان بيبرس ، وأعزه بعد الاهتضام فانه فرق بين ملك تقبل ملوك التتار الأرض بين يديه وهو راكب، وبين ملك كانت التتار تطلب منه حضور الحرم فى المشارب ، وبين ملك تهادنه ملوك الاسلام، والكفر تطلب منه الرضى والغفران ، وملوك تهادى ملوك الكفر تطلب منهم الأمن والامان، وبين ملك مسلم تسلم من الكفر البلاد والحصون ، وبين ملوك سلموا للكفر من البلاد والقلاع والحرم والأولاد والأموال كل مصون»[١١] .

وقد أقام السلطان للوافدين من مغول القبيلة الذهبية دعوة عظيمة فى

---

(٩) المقريزي: المصدر السابق - جـ١ ق٢ - ص٤٧٤، الداودار: المصدر السابق - ص٨٤-٨٥.

(١٠) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر - الرياض - ١٩٧٦م - ص١٣٧، ١٧٨.

(١١) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق - ص١٧٨- ١٧٩.

يوم السبت السادس والعشرين من شهر ذى الحجة ٦٦٠هـ ، الثانى عشر من نوفمبر عام ١٢٦٠مم ، واقام السلطان لهم دعوة عظيمة فى اللوق ، حملت اليهم الخلع ، وسبقت الخيول ، وفرقت فيهم الأموال . ولعبوا الكرة مع السلطان، ثم أمر كبراءهم بمائه فارس فما دونها ، وباقيهم أنزلهم فى جملة بحريته ومماليكه، وصار كل منهم كأمير مستقل، له الاجناد والغلمان، واسبغت عليهم النعم ظاهرة وباطنة ، وأفردت لهم جهات يستخرج منها مرتباتهم ، وحسن أسلامهم [١٢].

كما كتب السلطان بيبرس الى الخان بركه وسير هذا الكتاب مع الفقيه مجد الدين والأمير سيف الدين كشتك، وفى هذا الخطاب حث السلطان الخان على الجهاد ، ووصف له عساكر المسلمين فى مصر والشام وكثرتهم وعدة أجناسهم، وما فيها من خيل وتركمان وعشائر وأكراد ، ومن وافقها وهاداها وهادنها ، وإنها كلها سامعة مطيعة لإشارته الى غير ذلك من العبارات التى تشجعه وتهون أمر هولاكو وتقبح فعله . وعندما جهزت هذه السفارة زودت بالهدايا العظيمة كان منها فيل وزرافه، وأعد السلطان أيضا خطابا للخان بركة، وقد قرىء الكتاب مرتين أحدهما بحضور الأمراء ، ثم قرىء مرة أخرى بحضور الخليفة العباسى الحاكم بأمر الله وبويع بحضورهم، وبايعه أيضا رسل مغول القبيلة الذهبية ، ثم حضروا خطبته المباركة واجتمعوا به، كما أرسل السلطان بالاضافة إلى كتابه رسالة شفهية فيها صلاح الاسلام[١٣].

---

(١٢) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق - ص١٣٧ - ١٣٨.

(١٣) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق - ص١٣٩ - ١٤٠.

وقد كما جهز السلطان السفن الكبيرة وهى من نوع الطريدة، كما أعد لهم طعاما يكفى لمدة شهور، هذا بالاضافة إلى المترجمين الذين يعرفون لغة مغول القبيلة الذهبية . ومعنى ذلك أن السفن سوف تتجه بطريق البحر، إما من ميناء دمياط أو من ميناء الاسكندرية ويرجح الباحث انه الاسكندرية لأن المصادر ذكرت أن الرسل عادت إلى الأسكندرية(١٤) ، وسوف تتجه بعد ذلك عبر البحر المتوسط إلى بحه إيجه، ثم إلى مضيق الدردنيل ثم مضيق البسفور فالبحر الاسود فالى شبه جزيرة القرم ، فبذلك يصبحون فى أرض القبيلة الذهبية، ثم إلى مدينة سراى برا.

وعندما وصلت السفارة الى أراضى الدولة البيزنطية رحب بهم الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوج Michael VIII Palaeologus (١٢٥٩ - ١٢٨٢م) ، وهو ما تطلق عليه المصادر العربية إسم الأشكرى، ويبدو أنه قد احيط علما بوصولهم ، فأحسن اليهم ، كما أنه كان هناك ترتيب مسبق، فقد كان لدى الامبراطور سفارة من قبل الخان بركه لتكون فى استقبال سفارة السلطان بيبرس لاستطحابهم الى مقر الخان عبر البحر الاسود(١٥) .

وعندما وصلت السفارة الى شبه جزيرة القرم التقاهم الوالى المغولى، وكان يسكن هذه الجزيرة عدة أجناس من القفجاق والروس واللان، ثم ساروا من القرم الى برية لمدة يوم واحد فوجدوا بها مقدم عشرة الاف فارس حاكما على تلك الجهات ، ثم ساروا عشرين يوما فى صحراء

---

(١٤) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق - ص٠١٧٠.

(١٥) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق - ص١٣٩- ١٤٠.

عامرة بالخيام الكبيرة والاغنام إلى بحر إيل ، وهو نهر الفولجا الذى يصب فى قزوين، وهو بحر حلو سعته سعة بحر النيل، وفيه مراكب الروس ، ومنزله الملك بركة الساحل منه . ولما وصلت سفارة السلطان بيبرس واقتربت من الأردو ، وهو المكان الذى يقيم فيه الخان، أى يمكن القول انه البلاط الخانى ، التقى سفارة السلطان بيبرس من قبل الخان بركه الوزير شرف الدين القزوينى ، وهو يتحدث العربية والتركية، فأنزلهم فى منزلة حسنه ، وحمل إليهم الضيافة من اللحم والسمك واللبن وغير ذلك [١٦].

ولما استقر الخان بركه فى خركاته (أى الخيمة السلطانية) وكانت فى موقع قريب من الموقع الذى نزلت فى السفارة ، اصطحب الوزير السفارة الى مجلس الخان بعد أن شرح لهم القواعد التى يجب اتباعها عند مقابلة الخان، وهى الدخول من جهة اليسار، فإذا أخذت منهم الكتب ينتقلون إلى جهة اليمين ، ويكون القعود على الركبتين ، ولا يدخل أحد إلى خيمة الخان بسيف ولا سكين ولا عدة ، أى عدم حمله أية أسلحة، وعلى الداخل الى الخيمة ألا يدروس على عتبها ، ولا يقلع الانسان عُدته إلا على الجانب الأيسر، ولا يترك القوس فى القربان (الجراب) ولا يجعله مشدودا، ولا يضع فى الجراب نشابا. وكانت خيمة الخان كبيرة لدرجة أنها تسع خمسمائة رجل، وهى مسكوة باللباد الابيض . وكان الخان يجلس والى يمينه الخاتون الكبرى واسمها طغطغاى خاتون ، وله امرأتان

---

(١٦) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق - ص٢١٣ - ٢١٤، المقريزي: المصدر السابق جـ١ ق٢ - ص٥١٤ - ٥١٥ والحواشي.

اخريتان هما كهارخاتون، وججك خاتون وكان عمر الخان بركه ستا وخمسين عاما ، وهو خفيف اللحية كبير الوجه فى لونه صفره ، يلف شعر ، عند أذنيه ، وفى أذنه حلقة ذهب فيها جوهرة ثمينة، وعلى رأسه سراقوج، وفى رجليه خف أحمر ويلبس فى وسطه سيفا ... الخ(١٧).

وكان يحيط بالخان بركه خمسون أميرا، ولما دخلت السفارة أدت الرسالة، وأمر الخان وزيره بقراءة الكتاب ثم نقلهم من يساره الى يمينه ، بعدها طلب الخان بالطعام والشراب، ثم أمر بانزال السفارة عند زوجته ججك خاتون. وكان الخان يستدعى السفارة من آن لآخر فى سائر أوقاته.. ويسألهم عن الفيل والزرافه ، وسأل أيضا عن النيل ، والأهرام وعن مطر مصر ، وقد أقامت السفارة عند الخان بركه حوالى ستة وعشرين يوما ، وأعطاهم الخان عند رحيلهم بعض العملة الصالحة للتداول فى الدولة البيزنطية، وقدمت للسفارة الهدايا ، وحملها بالرد على رسالة السلطان بيبرس وسيرهم ومعهم الرسل. وقد لاحظت السفارة انه يوجد فى بلاط الخان بركه رجل فقير مصرى من أهل الفيوم، اسمه الشيخ أحمد المصرى، له مكانه كبيرة عند الخان، كما لاحظوا ايضا انه يوجد عند كل أمير فى بلاط الخان مؤذن وإمام، ولكل زوجه من زوجات الخان مؤذن وامام ، والصغار عندهم مكاتب ويتلون القرآن. وقد عادت السفارة من الطريق الذى سلكته من قبل عبر البحر الاسود ثم مضيق البسفور ثم الدردنيل ، فبحر إيجه ثم إلى البحر المتوسط وأخير إلى الاسكندرية فالقاهرة (١٨) .

---

(١٧) المقريزي: المصدر السابق - جـ١ ق٢ - ٥١٤ وحاشيه (٥).

(١٨) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق - ص١٧٠.

ومما لا شك فيه أن السلطان بيبرس قد أحيط علما بوصول سفرائه الذين كانوا قد إرسلوا إلى الخان ومن معهم من رسل الخان ، فأراد أن يكون وصولهم الى القاهرة في يوم يقام فيه إحتفال كبير ليشاهده رسل الخان بركة، وقد شاهد الرسل من كثرة العساكر المصرية وحسن زيهم واهتمام السلطان وحسن الرجال والخيول المسومة ما يبهرهم . واستحر وقوف السلطان وهم إلى جانبه يشاهدون حركات الجنود ودقتهم فى إصابة الاهداف . وأقام رسل الخان بركه أياما يشاهدون هذا العرض العسكرى، وقد إعجبوا كثيرا واندهشوا من كثرة العساكر، فسأل الرسل هل هذه عساكر مصر والشام، فقيل لهم أن هؤلاء هم جند القاهرة فقط غير ما فى الثغور مثل الاسكندرية دمياط ورشيد وقوص وأجناد الاقطاع ، فتعجبوا كثيراً وقالوا ما رأينا خيلا وعدة فى عسكر مثل هذا الموكب[١٩] .

ويتضح من النصوص التاريخية ايضا أن السلطان بيبرس كان يتتبع أخبار العلاقة بين هولاكو والخان بركة ، فقد وصلت اليه الاخبار من جهة الروم من البر والبحر بانتصار قوات الخان بركة على قوات الخان هولاكو[٢٠] . ومن الواضح أن هذه الاخبار قد أسعدت السلطان والخليفة العباس، لذلك خطب الخليفة المقيم بمصر بحضور رسل الملك بركة ، ودعا للسلطان وللخان بركة فى الخطبة وصلى بالناس الجمعة، وفى النهاية اجتمع الخليفة بالسلطان وبرسل الخان بركة وتناقشوا فى أمور تهم

---

(١٩) الرمزي: تلفيق الاخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار - أورنبورغ - د.ت- جـ١ ص٤٤٠.

(٢٠) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق - ص١٤٩.

الاسلام والمسلمين [٢١].

ومن الواضح أن رسل الخان بركة كانت تتردد على القاهرة من وقت لآخر فقد ورد فى النصوص أن السلطان بيبرس هدم مدينة أرسوف بعد أن استردها من الصليبين ، سار الى القاهرة ودخلها فى شهر شعبان ٦٦٣هـ/مايو ١٢٦٥ والأسرى الصليبيين بين يديه حتى خرج من باب زويله ، وصعد قلعة الجبل فاستراح ، وانعم على الجميع بالخلع وأحسن الى رسل الخان بركة وغيرهم [٢٢].

وقد ورد فى المصادر أيضا أن السلطان بيبرس قد أخطر بوصول سفارة من قبل الخان بركه ، ربما يختلف فى تاريخها ، ولكن المهم هنا وقوعها ، يتولى أمرها الأمير جلال الدين بن القاضى، والشيخ نورالدين على . ولما استقر السلطان فى القلعة استقبل هؤلاء السفراء وغيرهم من السفراء . وما يهمنا فى هذا المقام سفراء الخان بركة . وفى هذا المجلس قرىء كتاب الخان بركه الذى يحمله جلال الدين ، ونور الدين ومضمونهما السلام والشكر، وطلب النجدة ضد الخان هولاكو والإعلام بأنه خالف شريعة جنكيزخان وشريعة أهله، وأن كل ما فعله من إتلاف النفوس بطريق العدوان [٢٣].

---

(٢١) المقريزي: المصدر السابق - جـ١ ق٢ - ص٤٩٥، ابن عبد الظاهر: المصدر السابق - ص١٤٧-١٤٨.

(٢٢) المقريزي: المصدر السابق - جـ١ ق٢ - ص٥٣٤-٥٣٥.

(٢٣)ابن عبد الظاهر: المصدر السابق - ص١٧٠ - ١٧١.

وجاء فى نصوص الخطابين أن الخان بركة وأخوته الأربعة قد حاربوا هولاكو من جميع الجهات ، لإقامة منارة الاسلام ، ،إعادة مواطن الهدى إلى ما كانت عليه العمارة ، وذكر الله والآذان والقراءة والصلاة ، وأخذ ثأر الأئمة والأمة، ويلتمس إرسال قوات مصرية إلى جهة نهر الفرات لقطع الطريق على هولاكو. ولعل فى الجملة الأخيرة ما يفيد زيادة التقارب بين السلطان والخان فى مواجهة هولاكو عسكريا [٢٤].

وبعد أن أدت السفارة مهمتها واستعدت للرحيل بعد الاحتفاء بها ، حمل السلطان إلى هذه السفارة من الهدايا ما لا يحصى، وأعد أيضا هدايا خاصة للخان بركة . وتجهزت الكتب التى حملتها السفارة عند عودتها. وقد بلغت الرسالة صفحات كثيرة قيل أنها بلغت سبعين صفحة، فيها الكثير من الآيات القرآنية التى تحض على الجهاد ، وكذلك الأحاديث التى تحض على قتال المشركين، وفيها ذكر مواطن العبادات وغير ذلك . أما هدية السلطان بيبرس الى الخان بركة ، فقيل أنها مصحف شريف بخط عثمان بن عفان بغلاف أطلس أحمر مزركش وسجادات ذات ألوان متعددة ، وشمعدانات ، وسيوف وغير ذلك من النفائس . وقد جهزت للسفارة طريده عظيمة جمعت من أصناف الحيوانات . وبالاضافة الى ذلك أمر السلطان أن يدعى للخان بركة فى مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وبيت المقدس، كما أمر السلطان بأن يتم إجراء العمرة فى مكه باسم الخان بركة [٢٥]. ويقال أيضا أن السلطان

---

(٢٤) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق - ص١٧١.

(٢٥) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق ص١٧٠- ١٧٤.

أرسل الى الخان بركة ثلاث عُمر أعتمر بها عنه فى مكة ، عُملت فى أوراق مذهبه، وشيء من ماء زمزم وعطور وغير ذلك [٢٦].

والحقيقة الماثلة أمامنا الآن أن الخان بركه وجانب كبير من أفراد القبيلة الذهبية قد اعتنقوا الإسلام . وان ذلك أدى الى تقارب كبير بين الخان والسلطان بيبرس، وأن السفارات تبادلت بينهما وان العلاقات الحميمة قد سادت بين الطرفين ، هذا بالاضافة الى أن كلاهما كانا على علاقة سيئة بحكام إيران وعلى رأسهم الخان هولاكو .

وواقع الحال أن ذلك كله كأن له أكبر الأثر على القبيلة الذهبية بعد ما ساد الاسلام معظم أراضيها . ويتضح من النصوص أن مغول القبيلة الذهبية لما أقبلوا على الاسلام أقبلوا عليه بصدر مفتوح، خاصة الخان بركة الذى أعلن نفسه حاميا للقرآن والدين والشريعة وخادمها. وكان من نتائج ذلك أن حضر إلى بلاط لخان بركة كبار العلماء من أطراف العالم، ويقال أن الخان كاتب الخليفة المستعصم بالله عدة مرات وأن الخان بايعه، وان صح ذلك فيكون إرتباط الخان بركه بالاسلام سابقا لسقوط بغداد[٢٧] .

يضاف إلى ذلك أن العاصمة سراى التى بناها الخان باطو، قد صارت فى عهد الخان بركة من أعظم البلدان وأحسن المدن وأنزهها. وقد وصف ابن (عرب شاه) مدينة سراى ، وقال ، وبلاد الدشت تدعى بلاد قفجاق

---

(٢٦) المقريزي: المصدر السابق - جـ١ ق٢ - ص٥٣٨.

(٢٧)الرمزي: المصدر السابق - ص٤١٠.

ودشت بركة - أى الخان بركة - والدشت باللغة الفارسية اسم للبرية ، والخان بركة هو أول سلطان أسلم من المغول ونشر بها رايات الاسلام(٢٨) .
وروى أيضا أن مدينة سراى كانت مدينة إسلامية البنيان بديعة الأركان، وكانت من أعظم المدن وصفا وأكثرها للخلق جمعا . والمدينة تقع على شط متشعب من نهر إتل (الفولجا) الذى أجمع عليه الجغرافيون والمؤرخون انه لم يكن فى الأنهر الجارية والمياه العذبة أكبر منه. كما أن الخان بركة استدعى العلماء من الاطراف والمشايخ من الآفاق ليوقفوا الناس على معالم دينهم ، وانه أفاض على هؤلاء العلماء بالهبات، وأقام حرمه العلم والعلماء ، وعظم شعائر الله وشعائر الأنبياء . وكان فى المدينة أيام الخان بركة ومن جاء بعده عددا من كبار العلماء على رأسهم قطب الدين العلامة الرازى والشيخ سعد الدين التفتازانى ، والشيخ جلال الدين وغيرهم من فضلاء الحنفية والشافعية، ثم من بعدهم حافظ الدين البزازى ، فصارت مدينة سراى بواسطة هؤلاء العلماء مجمع العلم (٢٩) .

كما قدم ابن بطوطه وصفا لمدينة سراى وقال وهى مدينة من أحسن المدن متناهية الكبر فى بسيط من الأرض كثيرة السكان ، حسنة الأسواق متسعة الشوارع ، وأن المنازل متصلة الدور لا خراب فيها ولا بساتين ، وفيها ثلاثة عشر مسجدا لاقامة الجمعة أحدهما للشافعية، وأن المساجد سوى ذلك فكثيرة جدا ، وقصر السلطان أى الخان بها يسمى الطون طاش ، والطون معناه الذهب، وطاش معناه الحجر(٣٠) . وقد استمر ازدهار

---

(٢٨) ابن عربشاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور - القاهرة - ١٢٨٥هـ - ص٥٧-٥٨.

(٢٩) الرمزي المصدر السابق جـ١ - ص٤١١.

(٣٠) ابن بطوطه: الرحلة - بيروت - ١٩٨٠ - ص٢٥٦ - ٢٥٧.

الإسلام فى القبيلة الذهبية فى سلاله بركة من بعده ، ومن ذلك أن منكوتيمور صك فى عهده درهما مضروبا فى بلغار عام ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤ - ١٢٧٥م مكتوبا عليه منكوتيمور خان الأعظم ضرب هذا الدرهم فى بلغار سنة ٦٧٣هـ، وفى درهم آخر مكتوب هذا العز الدائم والشرف القائم توكلى على الله فى محرم ٦٧٨هـ حمدا لله لا اله الا الله وحده لا شريك له(٣١) .

وفى عهد الخان أوزبك (١٣١٢ - ١٣٤٠) كان قاضى قصر السلطان أى قاضى الحضرة بدر الدين الأعرج وهو من خيار القضاة ، وبالمدينة أى العاصمة سراى من مدرسى الشافعية الفقيه الإمام الفاضل صدر الدين سلميان الكلزى أحد الفضلاء ، وبها من المالكية شمس الدين المصرى وبها زاوية الصالح الحاج نظام الدين ، والفقيه الأمام العالم نعمان الدين الخوارزمى ، وهو من فضلاء المشايخ حسن الأخلاق، كريم النفس شديد التواضع، شديد السطوة على أهل الدنيا، يأتى اليه الخان أوزبك زائرا فى كل جمعه، فلا يستقبله ولا يقوم اليه، ويجلس السلطان بين يديه ويكلمه بلطف ويتواضع له . وهكذا كان إسلام الخان بركه والقبيلة الذهبية وحُسن إسلامهم وإعلاء كلمة الدين وبناء المساجد واحتواء العلماء (٣٢). وفى ختام الحديث عن الاسلام فى القبيلة الذهبية نلاحظ أن مذاهب الشافعية والمالكية والحنفية هى التى سادت أهالى القبيلة الذهبية، ومعنى ذلك أن مسلمى القبيلة الذهبية لم يعرفوا المذهبية الضيقة، وهذا يعنى ايضا ان

---

(٣١) الرمزي : المصدر السابق - جـ١ - ص٤٦١.

(٣٢) ابن بطوطه: المصدر السابق - ص٢٥٧.

الحنابله كان لهم جانبا داخل مسلمى القبيلة الذهبية، وبمنطق العصر الذى تتحدث عنه نقول أن أهل القبيلة الذهبية إعتنقوا الإسلام على المذهب السنى .

إسلام مغول ايران :

بعد ظهور أسطورة الكاهن يوحنا عام ١١٤٦م والعالم الغربى الوسيط من باباوات وملوك لا يكفون عن البحث عن الحاكم الشرقى الذى سوف يعتنق المسيحية ويتحالف مع الغرب الاوربى للقضاء على المسلمين والسيطرة على بيت المقدس . وكان نشاط الباباوات وحكام أوربا يتأرجح حسب أحوال الصليبيين فى ساحل بلاد الشام ، وكلما زادت قوة المسلمين فى المنطقة لاسترداد الأراضى التى استولى عليها الصليبيون . والمتصفح لهذا الكتاب يلاحظ ان المسيحية الغربية قد بذلت جهدا كبيرا لتنصير خانات المغول فى بلاد القفجاق وفى إقليم منغوليا مركز الخان الاعظم فى العاصمة قراقورم وفى إيران ، ويلاحظ أنه بعد معركة عين جالوت بدأ التركيز على مغول إيران. فقد كان رسل الباباوات يتوافدون من آن لآخر على خانات إيران، كما كان رسل الخانات يترددون على بلاط البابا فى روما وبلاط الحكام خاصة حكام إنجلترا وفرنسا .

ورغم هذا كله فليس هناك حقيقة تاريخية تقول أن واحدا من حكام المغول فى إيران قد إعتنق المسيحية عدا الخان أحمد تكودار الذى اعتنق المسيحية وهو صغير السن، ولكنه اعتنق الاسلام عندما أصبح حاكما على مغول ايران .

والحقيقة الثانية أن الاسلام قد تسلسل إلى مغول ايران فى بطء واتخذ سنوات طويلة منذ دخول المغول الى أقليم خوارزم عام ١٢١٩م ، على العكس من القبيلة الذهبية التى عاشت فى جنوب روسيا منذ الثلاثينيات وعمها الاسلام فى الستينيات فى حركة سريعة شملت معظم المغول هناك فى وقت قصير، وعلى أية حال فان أحمد تكودار ما لبث أن قتله الأمراء بعد أن اعتنق الاسلام بوقف قصير وبعد أن حكم حوالى عاملين (١٤٨٢ - ١٤٨٤م) .

ومما هو جدير بالذكر أن اسلام أحمد تكودار لم يقصد به الاعلان المحلى بل أنه تعداد الى الاقليمية ، فلما جلس على كرسى الخانية فى عاصمته تبريز وأظهر اسلامه وأشاعة فى محيطه ، كتب الى أهل بغداد فى عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م يعلنهم أنه من المسلمين وأنه اعتنق عقيدة التوحيد، كما أنه كتب أيضا إلى السلطان قلاوون فى مصر يخبره بانتقاله إلى الدين الاسلامى ومن معه من المغول . وهناك نقطه هامة يجب التعليق عليها وهى أنه إذا كان الخان أحمد تكودار قد كتب فى العام نفسه إلى قلاوون سلطان مصروالشام (١٢٧٩ - ١٢٩٠م) لأسباب سياسية فان ما كتبه لأهل بغداد كان لأسباب أخرى دون شك ، لانها كانت تحت حكم مغول إيران برئاسة أحمد تكودار.

ومما ورد فى هذا الخطاب المرسل لأهل بغداد، بسم الله الرحمن الرحيم ، وإنا جلسنا على كرسى الملك ونحن مسلمون فيتلقون أهل بغداد هذه البشرى ويعتمدون فى المدارس والوقوف وجميع وجوه البر ما كان يعتمد فى ايام الخلفاء العباسيين ، ويرجع كل ذى حق إلى حقه فى أوقاف المساجد والمدارس ولا يخرجون من القواعد الإسلامية. وانتم يا أهل

بغداد مسلمون وسمعنا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تزال هذه الجماعة الاسلامية مستظهرة ظافرة إلى يوم القيامة وقد عرفنا أن هذا الخبر صحيح ورسوله صحيح ورب واحد أحد فرد صمد فتطيبون قلوبكم وتكتبون الى البلاد جمعيها.

أما فيما يتعلق بالكتاب الذى ارسله أحمد تكودار الى السلطان قلاوون فان ما ورد فى المصادر يفيد أن رسل أحمد تكودار وصلت الى الابواب السلطانية فى العام نفسه التى وصلت فيه رسله الى بغداد . وكان على رأس الرسل قطب الدين محمود الشيرازى قاضى سيواس ، وهى مدينة فى اسيا الصغرى، والأمير بهاء الدين أتابك السلطان مسعود الثانى سلطان سلاجقة الروم ١٢٨٢- ١٣٠٤م ، والأمير شمس الدين محمد بن الصاحب وهو من أصحاب صاحب ماردين . ويلاحظ أن هؤلاء الرسل قادمين من مدن اسلامية ثم أصبحت تحت حكم المغول ، والمهم فى هذه النقطة أن اختيار هؤلاء يرجع إلى حسن تقدير الخان أحمد تكودار والى حسن نوياه فى اعتناق الاسلام. ونقطة هامة أخرى هى أن وصول هؤلاء الرسل الى الابواب السلطانية تعنى الحدود الشمالية لبلاد الشام وليس إلى أبواب قصر السلطان فى القاهرة. وعلى أية حال فعندما وصل الخبر إلى السلطان بوصول الرسل إلى مدينة البيرة التى تقع فى شمال الشام كتب السلطان إلى نوابه بالتحفظ على الرسل بحيث لا يراهم أحد فساروا بهم فى الليل وأحضروا إلى الباب الشريف فأحضروا من أيديهم كتابا ورد به بعد البسملة ، فرمان أحمد إلى السلطان مصر، أما بعد فان الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ونور هدايته قد كان أرشدنا فى عنفوان الصبا وريعان الحداثة الى الاقرار والاعتراف بوحدانيته والشهادة

بسيدنا محمد عليه أفضل الصلوات والسلام بصدق نبوته وحسن الاعتقاد فى أوليائه الصالحين من عباده فى بريته «فمن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام» لم نزل نميل الى إعلاء كلمة الدين وإصلاح أمور المسلمين .

والحقيقة أن الخطاب طويل وبه معلومات قيمة ، يمكن إيجازها فى أنها تدور حول حقن دماء المسلمين أى توقف الحرب بين مغول إيران والمماليك فى مصر والشام ، والعمل على إقامة ونشر الدين الاسلامى داخل إيران وإقامة العدل، وأن يعم الأمان حتى ينعم به المسافرون بين البلدين وكذلك التجار. وختم الخطاب بعبارة والله الموفق للرشاد والسداد وهو المهيمن على البلاد والعباد وحسبنا الله وحده . وبعد ما علم السلطان قلاوون بمحتوى الخطاب دارت مناقشة بين السلطان وبين أحد الرسل وهو قطب الدين محمود حول الاسلام وحقن الدماد ووجوب توقف هجمات المغول ، وفى نهاية الأمر اتجهت الرسل الى بلاد الشام ثم شمالا الى حلب ثم الى بلادهم[٣٣] . ونظرا لحكم أحمد تكودار القصير الذى انتهى بعد سنتين بقتله فان ما فعله من محاولات الاتصال بالدولة المملوكية لحقن الدماء ورفع راية الاسلام لم يأت ثماره عندما تولى أرغون خانية إيران .

وعلى أية حال فبعد مقتل أحمد تكودار فى عام ١٢٨٤ تولى بعده أرغون ثم بايدو حتى عام ١٢٩٤م ، وتولى الحكم بعدهما غازان ١٢٩٤ - ١٣٠٤م أى أن غازان تولى الحكم بعد عشرة أعوام من مقتل أحمد

---

(٣٣) الداودار: المصدر السابق - ص٢١٨- ٢٢٧.

تكودار، وقد اعتنق غازان هذا الاسلام .،وقد قدم المؤرخ رشيد الدين فضل الله الهمذانى قصة إسلام أحمد غازان وذكر ، «لقد أثر عن علماء الإسلام والمنجمين وأرباب التقويم انه سوف يظهر خلال سنه ستمائة وتسعين هجرية (١٢٩١م) سلطان عظيم يكون ظهيرا للدين الاسلامى، فيصير الاسلام بفضل رعايته وعنايته - ناضرا مزدهرا بعد أن كان مندرسا . وبسبب عدل هذا السلطان فى ملكه تصبر الشاه آمنه ومستريحه من بطش الذئب، ويتخلص الغزال من جور الفهد ولشمول إنصافه تسلم الصعوة - وهى طائر صغير أحمر الرأس - الضعيفة من صلابة الصقر، وينجو القبج (طائر الحجل) من شوكته ومهابته، ويظل التاج وعرش الملك لسنوات عديدة فى مكانهما اللائق بهما . واحيانا كان يجول بخاطر العبد أن يكون ذلك العاهل هو غازان خان، اذ أن أمارات هذه العلامات ومخائل هذه الشمائل تبدو فى صورة الحال وصفحة آثار الجبين المبين للأمير النجل المانح الدر»[٣٤] .

ويضيف المؤرخ نفسه «انه لظاهر وواضح انه لو تقلد الأمير النجل قلادة الاسلام ، والتزم عقائد الإيمان وطرائقه، فلابد وأن يكون ممثلا لأولى الأمر فى عهده، فيمنح رعاياه المسلمين من الذين قابعين فى حضيض المذلة وهبوط الوبال ... ويصير جميع المسلمين مريدين ومحبين. وبسبب صدقه واخلاص همته وتوجه القلوب اليه ينصره الحق سبحانه وتعالى . ان الدين الاسلامى الذى اندرس وانطوى بسبب تغلب

---

(٣٤) الهمذاني: جامع التواريخ - تاريخ غازان خان - دراسة وترجمة الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد - القاهرة - ٢٠٠٠م - ص٤١٤.

كفار التتار واستيلاء الظالمين والفاسقين ليحيا بيمن تقوية الأمير النجل»[٣٥] .

وسجل أيضا ذات المؤرخ ، «وحيث أن الحق سبحانه وتعالى كان قد زين وأنار فى الازل قلب الأمير النجل بنور التوحيد ، وصارت ذاته الشريفة مخزن أسرار القدس وحاملة المعرفة ، وطلع عليه صبح السعادة الأبدية، ورفع عن بصيرته غشاوة العيوب والريب - أثر فى قلبه المبارك كلام أحد المقربين اليه وهو نوروز ، وتفتحت زهرة قلبه لحديثه ... وأزال عن عينه وأذنه حجاب الظلمة . وقال غازان، كيف يقتضى العقل أن يسجد رجل عاقل لجماد موضوع على الأرض ، واذن فعبادة الاصنام والسجود للأوثان كلاهما أمر فى غاية الضلالة والجهالة ... وان الدين الاسلامي هو زبدة جملة الأديان وخلاصة النواميس الالهية» . وعلى هذه الصورة أصبح الخان عازان مستعدا تماما لتقبل الدين الاسلامى وبصدر مفتوح ، وفى اليوم الرابع من شبعان سنه أربع وتسعين وستمائه (١٢٩٤م) أعد حفلا كبيرا ، ثم اغتسل الخان وفق الشريعة الاسلامية ولبس ملابس نظيفة ، ثم تلقن الشهادة على يد الشيخ صدر الدين إبراهيم ، وقد ردد غازان عدة مرات كلمة التوحيد بلفظ التكبير . وقد ورد لدى نفس المؤرخ انه فى اليوم نفسه أسلم معه جميع الأمراء والجنود ، وكان عددهم يقرب من مائة الف ، وفى كتب أخرى ما يريد عن مائتى الف . وقد عم الفرح وأقيمت الحفلات والمآدب . وفى هذا الاحتفال وقف الأمراء والقواد والأئمة والمشايخ . واقتداء بسلطان الاسلام ، وباعتقاد

(٣٥) الهمذاني: المصدر السابق - ص٤١٥.

صادق خاليا من شوائب الكدر ومصفى من الرياء ، دخلت - فى دين الإسلام أفواجا - طوائف من الأطراف والنواحى والبوادى والضواحى من الكافر والكافره ابتداء من سن السابعة الى سن السبعين وذلك بدافع الرغبة ومحصن الاختيار، وشرفوا بتشريف هداية نور الايمان ، ليظل توالدهم وتناسلهم مؤمنين ومؤمنات حتى نفخ الصور. وصار اعتقاد الموحدين باعجاز أمه أحمد وإظهار دين محمد عليه الصلاة والسلام أكثر تمهيدا . كما صار صدق إخلاص المؤمنين أكثر تأكيد(٣٦) .

كما سجل المؤلف لقد جعل الله سبحانه وتعالى الوجود المبارك لسلطان الاسلام غازان خان - فى طوفان الطوارق والحدثان - كفيلا لمصالح العباد ونجاحهم وسببا لأمن الخلق وأمانهم حتى تصادف النفوس الطاهرة من أذى العذاب والخوف من مخالب التتار الكفار فلا جرم أن صارت أيام معتدلة وسمعة سوق مكرمته طنين آذان العالم . وذكر المؤلف فى النهاية ، وصفوة القول أنه بعد ذلك صارت طاعة السلطان غازان واجبه ولازمه على ملوك الاسلام وسلاطينهم بموجب قوله تعالى «... وأولى الأمر منكم» (٣٧). ويلاحظ هنا بعض العبارات التى وردت فى هذه النصوص ، وهى عبارة أن غازان أصبح سلطان الاسلام ، وقد ترددت هذه العبارة أكثر من مرة ، كما وردت عبارة أن طاعة غازان أصبحت واجبه ولازمة على ملوك الاسلام وسلاطينهم . وعلى ذلك اعتبر غازان نفسه أعلى منزله من أى حاكم إسلامى آخر حتى سلطان المماليك فى مصر الذى يعتبر اكبر وأعظم حكام المسلمين فى تلك المرحلة .

---

(٣٦) الهمذاني: المصدر السابق - ص٤١٥- ٤١٦.

(٣٧) الهمذاني: المصدر السابق - ص٤١٧ - ٤١٨.

ويتضح ذلك من النصوص التاريخية ، فقد ورد بها أن غازان عندما قاد حملته على بلاد الشام فى عام ٦٩٩هـ/١٢٩٩م «سار من أدنى دمشق إلى مرج راهط وبادر سكان دمشق بالخضوع والطاعة لغازان ، واستظلوا بظل دولة تلك الحضرة . وعندئذ سألهم سلطان الاسلام من أنا ، فأجابوا جميعا أنت السلطان غازان بن أرغون بن أبا قاخان بن هولاكو بن تولوى بن جنكيزخان . بعد ذلك سألهم ، من هو والد الناصر، أجابوا الألفى أى السلطان قلاوون . فسألهم من كان والد الألفى، فعجزوا جميعا عن الاجابة ». وعلى هذا الاساس كان غازان يعامل سلاطين المماليك واعتبر أن الحكم جاء اليهم اتفاقا وليس استحقاقا ، فكلهم كانوا عبيدا لأسرة جد سلطان الاسلام وهو جنكيزخان[٣٨] . ومن هذا المفهوم كان غازان يتعامل مع سلاطين المماليك فى مصر،. ويتضح ذلك تماما من خلال النصوص التاريخية ومن خلال الخطابات التى حملها فى بعض الاحيان رسل غازان إلى سلاطين المماليك . وختاما لهذه السطور يمكن القول أن سفراء أحمد تكودار كانوا يحملون خطابات يراد منها ترك العدوان وحقن الدماء ،. أما رسل الخان غازان فقد حملت لهجات أخرى نذكر منها وقد أغذر من أنذر وأنصف من حذر والسلام على من اتبع الهدى[٣٩] .

والمهم هنا أن غازان بعد اعتناقه الاسلام أصبح يحمل لقب السلطان بدلا من لقب الخان ، وانه بعد اسلامه أرسل فى جميع أرجاء مملكته ليعلن ذلك، وانه أبطل الديانة البوذية وأمر بتخريب معابدها وتحطيم كل

---

(٣٨) الهمذاني: المصدر السابق - ص١٦٣ - ١٦٤.

(٣٩) الداودار: المصدر السابق - ص٣٥٢ - ٣٥٣.

الاصنام ، وأنه أعلن محبته لأسرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وانه كثيرا ما كان يقدم النصح الى القضاة والمشايخ والزهاد وأهل العلم والتقوى. كما أنه أمر أيضا خاصة جنوده بعدم التفوه بكلمات الفكر ، هذا بالاضافة إلى ميله للتعمير وحث الناس على ذلك ، وانشاء أبواب البر والاوقاف ، والقضاء على التزوير والدعاوى الباطلة ومن ضيافة الخونة والمارقين . كما أمر بالمحافظة على الرعية ورعايتهم ودفع الظلم عنهم ، وكف الأذى ، والقضاء على اللصوص وقطاع الطرق وتخليص الناس منهم ، وتحريم التعامل بالربا ، وعدم المغالاة في دفع مهور الزواج واقامة المساجد والحمامات في جميع القرى التى تضمها البلاد ، ومنع الناس من احتساء الخمر، ومنع اجبار الجوارى على الاقامة في دور البغاء، وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالأمور الاقتصادية ، كتعديل الأوزان والمقاييس والمكاييل وما إلى ذلك بما يتمشى من الشريعة الاسلامية(٤٠). ومما لا شك فيه انه كان لذلك كله أثرا كبيرا على تحول المجتمع المغولى البوذى إلى المجتمع المغولى الاسلامى داخل الدول أو المدن الاسلامية التى سيطر عليها مغول إيران وتشمل بلاد ايران والعراق والجزيرة وبلاد الكرج وأرمينية وآسيا الصغرى .

والحقيقة أن غازان اشتهر بالتقوى والورع واحترام الاسلام ومجالسه، ويذكر أحد المؤرخين فى حوادث عام ٦٩٦هـ/(١٢٩٦م) أن غازان توجه الى بغداد فى أعداد كبيرة من القوات المغولية ، وانه شمل أهل المدينة بعدله وإحسانه، وانه توجه الى المدرسة المستنصرية ودخل اليها من باب

(٤٠) عن ذلك ولمزيد من التفاصيل راجع: الهمذاني: المصدر السابق - ص٣٩٨ وما بعدها.

دار مجاور لها ، ولما دخلها وجد المدرسين والفقهاء يجلسون والقرآن فى أيديهم، فلما شاهدوا غازان قاموا وخدموه، فطلب منهم الجلوس ولا ينشغلون بغير كتاب الله [٤١].

والمهم هناأنه منذ أن اعتنق غازان الاسلام صار حكام ايران من المغول كلهم مسلمين حتى نهاية دولتهم فى منتصف القرن الثامن الهجرى ، ومن أشهر هؤلاء الحكام المسلمين أولجانيو محمد خداه بنده أخو غازان وأبو سعيد ابنه. وهناك نقطة أوجز بها هذه الصفحات هى أن حكام إيران من المغول اعتنقوا الاسلام فان المذهب الذى اتخذوه كان بين المذهب السنى والمذهب الشيعى وان كان الميل أكثر إلى المذهب الشيعى .

وواقع الحال لقد كان لإسلام غازان أثراً داخل عمق الامبراطورية المغولية، فقد ورد فى النصوص التاريخية أن الأمير آننده بن مينكقلان بن الخان قوبيلاى إمبراطور المغول العظيم ، ان هذا الأمير قد اعتنق الاسلام وهو يحكم ولاية تنكقوث . وأحداث إسلام هذا الامير ترجع إلى أن مينكقلان لم يكن يعيش له ولد ، فلما أنجب آننده عهد إلى رجل مسلم تركستانى يدعى مهتر حسن الاقفاجى بتربيه ابنه ، وقد أرضعته زوجة هذا الرجل وكانت تدعى زليخا. ولهذا السبب رسخت العقيدة الاسلامية وتوطدت فى قلبه ، وتعلم القرآن، وصار يكتب الخط العربى بجوده فائقة ، وكان كثيرا ما يقضى وقته فى العبادة، وعندما أعلن آننده إسلامه دخلت قواته فى الاسلام ، ويقال أن عددها كان مائة وخمسين الف جندى مغولى .

---

(٤١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعه والتجارب النافعة في المائة السابعة - بغداد ١٣٥١هـ - ص٤٩٢- ٤٩٣.

ويبدو أن هذا العمل قد أغضب البعض فذهب أحدهم إلى الخان الأعظم وهو تيمور الذى يدعى ايضا أولجاتيو فى العاصمة قراقورم وأبلغه باعتناق آننده ورجاله للإسلام فغضت الخان الاعظم ، وأرسل اليه يأمره بالابتعاد عن الدين الاسلامى ويطلب منه السجود للأصنام وإحراق البخور فى معابدها . ولكن الأمير آننده رفض ذلك ، فأمر الخان الأعظم بحبسه ، ولكن الأمير ظل ثابت الايمان ، فاستدعاه الخان الاعظم وناقشه فى الأمر، وقد اقنع آننده الخان الاعظم بأن معظم أهل ولايته مسلمون ، وليس من المصلحة إجبارهم على ترك الاسلام ، فأمر باطلاق سراحه. وبعد ذلك أمر آننده بتحطيم الاصنام وخرب معابدها واتخذ من غازان قدوه له ، وعمل على تقوية الاسلام، وأقام المساجد فى معسكراته ودياره ، ويروى انه كان مشغولا دائما بقراءة القرآن وإقامة العبادات (٤٢). وكان لإسلام آننده فى البقعة البعيدة فى وسط ومقر الامبراطورية المغولية أكبر الأثر على انتشار الاسلام فى نواحى الصين وتركستان وغير ذلك من بلاد الشرق الأقصى .

لقد كان هناك أسباباً عديدة لاعتناق المغول للديانه الاسلامية أو بمعنى آخر لانتشار الاسلام بين المغول ، لقد كان للمحيط الدينى الاسلامى الذى وجد بداخله المغول عاملاً كبيرا ، ولكن يجب ألا نغالى فى أهمية هذا العامل ، لأن الأقلية المنتصرة من العرب مع ظهور الاسلام لم يعتنقوا ديانة الأغلبية المهزومة ، وانما يمكن القول أن ذلك يرجع إلى التفوق الروحي للإسلام .

---

(٤٢) الهمذاني: جامع التواريخ - تاريخ خلفاء جنكيز خان من أوكتاي قا آن إلي تيمور قا آن - بيروت - ١٩٨٣م - ص٣١٥ - ٣١٩.

لقد تحول إلى الإسلام مغول القبيلة الذهبية قبل خانات فارس ،وقد أوجد ذلك حاجزاً بينهم وبين السكان الروس الذين كانوا خاضعين فى البداية لإمارات إقطاعية لم يتول المغول إدارتها مباشرة ، وإذا كنا سوف نهتم بتأثير المواطنين الأصليين ، ففى الحقيقة يجب أن نهتم بقبائل التركمان إذا أردنا أن نشرح أو نفسر ظاهرة انتشار الإسلام بين المغول . ففى بلاد الشام وفى إيران كانت أعداد التركمان أكثر من المغول ، وكان هؤلاء التركمان يعتنقون الإسلام ، ولما كان هؤلاء التركمان والمغول لهم طريقة واحدة فى الحياة ، فإن ذلك جعل التركمان يمتصون المغول فى وقت مبكر ، ولذلك إعتنق المغول الإسلام فى وقت مبكر .

لقد أصبح المغول مسلمى العقيدة وأبقوا على حقوق الأقلية غير الاسلامية ، لقد كافحوا لكسبهم إلى صفوفهم من أجل الكسب الدبلوماسى للممالك المسيحية . لقد نظر المماليك نظرة الشك للمغول الذين تحولوا الي الاسلام ، وأن غازان الذي تحول إلى الإسلام قد قام بغزوات عديدة فى بلاد الشام واتخذ الوزير رشيد الدين الذى تحول إلى الاسلام وزيراً له . وبالإضافة الى ذلك فإن بعض المغول قد تحولوا إلى الديانه الاسلامية على المذهب السني والبعض الآخر على المذهب الشيعى، ولما كان هولاكو يعتقد فى النجوم فقد كان نصيراً وحامياً للعالم الشيعى، الخوارزمى الكبير نصير الدين الطوسى وأقام له مرصداً فى مدينة مراغة ، وبذلك استعاد الشيعة مكانتهم التى فقدوها منذ قرنين مضت . وكان فى ذلك مقدمه لعلو شأن الشيعة منذ القرن السادس عشر الميلادي فى بعض المناطق مماجعل ايران دوله اسلامية شيعية وانعزلت عن بقية العالم الاسلامى ، وخاصة عن جارتها ، الدولة العثمانية التى سارت على المذهب السنى .

وكان التأثير الدبلوماسى لسياسة التسامح الدينى التى إتبعها المغول كبيراً . وكانت لها أهمية كبيرة على العلاقات المغولية مع الغرب .
لقد كانت رؤية الغرب للمغول عندما ظهروا على الساحة الحربية والسياسية مختلفة تماماً ، فلم ينزعج الأوربيون من الخراب الذى أنزله المغول بالشعوب الاسلامية وغير الاسلامية . وكانوا يرون أن المغول هزموا المسلمين المجاورين لهم ، وفى ذلك فائدة للصليبيين ويعد إنتصاراً لهم . وأن الصليبيين الذين تلقوا هذه المعلومات من النساطرة المسيحيين فى أواسط آسيا ، أدركوا مغامرات المغول وسيطرتهم لعلها تكون مفيدة للمسيحيين .

وان هؤلاء الذين تحالفوا من الأرمن فى قيليقيا كانوا يميلون إلى مشاركة المغول فى موقفهم ، وهو الموقف الذى تبناه بيت هيثوم ، والأبعد من ذلك فإن أسطوره الكاهن يوحنا ساندت هذا الموقف ، ومن المعروف أن هذه الأسطورة قد ظهرت فى القرن الثانى عشر ، وهنا تذكر الغرب هذه الأسطورة كما تزكرها النساطرة والصليبيون فى الامارات الصليبية بالشام ، لقد كان هناك بعض النساطرة بين المغول ، وقد مارسوا شعائرهم وكانو مقربين من السلطات المغولية ، يضاف الى ذلك ما كان هناك من بعثات تبشيرية .

لقد تزامن تقدم المغول الى غرب آسيا مع انهيار الروح الصليبية وانشغال الغرب الأوربى بأموره عن الصليبيين ، وأن ماقام به بعض الرهبان من البعثات السياسية قد فشل هو الآخر ، وفى النهاية أرسل البابا إنوسنت الرابع الى المغول عبر روسيا الراهب الفرنشيسكانى يوحنا أف بيان دل كاربين ،والراهب الدومنيكانى وليم رويروك عبر الأناضول

ولقد كانت إجابة المغول محيرة ، فقد كان الخان نشوان بالنصر وطلب خضوع جميع ملوك وأباطرة أوربا بالإضافة إلى البابا ، ولكن الوضع اختلف بعد موقعة عين جالوت ١٢٦٠م ، وبعد عين جالوت بدأ المغول فى البحث عن حلفاء ، ولذلك قاموا من جانبهم بإرسال السفراء إلى البابا كلمنت الرابع فى عام ١٢٦٧م والى جيمس الأول ملك أراغون فى عام ١٢٦٩م ، والى مجلس ليون الكنسي فى عام ١٢٧٤ م يقترحون القيام بحملة مشتركة ضد العدو المشترك وهو المسلمين ، وهى الحملة التى كان يستحيل إمدادها بالقوة الكافية لصعوبة المسافة والمشاكل الداخلية للبلاد الأوربية . لقد تحمس البابا نيقولاس الرابع للفكرة ، وقد حمل فكرة المغول مار ياهبالاها Mar Yahballahah الثالث الذى زار جنوة ، وملك فرنسا ، وملك انجلترا ، وظل التشاور بين المغول وأوربا حتى عهد غازان ولكن هذا التشاور لم يتعد الخطابات والبعثات . وبعد عهد غازان فإن التشاور كان بين البابا يوحنا الثانى والعشرين وابى سعيدالذى كان قد عقد السلام مع المماليك ، ثم مالبث أن زالت دول المغول ، وبقيت الدول الاسلامية والاسلام .

الجداول والخرائط



الجداول والخرائط

أ - الجداول

خانات منغوليا

خانات ما وراء النهر وتركستان الشرقية

خانات فارس

خانات القبيلة الذهبية

١ - فرع باطو

٢ - فرع أوردا

ملوك انجلترا

ملوك فرنسا

أباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة

البابـاوات

ب - الخرائط

١- انتشار السلاف في روسيا

٢- الطرق التجارية والمدن الروسية في القرن التاسع الميلادي

٣ - روسيا الكيفية وغزوات المغول في القرن الثالث عشر الميلادي.

٤- تحركات المغول من ١٢٢٢ - ١٢٦٠

٥- انقسام الامبراطورية المغولية إلى أربع خاينات بعد ١٢٦٠م

٦- غزوات وامبراطورية تيمور لنك ١٤٠٤م

٧- روسيا في القرن الخامس عشر الميلادي

خانات المغول

(بيت أوكيتاي وطولوى)

منغوليا

	تاريخ تولى العرش
جنكيز خان	١٢٠٦
أوكيتاي	١٢٢٧
توراكينا (وصية)	١٢٤١
كيوك	١٢٤٦
أوغول قيميش (وصية)	١٢٤٩
مونكو	١٢٥١
قوبيلاي	١٢٦٠
اولجاتيو	١٢٩٤
كيولوك	١٣٠٧
بويانتو	١٣١١
كه كُن	١٣٢٠
يسون تيمور	١٣٢٣
راجي بقا	١٣٢٨
جياغاتو	١٣٢٨
كويتنالا	١٣٢٩
رينجن بال	١٣٣٢
طوغان تيمور	١٣٣٢ - ١٣٧٠

بيت جغتاي باقليم ما وراء النهر وتركستان الشرقية

جغتاي	١٢٢٧
قراهولاكو	١٢٤١
يسّو منكو	١٢٤٧
قراهولاكو للمرة الثانية	١٢٥٢
الكَو	١٢٦١
مبارك شاه	١٢٦٦
براق خان	١٢٦٦
نيكباي	١٢٨١
توقا تيمور	١٢٧٢
ذو واخان	١٢٩١
قونجوق خان	١٣٠٦
تاليقو	١٣٠٨
كِبك خان	١٣٠٩
اسن بغا	١٣٠٩
كبك خان للمرة الثانية	١٣١٨
ايلجي كداى	١٣٢٦
دووا تيمور	١٣٢٦
علاء الدين ترماشيرين	١٣٢٦
جنكشي (جنكاشاي)	١٣٣٤
بوزون	١٣٣٤

اسن تيمور	١٣٣٨
محمد	١٣٤٢
قازان تيمور	١٣٤٣
دانشمندجه	١٣٤٦
بويان قولى	١٣٤٨
شاه تيمور	١٣٥٩
تقلق تيمور	١٣٥٩ - ١٣٧٠

حاز تيمور تلك البلاد

خانات فارس
١٢٥٦ - ١٣٥٣

فارس

هولاكو	١٢٥٦
ابغا	١٢٦٥
احمد تكودار	١٢٨٢
ارغون	١٢٨٤
كيختو	١٢٩١
بايدو	١٢٩٥
غازان محمود	١٢٩٥
اولجايتو خدا بنده محمد	١٣٠٤
ابو سعيد بهادر	١٣١٧
اربا كماون (معز الدين)	١٣٣٥
موسى	١٣٣٦

انقسام فارس بين اسرات عديدة امثال الجلائريين والمظفرين والسربداريين (خراسان). ١٣٣٦ - ١٣٥٣

خانات القبيلة الذهبية

(جوجي)

١٢٢٦

جنوب روسيا وغرب سيبريا

١ - فرع باطو - خانات القبيلة الزرقاء في جنوب وغرب بلاد القبجاق :

باطو بن جوجي	١٢٢٧
سارتاق	١٢٥٥
اولاغجي	١٢٥٦
بركة بن جوجي	١٢٥٧
مونكو تيمور	١٢٦٧
تودا مونكو	١٢٨٠
تولا بوغا	١٢٨٧
تقتو، غياث الدين	١٢٩٠
اوزبك، غياث الدين محمد	١٣١٢
تيني بك	١٣٤١
جاني بك	١٣٤١
عصر فوضى واضطراب	١٣٥٧ - ١٣٨٠

٢ - فرع أوردا - خانات القبيلة البيضاء في سيبريا وشرقي بلاد القبجاق ثم اتحدت القبيلتان الزرقاء والبيضاء في القبيلة الذهبية في جنوب روسيا - بعد ١٣٧٨ :

أوردا بن جوجي	١٢٢٦
قوجي	١٢٨٠
بايان	١٣٠٢
ساسي يوقا	١٣٠٩
إبسان	١٣١٥
مبارك خواجه	١٣٢٠
جمتاي	١٣٣٤
اورروس	١٣٦١
توقتاكيه	١٣٧٥
تيمور ملك	١٣٧٥
غياث الدين تقتاميش	١٣٧٦
تيمور قتلغ	١٣٩٥
شادي بك	١٤٠١
بولاد	١٤٠٧
تيمور	١٤١٠
جلال الدين	١٤١٢
كبك	١٤١٤
جبار بردى	١٤١٧
اولغ محمد	١٤١٩
دووابري	١٤٢٠
أولغ محمد (مرة ثانية)	١٤٢٧
سيد أحمد	١٤٣٣
كوجك محمد	١٤٣٥
أحمد	١٤٦٥
شيخ أحمد	١٤٨١

ملوك انجلترا بعد الفتح النورماني

وليم الأول (الفاتح)	١٠٦٦ - ١٠٨٧
وليم الثاني	١٠٨٧ - ١١٠٠
هنرى الأول	١١٠٠ - ١١٣٥
ستفن	١١٣٥ - ١١٥٤
هنرى الثاني	١١٥٤ - ١١٨٩
ريتشارد الاول	١١٨٩ - ١١٩٩
يوحنا	١١٩٩ - ١٢١٦
هنرى الثالث	١٢١٦ - ١٢٧٢
إدوارد الاول	١٢٧٣ - ١٣٠٧
إدوارد الثاني	١٣٠٧ - ١٣٢٧
إدوارد الثالث	١٣٢٧ - ١٣٧٧
ريتشارد الثاني	١٣٧٧ - ١٣٩٩
هنرى الرابع	١٣٩٩ - ١٤١٣
هنرى الخامس	١٤١٣ - ١٤٢٢
هنري السادس	١٤٢٢ - ١٤٦١
إدوارد الرابع	١٤٦١ - ١٤٨٣
ريتشارد الثالث	١٤٧٣ - ١٤٨٥
هنرى السابع (تيودور)	١٤٨٥ - ١٥٠٩

ملوك فرنسا

فيلب ارغسطس	١١٨٠ - ١٢٢٣
لويس الثامن	١٢٢٣ - ١٢٢٦
لويس التاسع (القديس)	١٢٢٦ - ١٢٧٠
فيلب الثالث	١٢٧٠ - ١٢٨٥
فيلب الرابع	١٢٨٥ - ١٣١٤
لويس العاشر	١٣١٤ - ١٣١٦
حنا الاول	١٣١٦
فيليب الخامس (الطويل)	١٣١٦ - ١٣٢٢
شارل الرابع	١٣٢٢ - ١٣٢٨

فيلب السادس فالوا	١٣٢٨ - ١٣٥٠
حنا الثاني (الطيب)	١٣٥١ - ١٣٦٤
شارل الخامس	١٣٦٤ - ١٣٨٠
شارل السادس	١٣٨٠ - ١٤٢٢
شارل السابع	١٤٢٢ - ١٤٦١
لويس الحادي عشر	١٤٦١ - ١٤٨٣
شارل الثامن	١٤٨٣ - ١٤٩٨

أباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة وملوكها

هنرى الرابع	١٠٥٦ - ١١٠٥
هنرى الخامس	١١٠٥ - ١١٢٥
لوثر الثاني	١١٢٥ - ١١٣٨
كونراد الثالث	١١٣٨ - ١١٥٢
فريدريك باربا روسا	١١٥٢ - ١١٩٠
هنرى السادس	١١٩٠ - ١١٩٧
فيليب الثاني	١١٩٧ - ١٢٠٨
أوتو الرابع	١١٩٧ - ١٢١٨
فريدريك الثاني	١٢١٢ - ١٢٥٠
كونراد الرابع	١٢٥٠ - ١٢٥٤
وليم الهولندي	١٢٥٤ - ١٢٥٦
(فترة الشغور)	١٢٥٧ - ١٢٧٢
رودلف الأول	١٢٧٣ - ١٢٩١

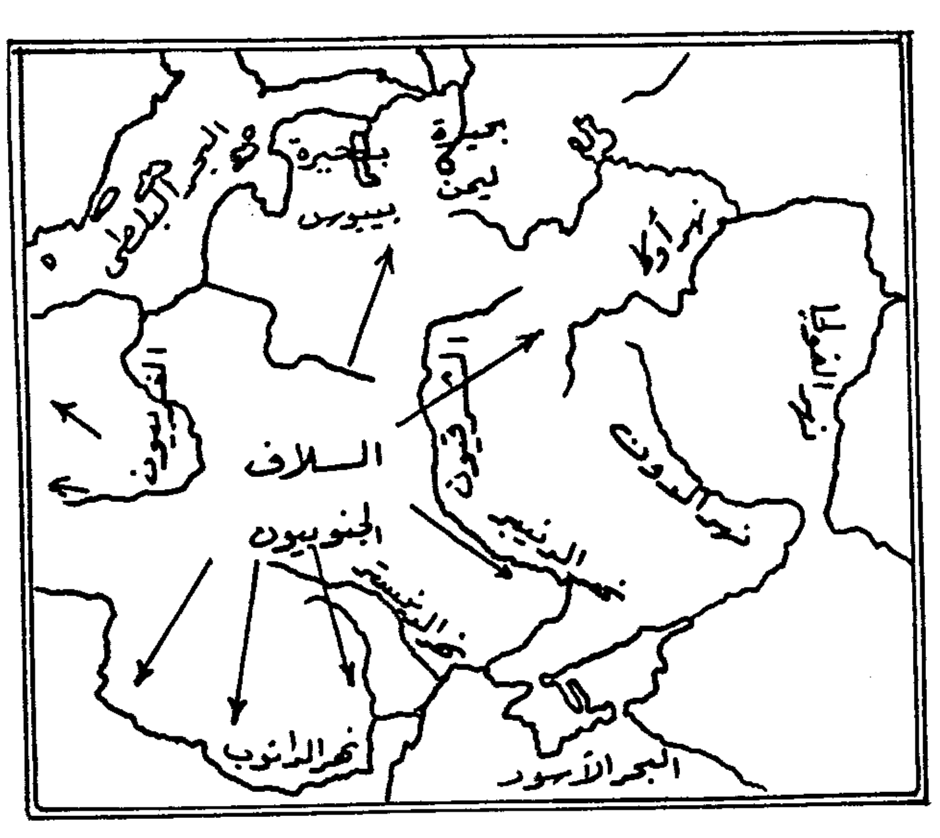
هابسبورج

أدولف ناسو	١٢٩١ - ١٢٩٨
ألبرت الأول	١٢٩٨ - ١٣٠٨

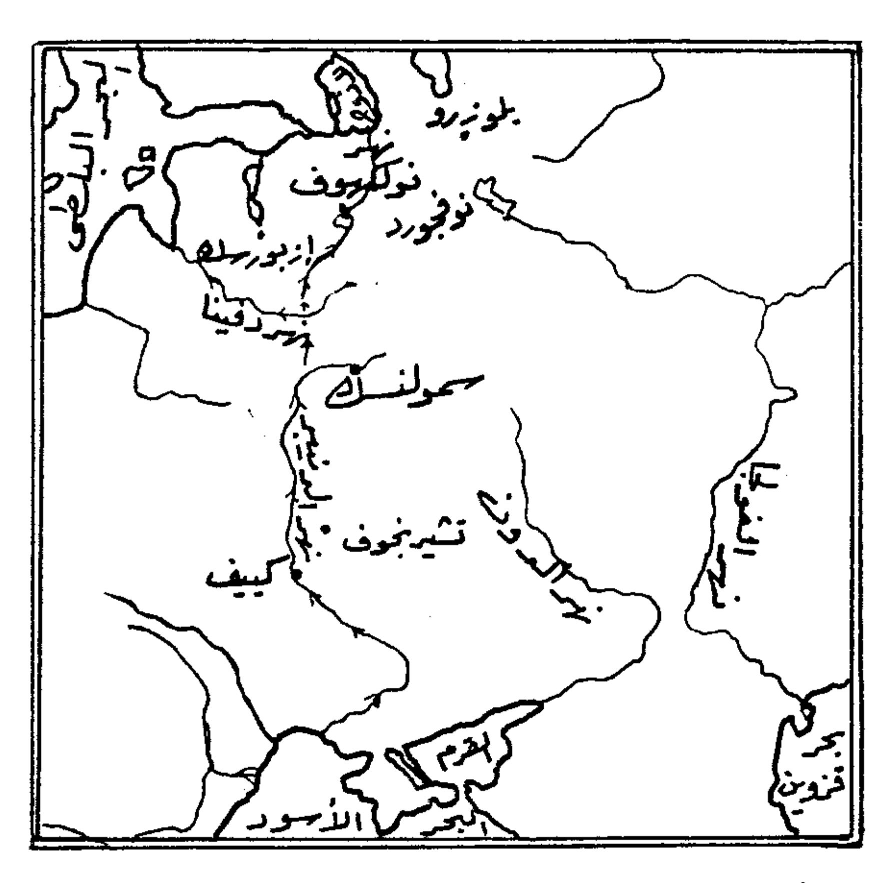
البابـاوات

انوسنت الثالث	١١٩٨ - ١٢١٦
هونوريوس الثالث	١٢١٦ - ١٢٢٧
جريجوري التاسع	١٢٢٧ - ١٢٤٠
كلستين الرابع	١٢٤١ - ١٢٤٤

انوسنت الرابع	١٢٤٤ - ١٢٥٤
اسكندر الرابع	١٢٥٤ - ١٢٦١
أوربان الرابع	١٢٦١ - ١٢٦٤
كلمنت الرابع	١٢٦٥ - ١٢٦٨
جريجوري العاشر	١٢٧١ - ١٢٧٦
انوسنت الخامس	١٢٧٦
هدريان الخامس	١٢٧٦
حنا الواحد والعشرون	١٢٧٦ - ١٢٧٧
نيقولا الثالث	١٢٧٧ - ١٢٨٠
مارتن الرابع	١٢٨١ - ١٢٨٥
هونوريوس الرابع	١٢٨٥ - ١٢٨٧
نقولا الرابع	١٢٨٨ - ١٢٩٢
كلستين الخامس	١٢٩٤
بونيفاس الثامن	١٢٩٤ - ١٣٠٣
بندكت الحادي عشر	١٣٠٣ - ١٣٠٤
كلمنت الخامس	١٣٠٥ - ١٣١٤
كلمنت الخامس	١٣٠٥ - ١٣١٤
حنا الثاني والعشرون	١٣١٦ - ١٣٣٤
(نيقولا الخامس)	١٣٢٨ - ١٢٣٠
بندكت الثاني عشر	١٣٣٤ - ١٣٤٢
كلمنت السادس	١٣٤٢ - ١٣٥٢
انوسنت السادس	١٣٥٢ - ١٣٦٢
أوربان الخامس	١٣٦٢ - ١٣٧٠



انتشار السلاف في روسيا



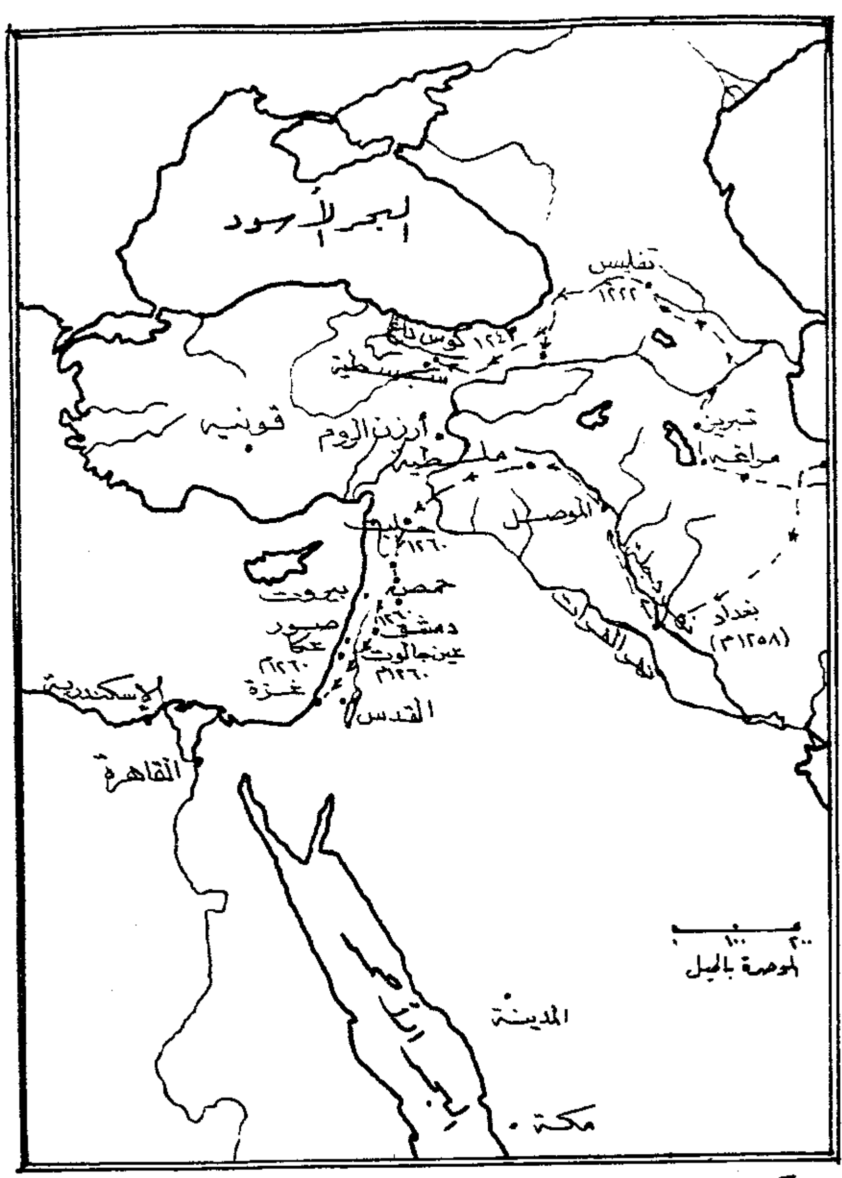
الطرق التجارية والمدن الروسية في القرن التاسع الميلادي





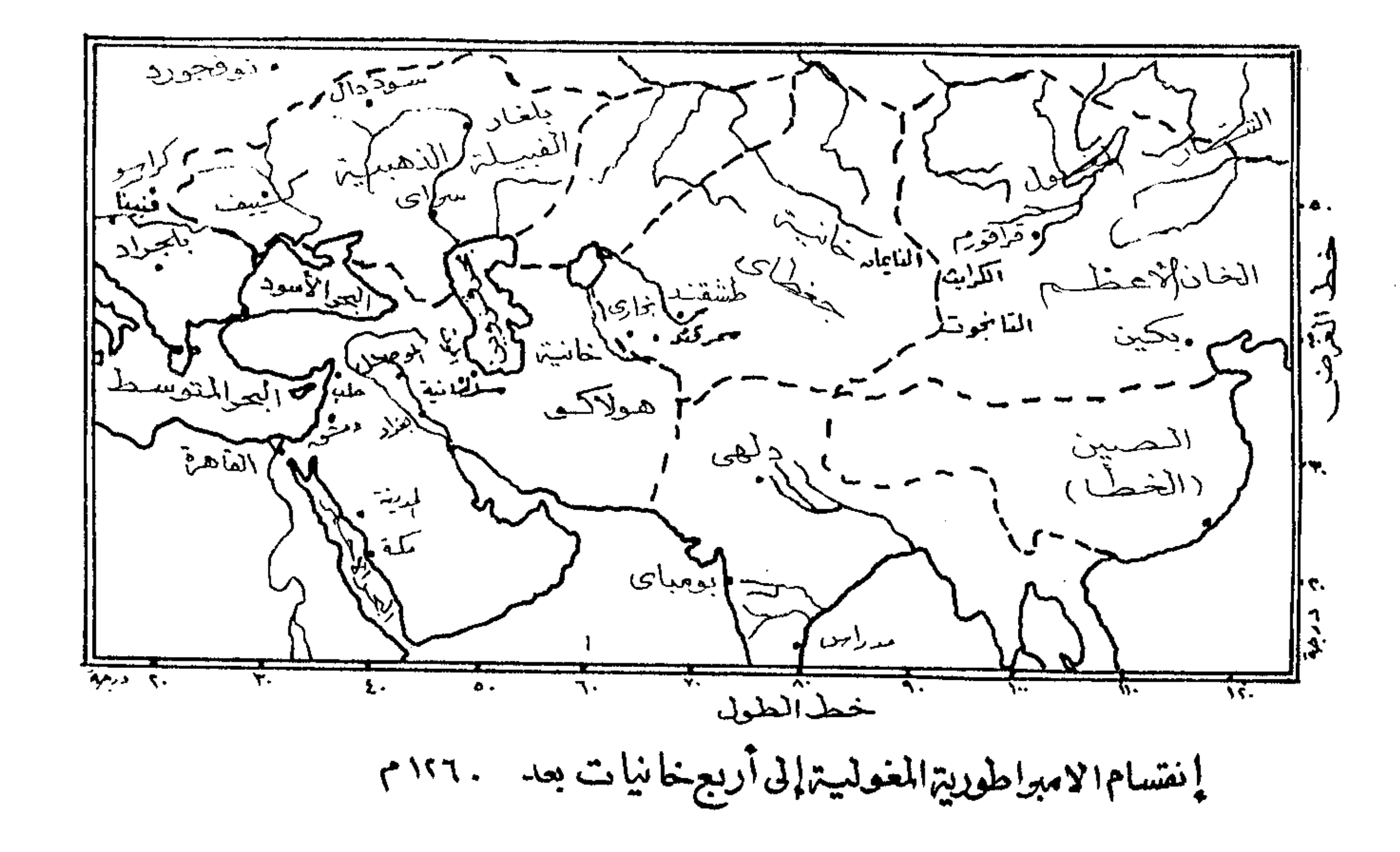
روسيا الكيفية وغزوات المغول
في القرن الثالث عشر الميلادى





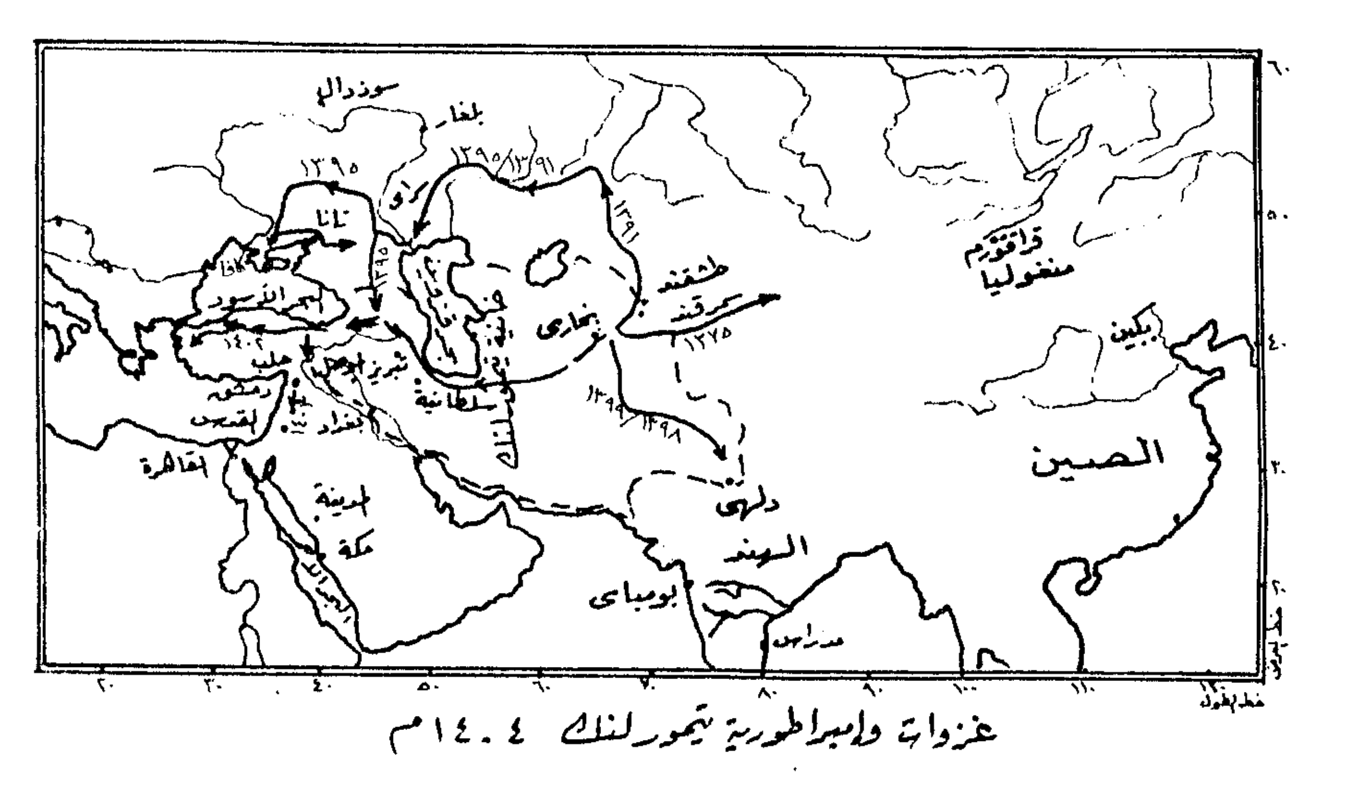
تحركات المغول في آسيا الصغرى والعراق وبلاد الجزيرة وبلاد الشام من ١٢٢٢ إلى ١٢٦٠م





إنقسام الامبراطورية المغولية إلى أربع خانيات بعد ١٢٦٠م





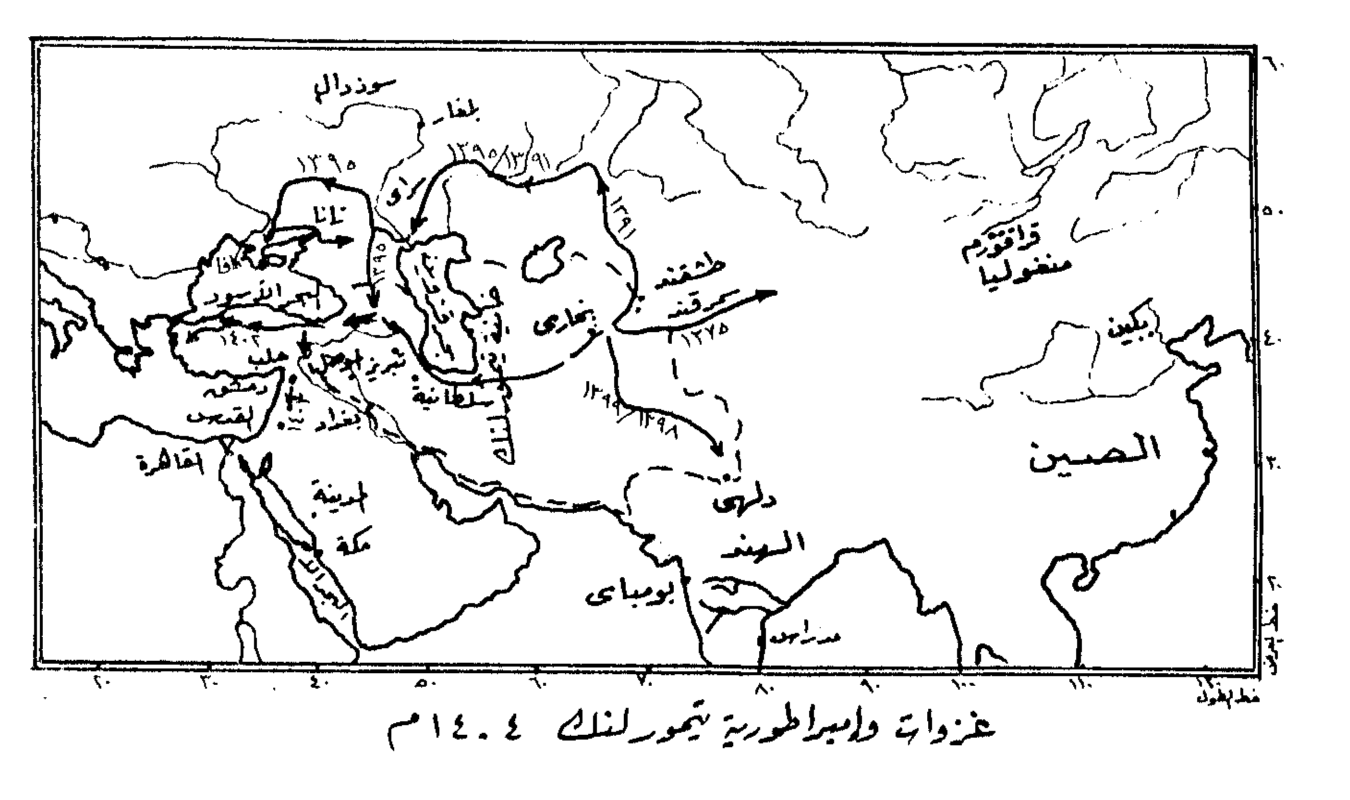
غزوات وامبراطورية تيمورلنك ١٤٠٤م





روسيا في القرن الخامس عشر الميلادى





غزوات وامبراطورية تيمورلنك ١٤٠٤م



أهم المصادر العربية والأجنبية والمترجمة

١ - أهم المصادر العربية :

إبن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٤م) أبو الحسن على بن أبى الكرم الملقب عز الدين :

«الكامل في التاريخ - ١٢ جـ - بيروت ١٩٧٩م

ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) أبو عبدالله محمد بن عبدالله:

«رحلة ابن بطوطة» - بيروت ١٩٨٠م .

ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) عبدالرحمن محمد :

«العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطات الأكبر» - ٧ جـ - بيروت ، ١٩٧٩م

ابن خلكان (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم:

«وفيات الأعيان وأنباء الزمان» - ٢ جـ - القاهرة (بولاق) ١٢٧٦هـ

إبن دقماق (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) صارم الدين ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي:

«الانتصار لواسطة عقد الأمصار» جـ ٤ و ٥ في مجلد واحد - القاهرة (بولاق) ١٣٠٩ - ١٣١٠هـ.

ابن شداد (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٨م) أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبه:

«سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» تحقيق الدكتور جمال الدين الشيالي - الطبعة الأولي - القاهرة ٩٦٤.

إبن عبدالظاهر (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م) القاضى محى الدين أبو الفضل:

الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - حققه عبدالعزيز الخويطر - الرياض - ١٩٧٦.

إبن عرب شاه : (ت ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م) شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبدالله الدمشقي الانصاري :
«عجائب المقدور في إخبار تيمور» - القاهرة - مطبعة وادي النيل ١٢٨٥هـ

ابن القلانسي : (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) أبو يعلي حمزة بن أسد بن علي بن محمد:
«تاريخ دمشق» تحقيق الدكتور سهيل زكار - دمشق ١٩٨٣م/١٤٠٣هـ.

إبن واصل (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م) جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سليم .
«مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» - ٤ جـ - جـ ١، ٢ ، ٣ تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - القاهرة - ١٩٦٠م جـ٤ تحقيق الدكتور حسين محمد ربيع - القاهرة (دار الكتب) ١٩٧٢م.

إبن الوردي (٧٤٩هـ/١٣٤٩م) أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر:
«تتمة المختصر في أخبار البشر، ويعرف بتاريخ إبن الوردي» جـ٢ - القاهرة (الطبعة الوهبية) ١٢٨٥هـ/١٩٦٨م» .

أبو الفدا (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء اسماعيل ابن على :
«المختصر في أخبار البشر، ويعرف بتاريخ أبي الفداء» - ٤ جـ - بيروت (د.ت) .

أبو الفرج الملطي (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) غريغور أبو الفرج بن أهرون :
١ - «تاريخ مختصر الدول» - بيروت (المطبعة الكاثوليكية للاباء اليسوعيين) ١٨٩٠م.
٢- «تاريخ الزمان» - بيروت (دار المشرق) ١٩٨٦م

أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) جمال الدين أبو المحسن يوسف بن تغرى بردي:
«النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» - ٩ جـ - القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٣٤٨ - ١٣٦١هـ/١٩٢٩ - ١٩٤٢م»

البدري الدمشقي (عاش في القرن التاسع هـ/ الخامس عشرم) عبدالله بن محمد البدري المصري الدمشقي المعروف بأبى البقاء:
«نزهة الأنام في محاسن الشام» - القاهرة (المطبعة السلفية) ١٣٤١ هـ.

الداودار (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٨م) ركن الدين بيبرس بن عبدالله المنصوري الناصري الداودار الخطائي :
١- «التحفة المملوكية في الدولة التركية - نشره وقدم له ووضع فهارسه دكتور عبدالحميد صالح حمدان - الدار المصرية اللبنانية - القاهرة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٢- «زبدة الفكر في تاريخ الهجرة» - تحقيق دونالد س . ريتشارد - بيروت ١٤١٩هـ/١٩٩٨م

الذهبي (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان قايماز شمس الدين :
«دول الإسلام» - ٣ جـ - الهند (مطبعة دائرة المعارف النظامية الكائنة بمدينة حيدر أباد الدكن) ١٣٣٧هـ .

الرمزي (بعد ٩٠٧هـ/١٥٠٣م) م . م. الرمزي
«تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار» - المجلد الأول - اورنبورغ (د.ت) .

المقريزي (ت ٨٤٥هـ /١٤٤٢م) تقي الدين أبو العباس احمد :
«السلوك لمعرفة دول الملوك» -جـ ١، ٢ الى سنة ٧٤١ هـ - نشره وعلق عليه الدكتور محمد مصطفي زيادة - القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٩٣٤ - ١٩٤٣م.

النسوي (ت بعد ٦٣٨هـ/١٢٤١م) محمد بن أحمد :
«سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي» نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي - القاهرة (مطبعة الاعتماد) ١٩٦٣.

الهمذاني (٧١٧هـ - ١٣١٧م) رشيد الدين فضل الله :

١- «جامع التواريخ» المجلد الثاني - الجزء الأول - تاريخ هولاكو - راجعه وقدم له الدكتور يحي الخشاب - القاهرة ١٩٦٠.

٢- «جامع التواريخ» تاريخ خلفاء جنكيزخان - نقله إلي العربية الدكتور فؤاد عبدالمعطي الصياد، راجعه وقدم له الدكتور يحي الخشاب - بيروت (دار النهضة العربية) ١٩٨٣م.

٣- «جامع التواريخ» تاريخ غازان خان - دراسته وترجمة الدكتور فؤاد عبدالمعطي الصياد - القاهرة ٢٠٠٠ .

٢-المصادر الاجنبية

Anna Comnena. The Alexiad. tran. E.R.A. Sewter.. Penguin. 1969.

Bruni. Leonardo. History of the Florentine People. tran. History of the Florentine People. tran. James Hankis. Vol.1 Book I-IV, London 2001.

The Chonicle of Novgord, tran, Robert Michedl and Nevill Forbes, London 1914.

Fabir. Felix. The Book of Wandering (1480-83) 2 Vols. tran. by Aubery Stewart, London, 1893.

Grigor of Akanc. History of The Nation of The Archers (The Mongols) tran. Robert P. Blacke and Richard N. Frye, Harvard University Press, 1954.

Historia de Expeditione Friderici Imeratoris. cf. Brundage. The Crusades. A Documentary Survery. The Maquette University Press. Wisconsin 1962.

٤- المراجع الأوربية

Abulafia, the Western Mediterranean kingdoms 1200- 1500, Longman 1997.

Atiya, The Crucade in the Later Middle Ages, London 1938.

Barthold, W., Turkestan down to the Mongol Invation, Lodnon, 1968.

C.M.H.= Combrdige Medieval History, Combridge, 1968.

Dawson, Ch. The Mongol Mission, New York, 1955.

Hallam, E., Capetian France, 987 - 1328,. London 1983.

Halperin, Russia and the Colden Hord, Bloomington, 1987.

Howorth, History of Mongols, 3 Vols, London, 1888.

Lamb, Harold, Genghis khan, London, 1926.

La Monte, The World of Middle Ages, New York 1949.

Lane-Poole, A History of Egypt in The Midde Ages, 4th,. ed, London, 1925.

Lane Poole, A., From Domesday Book to Magna Carta 1087 - 1218, Oxford, 1975.

Magi, G., Paris, Paris 1981.

Martin , Medieval Russia, Cambridge 1996.

Michaud, M., History of the Crusades . tran. W Robson, London, 1852.

Morgan. The Mongols Oxford 1985.

Newton, Travel and Travellers of the Middle Ages, London 1930.

Oman, The Byzantine Empire, London 1922.

Ostrogorsky, History of Byzantine State. Oxford. 1956.

Painter, A History of the Middle Ages. New York, 1954.

Rambaud, Histoire de la Russie, Paris, 1918.

Runciman, S., A History of Crusades, 3 Vols, Cambridge, 1951.

Runciman, The Sicilian Vespers, Cambridge 1958.

Schachner, The Mediaeval Universities, New York 1962.

Setton, K., A History of The Crusades, 5 Vols, Wisconsin Press, (U.S.A) 1969 - 1985.

Stephenson, Mediaeval History, New York, 1951.

Tenen, A History of England the from Earlist times to 1932. London 1935.

Tout, the Empire and the Papacy, London 1954.

Vernadsky, The Mongolsand Russia, New Haven 1953.

John of Plano Carpini, History of The Mongol. cf. Dawson, New York 1955.

Smbat, au Connetable, La Chroniaue, Introduction, Tradution et Notes par Cerad Dedeyan, Paris 1980.

Willam of Rubruck, The Journey, cf. Dawson, New York 1955

٣ - المراجع العربية والمعربة

ارنولد توماس :
الدعوة الى الاسلام :
بحث في تاريخ نشر العقيدة الاسلامية ، ترجمة الى العربية حسن ابراهيم حسن، وعبدالمجيد عابدين ، واسماعيل النحراوي ، القاهرة ، د.ت .

السيد الباز العريني :
المغول - بيروت ١٩٨١ م

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور) :
لويس التاسع في الشرق الاوسط ١٢٥٠ - ١٢٥٤م ، القاهرة، ١٩٦٥.

حافظ أحمد حمدي :
الدولة الخوارزمية والمغول - القاهرة ١٩٤٩

حسن ابراهيم حسن (الدكتور)
«انتشار الاسلام بين المغول والتتار» ، صحيفة الجامعة المصرية، ١٩٣٣.

سيزار باروسلاف ، جوزيف فوزار :
«نقاط التلاقي والصراع بين اوروبا العصور الوسطى والشرق (القرن ١٠ - ١٥م) «ترجمة وتعليق جوزيف نسيم يوسف : انظر جوزيف نسيم يوسف : دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، الاسكندرية، ١٩٨٣م.

عبدالسلام فهمي (الدكتور)
تاريخ الدولة المغولية في ايران ، القاهرة ، ١٩٨٠م

قايد حماد عاشور (الدكتور) :
العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ي الدولة المملوكية الأولى، القاهرة، (د . ت) .

فايز نجيب اسكندر (الدكتور) :
مملكة ارمينيا الصغرى بين الصليبين ودولة المماليك الأولى ١٢٥٠ - ١٣٧٥م. ٦٤٨ - ٧٧٦هـ، رسالة دكتوراه غير مطبوعة مقدمة لكلية الآداب جامعة الاسكندرية ، ١٩٨٠م.

فؤاد عبدالمعطي الصياد (الدكتور) :
السلطان محمود غازان حاكم المغول واعتناقه الاسلام، القاهرة ١٩٧٩م.

لويس شيخو اليسوعي :
«النصرانية بين قدماء الاترك والمغول» ، مجلة الشرق ، السنة السادسة عشرة ١٩١٣، ص ٧٥٤ - ٧٧٢ .

محمد صالح داوود القزار (الدكتور) :
الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغرلية ، بغداد، ١٩٧٠م.

مصطفى طه بدر (الدكتور) :
مغول ايران بين المسيحية والاسلام ، القاهرة ، ١٩٤٢ .

٤- المراجع الأوربية

Abulafia, the Western Mediterranean kingdoms 1200- 1500, Longman 1997.

Atiya, The Crucade in the Later Middle Ages, London 1938.

Barthold, W., Turkestan down to the Mongol Invation, Lodnon, 1968.

C.M.H.= Combrdige Medieval History, Combridge, 1968.

Dawson, Ch. The Mongol Mission, New York, 1955.

Hallam, E., Capetian France, 987 - 1328,. London 1983.

Halperin, Russia and the Colden Hord, Bloomington, 1987.

Howorth, History of Mongols, 3 Vols, London, 1888.

Lamb, Harold, Genghis khan, London, 1926.

La Monte, The World of Middle Ages, New York 1949.

Lane-Poole, A History of Egypt in The Midde Ages, 4th,. ed, London, 1925.

Lane Poole, A., From Domesday Book to Magna Carta 1087 - 1218, Oxford, 1975.

Magi, G., Paris, Paris 1981.

Martin , Medieval Russia, Cambridge 1996.

Michaud, M., History of the Crusades . tran. W Robson, London, 1852.

Morgan, The Mongols Oxford 1985.

Newton, Travel and Travellers of the Middle Ages, London 1930.

Oman, The Byzantine Empire, London 1922.

Ostrogorsky, History of Byzantine State, Oxford, 1956.

Painter, A History of the Middle Ages, New York, 1954.

Rambaud, Histoire de la Russie, Paris, 1918.

Runciman, S., A History of Crusades, 3 Vols, Cambridge, 1951.

Runciman, The Sicilian Vespers, Cambridge 1958.

Schachner, The Mediaeval Universities, New York 1962.

Setton, K., A History of The Crusades, 5 Vols, Wisconsin Press, (U.S.A) 1969 - 1985.

Stephenson, Mediaeval History, New York, 1951.

Tenen, A History of England the from Earlist times to 1932. London 1935.

Tout, the Empire and the Papacy, London 1954.

Vernadsky, The Mongolsand Russia, New Haven 1953.

فهرس المحتويات

الفصل السادس ٢٩٧

سفارات أوربا للمغول قبل عين جالوت للتنصير والتحالف للسيطرة على القدس

كتب وابحاث

الاستاذ الدكتور محمود سعيد عمران
استاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الكتب :

١- الحملة الصليبية الخامسة : طبعة أولى - الهيئة المصرية العامة للكتاب اسكندرية ، ١٩٧٨ .
٢- الحملة الصليبية الخامسة : طبعة ثانية ، دار المعارف ، اسكندرية، ١٩٨٥ .
٣- ادارة الإمبراطورية البيزنطية ترجمة وتعليق - دار النهضة ، بيروت، ١٩٨٠ .
٤- معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، دار النهضة - بيروت ، ١٩٨٠.
٥- معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٨٢ .
٦- مملكة الوندال في شمال افريقيا ، دار المعارف ، اسكندرية ، ١٩٨٥.
٧- السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ، دار المعارف ، اسكندرية، ١٩٨٥ .
٨- القادة الصليبيون الأسرى في أيدى المسلمين ، دار النهضة ، بيروت، ١٩٨٦ .
٩- تاريخ الحروب الصليبية ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٩٠ .
١٠- حضارة أوروبا في العصور الوسطى ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٩١.
١١- تاريخ مصر في العصر البيزنطى ، دار المعارفة الجامعية ، اسكندرية ، ١٩٩٦ .
١٢- أوروبا والمغول ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ١٩٩٧ .
١٣- الامبراطورية البيزنطية وحضارتها - دار النهضة ، بيروت ، ٢٠٠١.

ثانيا - البحوث :

١- نيقولا مستيقوس وعلاقة الإمبراطورية البيزنطية بالقوى الإسلامية ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٨٠ .

٢- المؤرخ جريجوري التوري، منشورات جامعة بيروت العربية ، بيروت ، ١٩٨٠.

٣- الإمبراطورية رومانوس الرابع ، بحث منشور في مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، ٨٢ / ١٩٨٣ .

٤- أركولف ورحلته إلى الشرق ، بحث منشور في ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط - جامعة عين شمس ، المجلد ١٣ دار المعارف، ١٩٨٥ .

٥- كتابات الرحالة أركولف كمصدر لبلاد الشام في عصر الراشدين ، بحث منشور في أعمال المؤتمر الدولي الرابع لبلاد الشام - الأردن عمان ، ١٩٨٧ .

٦- صلاح الدين من الاسكندرية إلى حطين ، بحث في المؤتمر الدولي لذكرى مرور ٨٠٠ عام على معركة حطين ، بغداد ، ١٩٨٧ .

٧- السفراء والقناصل في عصر بالحروب الصليبية ، بحث القى في الموسم الثقافي لجامعة بيروت العربية - بيروت ، ١٩٨٨/٨٧ .

٨- الهدن بين المسلمين والصليبين في عصر الدولة الأيوبية ، بحث القى في ندوة العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ٢٠-٢٢ اكتوبر ١٩٩٢ كلية الآداب، جامعة الاسكندرية ، ١٩٩٢.

٩- رحلة الشهيد أنطونيوس إلى بلاد الشام ومصر ٥٦٠ - ٥٧٠ م ، بحث القى في ندوة العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى الثانية ، ٣٠-١٠ الى ١-١١-١٩٩٣ ، كلية الآداب - جامعة المنيا ، ١٩٩٣ .

١٠- تحصينات مدينة القسطنطينية في مواجهة الغزوات الخارجية ، بحث القى في ندوة الحضارة الاسلامية وعالم البحار - اتحاد المؤرخين

العرب، القاهرة ٦-٨ نوفمبر ١٩٩٣ .

١١- مصر فى كتب الرحالة الاجانب فى العصر البيزنطى ، بحث القى فى مؤتمر الاسكندرية الدولى حول التبادل الحضارى بين شعوب حوض البحر المتوسط عبر التاريخ ٢٢ - ٢٦ يناير ١٩٩٤ .

١٢- دور الحركة الصليبية فى تكوين مملكة البرتغال ، ندوة الأندلس : الدرس والتاريخ - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ١٣-٢٥ أبريل ١٩٩٤.

١٣- حولية سقوط لشبونة ١١٤٧م ، ندوة الغرب الاسلامى والغرب المسيحى خلال القرون الوسطى كلية الآداب ، الرباط ٢ - ٤ ، نوفمبر ١٩٩٤ ، نشر ١٩٩٥ .

١٤- السلطان قلاوون بين أوروبا والمغول ، بحث القى فى ندوة مدينة طرابلس لبنان بمناسبة مرور ٧٠٠ عام على بناء الجامع المنصورى ١٧-٢٤ نوفمبر ١٩٩٤ .

١٥- روسيا وسقوط الامبراطورية البيزنطية ، ندوة تاريخ وحضارة العصور الوسطى - كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية - ٢٤ - ٢٥ ابريل ١٩٩٤ .

١٦- تحصينات مدينة دمياط فى عصر الحروب الصليبية ، ندوة التاريخ العسكرى لشمال مصر عبر العصور ، كلية لآداب ، ٨ - ٩ اكتوبر ١٩٩٥ .

١٧- وليم آدم واستعادة الأراضى المقدسة ، ندوة الإطار التاريخى للحركة الصليبية - اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة ٢٨ - ٢٩ نوفمبر ١٩٩٥.

١٨- القدس فى كتب الرحالة الاجانب فى العصر البيزنطى ، ندوة القدس: التاريخ والحضارة ، كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ٢-٥ نوفمبر ١٩٩٦ .

١٩- العلاقة بين مغول فارس ومغول القفجاق بعد معركة عين جالوت

١٢٦٠ - ١٢٧٠ م ، بحث القى فى ندوة اقليم الخليج على مر عصور التاريخ - اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة ٢٣ - ٢٥ نوفمبر ١٩٩٦ .

٢٠- شارل كونت أنجو بين القسطنطينية وتونس والقدس ، بحث القى فى ندوة بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى « التاسع الهجرى » ، القاهرة ٢٥ - ٢٦ نوفمبر ، ١٩٩٧.

٢١- حصار الصليبيين والقوات الفاطمية لصلاح الدين فى مدينة الاسكندرية ٥٦٩هـ ، بحث القى فى ندوة سواحل مصر الشمالية عبر العصور - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية بالاشتراك مع المجلس الاعلى للثقافة ٢٢ - ٢٣ ابريل ١٩٩٨ .

٢٢- الحركة الفكرية فى الاسكندرية فى القرون الاولى للمسيحية ، مشاركة فى الكتاب الذى اصدرته محافظة الاسكندرية (د.ت) .

٢٣- المراكز الحضارية فى مصر والشام فى القرون المسيحية الأولى . بحث القى فى المؤتمر الدولى الثالث (التبادل الثقافى بين شعوب البحر المتوسط) - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية بالاشتراك مع وزارة الثقافة ١٢ - ١٥ أغسطس ١٩٩٨ .

٢٤- العرب فى مدونة المؤرخ السريان زكريا الملطى ، بحث القى ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة تحت اسم « أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب » ٢٤-٢٦ نوفمبر ١٩٩٨ .

ثالثا - كتب باللغة الانجليزية منشورة بالخارج :

Contributors,

Chronicles of the Crusades, Eye - Witness Accounts of the Wars Between Cheistianity and Islam - Edited by Elizabeth Hallam, London 1989 .

رابعا - بحوث باللغة الأجنبية منشورة بالخارج :

1- King Amarlric and the Siege of Alexandria, in the First Conference of the Crusades and the Latine East, Cardiff 1 - 4 Cardiff 1985, U.K.

2- Truces between Moslems and Crusaders (1174 - 1217) in Autour de la Premiere Croisade Actes du Colloque de la society for the Study of the Crusades and the Latin East (Clermont - Ferand 22 - 25 Juin 1995 France)Reunis par Nichel Balard, Publication de la Sorbonne, Paris 1996.

3- John Kinnamos As a Historian of the Second Crusade. In the international symposium on Crusade. Istanbul 23 -2 June 1997.

4- Edward I king of England and the Holy land (Jerusalem) In the 35th Innternational Congress of Asian and North African studies, Budapest 2 - 21 July 1997 .

5- Grigor of Akanc as a Historian for the Moslem Nations. In The International Medieval Congress, University of Leeds 2001.

6. Hohenstaufen and Their Arab Subjects and Moslems Against Excommunication. In The International Medieval Congress, University of Leeds 2002.

- تم بحمد الله -